في
الأصول الفلسفية للتربية
عند مفكري الإسلام

تأليف
دكتور عبد الفتاح أحمد فؤاد
مدرس الفلسفة
بجامعتي الإسكندرية وصنعاء

الطبعة الأولى

١٩٨٣

الاهـــــداء

الى من أوقف حياته على التامل والبحث ، حبا فى الحكمة ، وتطلعا الى بلوغ الحقيقة .

الى العالم المجتهد ، المتوحد فى صومعته الفلسفية ، معتزلا الحياة .

الى من يسعى فى جوف الليل الى تبديد ظلمات الجهل ، وانارة طريق الفكر العربى الاسلامى المعاصر .

الى الاستاذ الدكتور محمد عاطف العراقى .

أهدى هذا الكتاب تقديرا ومحبة .

عبد الفتاح فؤاد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ترتبط التربية ارتباطا وثيقا بنظم المجتمع وتقاليده وأهدافه ، وتتأثر بالقيم السائدة فيه،فهى مرآة صقيلة تتجلى فيها ثقافة المجتمع ، وتنعكس عليها صورته الدقيقة بكل ملامحها الفكرية والتاريخية والدينية والاخلاقية والسياسية والاقتصادية والتكنولوجية ، كما أنها تجسيد للفكر الفلسفى السائد فى المجتمع ، فضلا عن أنها الأداة الفعالة لتغييره ، والوسيلة التى يعالج بها مشكلاته ، ويحقق بها آماله فى المستقبل ، وكما يقول الفيلسوف الانجليزى المعاصر برتراندرسل : « ان التربية هى مفتاح الدنيا الجديدة » (١) .

والتربية فن خلاق ، يستهدف بناء الانسان ، وهى ليست علما وضعيا كالعلوم الطبيعية أو الحيوية ، وان كانت تفيد من غير شك من نتائج العلوم الوضعية جميعا ، الا أن منهج البحث فى المجال التربوى يختلف عن منهج البحث فى العلوم الوضعية ، الذى يقتضى التزام الحيدة العلمية ، واستبعاد جميع الاحكام الشخصية ، ومؤثرات البيئة الاجتماعية ، ومن أجل ذلك لا تختلف نتائج العلوم الوضعية باختلاف أمزجة العلماء ، وتباين مشاربهم وأيديولوجياتهم ، فليست فى اليابان مثلا فزيــاء تختلف عن الفزياء التى فى انجلترا أو كندا . أما فى مجال التربية فالأمر مختلف تماما ، اذ نجد فى الاتحاد السوفيتى فلسفة تربوية تقوم على الماركسية ، ومن أشهر من يمثلها أنتون ماكرينكو ، وهى

---

(١) رسل : فى التربية ، ص ٦١ .

تختلف اختلافا جوهريا عن نظم التربية البرجماتية السائدة فى أمريكا ، كما نجدها لدى جون ديوى ٠

ومن أجل هذا لا ينبغى أن تتطفل الشعوب العربية الاسلامية على موائد التربية الاجنبية ، وتلتقط فتاتها ، أو ترتدى أزياءها، فتحاكى نظمها ، وتحذو حذوها ٠

ان التربية كالبنيان ، اذا لم تكن له دعائم قوية راسخة انهار لا محالة ، والنظام التربوى الراسخ كالشجرة الثابتة ، لابد أن تكون له جذور ضاربة فى أعماق التاريخ ، وعلى رجال التربية أن يميطوا اللثام عن هذه الدعائم أو الجذور ، اذا أرادوا أن يؤسسوا بنيانا شامخا غير قابل للانهيار ، تطبيقا لقول ليبنتز Leibniz : « ان الانسان لكى يحسن القفز الى الامام يجب أن يتراجع أولا الى الوراء » (١) ٠

وليس البحث فى التراث العربى الاسلامى أمرا هينا ، ذلك لان هذا التراث بحر عميق ، قد يغرق فيه من يتعمق بغير منهج يعصمه من الزلل ، فالبحث عن جذور التربية عند مفكرى الاسلام يمتد ليشمل مصنفات فلاسفة الاسلام على اختلاف مذاهبهم ، والمتكلمين على تباين فرقهم ، والصوفية على ما بينهم من خلاف ، وكذلك لا ينبغى اغفال الفكر التربوى الكامن فى مؤلفات الفقهاء والأدباء والمؤرخين الاسلاميين ٠ وقد طبع الالاف من هذه

---

(١) د. الفندى : مع الفيلسوف ، ص ٤٢

المؤلفات ، وما لم يطبع بعد قد يفوق فى عدده المؤلفات المطبوعة ، وهكذا يجد الباحث نفسه فى بحر من الكتب والرسائل ليس له من قرار .

اذن أول مشكلة منهجية يواجهها الباحث فى التراث التربوى للاسلاف هى مشكلة اختيار المصادر التى يعتمد عليها فى جمع المادة العلمية ، ان عليه أن يخوض فى هذا البحر الزاخر من المصنفات ، ولكن يجب عليه ألا يسئم بالاسهاب فى عرض ماشاهده فى الاعماق ، وانما عليه أن يغوص لكى يستخرج المبادىء التربوية العامة . واذا أردنا أن نترجم هذا المعنى الى مبدأ منهجى ، نقول : ان تحاشى الحشو فى العرض ، أو بعبارة أخرى انتقاء « المادة » ، انما يحدده ويمليه مقدما السؤال الذى يلقيه فيلسوف التربية على تراث الاسلاف من وجهة النظر المعاصرة ، بحيث يصبح العرض التاريخى لآرائهم ، اجابات عن أسئلة موجهة الى الماضى التاريخى ، بقصد جلاء الحاضر وتوضيحه فى ضوء مواقف الاسلاف من القضايا التربوية الهامة ،ويكون جواب الماضى حينئذ على ضوء الافكار التربوية الحاضرة والاهتمامات المعاصرة .

نحن اذن بصدد محاولة متواضعة لاستجواب الماضى فى ضوء الاهتمامات التربوية السائدة فى عصرنا الراهن ، وهى تبرر لنا تحاشى ما لا طائل تحته من تراث غزير المادة بحيث نحرص على ابراز الآراء التى تتجاوب والاسئلة المطروحة فى عصرنا ، ومن أهم هذه الاسئلة ما يلى :

● هل للتربية مكانة فى الاسلام؟وما مدى اهتمام الاسلاميين

بتربية النشء ؟ وهل أصاب بعض الباحثين (١) فى القول ان المدرسة الفلسفية الاسلامية كانت أقل تأثيرا من غيرها فى ميدان التربية والتعليم فى العالم الاسلامى ؟ .

● هل كان اهتمام مفكرى الاسلام يقتصر على بعض جوانب التربية أم كان يشمل جميع جوانبها ؟ وما هى أهم الاهداف التربوية التى كانوا يسعون الى تحقيقها ؟ والى أى حد تتفق آراؤهم مع ما يثبته علماء التربية المحدثون ؟ .

● هل نحن فى حاجة الى فلسفة تربوية تستند الى تراثنا ؟ أفلا تغنينا الفلسفات التربوية المعاصرة عن تجشم مشقة البحث فى الماضى ؟ ولئن تعذر قطع الصلة بين حاضرنا وماضينا ، فكيف يمكن الجمع فى نظمنا التربوية بين الاصالة المستمدة من التراث من ناحية ، وبين الفكر التربوى المعاصر من ناحية أخرى ؟ .

● ما هو المنهج الذى يمكننا من انتقاء العناصر الصالحة من الحضارة الغربية المعاصرة ، وطرح الخبيث منها الذى يتعارض مع قيمنا الاصيلة ؟ وكيف يمكن أن نحاكى أسلافنا فى الانفتاح على الحضارات المختلفة ، اليونانية والهندية والفارسية وغيرها ، بغرض الافادة من « علوم الاوائل » ، مع الاحتفاظ بالعقيدة الاسلامية والثقافة العربية الاصيلة ؟ .

---

(١) مثل ابراهيم عبد المجيد اللبان : الفلسفة والمجتمع الاسلامى ، القاهرة مكتبة النهضة ، ١٩٥٤ ، ص ١٧٦ ، حسن عبد العال : التربية الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ص ٣٠ ، ص ٩٩ .

● هل يحق لشعوبنا الاسلامية أن تحذو حذو الغرب فى الدعوة الى تربية النشء تربية عقلية خالصة لا تستند الى أى أسس دينية ؟ وهل وجد المفكرون الاسلاميون تعارضا بين العلم والدين على نحو ما اكتشف المفكرون الغربيون ؟ .

● هل كان مفهوم العلم عند مفكرى الاسلام يختلف عن المفهوم المعاصر ؟ وبعبارة أخرى هل كان العلم عندهم جميعا يقتصر مفهومه على العلم بالله (١) أو العلم الدينى أم كان يشمل مختلف فروع المعرفة الانسانية ؟ وهل كان العلم عندهم يطلب لذاته أم لوجه الله تعالى ومرضاته أم كان الى جانب ذلك وسيلة لخدمة المجتمع وتحقيق آماله ؟ .

● ولكن قبل الاجابة على هذه الاسئلة المطروحة ألا ينبغى أن نجيب عن سؤال ربما يتبادر الى ذهن القارىء ، وهو : ما الذى يبرر لكاتب هذه السطور أن يتعرض للكتابة فى مجال التربية مع أن الفلسفة الاسلامية هى ميدان تخصصه ؟ أهو مجرد اشتغاله بالتدريس فى كلية التربية جامعة الاسكندرية ؟ أم أن دعوة كريمة قد وجهت اليه من كلية التربية جامعة الخرطوم (٢) لالقاء مجموعة من المحاضرات عن « الجانب الاسلامى فى فلسفة التربية » ؟ ولئن كانت هذه الظروف لا يمكن اغفالها اذا كنا بصدد البحث عن الاسباب التى دعت الباحث الى الكتابة فى هذا المجال أفلا يمكن أن نجد أيضا مبررا علميا لذلك ؟ وبعبارة

(١) كما لاحظ د. زكى نجيب محمود : تجديد العقل العربى ، ص ١٨١ — ١٨٣ .

(٢) فى أوائل عام ١٩٨٠ .

أوضح : ألا توجد صلة بين الفلسفة ـ التى هى مجال تخصصه ـ وبين التربية ؟ ٠

ان الاجابة عن هذا السؤال الاخير ترد فى الفصل الاول من هذا الكتاب ، وهو فصل تمهيدى يتضمن ، كما أشرت بيان الصلة بين الفلسفة والتربية ، ويتضمن أيضا الاجابة عن سؤال آخر ، وهو : ألا يمكن التعويل على الفلسفات التربوية المعاصرة بحيث تغنينا بعضها عن البحث فى التراث ؟ وبعبارة أخرى : التربية الاسلامية لماذا ؟ ٠

أما الفصل الثانى فهو يتناول عرض الملامح العامة للتربية الاسلامية فى الكتاب والسنة ، وهما المصدران اللذان ينبع منهما تراثنا (١) الضخم المتراكم عبر الزمان ، وعنوان هذا الفصل الثانى هو : مكانة التربية فى الاسلام ٠

أما بقية فصول الكتاب فهى تتناول الآراء التربوية لمفكرى الاسلام ، وكان يمكن عرض هذه الآراء وفقا للترتيب التاريخى لحياة المفكرين الذين نعرض لآرائهم ، بحيث نراعى هذا الترتيب فى تسلسل الفصول ٠ ولكنا آثرنا اختيار طريق آخر نتبعه فى تسلسل فصول هذا الكتاب ، وهو مراعاة التسلسل المنطقى للموضوعات التى يعالجها المفكرون بغض النظر عن أزمانهم ٠

---

(١) ينبه الدكتور سيد عثمان الى الخطأ الذى يكمن فى استعمال كلمة « تراث » بحيث تشمل القرآن الكريم والسنة المطهرة (راجع مقدمة كتابه « التعلم عند برهان الاسلام الزرنوجى » ص ١٣ـ١٤) الا أن الكلمة استعملت قديما ، فقد عرف أبو الحسن العامرى (المتوفى سنة ٣٨١) الحديث بقوله « هو زبدة تراثه عليه الصلاة والسلام » (الاعلام بمناقب الاسلام ، ص ١٣٣) ٠

فبدأنا بعرض آراء ابن قيم الجوزية على الرغم من أنه عاش في القرن الثامن الهجرى ولو أننا اتبعنا المنهج التاريخى لكان ينبغى علينا أن نبدأ بفيلسوف الاسلام الكندى لانه من رجال القرن الثالث الهجرى ، ثم نعرج بعد ذلـك على مفكرى القرون التالية .

لقد خصصنا الفصل الثالث لابن القيم لانه يبين أن التربية فى الاسلام تبدأ منذ الولادة ، وهذا من ناحية يبرر لنا تقديم آراء ابن القيم على غيره ممن تتجاوز اهتماماتهم المراحل المبكرة من حياة الطفل ، ومن ناحية أخرى نلاحظ أن ابن القيم يستند فى عرض آرائه على الكتاب والسنة ، ومن ثم يأتى هذا الفصل الثالث تأكيدا لما ورد فى الفصل السابق عليه ، أعنى الفصـــل الثانى الذى يعالج موضوع مكانة التربية فى الكتاب والسنة .

وفى الفصل الرابع عرضنا لابن الجوزى ونصيحته للولد فى طلب العلم ، وابن الجوزى سابق على ابن قيم الجوزيه ، لانه من رجال القرن السادس ، الا أن التسلسل المنطقى للآراء يقتضى أن تكون نصيحته للولد ، وحثه على طلب العلم وتحصيله ، تالية لحديث ابن القيم عن أساليب التربية منذ الساعات الاولى للولادة .

أما الفصل الخامس فيتناول أخلاق العلماء ، وما ينبغى أن يكون عليه سلوك المعلم والمتعلم كما يبين ذلك أحد رجال القرن الرابع الهجرى وهو أبو بكر الآجرى .

ونجد فى الفصل السادس الفقيه برهان الاسلام الزرنوجى يحدثنا عن تعليم المتعلم طريق التعلم ، ويعالج فى دقة عمليـــة

التعلم وأسسها النفسية والتربوية ٠

ونقدم في الفصل السابع عالم اليمن الكبير محمد بن على الشوكاني ، ورأيه في أدب طلب العلم ، وموقفه من المناهج والمقررات الدراسية التي يدرسها الطلاب على اختلاف مستوياتهم العلمية ٠

وبانتهاء الفصل السابع نكون قد قدمنا خمس شخصيات كنماذج مختلفة للفكر الاسلامى الخالص ، أى الفكر الذى لم يتأثر كثيرا بالثقافات الاجنبية ٠ أما فى الفصول التالية فنجد أنماطا أخرى من الفكر الاسلامى المنفتح على مختلف الثقافات العالمية ٠

فنعرض فى الفصل الثامن للكندى كرائد لثورة تعليمية كبرى فى القرن الثالث ، تستهدف تشجيع تعليم العلوم ذات المصادر الاجنبية الى جانب العلوم الدينية واللغوية التقليدية ٠

أما الفصل التاسع فنخصصه لآراء أبى الحسن العامرى فى التعليم ، وأنه يجب أن يكون التعلم من أجل عمارة البلاد وسياسة العباد ٠

ونصل فى الفصل العاشر الى مؤسس فلسفة التربية الاخلاقية فى العالم الاسلامى ، أعنى مسكويه ٠

أما الفصل الاخير وهو الفصل الحادى عشر فنخصصه لآراء ابن سينا فى التربية والتوجيه التعليمى ٠

ثم نختتم الكتاب بخاتمة نعرض فيها لما يمكن استخلاصه

من جولتنا السابقة بين آراء الاسلاف ، كما نشـــير الى الآراء التربوية لبعض المفكرين الاسلاميين المعاصرين ٠

وأرجو أن يوفقنى الله تعالى فى اختيار هذه الباقة المتنوعة من حديقة الفكر الاسلامى الفسيحة المزدهرة ، كما أساله عز وجل أن يعيننى على حسن تنسيقها وعرضها ٠٠٠ ؟

عبد الفتاح أحمد فؤاد

صنعاء فى ٢٣ يونيو ١٩٨٢

الفصـــل الأول

فلسفـــة التربيـــة

ما الصلة بين الفلسفة والتربية ؟ :

الصلة بين الفلسفة والتربية وثيقة وقديمة ، فان أقـــدم النظريات التربوية قد وضعها فلاسفة اليونان القدماء ، بحيث أننا نجد فى أحد مصنفاتهم الآراء التربوية والفلسفية جنبا الى جنب فى وحدة واحدة ، مثال ذلك محاورة الجمهورية ، فهى من ناحية تتضمن أهم آراء أفلاطون فى التربية ، ففى الكتاب الثانى يتناول أفلاطون تأثير القصص الخيالية فى تربية الاطفـــال ، وكذلك تأثير الموسيقى والتربية الرياضية فيهم (١) ، وفى الكتاب السادس يعرض صاحب الجمهورية لاهمية التعليم الملائم، ويقدم برنامجا لما يجب أن يتلقاه النشء فى طفولتهم وصباهم من تعليم (٢) ومن ناحية أخرى تعد هذه المحاورة مرجعا لاغنى عنه لمن يروم معرفة المذهب الفلسفى الافلاطونى ، فمن ذا الذى يستطيع أن يتعرض على آراء أفلاطون فى النفس أو الالهيات أو الاخلاق أو السياسة دون الاطلاع على محاورة الجمهورية ؟ .

وجاء أرسطو فحدد بدقة مكانة التربية من الفلسفة ، اذ قسم الفلسفة قسمين كبيرين : القسم النظرى ، ويشمل العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفة الاولى ، والقسم العملى ويتضمن علوم الاخلاق وتدبير المنزل والسياسة . ويبحث العلم الاوسط

(1) Plato : The Republic, II - 377 . London, Macmillan, 1950,P.64.
(2) Ibid, VI - 498, P. 215.

فى المجموعة الاخيرة — أعنى تدبير المنزل — فى طبيعة العلاقات الاسرية ، وما ينبغى أن تكون عليه ، ولما كانت الاسرة تتكون من الأبوالأم والاولاد والخدم،فان علم تدبير المنزل عند أرسطو كان يتضمن فن تربية الاطفال •

وفى العصور الوسطى حذا فلاسفة الاسلام حذو المعلم الاول فى تحديد مكانة التربية من علوم الفلسفة ، وان لم يتأثروا كثيرا بآرائه فى تدبير المنزل ، لان آراء المعلم الاول فى هذا العلم قد وردت فى المقالة الاولى من كتابه فى السياسة الذى لم ينقل الى العربية ضمن ما نقله المترجمون السريان ، فلم يطلع الاسلاميون على هذا الكتاب •

ومنذ أوائل العصر الحديث بدأت بعض العلوم تنفصل عن الفلسفة ،التى كانت من قبل تشمل جميع العلوم والمعارف ، وأخذ مجال الفلسفة يضيق شيئا فشيئا ، ففى القرن السابع عشر بدأت تستقل الفزياء والرياضيات ، وفى القرن التاسع عشر استقلت العلوم الحيوية ، ثم علم الاجتماع • ولكن هل هذا التيار الانفصالى اجتاح الجسور القديمة التى تصل الفكر التربوى بالفلسفة ، وحطمها كما هو الشأن فى العلوم التجريبية الحديثة ؟ •

ان الناظر فى التربية الغربية المعاصرة يعلم أن دعائمها قد أقيمت على أيدى الفلاسفة من أمثال جان جاك رسو ، وهربرت سبنسر ، وبرتراندرسل ، وهم جميعا أثبتوا ارتباط التربية بالفلسفة ، ولعل أكبر فلاسفة التربية الامريكيين المعاصرين — أعنى جون ديوى — أكثرهم تأكيدا لهذا الترابط ، فالفلسفة عنده

هى النظرية العامة للتربية ، كما أن التربيـــة ليست الا المختبر الذى تتجسد فيه الافكار الفلسفية ، لان التربية عنده هى الوسيلة التى يمكن أن تحقق الاهداف الفلسفية • أفلا يثبت هذا أن الاشتباك مازال قائما بين المجال الفلسفى والمجال التربوى على الرغم من بعض المحاولات العقيمة لفض الاشتباك بينهما ؟ •

ان البحث فى أصول التربية انما هو دراسة فلسفية بالدرجة الاولى ، ذلك أن الفلسفة هى دعوة الى التعمق فى كل ما يتناوله المرء من شئون المعرفة ، دعوة الى عدم الاكتفاء بالظاهر للنفوذ الى ما تحته ، دعوة الى تقليب الامر على جوانبه العديدة ابتغاء شمول النظرة ، دعوة الى البحث عن المبادىء الدفينة ، وابراز الجذور العميقة الضاربة فى أعماق الثقافة السائدة ، وتتبع الاصول الكامنة وراء الظواهر،طمعا فى مزيد من الفهم والتعقل، وابتغاء ادراك الروابط والاسباب،وحرصا على استكناه العلاقات المستورة •

وأدت هذه الدعوة الى ظهور فلسفات لا تكاد تحصى للعلوم والفنون المختلفة ،مثل فلسفة التاريخ ، وفلسفة اللغة ، وفلسفة السياسة ، وفلسفة الحضارة ، وفلسفة الفزياء ، وفلسفـــــة الرياضيات ، وفلسفة التربية ، وهذه الفلسفات جميعا لا تقنع بالظاهر ، بل تتجاوزه وتسعى للنفوذ الى الباطن ، ففى مجال التاريخ بدلا من الاقتصار على الاحداث التاريخية ، وتسلســها الزمنى وأسبابها الظاهرة والمباشرة ، ترمى فلسفة التاريخ الى اكتشاف القوانين التى تسير عليها الاحداث ، والمبادىء العامة التى يخضع لها التغير السياسى والحضارى فى دوائر الحضارات

المختلفة أو فى الامم ، والى اماطة اللثام عن العوامل الفعالة فى مجرى التاريخ (١) ٠

وبالمثل فى مجال التربية ، اذا تناولنا دراســـتها بالروح الفلسفية ، فلا نكتفى بدراسة النظم التربوية السائدة فى مجتمع معين ، والاساليب التعليمية المتبعة ، والبرامج القائمة،ولا نقتصر على تقرير المعالم التربوية الظاهرة ، بل ان فلسفة التربية تقتضى تحليل المفاهيم التربوية ، وتحديد ما يجب أن تكون عليه سياسة التعليم ، والى أين تتجه ؟ وما هى الاهداف التربوية الصحيحة ، والمثل العليا التى يجب أن تستهدفها التربية،وتسعى الى تحقيقها؟ كما تستلزم فلسفة التربية أن نتعمق فى طبيعة الفرد والمجتمع ، وفى ماهية العلاقة بينهما ، وفى طبيعة المعرفة والتفكير والقيم ، وتقتضى الروح الفلسفية أن نقيم النظام التربوى على النظرة الشاملة المتكاملة ، أى أن نقيمه على تصورنا للانسان،وامكانياته وحقوقه ، ونحدد البرامج الكفيلة بتوفير أنسب الفرص لتحقيق الامكانيات الانسانية ، فى ضوء الاهداف العامة التى توجه النظام التعليمى أو النشاط التربوى كله ٠ ومن أجل هذا كانت التربية — فى نظر علمائها — (٢) دراسة تقوم على النظرة الفلسفية ٠

ألا يمكن التعويل على الفلسفات التربوية المعاصرة وحدها ؟ :

ينفر كثير من رجال التربية من محاولة الاستعانة بالتراث فى اقامة النظام التربوى ، ويطالبون بالاكتفاء بتطبيق أحدث ما توصل اليه العلماء المعاصرون من نتائج فى المجال التربوى ،

---

(١) د. بدوى : مدخل جديد فى الفلسفة ، ص ٤٨

(٢) راجع د. محمد الهادى عفيفى : الأصول الفلسفية للتربية ،ص ٥٠ — ٥١

دون اكتراث بالماضى ، ويناصر هذا الاتجاه بعض التربويين ممن حصلوا علومهم فى الجامعات الاجنبية ، ثم عادوا الى أمتهم العربية الاسلامية ، ولا يزالون يولون وجوههم شطر المشرق أو المغرب ، ولكنا نقول لهؤلاء وهؤلاء : ليس من الحكمة أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، لانكم ستجدون فى الجهتين : المعسكر الشرقى الشيوعى ، والمعسكر الغربى ـ نظما تربوية لا تناسب ظروف مجتمعاتكم ، لانها مؤسسة على أيديولوجيات تتعارض مع معتقداتنا ، ومن ثم لايمكن تطبيقها بحذافيرها .

ان أنصار كل معسكر منهما يرمى أنصار المعسكر الآخر بعقم فلسفته التربوية ، ويطالب بضرورة التخلص من آثارها من أجل تقدم المجتمع ، ويتبادل الفريقان الاتهامات ، ويزعم كل منهما أن خصمه ليس على شىء ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، يظنون أنهم وحدهم يتبعون الطريقة العلمية دون سواهم .

يعلن بعض (١) أنصار « الفلسفة الاشتراكية الثورية فى التربية » أن الفلسفات التربوية الغربية مثل الوضعية المنطقية والوجودية والبرجماتية انما هى « فلسفات رجعية فى التربية والتعليم » ، وأن الفلسفة البرجماتية ـ التى يمثلها فى مصر اسماعيل القبانى ومدرسته ـ هى أكثر الفلسفات تضليلا وديماجوجية ، وأنها لجأت الى أشد الشعارات التواء ، فقدمت الفلسفة الامريكية وأسمتها الفلسفة الديمقراطية فى التربية ، وقدمت فلسفة مناهضة للعلم وأسمتها فلسفة العلم ، وزينت فكر

(١) مثل اديب ديمترى . راجع مقالته «فلسفات رجعية فى التربية والتعليم»، نشرت بمجلة الكاتب ، العدد ٦٤ ، يوليو ١٩٦٦ ، ص ٥٤ ـ ٦٩

البرجوازية والطبقات الاستغلالية فى التربية وأطلقت عليـه التربية الحديثة ، ويسميها دعاتها اليوم بلغة العصر التربيـة التقدمية ، وهى ليست سوى فلسفة الطبقات الامبرياليـة والاستغلالية التى يهمها اخفاء حقيقة العلاقات الاستعماريـة ، ويبقى الافراد أسارى بالظروف البيئية المحيطة بهم ، ونهبـا للمشاكل الجزئية التى يتعين عليهم التكيف لها والخضوع ، انها منطق الامبريالية الامريكية ، وهى فلسفة تربوية لا يمكن أن تخرج سوى مواطن مهوش المعلومات ، مضطرب الوعى ، يجرى وراء رغباته ونزواته ٠

أما خصوم الماركسية من دعاة البرجماتيـة (١) ، فانهم لا يميزون بين النظم السياسية والاجتماعية القائمة فى الدول الفاشية أو الدول الاشتراكية ، ويرون أن الامور كانت تسير فى ايطاليا الفاشية وألمانيا النازية كما تسير فى روسيا الشيوعية الآن ، ويمجد التربويون ذوى النزعة الغربية النظم الديمقراطية الغربية ويمتدحونها ، ويشيرون الى فرنسا وانجلترا وأمريكـا كأمثلة للنظم الديمقراطية ٠

والآن نتساءل : الى أين ينبغى المسير ؟ ومن أين نسـتقى نظامنا التربوى ؟ أفليس من الاجدر بنا أن نتخذ فلسفة تربوية خاصة ، لا شرقية ولا غربية ، كما أن لكل من المجتمعات الاخرى فلسفة خاصة فى التربيـة ؟ ولست أقصـد بذلك أن نتجاهل النظريات التربوية المعاصرة ، أو أن نرفضها برمتها ، فهذا موقف

---

(١) مثل د. وهيب سمعان ، فى كتابه دراسات فى التربية المقارنه . نقلا عن المقالة السابقة ،ص ٦٠

المتعصبين الغلاة ، أعداء التجديد ، ذوى الافق الضيق ، اذ لاشك أن للنظريات الحديثة فى التربية جوانب ايجابية ينبغى الانتفاع بها ، ولكن لها فى نفس الوقت جوانب سلبية يجب الحذر منها ، فكما أنه لا ينبغى أن نرفض هذه النظريات جميعا ، لا يجب أيضا قبولها بكل مبادئها وأصولها ، وانما يتعين علينا فحصها بمنهج انتقائى دقيق ، نحلل به عناصرها ومضامينها ، ونميز به بين ما هو طيب فيقبل ، وبين ما هو خبيث فيستبعد .

والنظريات التربوية المعاصرة تقوم على فلسفات شتى ، ولعل أهم هذه الفلسفات هى : الوضعية ، والوجودية ، والبرجماتية ، والماركسية ، وفيما يلى نلقى بصيصا من الضوء على كل من هذه الفلسفات الاربع المعاصرة :

(١) الفلسفة الوضعية :

ظهر فى القرن التاسع عشر الميلادى ، وبخاصة فى فرنسا وانجلترا ، فلاسفة كثيرون يؤكدون ضرورة التخلى عن التراث ، وقد حاولوا ايجاد أساس لايديولوجية جديدة ذات طابع علمى ، تحل تماما محل ما تبقى من نظرة العالم المسيحى فى العصور الوسطى ، وبين هؤلاء الفلاسفة يحتل أوجست كونت (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) مكان الصدارة .

وكونت (١) فيلسوف فرنسى ، وهو مؤسس الفلسفة

---

(١) ولد كونت فى أسرة شديدة التعليق بالكثلكة ، ولكنه فقد الايمان منذ الرابعة عشرة ، انتابته أزمة عقلية ترجع الى مزاجه العصبى ، فعنيت به زوجته حتى أعادت اليه اتزانه ، وفى أواخر حياته أصيب بأزمة عصبية ثانية ، قيل انها أشبه بمرض البارانويا ، وهو احد الأمراض العقلية .

الوضعية ، وقد عكف عشر سنين (١٨٣٢ ـ ١٨٤٢) على اخراج كتابه الاكبر « دروس فى الفلسفة الوضعية »Cours de Philosophie Positive وتستهدف فلسفة كونت الوضعية الدعوة الى عقلية تأبى التفكير على نحو غير علمي ، وترفض قضايا اللاهوت التقليدى والمتافيزيقا التقليدية بحجة آنها غير علمية ·

ويعد قانونه المشهور للمراحل الثلاث وصفا تاريخيا لتطور الذهن البشرى ، وقانونا للتقدم العقلى ، اذ يبين الاتجـــاه الذى ينبغى أن تسير فيه البشرية اذا ما استنارت تدريجيا · ان كونت ـ مثله كمثل هيجل ـ ينظر الى الاتجاهات الفلسفية والدينيـــة السابقة عليه ، على أنها «لحظات» لا مفر منها فى التطور التاريخى للفكر البشرى نحو بلوغ غايته النهائيةفىالفلسفة الوضعية(١)· يقول كونت : ان دراسة تطور العقل البشرىفىجميع الاتجاهات، وفى كل العصور ، تؤدى الى كشف قانون أساسى هام ، يخضع له هذا التطور بالضرورة · هذا القانون هو أن كلا من مفاهيمنا الرئيسية ، وكل فرع لمعرفتنا يمر على التوالى بثلاثـــــة ظروف نظرية مختلفة : اللاهوتية أو الخرافية ، والميتافيزيقيـــــة أو التجريدية ، والعلمية أو الوضعية · وبعبــــارة أخرى فالعقل البشرى بحكم طبيعته يستخدم فى تقدمه ثلاثـــة مناهج يختلف طابعها اختلافا كبيرا ، بل تتعارض تعارضا أساسيا ، هى : المنهج اللاهوتى ، والميتافيزيقى ، والوضعى · أولها هو نقطة البداية الضرورية للذهن البشرى ، وثالثها هو الحالة الثابتة المستقرة ، أما الثانى فحالة انتقالية فحسب (٢) ·

---

(١) ايكن : عصر الأيديولوجية ، ص ١٤٢ ــ ١٤٥
(٢) نفس المصدر ، ص ١٥٣

يرى كونت أن المرحلة الاولى الدينية هى بمثابة طفولة النوع الانسانى ، وهى تتميز بعقلية تنظر الى الاشياء من خلال مقولات الغرض أو الغائية والارادة الالهية ، ويتصور المرء فى هـذه المرحلة أن وجود أى شىء يفسر من خلال الغرض أو الروح الكامنة التى تعزى اليه ، ويتصور العالم — من وجهة النظر هذه — تصورا أسطوريا على أنه نظام روحى ينظر فيه الى الاغراض الحيوية للاشياء على أنها فى الوقت ذاته عوامل فعالة تسبب سلوك هذه الاشياء على النحو الذى تسلكه .

وللمرحلة اللاهوتية عند كونت أقسام فرعية هامة ، فالمرحلة الاولى فيها هى المرحلة الصنمية fetishistic التى ينظر فيها الى الاشياء الطبيعية كما لو كانت حية لها مشاعر وأغراض خاصة بها . وفى المرحلة الثانية أى مرحلة تعدد الالهة ، يحدث تبسيط تدريجى لهذا المذهب الحيوى الذى يقول أساسا بالكثرة ، فهنا تتصور الآلهة على أنها قوى غير منظورة أو تكاد تكون غير منظورة ، تتحكم فى جميع أنواع الظواهر . وأخيرا تأتى مرحلة ثالثة أو توحيدية (١) ، يحدث فيها مزيد من الجمع بين القوى فى صورة اله موحد ، ينظر اليه على أنه خالق الكون بأسره ، ومتحكم فيه : اما بطريق مباشر ، واما بوسائط أدنى مرتبة منه ، وتأتمر بأمره .

والمرحلة الكبرى الثانية للتقدم العقلى هى تلك التى يطلق عليها كونت اسم المرحلة الميتافيزيقية ، وهنا يبدأ الاتجاه الى اضفاء

---

(١) اتجاه تطور المراحل الدينية عند كونت مخالف تماما للعقيدة الاسلامية ، التى تؤكد أن التوحيد الخالص هو الأصل ، هو دين الفطرة الذى عرفته البشرية منذ آدم ، وبمرور الزمن طمس الشرك دين الفطرة ، وفسدت عقيدة التوحيد فى النفوس وحل محلها الاعتقاد فى تعدد الآلهة وعبادة الأصنام ، ومن أجل ذلك بعث الله الأنبياء وأرسل الرسل للعودة الى التوحيد .

صفة الحياة على الاشياء فى الاختفاء لاول مرة ، فالميتافيزيقى يتميز بعقلية تبحث عن كنه الاشياء وأصلها ، وهو لا ينظر الى الطبيعة على أنها خلق الهى لعناية الهية ، بل على أنها مبدأ أول ، أو علة أولى ينبغى افتراضها لتفسير النظام فى الكون ، ولاشك فى أن بعض آثار الاتجاه الى اضفاء صفة الحياة على الاشياء تظل باقية ، غير أن فكرة الغرض أو الارادة ترق أو تلطف أو تغدو أثيرية etherialized • فهنا لا يعود الامر متعلقا بروح تبعث الحياة فى كائن بعينه ، وانما بقوة لا شخصية لا يمكن تحديد موقع فاعليتها فى أى مكان من العـــالم الطبيعى ، وتظهر فكرة « الماهيات » و « الميول » و « الامكانيات » و « الطبائع » بوصفها كيانات لها قوامها الخاص ، وتعزى اليها علية فاعليـــة لم تكن تنسب من قبل الا الى الأرواح • ويتصور الميتافيزيقيون وجود « لوجوس » أو قانون أو عقل يتحكم فى نظام الطبيعى بدلا من الآلهة غير المنظورة التى قال بها اللاهوتيون • وأقوى مميزات الميتافيزيقى هى أنه يجعل « العقل » مساويا للعلة ، ويتصـــور بذلك أن فى امكانه عن طريق الاستدلال وحده أن يفسر علل الاشياء ، فهو يقدم « براهين » استمدت بالاستنباط من حقائق معقولة واضحة بذاتها ، على وجود موجود ضرورى يسميه «الله»، ويعزو « الضرورة » التى يزعم أنها مميزة لاستدلاله الى الاشياء التى يتصور أنه قد استدل عليها •

أما المرحلة الثالثة أو الوضعية ، فتأتى أخيرا عندما تترك المشاكل الميتافيزيقية جانبا بسبب عقمها ، ويظل العلم الوضعى هو وحده الذى يعترف به مصدرا للمعرفة البشرية • وفى هذه

المرحلة لا يتصور التفسـير الا من خلال فروض أو قوانين تجريبية (١) • وفى هذه المرحلة الاخيرة الوضعية يكف الذهن البشرى عن البحث العقيم عن أفكار مطلقة ، وعن أصل الكون وغايته ، وعن علل الظواهر ، وينصرف الى دراسة قوانينها (٢) •

والمغزى الحقيقى لقانون المراحل الثلاث هو أن مرحلة سابقة تعتبر بائدة ومنتهية بحلول التى تليهـا ، وعلى ذلك فان الدين والميتافيزيقا قد حل محلها اليوم العلم • وطبعا هـذا لم يحدث حتى فى أرقى المجتمعات اذ يتجاوز ويتعايش الجميع معا ، كما أنه من الوجهة التاريخية لم يحدث مثل هذا التطور الثلاثى الحدود دائما (٣) •

وكان للفلسفة الوضعية تأثير كبير فى التعليم ، فقد طالب مؤسسها أوجست كونت « باحيـاء التعليم » فى عصره ، أى فى القرن التاسع عشر ، بحيث يكون التعليم العام نتيجة مباشرة للفلسفة الوضعية ، وفى هذا الصدد يقول كونت : « فأفضـل العقول تتفق على أن تعليمنا الاوروبى الذى لا يزال لاهوتيـا وميتافيزيقيا وأدبيا فى أساسه ، ينبغى أن يسـتبدل به تعليم وضعى ، ملائم لعصرنا وحاجاتنا ، بل ان حكومات هذه الايام قد بدأت هى ذاتها فى بذل محاولات لايجاد تعليم وضعى ، أو أسهمت بنصيب فى مثل هذه المحاولات ، وهذا دليل واضح على الشعور

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٤٥ — ١٤٨

(٢) نفس المصدر ، ص ١٥٤

(٣) د. الغندى : مع الفليسوف ، ص ٢٥٧

العام بما نحن فى حاجة اليه ، ومع ذلك فمع تشجيعنا هذه الجهود الى أقصى حد ، ينبغى ألا نخفى عن أنفسنا أن كل ما بذل حتى الآن لا يفى بالغرض ... » (١) .

ويعد عالم الاجتماع الفرنسى اميل دروكايم أشهر تلاميذ أوجست كونت ، وأكثرهم دفاعا عن وجهة نظره . ذهب دروكايم الى أن الفرنسيين ابتداء من العشرين سـنة الاخيرة من القرن التاسع عشر ، قد استقر عزمهم على أن تكون التربية الخلقية التى يلقنوها لابنائهم فى المدارس ذات صبغة دنيوية محضة ، أى تربية لا تستند الى المبادىء التى تقوم عليها الديانات المنزلة ، وانما تربية عقلية خالصة . وقد خصص دوركايم الفصـل الاول من كتابه « التربية الاخلاقية » للحديث عن « الاخلاق غير القائمة على الدين » La moral laique زعم فيه أن الأخلاق الدينية هى من أهم سمات الشعوب المتخلفة والبدائية ، ان دور الدين فى الاخلاق يتضاءل شيئا فشيئا فى عصرنا الحديث ، وأن الرباط الوثيق الذى كان يربط قديما الاخلاق بالدين ، أخذ بمضى الزمن ينحل شيئا فشيئا ، وأنه اذا كان يطالب بفصل الدين عن التربية الاخلاقية ، فانه لا يفعل سوى أن يدعو الى أن نسير مع مجرى التاريخ (٢) .

وقد سادت هذه الدعوة الى تجريد التربية الاخلاقية من المفاهيم الدينية فى انجلترا أيضا لدى الاحرار من مفكرى القرن التاسع عشر ، من بنثـام الى هنرى سـيد جويك ، فيما يقول

---

(١) عصر الايديولوجية ، ص ١٦٥ — ١٦٦

(٢) دور كايم : التربية الأخلاقية ، ص ٨ — ٩

برتراندرسل (١) الذى يعد من أكبر أنصار هذا الاتجاه ، ففى كتابه التربية والنظام الاجتماعى Education and the Social Order يصرح بأن تأمل تاريخ الانسانية يبين أن ازدياد الحضارة كان متوازيا مع نقص الدين ، ويسخر الفيلسوف الانجليزى المعاصر من تدريس قصص الانبياء ، ومنع أكل لحم الخنزير ، وغير تلك من المعلومات التى يتلقاها الاطفال فى التربية المتأثرة بالدين ، بل ويكتب بأسهاب فى « التأثيرات السيئة للتربية الدينية » (٢) .

(٢) الفلسفة الوجودية :

الوجودية مذهب فلسفى معاصر، يعتنقه فريقان من الفلاسفة، فهناك الوجوديون المسيحيون ، وعلى رأسهم جابرييل مارسيل ، وكارل ياسبرز ، وهما مسيحيان كاثوليكيان مخلصـان لكاثوليكيتهما ، وهناك الوجوديون الملحدون ، وهم الغالبيـة ، وعلى رأسهم هيدجر ، وجان بول سارتر (٣) .

وكان سورين كيركجورد (٤) هو رائد الوجودية بغير منازع ، والاب الاول لها، كان يرى أن الفلسفة ليست أقوالا عامة مجردة ،

---

(١) رسل : المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة ، ص ١٩
(٢) رسل : التربية والنظام الاجتماعى ، ص ٩٥ — ١٠٩
(٣) سارتر : الوجودية مذهب انسانى ، ص ١١
(٤) فليسوف دنماركى ، ولد فى الخامس من مايو سنة ١٨١٣ ، ومـات فى الحادى عشرمن نوفمبر سنة ١٨٥٥ ، كان ضعيف البدنية ، دائم الاحساس بالمرض، وعلى الرغم من ذلك انغمس فى الشهوات والملذات ومعاشرة النساء ، اتسمت حياته بالقلق والتوتر والخوف والصراع والاضطراب والثورة على الدين ، عاش قصة حب عنيفة انتهت بالفشل ، فوجد الخلاص فى الايمان .

وانما هى تتجه الى فحص المعانى المشخصة ، ويضرب لذلك مثلا ، فيقول : « ان الموت ليس مشكلة فلسفية ، والمشكلة أنى أنا أموت، وهناك فرق بين أن أبحث فى الموت كمعنى مجرد ، وبين أن أبحث فى أنى أموت » (١) • اذن الوجودية فلسفة تحيـــا الوجود ، وتشارك فيه ، ولا تكتفى بالنظر من الخارج ، بل تعنى بالباطن المشخص ، وفى الوجودية تعانى الذات المشكلة وتعيشها •

وجاء هيدجر ، وهو من أكثر الوجوديين غموضـــا ، واحتل مكانة فريدة فى المذهب الوجودى ، وأقام فلسفته كسلفه عـــلى تحليل الوجود المشخص المعين ، ففى جميع مصنفاته نجد أن البحث فى الوجود الشخصى هو المدخل ، وأن « كينونتى » هى التى يجب فحصها ، لاننى مخلوق من النوع الذى يتساءل عن « الكينونة » ، وأن ما يهم حقا هو ذلك التساؤل والاجابة عليه (٢) •

ويبدأ الوجوديون جميعا من بداية واحدة ، وهى أن الوجود سابق على الماهية ، أو أن الذاتية تبدأ أولا ، ويشرح لنا الفيلسوف الفرنسى جان بول ســـارتر (١٩٠٥ — ١٩٨٠) فى كتابـــه « الوجودية مذهب انسانى » معنى هذا العبارة ، فيقرر أننا لو تناولنا أحد الاشياء المصنوعة ، مثال ذلك سكينة من السكاكين ، نجد أن صانعها قد صنعها وفقا لفكرة لديه عن السكاكين ، وطبقا لتجربة سابقة فى صنع السكاكين ، كما أن الصانع كان يعرف لاى شىء ستستخدم السكين ، ولذلك فانه صنعها من أجل الغاية

---

(١) د. المنعم الحفنى : معنى الوجودية ، ص ٦٨ ، د. أبوريان : الفلسفة أصولها ومبادئها ، ص ١٧٨

(٢) مارجورى جرين :هيدجر ، ص ٨ — ٩

المرجوة منها ، واذن فما هية السكين — أى مجموعة صفاتها وشكلها وتركيبها وتعريفها كلها — سبقت وجودها ٠

وينتقد سارتر موقف الفلاسفة الذين آمنوا بالله كخالق، لانهم ظنوا أن ماهية الانسان تسبق وجوده ، كما هو الشأن فى المثال السابق ، ذلك لانهم اعتقدوا أن الله صانع أعظم ، وآمنوا بأن له ارادة سابقة على الخلق ومصاحبة له ، بمعنى أنه عندما يخلق فهو يعلم تمام العلم ما يخلقه ، واذا أراد أن يخلق الانسان ، فان فكرة الانسان تسبق الى علمه ، كما أن فكرة السكين ترد فى عقل الصانع قبل أن يصنعها، بحيث يأتى صنعها مطابقا لمواصفات خاصة وبشكل معين ٠ وكذلك فان الله يخلق كل فرد طبقا لفكرة سابقة على وجود هذا الفرد ٠ ولكن لما قامت النظريات الالحادية فى القرن الثامن عشر ، قضت فلسفيا على فكرة وجود الله، ولكنها لم تقض على فكرة ان الماهية تسبق الوجود ، بخلاف الوجوديين جميعا الذين يعلنون أن الوجود الانسانى سابق على الماهية ٠

ويمضى سارتر مبينا معنى ذلك فيذهب الى أن الانسان يوجد أولا ، ثم يتعرف الى نفسه ، ويحتك بالعالم الخارجى ، فتكون له صفاته ، ويختار لنفسه أشياء ، فيحدد نفسه شيئا فشيئا ، انه يخلق ماهيته الخاصة به ٠ اننى أوجد أولا وبفضل أفعالى أصبح ما أكونه ، ان ماهيتى تتحدد شيئا فشيئا مع أفعالى ، ومع اختياراتى ، مع ما أقوم به من تحقيق لامكانياتى ، ولما كانت أفعالى وتحقيقاتى لامكانياتى ستستمر حتى الموت ، فان تعريف ذاتى لن يكتمل الا بموتى ٠ وهكذا كل انسان لا يمكن أن يحد الا وفقا لما أنجز من أفعال وحقق من امكانيات، وبذلك يظل تعريف

الانسان مفتوحا دائما ، ولا يمكن أن نقرر ماهيته قبل أن يموت •

هل يمكن أن نتخذ من الوجودية أصولا للتربية في مجتمعاتنا؟ انها فلسفة تنكر صراحة وجود الله تعالى ، بغض النظر عن القلة المسيحية من أتباع هذه الفلسفة ، كما أنها تنكر الحكمة في خلق الموجودات ، بل ان وجود الموجودات عبث لا طائل تحته ، لقد أعلن سارتر أن الموجود يوجد من غير داع ، وبلا سبب ، وبدون ضرورة كما أنه يموت صدفة (١) • انها فلسفة تشاؤمية واضحة ، اذ

الواقع الانساني عند سارتر هو بطبعه وعي تعس Conscience malheureuse على حد قوله (٢) • ولئن كانت الوجودية تهتم بالحياة العاطفية ، وترفع العواطف فتجعلها موضوع البحث الفلسفي ، الا أنها تهتم من بين العواطف كلها بالعواطف المؤلمة كالندم والقلق والخوف والاحساس بالعدم الذي يحيط بنا من كل جانب •

ان التربية الوجودية تعد جيلا من الشباب العابثين ، الذين لا يقيمون وزنا للقيم الاخلاقية ، ولا يعترفون بالالتزام الاخلاقي ، ولا يحفلون بصوت الضمير ، ولا يجدون في أنفسهم زاجرا • لقد ظن الوجوديون أنهم تحرروا من كل قيد يعوق حريتهم ، فاذا بهم يكبلون أنفسهم بهذه النظرة المتشائمة الى الحياة الانسانية ، حتى أصبحت الحياة عندهم تافهة بغيضة ، تثير « الغثيان » •

---

(١) د. الغندي : مع الفيلسوف ، ص ١٢٩

(٢) نفس المصدر ، ص ١٢٧

(٣) المذاهب العملية :

لعل أقدم المذاهب العملية (١) هو المذهب الذى عرف عن ارنست ماخ Ernst Mach النمسوى فى القرن الماضى الذى سمى بالنظرية الحيوية Théorie Biologique، ثم ظهر المذهب العملى بعد ذلك فى بلاد مختلفة ، فظهر عند شيلر Schiller فى انجلترا باسم المذهب الانسانى Humanism، وفى فرنسا باسم Gonventionisme عند هنرى بوانكريه ، وظهر بقوة فى أمريكا تحت أسماء أخرى مثل Pragmaticism عند بيرس ، و Pragmatism عند وليم جيمس ، كما عرف أيضا باسم الاداتية Instrumentalism .

ويمكن تتبع أصول هذا المذهب فى الفلسفات السابقة ، وبخاصة المذهب النقدى عند كانط الذى حـد من قدرة العقل النظرى فى الوصول الى الحقائق الميتافيزيقية ، فى حين جعل العقل العملى الطريق الوحيد الى الحقائق، ويعترف شارل ساندرس بيرس Peirce (١٨٣٩ _ ١٩١٤) بأنه تأثر بنظرية كانط التى تجعل العمل فوق النظر، فتكونت لديه أصول مذهبه الذى يرفض التصور التقليدى للحقيقة بأنها التطابق مع الواقع الخارجى ، ويدعو الى الاخذ بوجهة نظر جديدة مؤداها أن كل معنى من المعانى فى الذهن انما يوزن بميزان مايترتب عليـه من نتائج عمليـة وحسب ، اذ الفكر فى جوهره مرتبط بالعمل ، ولهذا ينبغى تعريف الحقيقة بواسطة نتائجها العمليـة : فالحق هو

---

(١) د. الغندى : مع الفيلسوف ، ص ١٨٧ _ ١٩٤ ، د. أبوريان : الفلسفة أصولها ومبادئها ، ص ٣٠ _ ٣٢ ، د. فتحى الشنيطى : المعرفة ، ص ٢١٥ _ ٢٢٠

ماينجح ، وهو المفيد ، وهو النافع • وكل فكرة لا تنتهى الى سلوك عملى فى دنيا الواقع تعد فكرة باطلة ، ويعد الايمان أو الاعتقاد من قبيل هذه الافكار أيضا ، فهى حق متى دلت على سلوك عملى ، والا كان خاليا من أى معنى مفهوم أو دلالة حقيقية •

وقد تابع وليم جيمس James (١٨٤٣ — ١٩١٠) مذهب بيرس ، وتوسع فيه ، فربط الفكر بالعمل ، وكـــان يرى أن للمعتقدات الدينية أثر نافع ، وقرر أن الايمان أو الاعتقاد سند قوى لتأييد صدق قضـــية ليس فى وسعنا أن نبررهــا تبريرا عقليا ، فاذا كان لانسان رغبة فى الالتحاق بكليـة جامعيـــة ، والحصول على درجتها العلمية ، فما لم يكن عنده ايمان كاف بان لديه القدرة على العمل فيها فلن يتوصل البتة الى تحقيق ما يبغيه ، وبدون الايمان أو بدون ارادة الاعتقاد Will to believe كما يقول جيمس لن يستطيع الانسان أن يعرف ما ذا كان من الممكن لـــــه اشباع رغباته أو تحقيق مثله •

يقول جيمس : اذا كانت حياتك فى خطر ، وكنت تخشى الغرق قبل أن تصل الى الشاطىء فينبغى لك عندئذ أن تعتقد بوجه حاجتك ، فبهذا الاعتقاد وحده يمكنك أن تقضى هذه الحاجة ، واذا أبيت الاعتقاد ، فقد تكون على صواب ، ولكنك ســـتهلك لا محالة • خيرلك اذن أن تعتقد ، لانك ستنقذ نفسك •

وهكذا يقوم المذهب البرجماتى عند جيمس فى محاولـــة تفسير كل فكرة تعرض لنا ، بتقليبها على وجوهها ، مستعرضين معقباتها ونتائجها العملية ، اى فرق يمكن ان يجده الانسان من

الوجهة العملية اذا أخذ بصحة فكرة دون أخرى ؟ واذا لم يكن فى الوسع الوصول الى فرق عملى بين احداهمـــا والاخرى ، فحينئذ تكون للفكرتين معا وجاهتهما من الوجهة العملية .

لقد أصبح معيار الحقيقة عند جيمس هو نجـــاح الفكرة عمليا ، فهو يقول : « الفكرة صادقة اذا كانت تعمل works » ، ويقول : « الفكرة صادقة اذا كانت لها نتائج عملية تقودنا الى الموضوع المقصود بها ادراكه » ، ويقول : « القضية صادقة اذا كانت تعطينا أكبر كم من الرضا Satisfaction ... بما فى ذلك ارضاء الذوق » ، ويقول : الحقيقة خاصية لما يقبل التحقق العملى Verification ، وأحيانا يستعمل بدلا من التحقق العملى كلمة Cash ومعناها الحرفى دفع القيمة النقدية ، وهذا مـــا جعل مفسريه يذهبون الى أن الحقيقة عند وليم جيمس هى الفكرة التى تنفع أو تفيد عمليا ، بحيث يمكننا أن نقول عن هذه الفكرة أنها صادقة لانها نافعة It is true because it is useful أو انها نافعة لانها صادقة It is useful because it is true ، هاتـــان القضيتان معا تحملان على الدقة نفس المعنى .

ان امتلاكنا لأفكار صادقة انما يعنى اننا نمتلك أدوات Instruments للعمل ، ومن ثم فان بلوغ الحقيقة أبعد عن أن يكون غاية فى ذاته ، فهو لا يعدو أن يكون طريقا تمهيديا الى اشباع حاجات أشد حيوية .

ويعتبر وليم جيمس البرجماتية منهجا أكثر منها مذهبا ، فهى لا تحتم الوصول الى نتائج معينة ، وانما هى منهج يرشدنا الى

أن نستخلص من الافكار قيمتها العملية ، وهو يحفزنا الى أن ندفع بالفكرة الى بوتقة التجربة ، ويقرب جيمس بين منهجه هذا ومنهج العلوم التجريبية حيث أن فرضا من الفروض لا يصبح حقيقة علمية الا بالعمل اللاحق للفرض من حيث تحقيقه فى التجربة التى تؤيده • وهكذا أحدث المذهب العملى انقلابا فى فكرة الحقيقة اذا قارنا بينه وبين المذهب العقلى ، فلقد كان العقليون يرون أن الحقيقة مطلقة ، وهى واحدة لا تتعدد ولا تتطور ، فهى اذن حقيقة استاتيكية ، أما عن البرجماتين فليس هنالك قضايا قطعية ، وليس ثمة ثابت الا المنهج فحسب •

أما ثالث الفلاسفة الامريكيين من دعاة البرجماتية فهو جون ديوى (١٨٥٩ ـ ١٩٥٢) ، وقد كان يتصور الانسان كائنا بيولوجيا يستغرق فى عملية توافق مع البيئة التى يعيش فيها ، ويلتمس ديوى مفتاحه الى طبيعة المعرفة فى النظرية الداروينية التى مؤداها أن الكائن الذى يتم له التكيف فى البيئة يعيش ، بينما الكائن الذى يفشل فى ذلك يهلك حتما ، فالحيوانات التى وهبت أيادى قابضة يتيسر لها العثور على الطعام ، أما الحيوانات ذات الحوافر فتجد مشقة فى ذلك •

الافكار فى نظر ديوى لا تعدو أن تكون أدوات يستعين بها صاحبها لتحقيق التوافق مع البيئة ، فالفكرة آلة نافعة تعين صاحبها على الحياة ، والافكار الفاشلة تؤدى بأصحابها للهلاك ، وعلى ذلك ينبغى لنا أن نحرص على الاحتفاظ بالافكار التى ترضينا وتكفل لنا النجاح ، وأن نتخلى عن الافكار التى لا تفضى الى ذلك ، واذن

فثمة تنافس بين الافكار أو صراع بينها على البقاء ، والذكـــاء يتلخص فى قدرتنا على التكيف بالظروف التى تكتنفنا والملابسات الجديدة التى قد تطرأ علينا .

والعلم فى نظر ديوى لا يستهدف الكشف عن الحقائق الابدية والتأمل فيها ، بل هدفه الاول خدمة الانسانية ، فالعلم لايكتسب الطابع الموضوعى الا اذا كانت غايته ارضـــــاء حاجات البشر ومطالبهم ، وليس العلم جماعا من المعارف أو محصولا من النتائج المخزونة ،العلم نشاط يحفزنا الى العمل على حل المشكلات ، فهو قوة فعالة من أجل المعرفة ، ولا يبدأ النشاط العلمى الا اذا واجهنا مشكلة ، ولا ينقطع الا حالما نصل الى حل لهذه المشكلة .

ولما كان الانسان فى نظر ديوى حيوانا اجتماعيا ، فـــان للتجربة الاجتماعية تأثيرا بالغا، فيجب على الانسان أن يحاول أنماطا متعددة من التوافق الاجتماعى قبل أن يستقر على أصلحها وأفكارنا عن أصلح سلوك اجتماعى تأتى من التجربة الاجتماعية، وطالما يعيش الانسان فى مجتمع متجدد ، فالتربية السليمة يجب أن تعد الاطفال للتوافق الاجتماعى،توافق بين الفرد والجماعة .

ويتطلب الذكاء الاجتماعى الاقلاع عن العادات التى لا فائدة منها والقواعد البالية التى كانت فى الاصل حلولا لمشـــــكلات اجتماعية انتهى أوانها ، فيتعين التخلى عنها ، والاستعاضة عنهـا بمناهج أخرى نافعة ، ولو أن المجتمعات ترقبت مشكلات المستقبل وتأهبت لها ، فاعتمدت على التخطيط ورسم الطريق لمواجهتها ،

فحينئذ يغدو التخطيط الاجتماعى لازما لبقاء المجتمع ، كما أن التخطيط الفردى ضرورى لبقاء الفرد ·

وللمعرفة الاجتماعية قيمة عظمى عند ديوى ، ومن ثـــم فالعلوم الاجتماعية تستوى فى أهميتها مع العلوم الطبيعيـــة والبيولوجية ان لم تفقها ·

ولقد لاحظ الفيلسوف الانجليزى برتراندرســـل بعض الصعوبات العقلية الكبيرة فى الفلسفة البرجماتية ، فهى تفترض أن اعتقادا صادق حين تكون آثاره خيرة ، فيلزم أن نعرف أولا ما هو الخير ، وثانيا ما هى آثار هذا الاعتقاد أو ذاك ، ويجب أن نعرف هذه الاشياء قبل أن يكون فى وسعنا أن نعرف أن أى شىء « صادق » طالما أننا لا يحق لنا أن ندعوه « صادقا » الا فى حالة واحدة فقط هى بعد أن نقرر أن آثار اعتقاده خيرة (١) · هب أنك تريد أن تعرف ما اذا كان « كولومبوس » عبر الاطلنطى سنة ١٤٩٢ ، فلا ينبغى لك مثلما يفعل غيرك من الناس ، أن تنقب عن ذلك فى كتاب · يتعين عليك أولا أن تبحث ما هى آثار هذا الاعتقاد ، وكيف أنها تختلف عن آثار الاعتقاد فى أنه أبحر سنة ١٤٩١ أو سنة ١٤٩٣ ، وواضح أن هذا غير مناسب ·

وثمت صعوبة أخرى فقد تنجم عن فرض كاذب نتائج مفيدة ، مثال ذلك فرض « سانتاكلوز » ، « يعمل عملا مشبعا بأوسع ما فى الكلمة من معنى ، ومن ثم فسانتاكلوز موجودة » فهل هذه القضية

---

(١) نلاحظ أن معظم الاكتشافات العلمية لم يكن الدافع لها الآثار العمليـــة النافعة ، بل لم يعرف لكثير منها أهمية مطلقا عند اكتشافها .

صادقة ؟ انه من المعلوم أن سانتا كلوز ليست موجودة (١) .

كما أن قيمة الانسان فى المجتمع البرجماتى انما تقـــاس بالفائدة التى ترجى منه ، لا بمقدار حبه وتعاطفه مع غيره من الناس ، فأين النزعة الانسانية فى مجتمع يقضى فيه العامل يومه فى ادارة آلة من الصباح الى المساء ، يوما بعد يوم ؟ وماذا يمكن أن يصبح مثل هذا الانسان بعد عدة سنوات ؟ انه يصبح نفس الآلة التى يديرها ، لأن مصيره مرتبط بمصيرها ، وكيانه متوقف على كيانها ، وليت الأمر يقتصر على هذا ، فان النزعة البرجماتيـــة تدفع صاحب المصنع الى طرد العامل بمجرد أن يجد عاملا آخر يستطيع أن يدير نفس الآلة بكفاءة أكبر محققا فائدة أكثر .

ان النظرة الميكانيكية الالية هى التى تغلب على الفلاسفـــة البرجماتيين ، فلا يستطيعون أن يتبينوا مـــا هو فريد ومميز للانسان ، أعنى الجانب اللامادى ، فالانسان ليس كائنا بيولوجيا فحسب ، ولا يعيش وفق القوانين البيولوجية وحدها ، بل الانسان مركب من جسم ونفس ، أو بدن وروح ، كما تبين الاديـــــان السماوية ، ولكن التربية البرجماتية تنكر أهمية تدريس الاديان للطلاب .

وتنكر البرجماتية أيضا القيم المطلقة الثابتة ، التى تدعو اليها الاديان ، وانما القيم عند أنصارها أحكام نسبية متغيرة ، تنشأ نتيجة لنجاح النشاط فى تحقيق غايته .

---

(١) رسل : تاريخ الفلسفة الغربية : ٣ / ٤٧٣ ـ ٤٧٤

ولقد أثرت التربية البرجماتية تأثيرا كبيرا على نظامنا التعليمى ابتداء من أربعينات هذا القرن العشرين ، وذلك لأن كثيرا من أساتذة التربية قد تلقوا دراستهم فى الولايات المتحدة الامريكية ، ومنهم من تتلمذ مباشرة على يدى جون ديوى ، وقاموا بترجمة معظم مؤلفاته التربوية ·

(٤) المادية التاريخية :

بعد أن استعرضنا فى ايجاز ملامح أهم الفلسفات التربوية المعاصرة فى الغرب ، وتبين لنا أنها جميعا لا تصلح للتطبيق الكامل فى مجتمعاتنا العربية الاسلامية ، لأنها تتضمن عناصرا غربية عن حضارتنا ، وتتعارض تماما معها ، فلنتجه الى دول المعسكر الشرقى الشيوعى ، عسى أن نجد هناك فلسفة تربوية تلائمنا ·

تقوم النظم التربوية السائدة الآن فى هذه الدول على نظرية المادية التاريخية التى وضعها كارل ماركس (١) ، ولم تظهر

---

(١) ولد كارل هنريك ماركس فى ٥ مايو سنة ١٨١٨ فى بلدة «تربية» الألمانية ، من اسرة يهودية ، فقد كان ولده «ماركس ليفى» وجده من قبل من حاخامات الدين اليهودى فى ألمانيا ، وأمضيا كل حياتيهما ــ شأنهما شأن الغالبية العظمى من اليهود ــ فى نطاق مجتمع متدين ، منطو على نفسه تماما ، مجتمع يواجه عداء جيرانه المسيحيين ، ويتعرض للاضطهاد المستمر ، وبعد أن صدرت قوانين اليهود سنة ١٨١٦ ، انتقل والد كارل ماركس الى المسيحية ، قبل مولد ابنه بسنة واحدة ، أى فى عام ١٨١٧ ، وغير اسمه الى «هنريك ماركس» ، ولعل عداء كارل ماركس لكل ماله صلة بالأديان يرجع الى الظروف السيئة التى تعرضت لها أسرته ، وسائر اليهود فى عصره . وكانت أمه «هنربيتا ماركس» من عائلة يهودية أيضا ، اذ كانت عائلتها من اليهود المجريين الذين استقروا فى هولندا حيث كان والدها واحدا من حاخامات الدين اليهودى =

المادية التاريخية فى كتاباته الأولى الا فى صورة شذرات ، وقد جاء أوسع ما كتبه عن هذه النظرية فى مؤلف اشترك فى وضعه مع انجلز (١٨٢٠ ـ ١٨٩٥) فى سنة ١٨٤٦ ، عنوانه « الأيديولوجية الالمانية » ، واطار هذه النظرية آطار هيجلى صميم (١) . فما معنى المادية الجدلية ؟ .

المراد أنطولوجيا بالمادية أن المادة والطبيعة والعالم المحسوس، انما هى مفاهيم يجب أن تؤخذ ـ بغير تحفظات ـ على أنها حقائق، دون أن تستمد واقعيتها (حقيقتها) من أى مصدر فوق الطبيعة أو فوق المحسوس ، كما أنها لا تعتمد فى وجودها على عقل الانسان، وعلى أساس هذه الفكرة لا يكون العالم المحسوس بحاجة الى عالم متعال يمنحه الوجود ، فكل شىء حتى العقل يجب أن يفسر على أنه من عمل المادة (٢) .

أما كلمة « الجدلية » فتستعمل للتعبير عن مجموعة الخصائص الأساسية الوثيقة الصلة بالمادة التى تمثل نمطا خاصا من النشاط

= تلقى كارل ماركس تعليمه الأول فى بلدته « تربية »، ثم غادر مدرسة تربية وهو فى السابعة عشرة ، حيث التحق بكلية الحقوق بجامعة بون ، وعاش عيشة الطالب الألماني المرحة اللاهية ، وغرق فى الديون ، وقبضت عليه السلطات بسبب العربدة ثم ترك بون عام ١٨٣٦ والتحق بجامعة برلين ، تنقل بين عدة مدن أوربية مثل باريس ولندن التى مات بها فى ١٤ مارس سنة ١٨٨٣ . وظل ماركس طوال حياته شخصا غريبا ، يعيش فى عزلة ، دائم الاحساس بالظلم ، وبأنه يعيش فى عالم يتصف بالعداوة ، ولذلك كان سلوكه نحو أغلب الناس يتسم بالشراسة فقد كان فظ السلوك ، يعتبر أكثر الناس اما بلهاء أومتزلفين ، لذلك كان موقفه منهم يتسم بالريبة أو الازدراء (ايسا برلين : كارل ماركس ، ص ١٩ ـ ٢٨)

(١) ايسا برلين : كارل ماركس ، ص ١٠٠ وما بعدها .

(٢) جون سومرفيل : المادية الجدلية ، مقال فى كتاب فلسفة القرن العشرين ، ص ٢٦٠

والسلوك ، تشترك فيه كل مستويات الوجود · وقد اخترت كلمة « جدلية » لأن هذه الخصائص الاساسية أو النماذج السلوكيـــــة تسودها الحركة ، ويتولد عنها دائما تحويل أ الى لا أ ، أى التغير المستمر ، وهى فكرة قديمة ترجع الى فلسفة هرقليطس (١) ·

ومن أهم مجالات تطبيق نظرية المادية التاريخيـــــة ميدان التاريخ البشرى ، فالمجتمع ـ شأنه فى ذلك كشأن كل شىءآخر ـ يجتاز عملية تغير ، ولما كانت المادية الجدلية هى من الناحيـــــة الأنطولوجية نظرية تغير وتطور ، فان المادية التاريخية ، وهى تطبيقها الاجتماعى ، هى كذلك نظرية فى التغير التاريخى (٢) ·

ويقصد بالمادة فى مجال التاريخ الظروف المادية التى يقوم عليها نظام الانتاج الاقتصادى ، ويمكن أن نميز فى النطـــاق الاقتصادى بين ما يسمى « قوى الانتاج » ، وما يسمى « علاقات الانتاج » ، فقوى الانتاج تشمل المهمات والآلات ، أى ما نسميه التكنولوجيا والقوة البشرية العاملة · أما علاقات الانتاج فتمثل العلاقات التى يقررها القانون أو المجتمع فيما يتعلق بالســـلع الاقتصادية ·

ان قراءة التاريخ بتوسع ، وبعقل مفتوح ، تجعلنا نعلم أنه عندما يصاب نظام الانتاج الاقتصادى بتغير أساسى ، فلنا أن نستنتج أن أن كل شى ءآخر سيتطور ، ان عاجلا وان آجلا ، بما يتلاءم مع هذا التغيير،أى أن تغير الظروف الاقتصادية فى مجتمع

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢٦١
(٢) نفس المصدر ، ص ٢٦٧

ما يؤثر على الهيكل الاجتماعى بأكمله ، بحيث تتأثر النظم الادارية والقانونية ، والعلاقات الاجتماعية ، والقيم الأخلاقية والدينية وكذلك الشأن فى الفلسفة والأدب والفن وسائر الجوانب المختلفة فى المجتمع يلحقها تغيرات جوهرية .

والنظر الى أحداث التاريخ يبين أن تغير الظروف الاقتصادية فى المجتمع يصل به بعد فترة — تطول أو تقصر — الى نقطة تزول عندها العلاقات التقليدية القديمة ، وتحل محلها علاقات أخرى أكثر تلائما وانسجاما مع القوى الانتاجية النامية . غير أن هذه العملية ليست عملية تكيف ذاتى تسير فى يسر وتناغم ، بل هى فى العادة تنطوى على صراع عنيف بين الطبقات ، وتعرف الطبقة بأنها مجموعة من الأشخاص تربطهم بوسائل الانتاج علاقات اقتصادية متشابهة ، علاقات تؤدى بهم الى الصراع مع مجموعات أخرى ، والتصادم بين هذه المجموعات هو ما يسمى « صراع الطبقات » (١) .

الصراع اذن من أجل التغيير أمر حتمى ، ولقد أثنى ماركس على فيورباخ (١٨٠٤ — ١٨٧٢) لأنه أثبت أن الدين يضلل الناس باختراع عالم وهمى ، لكى يعوض من شقائهم فى العالم الحقيقى (٢) ، وهكذا يكون الدين فى عبارة ماركس الشهيرة « أفيون الشعوب » لأن الدين هو المسكن الذى يهدىء من حدة الآلام

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢٦٩ — ٢٧٠

(٢) لا ينطبق هذا المفهوم على الدين الاسلامى الذى يطالب بتغيير الفساد فى هذا العالم بمحاولات ايجابية مستمرة ، لأن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، لذلك فرض الجهاد ، ووجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

التى تسببها متناقضات العالم المادى ، وهذه المتناقضـــات يجب ازالتها عن طريق الثورة التى تستطيع وحدها أن تحقق ذلك ·

وقد سار التحرير التدريجى للجنس البشرى فى اتجاه محدد لا رجوع فيه ، ففى مطلع كل عصر جديد تتحرر طبقة كـــانت مظلومة قبل ذلك ، وكل طبقة تدمر لا تظهر مرة أخرى أبدا · والتاريخ لا يعود الى الوراء أو يدور فى حلقات ، فالعالم القديم قد أخلى مكانه للعصور الوسطى ، والعبودية للاقطاع ، والاقطاع للبورجوازية الصناعية ، ولم تكن هـــذه المتغيرات وليدة تطور سلمى ، بل ولدت فى حروب وثورات ، لأنه ما من نظام قائم يخلى مكانه لنظام يليه دون صراع بين طرفيه ·

والآن لم يعد هناك سوى طبقة واحدة ، ظلت مغمورة تحت مستوى غيرها من الطبقات ، مستعبدة ، لا مال لها ولا أرض ، تلك هى البروليتاريا ، وهى أدنى درجة فى السلم الاجتماعى ، فليس هناك طبقة تحتها ، فهى اذا حررت نفسها فانما تحرر الجنس البشرى كله ، فالقتال هو شرط بقائها والمستقبل لها ، وصراعها لن يتبعه صراع آخر ، فهو ، صراع قدر له ان ينهى الصراعات السابقة عن طريق الغاء الطبقات ، واقامة مجتمع لا طبقات فيه ، ويجب أن تفهم البروليتاريا أنه ما من سبيل الى أى تفاهم حقيقى مع العدو ، وأنه قد يعن لها أن تعقدتحالفا مؤقتا معه ضد خصم مشترك ، ولكنها لابد فى النهاية من أن تنقلب ضده ، وما دام التاريخ محتما ، فان النصر سوف يكون من نصيبها لا محالة ، ومن ثم فان واجب الفيلسوف ينحصر – فى رأى ماركس – فى ايضاح

ذلك للجماهير واعدادهم لمصيرهم (١) ·

والمرحلة الأولى في خلق المجتمع الجديد هى مرحلة الاشتراكية التى تتميز اقتصاديا بالملكية الجماعية لوسائل الانتاج ، والغاء الأرباح الخاصة ، وفائض القيمة ، وما يستتبعه ذلك من استغلال، كما تتضمن الغاء الطبقات الاقتصادية والبطالة ، وتتميز هذه المرحلة سياسيا بأنها تعتمد على دكتاتورية الطبقة الكادحة وتتميز ثقافيا بالتخطيط الحكومى للفنون والعلوم ومعاهد التعليم ·

أما المرحلة الثانية فتسمى الشيوعية ، وهى تفترض وجود اقتصاد وفير الانتاج ، يقوم على أساس الاستخدام الطليق للامكانيات الانتاجية بحيث يتيسر تطبيق المبدأ القائل « من كل شخص على قدر طاقته ، ولكل فرد حسب حاجته » بدلا من شعار الاشتراكية « حسب انتاجه » ، فبفضل التخطيط البصير فى الميدانين الاقتصادى والثقافى سيكون من الممكن أن تمحى المتناقضات النفسية والاجتماعية والفوارق الثقافية بين العمل العقلى والبدنى ، وبين المدن والريف ، وحين تنتشر الشيوعية فى كل أنحاء العالم ستمحى بالتدريج الحاجة الى الدولة بوصفها قوة منظمة (جيوش — سجون — شرطة ونحو ذلك) اذ يزعمون أنه فى مجتمع اختفت فيه الصراعات الطبقية ، واتسعت فيه الفرص غير المحدودة للنمو التعليمى الثقافى للجميع ، سيتعلم الناس

---

(١) ايسيا برلين : ماركس ، ص ١١٤ — ١١٥

العيش طبقا للقيم التى يحترمونها دون اكراه من جانب القوة المادية التى يمثلها جهاز خاص هو الدولة (١) ٠

أما عن التربية الماركسية ، فاننا نجد لينين ينتقد أنظمة المدارس فى البلاد الغربية الرأسمالية ، ويذهب الى أن الدولة البرجوازية التى كانت أكثر ثقافة ، هى الأكثر دهاء فى الخداع ، فلقد كانت المدرسة أداة كلية لسيطرة الطبقية فى أيدى البرجوازيين ، وكانت طيلة الوقت مشحونة بروح طائفية ، وهدفها كان اعطاء الرأسماليين عبيدا الزاميين وعملا أكفاء ٠

أما فى البلاد الشيوعية فالمدرسة أداة لسيطرة الطبقة البروليتارية ، ولا يوجد هناك أى تدريس للسلوك خلافا لما هو مفيد للعمال فى كفاح الطبقية ، وتعد التربية الاخلاقية المخالفة لذلك خيانة وخداعا يقفل ادمغة العمال والمزارعين لصالح اقطاعى الأرض والرأسماليين ، ويؤكد لينين ذلك بقوله : اننا نقول أن أخلاقنا تكون خاضعة كليا لصالح الطبقة الكادحة من البروليتارية ٠

ويذهب ب٠ بينكيفتش P. Pinkevitch رئيس جامعة الولاية الثانية لموسكو فى كتابه عن التربية الجدية فى الجمهورية السوفيتية ، وهذا الكتاب يمكن قبوله كمرجع رسمى لجميع المسائل المتعلقة بالمنظمات التعليمية السوفيتية وأهدافها الحالية،

---

(١) جون سومرفيل : المادية الجدلية ـ فلسفة القرن العشرين ٠ ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ ٠

يذهب بينكيفتش الى أن الجهاز الكلى للمدرسة عليه أن ينمى تطور الغرائز الاجتماعية ، ويجهز تدريبا اشتراكيا للثوريين الشيوعيين فى المستقبل .

وعلى التلاميذ فى المدارس ألا يتعلمون الدروس النظريـــة فحسب ، بل عليهم أيضا أن يتدربوا على الأعمال اليدوية المفيدة ، وهذه الأعمال تنقسم الى قسمين رئيسيين : أولهما يشمل الاثارة والدعاية كأن يثار الأولاد ، على مستويات شتى « من أجل الأكثر استحقاقا للمرشحين فى الانتخابات ضد الدين والملاريا والبق والتدخين والسكر » أما القسم الثانى فيشمل الجهدالعملى كأن يشغل التلاميذ فى تعقيم الجراثيم وغرس الأشجار وفى تمديد الكهرباء الى بيوت المزارعين .. الخ .

وليس هدف المدارس السوفيتية تفهم العالم فقط ، بـــل أيضا تطويره ، وتحقيق هذا الهدف كما يقول بينكيفتش انما سبيله « اعادة انشاء العالم وفقا لنظرية ماركس » (١) .

وتقتضى نظم الجامعات هناك أن تقضى ســـنة واحدة على الأقل تدرس خلالها الفلسفة دراسة اجبارية ، وكذلك الشأن فى أغلبية المعاهد الأخرى التى تقوم بالدراسات العليا ، والتدريب العالى ، مثل المعاهد الفنية ، ولا تقتصر هذه الدراسة للفلسفة على مبادىء المادية الجدلية ، بل تضم عرضا تاريخيا لمختلف المدارس والمفكرين ، من عهد ما قبل سقراط حتى الفلسفة المعاصرة

---

(١) رسل : التربية والنظام الاجتماعى ، ص ١٧٤ ـ ١٨٠ .

ويجرى البحث فى مختلف ميادين الفلسفة فى الجامعات ، جنبا الى جنب مع تدريس مادة التخصص وتعلمها (١) .

لقد صدق ماركس بحق حين قال : « ان ترك الخطأ دون تفنيد ، لهو تشجيع على الفساد الفكرى » (٢) ، لذلك يجب علينا عدم ترك ما فى نظريته من أخطاء ومغالطات دون تفنيدها :

١ ـ لقد بدأ ماركس نظريته بدحض القول : ان الأفكار تحكم سير التاريخ ، وساد نظريته منطق الحتمية ، فلم يترك مجالا للحرية ، بيد أن مدى تأثيره هو نفسه على شئون البشر قد أضعف من قوة نظريته ، لأنه بتغيره النظرية السائدة حتى وقته عن علاقة الفرد ببيئته وزملائه قد أدخل تغييرا ملموسا على هذه العلاقة نفسها ، ومن ثم ظل أكبر قوة بين القوى الفكرية التى تغير اليوم بصورة مستمرة الأساليب التى يفكر بها الناس ويعملون (٣) .

٢ ـ تفسر الماركسية حركة التاريخ البشرى بأسره بعلة واحدة ، أعنى السببية المطلقة للعامل الاقتصادى ، وفى هذا مجافاة للواقع اذ لا يمكن اغفال آثر العوامل الاخرى الدينية والفكرية والاجتماعية والسياسية ، أو اعتبارها نواتج عرضية للتغير الاقتصادى ، والنزعة العلمية التى تدعيها المادية الجدلية تقتضى الأخذ بمبدأ تضافر العوامل فى تفسير الظواهر المختلفة .

---

(١) سومرفيل : المادية الجدلية ـ فلسفة القرن العشرين ، ص ٢٥٢ .
(٢) ايسيا برلين : ماركس ، ص ٩٥ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٢١٨ .

ان الماركسيين الجدد من أمثال لوسيان سيباج Sebag أنكروا على الماركسية التقليدية قولها بالحتمية الاقتصادية ، واعترفوا بأنه من الخطأ أن نعطى أولوية مطلقة لأحد العوامل ، ونجعل منه سببا للعوامل الأخرى ، لذلك رفض سيباج تفسير التاريخ على أساس القول بأولوية العامل الاقتصادى ، بل نظر الى العلاقات الاقتصادية ، جنبا الى جنب مع اللغة ، والأساطير ، ونظم القرابة وغيرها ، وقرر أننا لا نستطيع أن نصل الى حالة يكون فيها لأحد هذه العناصر ـ كالعنصر الاقتصادى ـ أولوية سببية بالقياس الى العناصر الأخرى ، أو يكون هو الذى تتولد عنه هذه العناصر الأخرى • وينتقد سيباج التصوير التقليدى عند بعض الماركسيين، الذين يعالجون العامل الاقتصادى كما لو كان مادة خاما ، تختلف فى طبيعتها عن العوامل الأخرى التى هى « معلولات » لهـا • والواقع أن العقل الانسانى ، الذى يتدخل فى كل هذه العوامل يزيل الفوارق النوعية بينها عن طريق تدخله هذا ، وهكذا يدافع سيباج عن تلك القدرة الخلاقة التى يتسم بها العقل الانسانى ، والتى تجعل لنواتج هذا العقل استقلالا ذاتيا بالقياس الى الواقع الاجتماعى الذى أنتجها ، وبهذا أجرى سيباج تعديلا أساسيا على النظرية الماركسية التقليدية ، حيث استنكر وجود علاقة مباشرة بين الاساس الاقتصادى والاجتماعى الواحد والنسق الفكرى الذى يقال انه يرتكز عليه (١) •

٣ـ تبشر الماركسية بقدوم مرحلة الشيوعية حيث تختفى

(١) فؤاد زكريا : الجذور الفلسفية للبنائية ، ص ٤٢ ـ ٤٥ •

فى الدولة جميع ألوان الشقاء والظلم ، وتحل السعادة القصوى ، ويعم الرخاء !! أليست هذه يوتوبيا تقوم على الخيال والرجم بالغيب ، وتستند الى أحكام تقييمية تقديرية تتعارض مع النزعة العلمية التى تقوم على أحكام تقريرية ؟ أليست هذه الأحكام ضربا من الأحلام والأمانى والوعود ، وبمثابة الافيون للشعوب ؟ ٠

٤ ـ التربية الماركسية استبدادية ، تستهدف تربية جيل يؤمن بدكتاتورية طبقة البروليتاريا، ولا مجال فيها للديمقراطية، ويتمثل انتفاء الديمقراطية فى هذه النظرية على الاقل فى أمرين: انتفاء الحرية الاقتصادية الفردية ، وعدم تعدد الأحزاب ، كما أن التربية الماركسية لا انسانية وتتسم بالجمود الفكرى ، وقد بلغت الماركسية ذروة جمودها واتجاهها اللاانسانى فى المرحلة الستالينية فى الخمسينات من هذا القرن ، مما أدى الى حدوث رد فعل فى الاتجاه المضاد ، وظهرت تفسيرات للماركسية تؤكد جوانبها الانسانية ، وتحاول التوفيق بينها وبين كثير من المذاهب الفلسفية التى حاربتها من قبل ، ومن أهم هذه التفسيرات تفسير روجيه جارودى Garaudy فى بعض كتبه مثل Humaisme marxiste وقد كسبت الماركسية بمحاولة جارودى هذه صداقة بعض التيارات التى كانت تعاديها كالوجودية(١) ، ومن المعلوم أن سارتر قد سعى الى ازالة التعارض الحاد بينه وبين الماركسية ٠

٥ ـ التربية الماركسية الحادية تنكر الأديان ، كما أنها تعتمد على غرس بذور الاثارة فى نفوس الصغار ، والتطلع الى الثورة

---

(١) د٠ فؤاد زكريا : الجذور الفلسفية للبنائية ، ص ٤٦ ـ ٤٧ ٠

التى وقودها الأزمات والفتن والتشكيك ، واعتبار جميع أنظمة الحكم غير الماركسية فى العالم أنظمة رجعية ينبغى اسقاطها .

تعقيب :

بعد أن استعرضنا أهم الفلسفات التربوية المعاصرة ، ها نحن أولاء نتساءل : الى أية فلسفة منها ينبغى أن نتجه ؟ يقول الطبيب وعالم النفس المعاصر ج. أ. هادفيلد : « ليس غريبا أن يجد الآباء أنفسهم فى أيامنا هذه فى حيرة من أمر تربية أطفالهم ، اذا أخذنا بنظر الاعتبار الآراء المتضاربة بين الاختصاصين أنفسهم فيما يتعلق بهذا الموضوع » (٢) . ولئن كان أصدق معيار للحكم على صحة نظرية ما هو النظر فى نتائجها التطبيقية ، فلننظر فيما جنته المجتمعات الاوروبية والامريكية من تطبيق النظريات التى أتينا على ذكرها ، حقا لقد حققت نجاحا ماديا واضحا تمثل فى التقدم العلمى والتكنولوجى ، ولكنهـــا فى نفس الوقت خلقت مجتمعا أشبه بطاحونة ضخمة تسحق الافراد ، وتزرع فى نفوسهم الانانية والطمع ، ويغلب عليهم الشقاء والتوتر ، أخرجت شبابا تحسبهم جميعا ، وقلوبهم شتى ، فريق خلع ثياب المدينة وارتدى الملابس الممزقة ، وأطلق الشعور والأظافر ، وفريق غرق فى ألوان الشهوات والملذات المختلفة ، وفريق ارتكب جرائم السرقة والقتل والاغتصاب والعلاقات الجنسية الشاذة ، وآثر بعضهم حياة الغربة والهجرة من مجتمعاتهم : أما هجرة جسدية ، أعنى مغادرة الأوطان ، واما هجرة عقلية ، أعنى الانسحاب من المجتمع

---

(٢) هادفيلد : الطفولة والمراهقة ، ص ٧ .

والهروب منه عن طريق تعاطى المخدرات أو بمظاهر اللامبالاة ، واما هجرة من الحياة بأسرهـــا ، أعنى الاقبـــال المتزايد على الانتحار ٠

بماذا أفاد الشباب فى العالم الغربى من الحرية المطلقة التى نشأوا فيها منذ نعومة أظفارهم ؟ لقد طالب معظم رجال التربية بمنح الأطفال الحرية المطلقة ، وازالة كل قيد يعوق تصرفاتهم ، متأثرين فى ذلك بتعاليم فرويد الذى ذهب الى أن الاضـطرابات العصابية تنشأ أصلا بسبب كبت النزعات الغريزية الطبيعية فى الانسان كالنزعة الجنسية ، وأساء رجال التربيـــة فهم تعاليم فرويد ، فطالبوا بعدم ممارسة ضبط الطفل وأحباط نشاطاته ، بل على العكس يجب اطلاق العنان له ليفعل ما يحلو له ، والا فأن مزيدا من الاضطرابات العصابية ستتراكم فى نفسه ، لتظهر فى المستقبل ، لأن الكبت يسبب الامراض العصابية ، وعلى هـــذا الاساس قالوا : لا تكبت الطفل اذا رغبت أن ينشأ سليما قويا ٠ لقد تبين لعلماء النفس المعاصرين من أمثال هادفيلد أن سياسة « اعمل على هواك » كانت تطبيقا خاطئا لتعاليم فرويد (١) ٠

وطالب رجال التربية — تحت تأثير الفلسفات الســابقة — بالتخلص من قيود التربية الدينية ، وزعموا أن ذلك يتيح للاطفال تربية سليمة تجنبهم الأمراض النفسية ، والاصابة بعقدة الذنب، وأغلب الظن أن مظاهر التطرف الدينى فى بلادنا ما هى الا رد فعل لابتعاد النظم التربوية عندنا عن المصادر الدينية التى كانت

---

(١) هادفيلد : الطفولة والمراهقة ، ص ٨ — ٩ ٠

ترتوى منها من قبل ، فطفق الشباب يفتشون عن المثل العليا ، وتبين لهم أن أصحاب الفلسفات المعاصرة لم يتمكنوا من حل المشكلات التى وعدوا بحلهـــا ، فاتجهوا بفطرتهم الى الدين ، وطالبوا بالعودة الى القيم الدينيـــة ، لكى تحل محل القيم التى كانت السبب فى تدهور المجتمع وفساده ، وهزيمته العسكرية ، واحتلال جزء من تراب الوطن ، واستغلال الانفتاح الاقتصادى من أجل الربح السريع الفاحش ... ثار الشباب ثورة عارمة ، فوقعوا فريسة للتعصب الدينى ومظاهر الغلو والتطرف .

وهكذا كان غياب التربية الاسلامية الصحيحة مصدرا للغلو الدينى والتشدد ، وظهور ارهاب تحت ستار الدين ، وتســاءل المهتمون : ما هى الوسيلة العلمية والعملية التى ينبغى اتباعها حتى نوقف مظاهر الانحراف الدينى ونتغلب عليه ؟ وعلى الباحثين عن اجابة هذا السؤال الهام أن يتنبهوا الى أن شبابنا يعيشون منذ فترة طويلة فى فراغ دينى ، نتيجة للنظام التربوى الذى نشأوا عليه ، وانتهى بهم هذا الفراغ الدينى الى الشعور بالضـــياع والقلق وفقـــدان الامن النفسى ، فتفرقت بهـــم الســـبل ، وتلقفتهم تيارات الانحراف المختلفة سواء أكانت تيارات دينية متطرفة أو تيارات الحادية مدمرة .

ولا ينبغى أن يفهم من نقدنا للفلسفات التربوية المعاصرة أننا ندعو الى أن نطرحها جميعا ، وأن نغفل كل النتـــائج التى يتوصل اليها علماء التربية على اختلاف مشاربهم يوما بعد يوم ، بل اننا نتوق الى أن تكون لنا فلسفة تربوية خاصة ، تستند الى

الكتاب والسنة ، وترتوى من تراثنا الفكرى المتراكم خلال الأربعة عشر قرنا الماضية ، وتفيد فى نفس الوقت من أحدث الأبحاث العلمية فى شتى أنحاء العالم ، أى أن نجمع فى فلسفتنا التربوية بين الأصالة والمعاصرة ·

« ان طريق المستقبل يمر بالماضى ، وأن الوصول الى الغد يتم من خلال مراجعة ما تم بالأمس ، فالبذور القديمة موجودة دائما ، وكل ما نفعله هو أننا ننميها بطريقة جديدة » (١) · هكذا يرى أحدث المذاهب الفلسفية السائدة اليوم ، أعنى البنيوية (٢) Structuralism ، التى ظهرت فى أواخر الستينات من هذا القرن ، وربما أوائل السبعينات ، وأصبحت « الموضة » الشائعة الآن · انها ترفض الموقف الذى ساد طويلا ويؤكد أن العصور اللاحقة تتجاوز تصورات العصور السابقة ، بل تتخلى عنها نهائيا · ويصور تاريخ العقل البشرى على أنه صعود مستمر الى أعلى دون وجود أى عنصر مشترك بين القديم والجديد · هذا ما ترفضه البنيوية ، لأنها تؤكد مفهوم التوازى بين التصورات القديمة والجديدة ، فالعقل البشرى ينمو فى كل الاحوال عن طريق تعميق التفسيرات السابقة (٣) ·

---

(١) د· فؤاد زكريا الجذور الفلسفية للبنائية ، ص ١٧ ·

(٢) يعد ليفى ستروس رائدها بغير منازع ، وكان عالما أنثروبولوجيا ، وطبقت البنيوية على ميادين متعددة ، مثل اللغويات ، والتحليل النفسى ، والفكر الفلسفى ·

(٣) نفس المصدر ، ص ١٧ ـ ١٨ ·

ألا تقتضى منا هذه الدعوة مراجعة ما قدمه الأســـلاف فى المجال التربوى ؟ أليس من الخطأ أن نتجاوز تصوراتهم وأن نتخلى عنها تماما ؟ أفليس طريق المستقبل يمر بالماضى ، والوصول الى الغد يتم من خلال مراجعة ما تم بالآمس ؟ .

الفصل الثانى

مكانــــة التربيــــة فى الاســـلام

يتعين علينا أن نبدد وهما يروج له بعض من يزعمون أن الدين ليس الا مجموعة شعائر تتعلق بتنظيم العلاقة بين الخالق والمخلوق ، ولا شأن له بأمور المعاملات الانسانيـــة ، ولا يحفل بشئون حياتنا الدنيا ، لأنه يتوخى الدار الآخرة • ونحن نقول : ان من ذهب هذا المذهب ، فقد دل من نفسه على جهل عظيم ، ولئن صح قوله فى الأديان الأخرى فما أبعده عن حقيقة الاسلام الذى يقرر أن خير الانسانية لن يتم بامتزاج أحوال الدين والدنيا واشتباك أسباب الآخرة بالأولى • ودين الاسلام هو المنظم لها كلها ، والوافى بعامة مجالات النشاط البشرى ، فلم يدع مجالا الا حدد له منهجا للسلوك وفق قواعد راسخة •

ان الشبه التى يتسلق بها الطاعنون على دين الاسلام ، والملة الحنيفية — وان كانت مربية على العد والاحصـــاء — فان من أخطرها ما يمس المجال التربوى ، فهل أغفل ديننا الحنيف العناية بتربية النشء ؟ أليس للتربية مكانة فى الاسلام ؟ •

يكفى التربية شرفا أن اسم الرب عزوجل مشتق منها ، فان الرب هو المربى ، « والرب هو الذى يرب عبده ، فيعطيه خلقه ، ثم يهديه الى جميع أحواله » (١) • واذا كان الله تعالى قد وصى الانسان بوالديه ، وقرن عبادته بالاحسان اليهما ، فان ذلك لم

---

(١) ابن تيمية : كتاب التوحيد ، ص ٧٣ ، ص ١٠٤ •

يكن بسبب دورهما الفسيولوجى فى الانجاب فحسب ، على الرغم مما فى هذا الدور من مشقة « حملته أمه وهنا على وهن » (لقمان: ١٤) ، وانما نال الوالدان منزلتهما الكريمة بسبب وظيفتهما التربوية ، فوجب على الأبناء الدعاء لهما لقيامهما بأشرف مهنة ، وهى التربية « وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » الاسراء : ٢٤) ٠

لقد كان التوفيق الى تربية ذرية طيبة مطلبا للأنبياء « دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء » (آل عمران : ٣٨) ، وامتدح الله المتقين « والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما » (الفرقان : ٧٤) ٠

ولما جعل الله الأولاد قرة أعين للآباء ، وزينة الحياة « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » (الكهف : ٤٦) جعل للأولاد ــ فى مقابل ذلك ــ حقوقا على آبائهم ، فالأب ــ من حيث هو راع لأسرته ــ مسئول عن رعيته ٠ قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « أكرموا أولادكم ، وأحسنوا أدبهم » (رواه ابن ماجه) ، بل لقد جعل قيام الرجل بتربية أولاده أفضل من كثير من أفعال الخير كالتصدق على المحتاجين « لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع » (رواه الترمذى) ، وقال « دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ٠٠ أعظمها أجرا الذى أنفقته على أهلك » (رواه مسلم)، وقال أيضا : « من حق الوالد على الولد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه » (أخرجه البيهقى) ٠

واذا كان الآباء يكرهون عقوق الأبناء، فعليهم أولا أن يقوموا بواجباتهم التربوية على خير وجه حتى يبرهم الأبناء . « جاء رجل الى عمر بن الخطاب يشكو عقوق ابنه فأحضر عمر الولد ، وأنبه على عقوقه لأبيه ، ونسيانه لحقوقه ، فقال الولد : يا أمير المؤمنين، أليس للولد حقوق على أبيه؟قال: بلى . قال: فما هى يا أمير المؤمنين؟ قال عمر : أن ينتقى أمه ويحسن اسمه ويعلمه الكتاب . قال الولد : يا أمير المؤمنين ، ان أبى لم يفعل شيئا من ذلك . أما أمى فانها زنجية كانت لمجوسى ، وقد سمانى جعلا (أى خنفساء) ، ولم يعلمنى من الكتاب حرفا واحدا . فالتفت عمر الى الرجل ، وقال له : جئت تشكو عقوق ابنك ، وقد عققته قبل أن يعقك ، وأسأت اليه قبل أن يسىء اليك » (١) .

يتبين لنا من قول عمر المذكور أن أول حقوق الولد على أبيه هو « أن ينتقى أمه » ، وذلك تطبيقا للحديث النبوى « تخيروا لنطفكم فان العرق دساس » (ابن ماجه والديلمى) أى تربية الذرية الصالحة يجب أن تكون ماثلة أمام عينى المسلم حين يقدم على الزواج ، وكأن التربية هى أهم أهداف الزواج ، فيجب على الرجل أن يحسن اختيار الزوجة من أجل انجاب أطفال أسوياء . وقد أثبت العلم الحديث دور الوراثة الكبير فى تنشئة الأبناء ، ولذلك أقيمت مراكز فحص حالات الراغبين فى الزواج ، كما أثبت علم الوراثة المعاصر أن الزواج بالقرابة indogamy يؤدى الى ضعف النسل من ناحية الجسم ، ومن ناحية الذكاء ، ولقد حذر النبى صلى الله عليه وسلم — منذ أربعة عشر قرنا — من الزواج

---

(١) عبد الله ناصح علوان : تربية الأولاد فى الاسلام : ١/١٢٧ — ١٢٨ . أفدت كثيرا ن هذا الكتاب فى كتابه هذا الفصل .

بذوات القرابة ، فقال : «لا تنكحوا القرابة ، فان الولد يخلق ضاويا » ، وقال : « اغتربوا لا تضووا » (١) ٠

أهداف التربية الاسلامية :

لاحظنا من الاستعراض السريع لبعض الفلسفات التربويــة المعاصرة أن كلا منها تهتم بأحد جوانب الانسان ، وتهمل سائر جوانبه ، أما التربية الاسلامية فهى تربية متوازنـــة توازن بين الأهداف التربوية جميعا ، وتعالج الانسان معالجة تتســـــم بالوسطية ٠ قال تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » (البقرة : ١٤٣) فالتربية الاسلامية تقوم على الاعتدال لا التطرف ، فلا غلو فى الاهتمام بأحد الجوانب على حساب جوانب أخرى ٠

لا تدعو التربية الاسلامية الى ذوبان الفرد فى المجتمع ، ولا تستهدف تنشئة أفراد يعملون كالآلات كما تدعو الماركسية ، كما أنها لا تضحى بمصالح الجماعـــة من أجل الفرد ، ولا ترمى الى ترسيخ النزعة الفردية على حساب المجتمع على نحو ما تنادى به الوجودية ، وانما يؤكد الاسلام المسئولية الفردية ، ويحفظ للفرد حقوقه الاقتصادية والاجتماعية ، ويكفل له حريته الكاملة حتى فى العقيدة ، اذ لا اكراه فى الدين ، كما يحرص فى نفس الوقت على مصلحة الجماعة وقوتها ووحدتها، فللمجتمع حقوق على أفراده الذين يترابطون برباط الأخوة والود والتراحم ٠

---

(١) علوان : تربية الأولاد : ١/٣٦ ـ ٣٩ ، محمد متولى الشعراوى : منهج التربية فى الاسلام ، ص ١٦ ـ ١٨ ٠

ولا يستهدف الاسلام تربية أناس لا يكترثون الا بما يحقق لهم فائدة عملية دنيوية كما هو الشأن فى البرجماتية ، ولا يرمى الى تنشئة زهاد يسرفون فى احتقار مطالب الحياة الدنيـــا ، ويجاهدون من أجل اماتة الشهوات ، وقد يلجأون الى العزلـــة والسلبية على نحو ما نجد فى بعض الفلسفات المثالية أو الروحية المسرفة والمذاهب الصوفية الغالية ، وانما يؤمن المسلمون بأن الله جعل لهم الأرض ذلولا ، وأمرهم أن يمشوا فى مناكبها ، ويبتغوا من فضل الله ، وأنه تعالى لم يسخر لعباده ما فى الأرض فقط ، بل سخر لهم أيضا الشمس والقمر والأجرام السماويـــة جميعا ، وعليهم أن ينطلقوا فى هذا العالم الفسيح لينتفعوا بما فيه ، ولكن على الانسان فى نفس الوقت ألا يجعل من هذه الحياة الدنيا غايته القصوى الوحيدة ، اذ الآخرة خير وأبقى ، فعليه اذن أن يحرص على الجمع بين طلب الدنيا والآخرة « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا .. » (العنكبوت : ٧٧) .

والاسلام وسط بين الجبريين من أمثال ماركس وأتباعه ممن يزعون أن المجتمع البشرى خاضع فى تطوره لحتمية لايستطيع منها فكاكا ، وبين الوجودين الذى يسرفون فى تأكيد الحريـــة الفردية المطلقة ، فالاسلام يبين أن المجتمعات البشرية تخضـــع لقوانين عامة ، أو سنن تسير بمقتضاها ، وعلينا أن نســير فى الأرض ، وأن ندرس تاريخ الأمم السابقة لنكتشف السنن التى خلت من قبلنا ، ولنعلم أننا لن نجد لسنة الله تبديلا أو تحويلا ، ويثبت الاسلام أيضا حرية الارادة للانسان ، والدور الايجابى له

فى تغيير أنماط الحياة ، وأن الله لا يغير مـــا بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ٠

وهكذا تقوم التربية الاسلامية على النظرة المتوازنة الشاملة المتكاملة ، فتنظر الى الانسان من حيث هو وحدة جسمية نفسية اجتماعية ، فلا تهتم بجانب دون آخر ، وانما تتناول الانسان من شتى جوانبه المتعددة ٠

١ ــ التربيـــة الجسميـــة :

تحرص التربيـــة الاســـلامية على ســـــلامة الأبـدان وقوتها ، وأشرنا منذ هنيهة الى أهمية حسن الاختيار فى الزواج من أجل انجاب ذرية قوية صحيحة ، ويبيح الاسلام للحامل الافطار فى رمضان اذا خافت على جنينها ، وبعد الولادة يصبح للطفل حق فى الرضاعة الطبيعية من أمه حوالى عامين ، وقـــد أثبت العلم الحديث فضل الرضاعة الطبيعية على الرضاعة الصـــناعية من الناحيتين الفسيولوجية والسيكولوجية ٠

وعندما يكبر الطفل ، ويبدأ فى تناول الغذاء ، يحرص الاسلام على تكوين العادات الغذائية الصحيحة ، واتباع القواعد الصحية فى المأكل والمشرب ، كانتقاء الغذاء الصالح « كلوا من طيبات ما رزقناكم » (البقرة : ٥٧) ، فيجب على الانسان أن يميز بين الطيب من الطعام وبين الخبيث كالميتة والدم ولحم الخنزير ٠

ويجب على المرء مراعاة الاعتدال فى تناول الأطعمة « وكلوا وأشربوا ولا تسرفوا » (الأعراف : ٣١) ، ونهى الرسول صلى

الله عليه وسلم عن الاسراف فى الأكل والشرب فقال : « ما ملأ آدمى وعاء شرا من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فان كان لابد فاعلا ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه» (رواه أحمد والترمذى وغيرها) .

ولولا أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يخشى أن يشق على أمته لأمرها بالسواك قبل كل صلاة ، لما فى السواك من محافظة على سلامة الأسنان وطهارة الفم وحماية الجهاز الهضمى من فضلات الطعام .

وفى الصحيحين عن أبى قتادة أن النبى صلى الله عليه وسلم « نهى أن يتنفس فى الاناء » ، وفى رواية للترمذى « نهى أن يتنفس فى الاناء أو ينفخ فيه » ، كما روى الشيخان عن أبى هريرة أنه قال : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشرب من فى السقاء أو القربة » ، ولم تعد اليوم الحكمة الصحية خافية فى هذه التعليمات النبوية .

وقد حذر النبى صلى الله عليه وسلم من خطورة بعض الأمراض المعدية ، وأمر بتجنب المصابين بها ، فقال « فر من المجذوم فرارك من الأسد » (رواه البخارى) ، لأن الوقاية خير من العلاج ، لذلك قال تعالى «ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة» (البقرة: ١٩٥) ، أما اذا أصيب الانسان بالمرض - أيا كان نوع هذا المرض - فيجب عليه أن يطلب العلاج ، دون جزع ، وانما بتفاؤل وأمل فى الشفاء ، لأن « لكل داء دواء ، فاذا أصاب الدواء الداء برأ باذن الله عز وجل » (مسلم وأحمد وغيرهما) .

ويحتاج الطفل الى التربية الرياضية ، وهى من الحقوق الهامة التى يكفلها الاسلام ، لأن « المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف » (مسلم) ، ولقوله تعالى « ان خير من

استأجرت القوى الأمين » (القصص : ٢٦) . ان الجهاد فى سبيل الله يقتضى قوة البدن فضلا عن قوة العقيدة ، ومن أجل اعداد المؤمن القوى بدنيا دعا الاسلام الى ممارسة التمرينات الرياضية كالسباحة والرماية والمصارعة وركوب الخيل ، فقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كل شىء ليس من ذكر الله فهو لهو أو سهو الا أربع خصال: مشى الرجل بين الغرضين (للرمى) وتأديبه فرسه ، وملاعبته أهله ، وتعليمه السباحة » (رواه الطبرانى) ، وقال : « عليكم بالرمى فانه من خير لهوكم » (الطبرانى أيضا) ، ولذلك قال عمر بن الخطاب ـ فيما يروى البيهقى ـ « علموا أولادكم السباحة والرماية ، ومروهم فليثبوا على ظهور الخيل وثبا » .

٢ ـ التربية الجنسية :

واذا اقترب الأطفال من مرحلة المراهقة يجب أن يتجنبوا المثيرات الجنسية ، فأبناء عشر ينبغى أن يفرق بينهم فى المضاجع، وأن يستأذن الذين لم يبلغوا الحلم عند الدخول على الوالدين فى أوقات محددة ، وكذلك اذا بلغ الأطفال الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم (١) ، وعلى الذكور والاناث فى سن البلوغ أن يغضوا من أبصارهم وأن يحفظوا فروجهم (٢) .

ومن حق الجنسين أن تبين لهم أصول التربية الجنسية ، ومن يتدبر الكتاب والسنة يجد بيانا كاملا لهذه الأصول ، وعرضا

---

(١) راجع سورة النور : ٥٨ ـ ٥٩

(٢) راجع السورة السابقة : ٣٠ ـ ٣١

صريحا لجميع دقائقها (٣) ، مثال ذلك آداب الجماع ، وكيفية التطهر من الجنابة ، وأحكام الزنى (١) واللواط (٢) ، وظاهرة العادة السرية،وقد رأى جمهور الفقهاء « أن الاستمناء باليد حرام اذا كان لجلب الشهوة ، واثارتها وهى هادئة ، أما اذا غلبت الشهوة بحيث شغلت البال ، وأقلقت الخاطر ، وأوقفت على باب الفاحشة، وتعين الاستمناء طريقا لتسكينها فان الأمر جائز ومكافىء بعضه بعضا ، وينجو صاحبه رأسا برأس ، أى لا أجر عليه ولا وزر فلا يثاب ولا يعاقب » (٣) .

وقد شرع الاسلام الزواج ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم « النكاح سنتى فمن رغب عن سنتى فليس منى » (البخارى) ، ذلك لأن الزواج أغض للبصر ، وأحصن للفرج . ولكن ماذا يفعل الشباب فى غريزتهم الجنسية ان تعذر عليهم تحمل أعباء الزواج؟ ان من لم يستطع منهم الباءة فعليه بالصوم ، فانه له وجاء ، كما بين الرسول الكريم .

---

(٣) ينتقد برتراند رسل التعاليم المسيحية الصارمة فى مجال التربية الجنسية ، ذلك لان الديانة المسيحية منذ بدايتها نشرت الاعتقاد بأن هناك شيئا ما غير نقى عن الجنس ، وكان للاعتقاد المسيحى فى عدم طهارة الجنس آثار وخيمة، ولذلك يرفض رسل موقف المسيحية من التربية الجنسية . ويقول « انه من المهم فى جميع التصرفات مع الاحداث أن تمنعهم من الحصول على فكرة أن الجنس هو شىء ما بصورة خاصة قذر وسرى . ان الجنس موضوع هام،ومن الطبيعى للمخلوقات البشرية أن تفكر فيه ، وتتكلم عنه » (رسل : التربية والنظام الاجتماعى ، ص ١١١ — ١٢٣)

(١) راجع سورة الاسراء : ٣٢

(٢) راجع سورة الشعراء :١٦٥

(٣) محمد حامد : ردود على اباطيل ، ص ٤٢ ، نقلا عن تربية الأولاد : ١ / ٢٢٤ — ٢٢٥

تناقش التربية الاسلامية مثل هذه الأمور مناقشة دقيقة واضحة ، اذ لا حياء فى الدين · ولذلك كان المسلمون الأول يسألون الرسول صلى الله عليه وسلم عن جميع المسائل المتعلقة بهذا المجال ، حتى النساء كن يطرحن عليه أسئلة فى أمور الجنس، فها هى امرأه يقال لها خولة بنت حكيم ، تسأل النبى صلى الله عليه وسلم عما اذا كان على المرأة من غسل اذا احتلمت ، فيجيبها قائلا « اذا رأت الماء فلتغتسل » (رواه النسائى) ، وقد أثنت السيدة عائشة على نساء الأنصار ، فقالت : « رحم الله نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين » .

٣ ـ التربية العقلية :

وردت آيات كثيرة فى الحض عن استخدام القوة العاقلة فى الانسان وتنميتها ، مثال ذلك « أفلا يعقلون » (يس : ٦٨) ، « أفلا تتفكرون » (الأنعام : ٥٠) ، « أفلا ينظرون » (الغاشية : ١٧) · وكذلك وردت آيات فى ذم الذين لا يعقلون « ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » (الأنفال : ٢٢) ، وفى بيان أن اهمال التعقل علة دخول النار « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا من أصحاب السعير » (الملك : ١٠) · وهاجم القرآن المقلدين الذين يهملون النظر العقلى « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ولو كان اباؤهم لايعقلون» (البقرة : ١٧٠) ، وبين أن التقليد واماتة القوة العاقلة يؤدى الى الضلال «وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا» (الأحزاب : ٦٧) وسيندم الضالون عند رؤية عذاب الآخرة ، وسيتبرأ الذين قلدوا ممن قلدوهم وتابعوهم دون نظر وتبصر

« اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب • وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار » (البقرة : ١٦٦ ــ ١٦٧) •

ان العقل لم يخلق عبثا ، وانما من اجل وظيفة سامية ، وهى التفكير ، وثمرة التفكير العلم ، والدعوة الى طلب العلم كانت أول فريضة نزلت فى الاسلام « اقرأ باسم ربك الذى خلق • خلق الانسان من علق • اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم • علم الانسان ما لم يعلم » (العلق : ١ ــ ٥) ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » (رواه ابن ماجه عن أنس بن مالك) ، فالتعلم فى الاسلام اجبارى والزامى وبالعلم يتفاضل الناس ، ولا يتفاضلون بحسب أوجاه أو نفوذ أو سلطان « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (الزمر : ٩) ، ومن أفضل الأدعية أن يسأل المسلم ربه زيادة العلم « وقل رب زدنى علما » (طه : ١١٤) ، فلا ينبغى الاكتفاء بقدر معين من العلم ، أو التوقف عن تحصيل العلم عند مرحلة معينة فى الحياة ،وانما ينبغى طلب العلم من المهد الى اللحد ، لأن أحدا لن يصل الى نهاية طريق العلم مهما توغل فيه « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » (الاسراء : ٨٥) • لقد سبق الاسلام علماء النفس والتربية المحدثين القائلين ان « التعلم عملية مستمرة ، لا ينتهى منها الصغير ، ولا يتوقف عنها الراشد » (١) •

---

(١) دكتور سيد احمد عثمان : البيئة والشخصية فى افق تربية جديدة . القاهرة ، مكتبة الأنجلو ، ١٩٧٨ ،ص ٩

وقد يظن أن المراد بالعلم فى الاسلام العلم الدينى وحده (١)، ولكن الواقع غير ذلك ، فالعلم فى الاسلام يستخدم بالمعنى المتسع الذى يستخدم اليوم . تأمل القول المأثور الذى ينسب الى النبى صلى الله عليه وسلم « اطلبوا العلم ولو فى الصين » هل المراد هنا أن تطلب علوم الدين فى الصين !؟ بل تأمل هاتين الآيتين الكريمتين « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلف ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانهـا وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف الوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء » (فاطر : ٢٧ ــ ٢٨) أفليس المقصود هنا بالعلماء الذين يخشون الله العلماء فى شتى المجالات : علماء النبات والحيوان والجيولوجيا والارصاد الجوية ... ؟ .

ولئن ساد الظلام الفكرى فى أوروبا فى العصور الوسطى ، فان العالم الاسلامى قد شهد فى تلك العصور نهضة علمية كبرى فى مختلف الميادين بفضل تعاليم الدين الجديد ، وبفضل اتباع المسلمين للمنهج التجريبى ، واهتمامهم بالاستقراء ، فلمع فى سماء العلم نجوم من العلماء المسلمين الذين أضاءوا للبشريـة طريقها نحو التقدم ، وقامت على أكتافهم حضارة عريقة ، وبعد أن انقشع عن أوروبا الظلام الفكرى ، قامت النهضة الغربية على دعائم من التراث العلمى الاسلامى الذى ترجم الى اللاتينية .

---

(١) هذا هو مفهوم العلم عند الغزالى فى بعض كتبه مثل «ميزان العمل»، ورسالته «أيها الولد المحب « ، ولكن هذا المفهوم لم يكن وحده السائد فى كتابات الاسلاميين كما ظن الدكتور زكى نجيب محمود فى كتابه تجديد الفكر العربى ، ص ١٨١ . بل كان للغزالى نفسه موقف آخر ، اذ استخدم لفظ العلم بمعناه الواسع ، فى كتاب وضعه فى أواخر حياته ، وقبل أن يتوفى بخمس سنوات ، أعنى المنقذ من الضلال.

ولم يفرق الاسلام فى مجال العلم والتعلم بين الذكر والأنثى . روى الترمذى وأبو داود ـ واللفظ له ـ أنه عليه الصلاة والسلام قال : « من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات ، أو بنتان أو أختان ، فأدبهن ، وأحسن اليهن وزوجهن فله الجنة » ، وفى رواية « وأيما رجل كانت عنده وليدة (أى أمة) فعلمها فأحسن تعليمها ، وأدبها فأحسن تأديبها ، ثم اعتقها وتزوجها فله أجران » .

وجاء فى فتوح البلدان للبلاذرى أن أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب كانت تتعلم الكتابة فى الجاهلية على يد امرأة كاتبة تدعى « الشفاء العدوية » ، فلما تزوجها عليه الصلاة والسلام طلب الى الشفاء أن تعلمها تحسين الخط وتزيينه كما علمتها أصل الكتابة . هذا وقد ثبت تاريخيا أن المرأة فى ظل الاسلام وصلت الى أسمى درجات العلم والثقافة ، ونالت أكبر قسط من التربية والتعليم فى العصور الاسلامية الأولى (١) .

ومن القواعد التى وضعها الاسلام فى تحصيل العلم البدء فى عملية التعلم منذ الطفولة المبكرة ، حيث يكون الطفل أقوى ذاكرة . قال النبى صلى الله عليه وسلم ، فى الحديث الذى رواه البيهقى والطبرانى عن أبى الدرداء مرفوعا « العلم فى الصغر كالنقش فى الحجر » (٢) .

٤ ـ التربية الروحية والأخلاقية :

يحتل الانسان فى الاسلام منزلة سامية ، اذ خلقه الله فى

---

(١) تربية الأولاد : ١/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣
(٢) نفس المصدر : ١ / ٢٦٧

أحسن تقويم ، وكرمه ، وأمر الملائكة بالسجود لأبى البشرية آدم ، فسجدوا الا ابليس الذى أبى أن يسجد لبشر خلق من طين ، وغفل عن حقيقة الانسان . لقد ظن أنه مجرد مخلوق من طين ، ونسى أو تناسى أنه مركب من عنصرين : مادة طينية ، ونفخة روحية ، وأن الروح أشرف من المادة . قال تعالى : « فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » (سورة ص : ٧٢) لقد تحولت المادة الطينية بفضل هذه النفخة الالهية الى كائن بشرى اختصه الله من دون سائر الكائنات بالخلافة على الأرض .

وعلى هذا الأساس لا تهتم التربية الاسلامية بالجانب المادى فى الانسان فقط بل تشمل أيضا العناية بالجانب الروحى ، ولقد كان المسلمون الأول يحرصون على السمو بأرواح أولادهم وتهذيب نفوسهم ، ولذلك كانوا يهتمون بتعليمهم القرآن الكريم،وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، وسيرته ومغازيه ، لأن فى القرآن بيان مفصل بالفضائل الأخلاقية ، وكيفية اكتسابها ، وكذلك عرض شامل للرذائل والآثام ، وتحذير منها . ودعوة الى تجنبها ، وكذلك الحال فى أحاديث الرسول الكريم ، بل كانت سيرته تطبيقا عمليا للأخلاق القرآنية ، لقد كان خلقه القران ، ولذلك بعثه الله متمما لمكارم الأخلاق .

٥ ـ التربيـــة الاجتماعيـــة :

لا تقتصر التربية الاسلامية على بناء الانسان الفرد فقط ، بل ترمى أيضا الى اقامة المجتمع المتماسك ، وذلك عن طريق تنمية الشعور الجمعى لدى الفرد ، وترسيخ احساسه بالانتمـــاء الى

المجتمع ، وبأنه يرتبط مع سائر الافراد برباط المحبة والاخوة « انما المؤمنون أخوة » (الحجرات : ١٠) لأن الناس سواسية كأسنان المشط ، فهم جميعا خلقوا من ذكر وأنثى، ولذلك لاينبغى أن يفسدوا العلاقات الودية التى تربط بينهم ، فلا يسخر بعضهم من بعض ، ولا يملزوا أنفسهم ، أو يتنابزوا بالألقاب ، أو يغتاب بعضهم بعضا ، أما اذا وقع خصام بينهم ، أو قتال ، فانه ينبغى الاصلاح بينهم (١) ٠

وفى أهمية الترابط الاجتماعى يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » (رواه البخارى ومسلم) ، ويقول : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد اذ اشتكى منه عضو تداعى لـــه سائر الأعضاء بالحمى والسهر » (رواه مسلم وأحمد) ، ويقول : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره » (رواه مسلم) ٠٠

وتتضمن التربية الاجتماعية تنشئة المسلم على مراعاة حقوق الجار ، أيا كانت عقيدته ، والرفق فى معاملة الضعفاء ، والنهى عن قهر اليتيم ، ونهر السائل ، والأمر بمعاونة المحتاجين ، وزيارة المرضى ، وتبادل العبارات الرقيقة فى المناسبات المختلفة ، حتى ولو كان بمناسبة العطس ٠

واذا كان رجال التربية المعاصرون يؤكدون على أهميـــة الأقران والأصدقاء فى تربية الطفل ،ويذهبون الى أن الصداقة تزداد أهميتها كلما تقدم الطفل فى السن ، حتى اذا ما وصل الى

(١) راجع سورة الحجرات : ٧ — ١٢

الجامعة صارت أهمية الأقران بالنسبة له أعظم منها فى أى وقت آخر (١) . اذا كان الأمر كذلك ، فان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أكد هذا المعنى منذ أربعة عشر قرنا فى قوله « المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل » رواه الترمذى وأبو داود) ، وحذر من جليس السوء ، فقد روى ابن عساكر أنه قال : « اياك وقرين السوء فانك به تعرف » ، وأمرنا بانتقاء الصديق الصالح والتمييز بينه وبين الرفيق الفاسد ، فقال « مثل الجلس الصالح وجليس السوء كصاحب المسك ونافخ الكير . فصاحب المسك اما أن يحذيك واما أن تشترى منه واما أن تشم منه رائحة طيبة ونافخ الكير يحرق بدنك وثوبك أو تجد منه رائحة خبيثة » (رواه البخارى) .

أساليب التربية الاسلامية :

يختلف الناس فيما بينهم باختلاف شخصياتهم ، وتباين دوافعهم وميولهم، فما يصلح لتوجيه بعضهم قد لا يجدى مع غيرهم، والأسلوب الذى يستجيب له فريق من الناس قد لا يؤثر فى فريق آخر ، من أجل ذلك كانت للتربية الاسلامية وسائل متعددة ، وأساليب متباينة لتحقيق الأهداف التربوية ، وعلى مسئول التربية أن يجرب عمليا الأساليب التربوية المختلفة ، عسى أن يصل الى أكثرها تأثيرا ، وأنسبها تطبيقا ، ومن أهم هذه الوسائل ما يأتى:

١ ـ الحكمة والموعظة الحسنة :

قال تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة »

(١) رسل : فى التربية ، ص ١٢٧

(النحل : ١٢٥) وهذا يعنى عدم المبادرة الى اســـتخدام العنف والقسوة فى التعامل مع الكبار أو الصغار ، لأن هذا الأسلوب كثيرا ما يؤدى الى نتائج سلبية غير مرغوب فيها ، كالاعراض عن الاستجابة للتوجيه « ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضـــوا من حولك » (آل عمران : ١٥٩) .

هكذا تقضى التربية الاسلامية بالرفق فى المعاملة . قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « ان الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله » (أخرجه الشيخان) ، وروى البخارى عن أبى هريرة ، قال « بال أعرابى فى المسجد ، فقام الناس اليه ليقعوا فيه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : دعوه وأريقوا على بوله ســـجلا من ماء ، فانما بعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين » .

والحكمة كأسلوب تربوى تعنى التربية عن طريق الاقناع العقلى ، ومخاطبة الوجدان ، وهو أرقى أسلوب تربوى . انظر كيف كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستخدم هذا الاسلوب فى تربية الشباب ، فقد قال فتى — فيما يروى أبو أمامة : « يا رسول الله ائذن لى بالزنا ، فأقبل القوم عليه ، فزجروه ، وقالوا : مه . فقال : ادن ، فدنا منه قريبا . قال : اجلس ، فجلس . قال صلى الله عليه وسلم : أتحبه لأمك ؟ قال : لا والله جعلنى فداءك . قال : ولا الناس يحبونه لأمهاتهم . قال صلى الله عليه وسلم : أفتحبه لابنتك ؟ قال : لا والله يارسول الله جعلنى الله فداءك . قال : ولا الناس يحبونه لبناتهم . قال صلى الله عليه وســـلم : أفتحبه لأختك ؟قال : لا والله جعلنى الله فداءكقال : ولا الناس

يحبونه لأخواتهم • قال صلى الله عليه وسلم : أفتحبه لعمتك ؟ قال : لا والله جعلني الله فداءك ، قال : ولا الناس يحبونه لعماتهم • قال عليه السلام : أفتحبه لخالتك ؟ قال : لا والله جعلني الله فداءك • قال : ولا الناس يحبونه لخالاتهم • قال : فوضع يده صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : اللهم اغفر ذنبه ، وطهر قلبه ، وأحصن فرجه • قال : فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت الى شيء » (أخرجه أحمد والبيهقي في شعب الايمان) •

وقصص الأنبياء في القرآن الكريم دروس تربوية فيها خير موعظة ، وأفضل هدى ، لذلك قال تعالى : « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » (الاعراف : ١٧٦) ، كما يتضح ذلك من ملاحظة نهايات قصص الأنبياء ، كقصة موسى عليه السلام ، اذ يقول تعالى في نهايتها : « ان في ذلك لعبرة لمن يخشى » (النازعات : ٢٦) •

٢ ـ الأسوة الحسنة :

الا أن أسلوب المناقشة والحوار ، ومخاطبة العقل والوجدان ، لا يكفي مهما كان مقنعا ان كان قولا مجردا ليس تحته عمل موافق ، لذلك قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون • كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » (الصف : ٢ ـ ٣) كيف تجدي نصائح المربين وتوجيهاتهم اذا لم يكن سلوكهم موافقا لما يدعون اليه ؟ هل ينتفع مثلا التلاميذ بمحاضرة عن أضرار التدخين يلقيها معلم لا تكاد السيجارة تفارق فمه ؟ « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » (البقرة : ٤٤) •

على المربين اذن أن يجعلوا من أنفسهم قدوة صالحة لأبنائهم

وتلاميذهم ، كما كان معلم البشرية خير قدوة « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » (الأحزاب : ٢١) ، لانه لم يقتصر فى دعوته على التعليم النظرى ، فلم يكن يعلم الناس الاخلاق القرآنية فحسب ، بل لقد كان خلقه القرآن ، أى ان سلوكه العملى ، وما تحلى به من فضائل ، وما اتسم به من مكارم اخلاقية ، انما كان كل ذلك مطابقا لما ورد فى كتاب الله ٠

وقد لفت الرسول صلى الله عليه وسلم أنظار المربين الى أهمية اعطاء القدوة ، فيروى أبو داود والبيهقى عن عبد الله بن عامر ، قال : « دعتنى أمى يوما ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد فى بيتنا ، فقالت : يا عبد الله تعال حتى أعطيك ، فقال لها عليه الصلاة والسلام : ما أردت أن تعطيه ؟ قالت : أردت أن أعطيه تمرا ، فقال : أما أنك لو لم تعطيه شيئا كتبت عليك كذبة »٠ وعنه عليه الصلاة والسلام — فيما رواه أحمد وغيره — « من قال لصبى : تعال هاك ثم لم يعطه فهى كذبة » (١) ٠

٣ — الثواب والعقاب :

من أهم دوافع السلوك الانسانى الثواب والعقاب أو الترغيب والترهيب ، فأما الترغيب فيتمثل فى معاملة الأطفال باللين والرحمة والرفق ، وتشجيع المجتهد منهم باتاحة الفرصة له بالاستمتاع بألوان اللهو المشروع فى الاسلام ، كالاشتراك فى مسابقات العدو والمصارعة والرماية والفروسية والصيد ونحوها ٠

(١) تربية الأولاد : ٢ / ٦٥٣ — ٦٥٤

أما الترهيب أو العقاب فى نظر الاسلام ، فهو وسيلة لا يلجأ اليها المربى الا بعد فشل جميع الوسائل التربوية الأخرى . يقول أحد فلاسفة الاسلام وهو أبو الريحان البيرونى (١) (٣٦٢ — ٤٤٠ هـ) : « من كفاه التأديب بالكلام لا يؤدب بالسوط والسيف » (٢) .

لنتأمل طريقة القرآن فى معاملة الزوجات اللاتى يخشى نشوزهن ، يقول تعالى « فعظوهن وأهجروهن فى المضاجع وأضربوهن » (النساء : ٣٤) يبدأ التأديب بالوعظ ، أى الاقناع بالحكمة كما عرفنا من قبل ، فاذا لم يثمر الوعظ وجب العقاب وللعقاب درجات ، ينبغى البدء بأدنى درجاته ، وهى الهجر فى المضاجع ، فاذا لم يفلح الهجر ، امكن اللجوء الى الضرب غير المبرح اذا لزم الأمر .

ولنتدبر الدعوة القرآنية الى تحريم الخمر ، انها تقوم أيضا على التدرج فى استخدام الأساليب التربوية المختلفة ، فلقد علم الخبير العليم أن الانسان خلق ضعيفا ، وأنه لا يستطيع التخلص مما اعتاده ضربة واحدة ، فلما كان العرب فى الجاهلية اعتادوا شرب الخمر ، كان تحريمها دفعة واحدة انماهو تكليف بمالا يطاق، فأراد الرحمن الرحيم أن يخفف عن المسلمين الأول ، فدعاهم الى

---

(١) يرى دى بور أن البيرونى أولى بأن يعد تلميذا للكندى والمسعودى من أن يعتبر تلميذا للفارابى أو لابن سينا الذى هو أصغر منه سنا . وكان أكبرهمه متجها الى الرياضيات والفلك ومعرفة أحوال البلدان والأمم . سافر الى الهند ، ودرس ثقافتها ، ودون دراسته فى كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة » (تاريخ الفلسفة فى الاسلام ، ص ٢٦٩) .

(٢) البيهقى : تاريخ حكماء الاسلام ، ص ٧٤

التخلص من سلطان الخمر شيئا فشيئا ، وفقا للمراحل الآتية :

أ — دعوة المسلمين الى عدم اقامة الصلاة وهم سكارى ، مع بيان سبب هذه الدعوة لكى يقتنعوا بها « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » (النساء: ٤٣) وكانت نتيجة هذه الدعوة أن قل تناول الخمر ، للتمكن من تأدية الصلوات الخمس المكتوبة ، ولم يعد فى الامكان تناول الخمر الا بعد صلاة العشاء ، بل أدرك بعض المسلمين أن وراء هذه الدعوة شيئا ما ، فمنهم من امتنع تماما عن تعاطيها ، ومنهم من سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن حقيقة أمرها ، وانتظروا الاجابة من السماء .

ب — نزول قوله تعالى : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما » (البقرة : ٢١٩) . اجابة تحمل طابع المناقشة والتحليل والاقناع ، وتستهدف هذه الدعوة الجديدة حمل أكثر الناس على النفور من الخمر ، وكانت النتيجة اقلاع الغالبية عن تعاطيها ، ولم يبق سوى قلة تعلقوا بها .

ج — التحريم القاطع فى قوله تعالى : « يا أيها الذين أمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » (المائدة : ٩٠) . وهكذا جاء التحريم فى هذه المرحلة الاخيرة بعد تمهيد وتدريب ، فأصبح تنفيذ هذا النهى التام عن الخمر أمرا ميسورا ، ووجب عقاب العاصى حتى يمتثل لامر الله .

وكذلك الحال فى تربية الاطفال وتأديبهم ، ينبغى أن تقوم على التدرج ، ان تعويدهم الصلاة يجب أن يبدأ بالتعليم منذ بلوغهم سن السابعة ، ولاينبغى اللجوء الى عقابهم بالضرب على تعمد تركها الا بعد أن يبلغوا العاشرة · روى الحاكم وأبو داود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع » ·

فان كان ينفع مع الولد النصح والوعظ ، فلا يجوز للمربى أن يلجأ الى الهجر ، وان كان ينفع الهجر ، فلا يجوز له أن يلجأ الى الضرب ،واذا عجز المربى عن اصلاح الولد وتقويم اعوجاجه ، بعد أن اتخذ كل الوسائل التأديبية والزجرية ، فعندئذ يلجأ الى الضرب غير المبرح (١) · أى أن لعقوبة الضرب شروطا (٢) يمكن ايجازها فيما يلى :

أ — ألا يلجأ المربى الى الضرب الا بعد استنفاذ جميع الوسائل التأديبية والزجرية ·

ب — ألا يضرب وهو فى حالة غضبية شديدة ، أخذا بوصية النبى صلى الله عليه وسلم « لا تغضب » كما روى البخارى ، وذلك مخافة الحاق الضرر بالولد ، عملا بقوله « لا ضرر ولا ضرار » ·

جـ — أن يتجنب فى الضرب الاماكن المؤذية أو الحساسة

---

(١) علوان : تربية الأولاد : ١ / ٦٠ — ٦١ ، ١ / ٣٢٤ — ٣٢٥
(٢) نفس المصدر : ٢ / ٧٦٩

كالرأس والوجه لقوله صلى الله عليه وسلم « ... ولا تضرب الوجه » (رواه أبو داود) .

العلم والتعليم :

يحتل العلم أعلى مكانة فى الاسلام ، وعرف المسلمون منذ فجر الاسلام أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ، فكان المسجد هو المدرسة الأولى فى الاسلام ، وكان عامة الناس الذين يرغبون فى تعليم أولادهم يبعثون بهم الى المساجد ، حيث كانت تعقد حلقات لدراسة القرآن والحديث ، أى أن المساجد كانت تقوم فى عصور الاسلام الأولى مقام المدارس والجامعات . وكانت الدراسة فى المساجد أول الأمر دينية خالصة ، فلمازاد احتكاك المسلمين بحضارات الفرس والهند واليونان وغيرهم ، وتأثروا بثقافات هذه الشعوب ، اقتحمت العلوم الاجنبية المسجد لتفرض نفسها على الدراسة فيه ، جنبا الى جنب مع العلوم الدينية (١) ، ومن أهم المساجد التى اشتهرت كمؤسسات تعليمية جامع عرو بن العاص الذى بدأ التدريس فيه منذ جلس عبد الله بن عمرو بن العاص يعلم الناس فى مصر أحكام الدين ، وكذلك كان جامع ابن طولون والجامع الأزهر من أشهر مراكز التعليم ، كما كانت الجوامع الكبرى فى المدن الاسلامية تقوم بمهمة التعليم ، مثال ذلك جامع بغداد ، وجامع دمشق ، وجامع صنعاء ، وكانت المساجد تقوم أيضا بوظيفة الخزائن للكتب ، ثم أسست المكتبات العامة والخاصة الى

---

(١) حسن عبد العال : التربية الاسلامية ، ص ١٨٨ — ١٩٠ ، محمد فوزى العتيل : التربية عند العرب ، ص ١٦ .

جانب مكتبات المساجد ، وكان الحكام يحرصون على تأسيس مكتبات ضخمة ، واقتناء الكتب النفيسة ·

وانشئت دور العلم المنفصلة عن المساجد فى كثير من المدن الاسلامية ، فقد أنشأ المنصور فى بغداد مستشفى ومدرسة للطب ، ثم أسس المأمون دار الحكمة ، فكانت مركزا نشيطا لترجمة التراث اليونانى ، ومجمعا علميا ، ومكتبة عامة ، وألحق بها مرصد لتعليم الفلك ·

وبالاضافة الى ذلك كانت هناك المجالس العلمية والادبية والفلسفية ، فى قصور رجال الدولة من الامراء والوزراء وكذلك فى منازل العلماء ، بل حتى فى حوانيت الوراقين · وكان يحضر هذه الندوات كبار المفكرين فى شتى المجالات : فى الفلسفة والطب والفلك وعلم الكلام والفقه والادب وغيرها ، والى جانب العلماء كان يحضر الكثير من طلاب العلم · ويرسم لنا أبو حيان التوحيدى (١) فى بعض كتبه كالامتاع والمؤانسة ، والمقابسات صورة دقيقة لما كان يدور فى تلك المجالس ، وبخاصة فى مجلس شيخه أبى سليمان السجستانى المنطقى (ت · بعد سنة ٣٩١) ومجلس الوزير ابن سعدان ، وكانت الجلسة تدور حول مناقشة قضية أو أكثر ، يثيرها فى بداية الجلسة أحد الحاضرين ، فيلقى سؤالا ، أو يثير مشكلة ، ثم يشرع الزملاء فى التماس الحلول لها ، وكثيرا ما كانت الحلول تفضى الى اثارة مشكلات جديدة ،

---

(١) راجع رسالتنا للدكتوراه « متفلسفة بغداد فى القرن الرابع الهجرى » · كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، ١٩٧٧

وهكذا تتولد باستمرار الأسئلة والاستفسارات ، كمـــا تتوالى الاجابات والحلول .

أمـــا المدارس فقد انشئت فى القرن الرابـع الهجرى ، وانتشرت فى القرون التالية ، ومن أشهر مدارس ذلك القرن الرابع مدرسة أبى على الحسينى (ت . سنة ٣٩٣) بخراسان ، وكانت لتعليم الحديث ، وكان بها نحو من ألف طالب ، وكذلك مدرسة ابن فورك (ت. سنة ٤٠٦) بخراسان أيضا .

ولم يرحب كثير من العلماء فى بادىء الأمر بانشاء المدارس، وظنوا أن العلم سيبذل لغير أهله ، لأن المدارس تتيح فرصة التعليم للمخلص وغير المخلص ، بعد أن كان طالب العلم الجاد يبذل المجهود فى طلب الشيوخ ،ويتجشم مشقة السفر ، وبذل المال ، من أجل الحصول على العلم من أهله . ويروى أن علماء ما وراء النهر عندما علموا بانشـــاء المدارس وجلب العلماء لها أقاموا مأتما للعلم ، لأنهم حسبوا ذلك يؤدى الى ضياعـــه وفساد الأمر (١) . ولكن انشاء المدارس كان سببا فى كثرة التأليف وكثرة التحصيـــــل واطلاع الطالب على عدة من فروع العلم .

وقد تولى الملوك والامراء والوزراء وغيرهم من الاغنياء مهمة انشاء المدارس اما تدعيما لنفوذهم ، أو خدمة لدينهم ، أو تأييدا لمذاهبهم ، مثال ذلك الازهر الذى أنشأه الفاطميون اذاعة للمذهب الشيعى (الباطنى) ، فقامت حركة مناهضة للباطنية ، كان من نتائجها أن أنشأ نظام الملك السـلجوقى ، وزير الســـلطان ألب

---

(١)ابوزهرة : ابن تيمية ، ص ١٥٦ وما بعدها .

أرسلان ، مدارس لتأييد المذهب السنى فى بغداد (التى ترأسها أبو حامد الغزالى) ونيسابور (التى ترأسها شيخه امام الحرمين الجوينى) والبصرة والموصل ومروه وهراة وبلخ وأصبهان وكان الطلبة يتمتعون فى أغلب هذه المدارس بالسكن والمأكل ، بل وكان الكثير منهم يتمتع بمرتبات أو مكافآت مدرسية • ثم جاء محمود نور الدين زنكى فأنشأ مدارس فى دمشق وحلب وحمص وغيرها من مدن الشام ، ثم جاء صلاح الدين الايوبى فأكثر من انشاء المدارس بالشام ومصر ، لتأييد المذهب السنى ، فأنشأ مدرسة للشافعية وأخرى للمالكية • ووضع للمدارس نظما ثابتة مقررة ، ولما جاء المماليك ساروا على سنة الايوبيين ، فاهتموا بالمدارس ، وحبسوا الأحباس عليها •

الفصل الثالث

ابن قيم الجوزيـــة

التربيـــة تبدأ منذ الولادة

حياته ، واهتمامـــه بالتربيـــة :

هو (١) الامام أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبى بكر ، الشهير بابن قيم الجوزيـة ، ولد فى دمشق فى السابع من صفر سنة ٦٩١ ،وتوفى فى اليوم الثالث عشر من شهر رجب سنة ٧٥١ . كان مفكرا سلفيا واسع العلم ، عارفـــا بالخلاف بين المذاهب ، عنى بالحديث وفنونه ورجاله ، واشتغل بالفقه وأصول الدين ، وناقش الفلاسفة فى كثير من نظرياتهم . تتلمذ ابن القيم على شيوخ كثيرين ، وأخذ منهم ، وروى عنهم ، الا أنـــه تأثر كثيرا

---

(١) من أهم الأبحاث عنه مايلى :

• دكتور عوض الله جاد حجازى : ابن القيم وموقفه من التفكير الاسلامى (رسالة قدمت للجامعة الأزهرية سنة ١٩٤٧) . القاهرة ، الشركـــة المصريـــة للطباعة والنشر ، ١٩٧٢ .

• دكتور عبد العظيم عبد السلام شرف الدين : ابن قيم الجوزيـــة عصره ومنهجه وآراؤه فى الفقه والعقائد والتصوف (قدمت سنـــة ١٩٥٥) . القاهرة ، الدار القومية للطباعة ، ١٩٦٧ .

• محمد احمد السنباطى : منهج ابن قيم فى التفسير . القاهرة ، المطبعـــة الأميرية ، ١٩٧٣ .

• احمد ماهر محمود البقرى : ابن القيم من آثاره العلمية . الاسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٧٧ .

• دكتورة سعاد عبد الرازق : التصوف عند ابن القيم . رسالـة للحصـ[illegible] على درجة الدكتوراه فى الفلسفة من كلية البنات جامعة عين شمس ، ١٩٧٨ .

بأستاذه شيخ الاسلام ابن تيمية ، فقد لازمه أكثر من ست سنوات ، فاحبه ، وآخذ عنه الكثير من آرائه ، فلا يكاد يخرج عن شيء من أقواله (١) .

وضع ابن القيم مصنفات عديدة فى مختلف المجالات . ومن أهم مؤلفاته فى مجال التربية كتابه « تحفة المودود بأحكام المولود » ، ولقد صدق حين امتدح كتابه المذكور ، وقال : « فجاء كتابا بديعا فى معناه ، مشتملا من الفوائد على ما لا يكاد يوجد فى سواه .. فهو كتاب ممتع لقارئه ، معجب للناظر فيه ، يصلح للمعاش والمعاد ، ويحتاج مضمونه كل من وهب له شيء من الأولاد » (٢) .

يتكون الكتاب من سبعة عشر بابا ، يلتزم المؤلف فى الأبواب الخمسة عشر الأولى بالمنهج السلفى الخالص الذى يستند فى عرض الموضوعات على الكتاب والسنة ، وأقوال الصحابة والتابعين، فضلا عن تأييد ذلك بالأدلة العقلية ، اذ لا تعارض بين العقل والنقل . « فما جاءت به الرسل مع العقل ثلاثة أقسام لا رابع لها البتة (١) قسم شهد به العقل والفطرة (٢) وقسم يشهد بجملته ولايهتدى لتفصيله (٣) وقسم ليس فى العقل قوة ادراكه (٤) أما القسم الرابع وهو ما يحيله العقل الصريح ويشهد ببطلانه ، فالرسل بريئون منه ، وان ظن كثير من الجهال المدعين للعلم والمعرفة ، أن بعض ما جاءت به الرسل يكون من هذا القسم ، فهذا

---

(١) الشوكانى : البدر الطالع : ٢ / ١٤٣

(٢) ابن القيم : تحفة المودود ، ص ٨ — ٩

اما لجهله بما جاءت به واما لجهله بحكم العقل أولهما » (١) .

أما البابان الأخيران ، أعنى السادس عشر والسابع عشر ، فالى جانب الكتاب والسنة وآراء السلف ، يستند ابن القيم الى أقوال بعض الأطباء القدماء من أمثال بقراط وجالينوس .

ويثبت ابن قيم الجوزية فى هذا الكتاب أن التربية الاسلامية تشمل جميع المراحل التى يمر بها الانسان ، منذ أن كان جنينا فى رحم أمه ، لذلك عنى ببيان الاطوار المختلفة للانسان « من وقت كونه نطفة الى استقراره فى الجنة أو النار » انطلاقا من قوله تعالى « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة . فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقا آخر، فتبارك الله احسن الخالقين، ثم انكم بعد ذلك لميتون ، ثم انكم يوم القيامة تبعثون » (المؤمنون : ١٢ — ١٦) ، فاستوعبت هذه الآيات الكريمة ذكر أحوال ابن آدم قبل كونه نطفه ، بل ترابا وماء الى حين بعثه يوم القيامة (٢) .

ونوع الله سبحانه أحكامه على الانسان « من حين خروجه الى هذه الدار الى حين يستقر فى هذا القرار ، وقبل ذلك وهو فى الظلمات الثلاث ، كانت أحكامه القدرية جارية عليه ومنتهية اليه، فلما انفصل عن أمه تعلقت به أحكامه الامرية ، وكان المخاطب

---

(١) ابن القيم : تحفة المودود ، ص ٢٠٦ ، وكذلك كتابه : الروح . بيروت دار الكتب العلمية ، ١٩٧٩ ، ص ٦٢

(٢) تحفة المودود ، ص ١٩١

بها الأبوين أو من يقوم مقامهما فى تربيته والقيام عليه ، فلله سبحانه فيه أحكام أمر قيمه بها ، مادام تحت كفالته ، فهو المطالب بها دونه ، حتى اذا بلغ حد التكليف تعلقت به الأحكام ، وجرت عليه الأقلام » (١) ٠

أما فيما يتعلق بآراء ابن القيم فى المراحل المختلفة التى يمر بها الجنين ، والتى أعتقد أنها خارجة عن نطاق بحثنا ، فقد عنى بها أحد أساتذة الوراثة والتحسين الوراثى فى جامعة حلب ، وهو الدكتور محمد مروان السبع (٢) ، وأبرز دور ابن القيم فى العلوم البيولوجية ، عندما تحدث عن أصل النسل وكيفية الاخصاب والعلوق ، وذكر أطوار الجنين ، وتحديد نوعه ، وبين الدكتور السبع كيف أن ابن القيم سبق العلماء الأوروبيين المتأخرين فى كثير من آرائهم ، وأن عرض عالمنا السلفى وتحليله يتسم بالدقة العلمية المذهلة ٠

الدعوة الى الانجاب :

١ — استحباب طلب الأولاد :

هو عنوان الباب الأول فى كتاب تحفة المودود ، يذهب فيه ابن القيم الى أن المقصود من قوله تعالى « فالآن باشروهن وابتغوا ماكتب الله لكم » (البقرة : ١٨٧) أن الله خفف عن الأمة باباحة

---

(١) نفس المصدر ، ص ٨

(٢) راجع مقالته «عندما كتب ابن القيم فى الحمل والولادة والرضاع» ، مجلة العربى الكويتية ، العدد ٢٦٢ ، سبتمبر ١٩٨٠ ، وكذلك مقالته «ولد أم بنت» بالمجلة المذكورة ، العدد ٢٥٧ ، ابريل ١٩٨٠

الجماع ليلة الصوم الى طلوع الفجر ، وأرشدهم سبحانه الى أن يطلبوا رضاه فى مثل هذه اللذة ، ولا يباشروها بحكم مجرد الشهوة ، بل يبتغوا بها ما كتب الله لهم من الاجر عن الولد الذى يخرج من أصلابهم ، يعبد الله لا يشرك به شيئا ٠

وتؤكد الأحاديث الشريفة استحباب طلب الاولاد ، مثال ذلك مايروى عن أنس أنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يأمر بالباءة ، وينهى عن التبتل نهيا شديدا ويقول : تزوجوا الودود الولود ، فانى مكاثر بكم الانبياء يوم القيامة » (رواه أحمد وأبو حاتم) ، وعن معقل بن يسار قال : جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « انى أصبت امرة ذات حسن وجمال ، وانها لا تلد ٠ أفأتزوجها ؟ قال : لا ، ثم أتاه الثانية فنهاه ، ثم أتاه الثالثة ، فقال : تزوجوا الودود الولود ، فانى مكاثر بكم » (رواه أبو داود والنسائى والحاكم) ، وعن عبد الله بن عمر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « انكحوا أمهات الاولاد فانى أباهى بكم يوم القيامة » (رواه أحمد) ٠

ويستحب طلب الولد لأنه ان عاش بعد أبويه نفعهما ، وان مات قبلهما نفعها أيضا ، ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة أنه قال : « أتت امرأة بصبى لها ، فقال : يانبى الله ، أدع الله له ٠ فلقد دفنت ثلاثة ، فقال : دفنت ثلاثة ؟ قالت : نعم ٠ قال لها لقد احتظرت بحظار شديد من النار ، فالولد انه ان عاش بعد أبويه نفعهما ، وان مات قبلهما نفعهما » ٠

أما عن النفع الذى يتحقق للآباء عند موت أولادهم قبلهم

فيقصد به الجنة التى يدخلهم الله فيها بفضل رحمته اياهم وصبرهم على البلاء ، ففى صحيح البخارى من حديث أنس ، قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من الناس مسلم يموت له ثلاثة من الولد ، لم يبلغوا الحنث ، الا أدخله الله الجنة بفضل رحمته اياهم » ٠

أما عما ينتفع به الآباء عندما يموتون قبل أولادهم ، فهو دعاء الاولاد ، واستغفارهم لهم ، فقد روى مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اذا مات انسان انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » ، كما ورد عن أبى هريرة أيضا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « ان العبد لترفع له الدرجة ، فيقول : أى رب أنى لك هذا ؟ فيقول : باستغفار ولدك لك من بعدك » (١) ٠

٢ — الرد على دعاة تحديد النسل :

كان من أئمة أهل السنة من دعى الى قلة العيال ، مثال ذلك الامام الشافعى رحمه الله ، الذى استند الى قوله عز وجل « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أنى ألا تعولوا » (النساء : ٣) ٠ قال الشافعى : « أن لا تكثر عيالكم ، فدل على أن قلة العيال أولى » ، فكلمة « تعولوا » فى نظر الشافعى تعنى « تكثر عيالكم » ، والدليل اللغوى على ذلك هو قول الكسائى

---

(١) تحفة المودود ، ص ١١ — ١٤

«ومن الصحابة من يقول : عال يعول اذا كثر عياله • قال الكسائى : وهو لغة فصيحة سمعتها من العرب » •

ويبطل ابن القيم هذا التفسير للآية المذكورة ، مبينا أن جمهور المفسرين من السلف والخلف قد خالفوا رأى الشافعى ، قالوا : معنى الآية : ذلك أدنى أن لا تجوروا ولا تميلوا ، فانه يقال . عال الرجل يعول اذا مال وجار ، وأما كثرة العيال فليس من هذا اشتقت ، ولكن من : أفعل ، يقال أعال الرجل يعيل اذا كثر عياله •

كما أن هذا التفسير الذى ذهب اليه الشافعى يتعارض مع الأدلة النقلية السابقة على استحباب تزوج الولود ، واخبار النبى صلى الله عليه وسلم أنه يكاثر بأمته الأمم يوم القيامة •

وسياق الآية مخالف لهذا التفسير ، ففى أولها « وان خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » ، فدلهم سبحانه على ما يتخلصون به من ظلم اليتامى وهو نكاح ما طاب لهم من النساء البوالغ ، ثم دلهم على ما يتخلصون به من الجور والظلم فى عدم التسوية بينهن ، فقال : «فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم • • • » ، لقد أخبر سبحانه أن الواحدة أو ملك اليمين أدنى الى عدم الميل والجور • ولو كان المقصود فى الآية قلة العيال . لما قيل لهم : لكم أن تتسروا بما شئتم بملك اليمين •

ولا يليق التعليل بقلة العيال ، لأنه سبحانه قال : « فان خفتم ألا تعدلوا ولم يقل : وان خفتم أن تفتقروا أو تحتاجوا •

وأخيرا فانه عز وجل اذا ذكر حكما منهيا عنه ، وعلل النهى بعلة ، أو أباح شيئا وعلل عدمه بعلة ، فلابد أن تكون العلة مضادة لضد الحكم المعلل ، وقد علل سبحانه اباحة نكاح غير اليتامى والاقتصار على واحدة او ملك اليمين ، بأنه أقرب الى عدم الجور ، ومعلوم أن كثرة العيال لاتضاد عدم الحكم المعلل ، فلا يحسن التعليل به (١) ٠

٣ ـ كراهة تسخط البنات :

يقوم الاسلام على العدل والمساواة ، فلم يفرق فى حسن المعاملة بين البنين والبنات لأن الله وحده هو الذى يهب الجنسين، وفقا لمشيئته المطلقة « لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور » (الشورى : ٤٩) ، وبذلك أخبر تعالى أن ما قدره بين الزوجين من الولد ، فقد وهبهما اياه ، وكفى بالعبد تعرضا لمقته أن يتسخط ما وهبه ٠

ولكن ما وجه الحكمة فى أنه سبحانه قد بدأ الآية السابقة بذكر الاناث ؟ يعرض ابن القيم لبعض الاقوال المختلفة فى هذا الصدد ، فقيل : جبرا لهن لأجل استقبال الوالدين لمكانهما ، وقيل هو أحسن انما قدمهن ، لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء ، لا ما يشاء الأبوان ، فان الأبوين لا يريدان الا الذكور غالبا ، وهو سبحانه قد أخبر أنه يخلق ما يشاء ، فبدأ بذكر الصنف الذى يشاء ولا يريده الأبوان ٠

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٤ ـ ١٧ ٠

وعند ابن القيم وجه آخر،وهو أنه تعالى قدم ما كانت تؤخرة الجاهلية من أمر البنات حتى كانوا يئدوهن ، أى أن هذا النوع المؤخر الحقير عندكم — مقدم عندى فى الذكر تأمل كيف نكر سبحانه الاناث وعرف الذكور ، فجبر نقص الآنوثة بالتقديم ، وجبر نقص التأخير بالتعريف ٠ وهكذا يريد ابن القيم آن يلفت الأنظار الى أن الآية تتضمن المساواة بين الجنسين ، واستهجان التسخط بالاناث ، لأنه من أخلاق الجاهلية الذين ذمهم الله فى قوله «واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ٠ يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون » (النحل : ٥٨ — ٥٩) ٠

ويورد ابن قيم الجوزيه من الأحاديث النبوية ما يثبت أن من وهب ثلاث بنات أو اثنتين أو حتى واحدة ، وأحسن تربيتهن دخل الجنة ، مثال ذلك ما ورد فى صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك « من عال جاريتين حتى تبلغا ، جاء يوم القيامة أنا وهو هكذا ، وضم اصبعيه » ٠

ان الله تعالى قال فى حق النساء « فاذا كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » (النساء : ١٩) ، وهكذا البنات أيضا ، قد يكون للعبد فيهن خير فى الدنيا والآخرة ٠

ويكفى فى قبح كراهتهن أن يكره ما رضية الله ، وأعطاه عبده ، ولقد كان بعض السلف كالامام احمد بن حنبل اذا ولد له ابنة ، يقول : « الأنبياء كانوا آباء بنات » (١) ٠

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٨ — ٢٢ ٠

٤ ـ التهنئة بالمولود :

لما كان الانجاب أمرا مستحبا ، لزم التهنئة بمقدم المولود الجديد ، ويشير ابن القيم الى بعض آيات فى قصص الانبياء تحمل البشرى لهم بمولد الأولاد ، كقوله تعالى عن ابراهيم « فبشرناه بغلام حليم » (الصافات : ١٠١) ، ويستفاد من ذلك أن البشارة ـ لما كانت تسر العبد وتفرحه ـ استحب للمسلم أن يبادر الى مسرة أخيه واعلامه بما يفرحه ، ولذلك استحب بشارة من ولد له ولد وتهنئته ·

وكان الناس فى الجاهلية يقولون فى تهنئتهم بالنكاح « بالرفاء والبنين » . والرفاء : الالتحام والاتفاق ، أى تزوجت زواجا يحصل به الاتفاق والالتحام بينكما ، والبنون : فيهنئون سلفا وتعجيلا ، ولكن من سيئات الجاهلية أن كثيرا منهم كانوا يهنئون بمولد الابن وبوفاة البنت دون ولادتها ، ولكى نتخلص من سيئة الجاهلية ، لا ينبغى للرجل أن يهنىء بالابن ولا يهنىء بالبنت ، بل يهنىء بهما أو يترك التهنئة بهما ·

ومن عبارات التهانى الرقيقة التى تقال فى مناسبة قدوم مولود جديد ، ، ما ورد عن الحسن البصرى (ت · سنة ١١٠ هـ) : « ··· قل : بورك فى الموهوب ، شكرت الواهب ، وبلغ أشده ، ورزقت بره » (١) ·

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢٣ ـ ٢٤ ·

أحكام المولود بعد ولادته :

يذهب برتراندرسل الى أن الأقدمين كانوا يعتبرون السنة الأولى من الحياة خارج نطاق التربية . فكان الرضيع يترك الى أن يتكلم لعناية الامهات والمربيات بغير رقابة عليهن ، ولكن أهمية السنة الأولى فى تربية الطفل لم تدرك الا حديثا (٢) • ولئن صدق كلام الفيلسوف البريطانى المعاصر على العالم الغربى ، فانه لا يصدق على العالم الاسلامى، فها هو ابن قيم الجوزية يذكر كثيرا من أحكام المولود المتعلقة به منذ اللحظة الاولى التى يخرج فيها من بطن أمه، والتى ينبغى أن يراعيها الأبوان أو من يقوم مقامهما فى تربيته ، ويستمد هذه الاحكام من السنة المطهرة •

١ — استحباب التأذين والاقامة :

تدل الروايات على أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أذن فى الاذن اليمنى للحسن بن على وأقام فى أذنه اليسرى حين ولدته فاطمة ، وأنه صلى الله عليه وسلم دعا الى ذلك • وسر التأذين — فيما يرى ابن القيم — أن يكون أول ما يقرع سمع الانسان كلماته المتضمنة لكبرياء الرب ، وعظمته ، والشهادة التى أول ما يدخل بها فى الاسلام ، فكأن ذلك كالتلقين له شعار الاسلام عند دخوله الى الدنيا كما يلقن كلمة التوحيد عند خروجه منها •

وغير مستنكر وصول أثر التأذين الى قلب المولود ، وتأثره به، وان لم يشعر • مع ما فى ذلك من فائدة أخرى ، وهى هروب

---

(٢) رسل : في التربية ، ص ٦٥ •

الشيطان من كلمات الاذان ، وهو الذى كان يرصده حتى يولد ، فبالاذان يسمع شيطانه ما يضعفه ويغيظه أول أوقات تعلقه به٠

وفيه معنى آخر ، وهو أن تكون دعوته الى الله ، والى دينه الاسلام ، والى عبادته ، سابقة على دعوة الشيطان،كما كانت فطرة الله ــ التى فطر الناس عليها ــ سابقة على تغيير الشيطان لهـــا ، ونقله عنها (١)٠

٢ ــ استحباب تحنيكـــه :

يستحب تحنيك المولود عقب ولادته ، ويقصد بالتحنيك مضغ تمرة ، ودلك حنك المولود بها ، وذلك بوضع جزء من المضـــوغ على الأصبع ، وادخال الأصبع فى فم المولود ، ثم تحريكه بحركـــة لطيفة ، وان لم يتيسر التمر فليكن التحنيك باية مادة حلوة ٠

ويستدل ابن القيم على استحباب التحنيك بمـــا ورد فى الصحيحين من حديث أبى بردة عن أبى موسى ، قال : « ولد لى غلام ، فأتيت به النبى عليه السلام ، فسماه ابراهيم ، وحنكـــه بتمرة » ، زاد البخارى «ودعا له بالبركة ، ودفعه الى ، وكان أكبر ولد أبى موسى » ، وثمت أحاديث أخرى فى اســـتحباب تحنيك المولود ، يوردها ابن القيم (٢) ، وتبين أن « النبى عليه الصلاة والسلام،كان من عادته تحنيك الاطفال بالتمر عند ولادتهم»(٣)٠

---

(١) تحفة المودود ، ص ٢٥ ــ ٢٦ ٠
(٢) نفس المصدر ، ص ٢٧ ــ ٢٨ ٠
(٣) نفس المصدر ، ص ١٧١ ٠

ولعل الحكمة فى تحنيك المولود تقوية عضلات فمه ، بحركة اللسان مع الحنك مع الفكين بالتلمظ ، حتى يتهيأ المولود للقم الثدى ، وامتصاص اللبن ، بشكل قوى ، وحالة طبيعية (١) ٠

٣ ــ وجوب العقيقـــــة :

يخصص ابن القيم بابا كبيرا (٢٢ فصلا) فى كتابه تحفة المودود ، وهو الباب السادس فى العقيقة وأحكامها ، ويثبت فيه أنها سنة واجبة ٠ وفى اللغة ــ فيما يذكر أبو عبيد عن الاصمعى وغيره ــ أن العقيقة أصلها الشعر الذى يكون على رأس الصبى حين يولد ، وتسمى الشاة التى تذبح عنه عقيقة ، لأنه يحلق عنه ذلك الشعر عند الذبح ٠ أما فى رأى الامام أحمد بن حنبل فالعقيقة هى الذبح نفسه ، ويقال : عق اذا قطع (٢) ٠

واختلف العلماء فى مشروعية العقيقة ، فمنهم من كرهها ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم سئل عنها ، فقـــــال : لا أحب العقيقة ، قالوا : لأنها من فعل أهل الكتاب ، اذ كانت اليهود تعق عن الغلام ، ولا تعق عن الجارية ، وكذلك كان العرب فى الجاهلية ، فأبطلها الاسلام (٣) ٠ وقد بين الامام أحمد فساد قول من كرهها ، وقال : هذا لقلة علمهم ، وعدم معرفتهم بالاخبار ، والنبى صلى الله عليه وسلم قد عق عن الحسن والحسين ، وفعله أصحابه (٤) ٠

ويرى أهل الحديث قاطبة والفقهاء وجمهور أهل السنة ، أن العقيقة سنة عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، واحتجوا على ذلك

---

(١) علوان : تربية الاولاد : ١/٧١ ٠
(٢) تحفة المودود ، ص ٣٨ ــ ٣٩ ٠
(٣) نفس المصدر ، ص ٣١ ــ ٣٢ ٠
(٤) نفس المصدر ، ص ٣٦ ــ ٣٨ ٠

بما روى البخارى عن سلمان بن عامر الضبى · قال النبى صلى الله عليه وسلم : « مع الغلام عقيقة فأهريقوا عنه دما ، وأميطوا عنه الأذى » · وعن سمرة أنه قال : « كل غلام رهينة بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه ، ويسمى فيها ، ويحلق رأسه » (رواه أهل السنن كلهم ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح) ·

واختلف العلماء فى تسمية العقيقة بهذا الاسم ، فكرهت هذه التسمية طائفة ، لأن لفظ عق يعنى قطع ، ومنه عق والديه اذا قطعهما ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يكره الأسماء القبيحة ، ومن الواضح أن العقيقة اسم قبيح لأن بينه وبين العقوق تناسب وتشابه (١) · وقالت طائفة أخرى : لا نكره تسمية العقيقة ، ورأوا اباحته ، واحتجوا بحديث سمرة وحديث سلمان ابن عامر المار ذكرهما · ولا يرى ابن القيم أهمية كبيرة فى الخلاف حول التسمية ، وان كان من الأولى — فى رأيه — استعمال الاسم الشرعى ، أما اطلاق اسم آخر كبديل له ، فلا بأس بذلك أحيانا (٢) ·

ويشترك الذكر والأنثى فى مشروعية العقيقة ، وان تفاضلا فى قدرها ، فيعق عن الغلام شاتان متكافئتان ، وعن الجارية شاة· وفى رأى مالك أن الذكر والأنثى فى ذلك سواء ، فيذبح عن كل منهما شاة واحدة (٣) ·

---

(١) نفس المصدر ، ص ٣٩ — ٤١ ·
(٢) نفس المصدر ، ص ٤٢ ·
(٣) نفس المصدر ، ص ٥٢ ·

ويكره أن يدمى رأس المولود — ذكرا كان أو أنثى — بدم الذبيحة ، لأنه من فعل الجاهلية (١) ، واذا كان النبى صلى الله عليه وسلم قد نهى عن تلطيخ رأس المولود بدم العقيقية تبركا به ، فقد سن تلطيخ رأسه بالزعفران الطيب الرائحة ، الحسن اللون ، بدلا عن الدم الخبيث الرائحة النجس (٢) .

والعقيقة أفضل من التصدق بثمنها ولو زاد ، لأنا سنة مشروعة كما تقدم ، كما أنها تسبب تجدد نعمة الله على الوالدين، وفيها سر بديع موروث عن فداء اسماعيل بالكبش فصار سنة فى أولاده بعده ، أن يفدى أحدهم — عند ولادته — بذبح عنه ، ولا يستنكر أن يكون هذا حرزا له من ضرر الشيطان (٣) .

ينبغى اذن أن تكون العقيقة على سبيل النسك كالأضحية والهدى ، فاذا أراد الرجل أن يعق فعليه أن يقول : باسم الله ، ويذبح على النية ، ويقول : هذه عقيقة فلان بن فلان ... ويستحب فيها ما يستحب فى الأضحية من الصدقة وتفريق اللحم، فالذبيحة عن الولد فيها معنى القربان والشكران والفداء والصدقة واطعام والطعام عند حوادث السرور العظام ، شكرا لله، واظهارا لنعمته التى هى غاية المقصود من النكاح ، فاذا شرع الاطعام للنكاح الذى هو سيلة الى الحصول على هذه النعمة ، فلأن تشرع عند الغاية المطلوبة أولى وأحرى (٤) .

---

(١) نفس المصدر ، ص ٣٣ — ٣٦ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٥٦ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٥٠ — ٥١ .
(٤) نفس المصدر ، ص ٥٤ — ٥٥ .

ويستحب طبخ العقيقة دون اخراج لحمها نيا ، لكي يكفي المساكين والجيران مؤنة الطبخ ، وهو زيادة في الاحسان ، وفي شكر هذه النعمة،ولكي يتمتع بها الجيران والاولاد والمساكين هنيئة مكفية المؤنة (١) ٠

ولا يعني هذا التصدق بالعقيقة كلها ، وانما تؤكل ويهدى منها أيضا ، يأكل أهلها منها ، ويطعمون الجيران ، كما يهدى منها الى القابلة (٢) ٠

٤ ـ استحباب حلق رأسه والتصدق عنه :

يستحب العلماء حلق رأس الصبي عند العقيقة ، فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في حديث العقيقة السابق ذكره « ٠٠٠ ويحلق رأسه ويسمى » ، وأن يكون ذلك في يوم سابعه ، ويقال ان فاطمة رضي الله عنهـــا حلقت رأس الحسن والحسين ، وتصدقت بوزن شعرهما فضة ، وكان ذلك بناء على أمر النبي صلى الله عليه وسلم ٠

وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن القزع ، والقزع أن يحلق بعض رأس الصبي ويدع بعضه ، وهذا من كمال محبة الله ورسوله للعدل ، فانه أمر به حتى في شأن الانسان مع نفسه، فنهاه أن يحلق بعض رأسه ويترك بعضه ، لأنه ظلم للرأس حيث ترك بعضه كاسيا وبعضه عاريا (٣) ٠

---

(١) نفس المصدر ، ص ٥٩ ـ ٦٠ ٠
(٢) نفس المصدر ، ص ٦٦ ـ ٦٧ ٠
(٣) نفس المصدر ، ص ٨٠

وحلق رأس الصبى اماطة الأذى عنه ، وازالة للشعر الضعيف ليخلفه شعر أقوى وأمكن منه وأنفع للرأس ، مع ما فيـــه من التخفيف عن الصبى ،وفتح مسام الرأس ليخرج البخار منها بيسر وسهولة ، وفى ذلك تقوية بصره وشمه وسمعه (١) ٠

ولعل الى جانب ما فى حلق رأس المولود من حكمة صحية،ثمت حكمة اجتماعية أيضا ، ذلك أن التصدق بوزن شعره فضة ، ينبوع من ينابيع التكـــافل الاجتماعى ، وفى ذلك قضـــاء على الفقر ، وتحقيق لظاهرة التعاون والتراحم والتكـــافل فى ربـــوع المجتمع (٢) ٠

٥ ـ تسميته :

اختلف العلماء فى وقت تسمية المولود ، فريق يرى تسميته حين يولد ، وآخر يذهب الى أنه يسمى لثلاثة ، ويستحب فريق ثالث أن يسمى المولود يوم السابع كما ورد فى حديث سمرة المذكور ٠

ويرجح ابن القيم الرأى الأول ، ويؤكـــده بمـــا ورد فى صحيح مسلم عن أنس قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ولد لى الليلة غلام ، فسميته باسم أبى ابراهيم » ٠ كما يستفاد من قصة مارية القبطية ومولد ابراهيم ، أن تسمية المولود تكون يوم ولادته (٣) ٠ ويبرر ابن القيم ذلك منطقيا بقوله :

---

(١) نفس المصدر ، ص ٥٦ ٠
(٢) علوان : تربية الاولاد فى الاسلام : ٧٣/١ ٠
(٣) تحفة المودود ، ص ٨٣ ـ ٨٤ ٠

« ان التسمية لما كانت حقيقتها تعريف الشىء المسمى ، لأنه اذا وجد وهو مجهول الاسم ، لم يكن له ما يقع تعريفه به ، فجاز تعريفه يوم وجوده ، وجاز تأخير التعريف الى ثلاثة آيام ، وجاز الى يوم العقيقة عنه ، ويجوز قبل ذلك وبعده ، والأمر فيه واسع » (١) ٠

ويجب أن نحسن تسمية المولود ، فعن أبى الدرداء أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « انكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وبأسماء آبائكم ، فأحسنوا أسماءكم » (رواه أبو داود) وتدل الروايات المختلفة عنه على استحسان الأسماء المضافة الى الله ، كعبد الله وعبد الرحمن وما أشبه ذلك ٠

ومن الأسماء ما هو محرم أو مكروه ، فقد اتفق العلماء على تحريم كل اسم معبد لغير الله ، فلا تحل التسمية مثلا بعبد على ، ولا عبد الحسين ، ولا عبد الكعبة ، ومن المحرم التسمية بملك الملوك وسلطان السلاطين وشاهنشاه (الفارسية) ، لأن هذه الأسماء تشير الى الله تعالى (٢) ٠ وأما الأسماء التى تطلق على الله وعلى غيره كالسميع والبصير والرءوف والرحيم ، فيجوز أن يخبر بمعانيها عن المخلوق ، ولا يجوز أن يتسمى بها على الاطلاق ، بحيث يطلق عليه كما يطلق على الرب تعالى ٠ ومما يمنع منه التسمية بأسماء القرآن وسوره ، مثل طه ويس وحم ٠ وكذلك تحرم التسمية بسيد الناس وسيد الكل ، كما يحرم سيد ولد ادم ،

---

(١) نفس المصدر : ص ٨٨ ٠

فان هذا ليس لأحد الا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحده ، فهو سيد ولد آدم ، فلا يحل لأحد أن يطلق على غيره ذلك ٠

واختلف فى كراهة التسمى بأسماء الأنبياء على قولين: أحدهما: أنه لا يكره ، وهذا قول الأكثرين ، وهو الصواب ، والثانى: يكره، وصاحب هذا القول الثانى قصد صيانة أسمائهم عن الابتذال وما يعرض لها من سوء الخطاب عند الغضب وغيره (١) ٠

ولكن هل يجوز التسمية باسم نبينا صلى الله عليه وسلم والتكنى بأبى القاسم وهى كنيته ؟ لقد ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « تسموا باسمى ولا تكنوا بكنيتى » ، واختلف أهل العلم بعد اجماعهم على جواز التسمى به ٠ فعن أحمد روايتان : احداهما : يكره الجمع بين اسمه وكنيته ، فان أفرد أحدهما ، والثانية : يكره التكنى بكنيته، سواء جمعها الى الاسم أو أفردها ٠ وقالت طائفة : النهى عن ذلك مخصوص بحياته ، كراهية أن يدعى أحد باسمه وكنيته ، فيلتفت النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما قبض ذهب ذلك (٢) ٠

ومن الأسماء المكروهة مارواه مسلم فى صحيحه عن سمرة بن جندب قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تسمين غلامك يسارا ولا رباحا ولا نجاحا ولا أفلح ٠٠٠ » ، لما تتضمنه مثل هذه الأسماء من تزكية للنفس ، وفى سنن ابن ماجه عن أبى

---

(١) نفس المصدر ، ص ٩٨ ـ ١٠٠ ٠
(٢) نفس المصدر ، ص ١٠٨ ـ ١١٣ ٠

هريرة أن زينب كان اسمها برة ، فقيل : تزكى نفسها ، فسماها النبى عليه الصلاة والسلام : زينب ٠

ويكره التسمية بأسماء الشياطين مثل خنزب والولهان والأعور والأجدع والحباب ٠ وكذلك أسماء الفراعنة والجبابرة كفرعون وقارون وهامان ٠ ويكره أيضا تسمية الادميين بأسماء الملائكة كجبرائيل وميكائيل واسرافيل ، وكذلك الأسماء التى تكرهها النفوس كحرب ومرة وكلب وحية واشباهها ٠ يقول ابن القيم : « ومن تأمل السنة وجد معان فى الأسماء مرتبطة بها ، حتى كأن معانيها مأخوذة منها ، وكأن الأسماء مشتقة من معانيها ، فتأمل قوله عليه الصلاة والسلام : أسلم = سلمها الله ، وغفار = غفر الله لها ، وعصية = عصت الله ٠٠٠ » ٠

وبالجملة يجب تجنب الأسماء التى تحمل معانى قبيحة حتى لا تؤثر فى سلوك الطفل حينما يكبر ، وعلى العكس ينبغى اختيار الأسماء الحسنة التى تتضمن أمنيات طيبة لما قد يكون لها من أثر طيب فى مستقبله ٠ يقول ابن قيم الجوزيه : « ٠٠٠ وتخير الأسماء من توفيق الله للعبد ، وقد أمر النبى عليه الصلاة والسلام : من تمنى أن يحسن أمنيته ٠ وقال : ان أحدكم لا يدرى ما يكتب له من أمنيته ، أى ما يقدر له منها ، وتكون أمنيته سبب حصول ما تمناه أو بعضه ، وقد بلغك أو رأيت أخبار كثير من المتمنين أصابتهم أمانيهم أو بعضها » (١) ٠ وقال النبى صلى الله

---

(١) نفس المصدر ، ص ٩٧ ٠

عليه وسلم : « حسنوا أسماءكم » لأن صاحب الاسم الحسن ، قد يستحى من اسمه ، وقد يحمله اسمه على فعل ما يناسبه (١) وترك ما يضاده ، ولهذا ترى أكثر السفل أسمائهم تناسبهم ، وأكثر العلية أسمائهم تناسبهم » (٢) .

واذا تنازع الأبوان فى تسمية المولود ، فهى حق للأب ، كما تدل الأحاديث الصحيحة ، وهذا كما أنه يدعى لابيه ، لا لأمه . فيقال ابن فلان (٣) .

ويخصص ابن القيم فصلا « فى تغيير الاسم باسم آخر لمصلحة تقتضيه » ، يشير فيه الى أن النبى صلى الله عليه وسلم قام بتغيير بعض الأسماء غير المناسبة ، مثل : برة واصرم وغراب وحرب .. باسماء أفضل منها مثل : زينب وسعيد ومسلم وسلم ..

ويجوز تكنية المولود بأبى فلان ، ولا يلزم من جواز التكنية أن يكون للمرء ولد يكنى باسمه ، فالكنية نوع تكثير وتفخيم للمكنى ، واكرام له كما قيل :

أكنيه حين أناديه لأكرمه ولا ألقبه والسوءة اللقبا (٤)

ولا خلاف فى تحريم تلقيب الانسان بما يكرهه ، سواء أكان

---

(١) من الطرائف التى تؤكد هذا المعنى أن بائعا كتب على دكانه هذه العبارة « كيف أشكو الفقر وأنا عبد الغنى ؟! » .

(٢) تحفة المودود ، ص ١١٦ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٠٦ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٥ — ١٠٦ .

فيه أو لم يكن ، لقوله تعالى : « ولا تنابزو بالألقاب » (١)
(الحجرات : ١١) ٠

ويجوز التسمية بأكثر من اسم واحد ، ولكن لما كان المقصود بالاسم التعريف والتمييز ، وكان الاسم الواحد كافيا فى ذلك ، كان الاقتصاد عليه أولى (٢) ٠

٦ _ ختانـــــه :

يخصص صاحب تحفة المودود الباب التاسع من كتابه « فى ختان المولود وأحكامه » ، وفيه أربعة عشر فصلا ، ويستهل حديثه ببيان معنى الختان واشتقاقه ، وأنه يسمى فى حق الأنثى خفضا ٠ وختان الرجل هو الحرف المستدير على أسفل الحشفة ، وأما ختان المرأة فهى جلدة كعرف الديك فوق الفرج (٣) ٠ وقد روى أن ابراهيم عليه السلام أول من أختتن،واستمر الختان بعده فى الرسل وأتباعهم (٤)٠

وقد اختلف الفقهاء فى وجوبه واستحبابه ، فقال أكثرهم : انه واجب بالنسبة للرجل ، وشدد فيه بعضهم كمالك بن أنس حتى قال : من لم يختتن لم تجز امامته ، ولم تقبل شهادته ٠ وقال الحسن البصرى وآبو حنيفة : لا يجب بل هو سنة ، لحديث شداد ابن أوس « الختان سنة للرجل مكرمة للنساء » ٠

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٠٧ ٠
(٢) نفس المصدر ، ص ١١٣ ٠
(٣) نفس المصدر ، ص ١١٩ ٠
(٤) نفس المصدر ، ص ١٢٤ ٠

أما بالنسبة للمرأة ، فلا خلاف فى استحبابه لها ، واختلف فى وجوبه (١) .

ويسقط الختان فى بعض الحالات ، كأن يولد المولود ولا قلفة له ، ومن مسقطاته ضعف المولود عن احتماله بحيث يخاف عليه من التلف ، ويستمر به الضعف كذلك ، وأيضا حينما يسلم الرجل كبيرا ويخاف على نفسه منه (٢) .

أما عن الوقت المناسب للختان ، فموضع خلاف بين الفقهاء ، ويرى فريق أنه لا يجب قبل البلوغ ، لأن الصبى ليس أهلا لوجوب العبادات المتعلقة بالأبدان ، ولكن ابن القيم لا يوافق على تأجيل الختان حتى سن البلوغ ، فيقول : « وعندى أنه يجب على الولى أن يختن الصبى قبل البلوغ بحيث يبلغ مختونا ... وقد أمر النبى عليه الصلاة والسلام الآباء أن يأمروا أولادهم بالصلاة لسبع ، وأن يضربوهم على تركها لعشر ، فكيف يسوغ لهم ترك ختانهم حتى يجاوزوا البلوغ ؟ » (٣) .

وقد استحب بعض الفقهاء الختان فى اليوم السابع لخفته على الصبيان ، فان المولود يولد وهو خدر الجسد كله ، ولا يجد ألم ما أصابه ، ولكن كرهت طائفة أخرى أن يختتن الصبى يوم سابعه كيلا يتشبه باليهود فى ذلك .

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٥١ _ ١٥٢ .
(٢) راجع الفصل الثانى عشر فى المسقطات لوجوب الختان .
(٣) نفس المصدر ، ص ١٤١ _ ١٤٣ .

وهكذا فليس فى تحديد وقت الختان نهى يثبت ، وليس لوقوع الختان خبر يرجع اليه ، ولا سنة تستعمل ، فالأشياء على الاباحة (١) ·

أما عن « حكمة الختان وفوائده » فيبين ابن القيم أنه من محاسن الشرائع ، التى كمل بها الله سبحانه محاسن عباده الظاهرة والباطنة ، وهو من تمام الحنيفية ملة ابراهيم ، وهو بمثابة علم للدخول فى ملة ابراهيم،فهو للحنفاء بمنزلة الصبغ والتعميد لعباد الصليب ، فهم يطهرون أولادهم بزعمهم حين يصبغونهم فى ماء المعمودية ، ويقولون : الآن صار نصرانيا ، فشرع الله سبحانه للحنفاء صبغة الحنيفية ، وجعل ميسمها الختان ·

هذا فضلا عما فى الختان من الطهارة والنظافة ، والتزين ، وتحسين الخلقة ، وتعديل الشهوة التى اذا افرطت ألحقت الانسان بالحيوان ، وان اعدمت بالكلية ألحقته بالجمادات · فالختان يعدلها ، ولهذا تجد الأقلف من الرجال والقلفاء من النساء لا يشبع من الجماع (٢) ·

أما عن القدر الذى يؤخذ فى الختان ، فيذكر ابن القيم أنه بالنسبة للذكر يؤخذ فى ختانه جلدة الحشفة ، وان اقتصر على أخذ أكثرها جاز ، أما بالنسبة للأنثى فيستحب للخافضة أن لا تحيف ، اذ يروى عن ميمونة زوج النبى صلى الله عليه وسلم

(١) نفس المصدر ، ص ١٤٤ — ١٤٥ ·
(٢) نفس المصدر ، ص ١٤٥ — ١٤٩ ·

أنها قالت للخاتنة : اذا خفضت فأشمى (١) ولا تنهكى ، فانه أسرى للوجه ، وأحظى لها عند زوجها • كما روى أبو داود عن أم عطية أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر ختانة أن تختن ، وقال لها : « اذا ختنت فلا تنهكى ، فان ذلك أحظى للمرأة ، وأحب للبعل » ، ويشرح ابن القيم معنى هذا ، فيذهب الى أن الخافضة اذا استأصلت جلدة الختان ضعفت شهوة المرأة،فقلت حظوتها عند زوجها ، كما أنها اذا تركتها كما هى ، لم تأخذ منها شيئا ، ازدادت غلمتها ، فاذا أخذت منها وأبقت ، كان ذلك تعديلا للخلقة والشهوة (٢) •

٧ — ثقب أذن الصبى والبنت :

أما أذن البنت فيجوز ثقبها للزينة ، نص عليه الامام أحمد ، ونص على كراهته فى حق الصبى • والفرق بينهما أن الأنثى محتاجة للحلية ، فثقب الأذن مصلحة فى حقها ، بخلاف الصبى (٣) •

محبة الطفل ورحمته :

يبين ابن القيم أن الشريعة الاسلامية تدعو الى معاملة الطفل بالرحمة ، وتحث على العطف عليه ، وفقا لفطرة الله التى فطر الناس عليها • ومن مظاهر هذه الرحمة عيادة الوالد ولده الصغير،

---

(١) أى اتركى الموضع أشم ، والأشم : المرتفع •
(٢) نفس المصدر ، ص ١٤٩ — ١٥١ •
(٣) نفس المصدر ، ص ١٦٥ •

فان النبى صلى الله عليه وسلم ، لما سمع بوجع ابنه ابراهيم ، انطلق اليه ، يعوده فى بيت أبى سيف القين ، فدعا به ، وضمه اليه ، وهو يكبد بنفسه ، فدمعت عيناه ، وقال : « تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول الا ما يرضى الرب ، وانا بك يا ابراهيم لمحزونون » ٠

ومما يناقض الفطرة والشريعة معا ، ما يذكر فى مناقب الفضيل بن عياض ، من أنه ضحك يوم موت ابنه « على » ، فسئل عن ذلك ، فقال : ان الله تعالى قضى بقضاء ، فأحببت أن أرضى بقضائه ولكن ابن القيم يرى أن هدى الرسول صلى الله عليه وسلم أكمل وأفضل ، فانه جمع بين الرضا بقضاء ربه تعالى ، وبين رحمة الطفل ، فانه لما قال له سعد بن عبادة:ما هذا يا رسول الله؟ قال : هذه رحمة ، وانما يرحم الله من عباده الرحماء والفضيل ضاق عن الجمع بين الأمرين ، فلم يتسع للرضاء بقضاء الرب ، وبقاء الرحمة للولد (١) ٠

ومن مظاهر العطف على الطفل ، أن الشريعة لا تقضى بنجاسة ريقه أو لعابه ، وبالتالى لم تشق على من يقوم بتربيته ، لئلا ينفر منه ٠ يقول ابن قيم الجوزية : « وقد علم الشارع أن الطفل يقىء كثيرا ، ولا يمكن غسل فمه ، ولا يزال ريقه ولعابه يسيل على من يربيه ، ولم يأمر الشارع بغسل الثياب من ذلك ، ولا منع الصلاة فيها ، ولا أمر بالتحرز من ريق الطفل ، فقالت طائفة من

---

(١) نفس المصدر ، ص ٨٤ ـ ٨٥ ٠

الفقهاء : هذا من النجاسة التى يعفى عنها للمشقة والحاجة ... » (١) .

ومن مظاهر الرحمة بالأطفال أيضا جواز حملهم فى الصلاة ، وان لم يعلم حال ثيابهم ، فقد ثبت فى الصحيحين عن أبى قتادة أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يصلى وهو حامل حفيدته أمامة بنت زينب ، فاذا قام حملها ، واذا سجد وضعها . ولمسلم : « حملها على عنقه » ، ولأبى داود : « بينما نحن ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الظهر أو العصر ، وقد دعاه بلال للصلاة ، اذ خرج الينا وأمامه بنت أبى العاص بنت زينب على عنقه ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مصلاه ، وقمنا خلفه ، وهى فى مكانها الذى هى فيه ، فكبر ، فكبرنا ، حتى اذا أراد رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يركع ، أخذها فوضعها ، ثم ركع وسجد ، حتى اذا فرغ من سجوده ، قام وأخذها ، فردها فى مكانها ، فمازال رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع بها ذلك فى كل ركعة ، حتى اذا فرغ من صلاته عليه الصلاة والسلام » . ويبين ابن القيم الدروس المستفادة من هذا الرواية ، فيقول : ففيها الرحمة بالأطفال ، وفيها تعليم التواضع ، ومكارم الأخلاق ، وفيها أن مس الصغيرة لا ينقض الوضوء (٢) .

ولعل من أرق وسائل التعبير عن العاطفة الأبوية ، أن الشريعة سنت استحباب تقبيل الأطفال ، ففى الصحيحين من

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٧٢ .
(٢) نفس المصدر ، ص ١٧٤ .

حديث أبى هريرة قال : « قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن على ، وعنده الأقرع بن حابس التميمى جالس • فقال الأقرع : ان لى عشرة من الولد ، ما قبلت أحدا منهم ، فنظر اليه رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقال : من لا يرحم لم يرحم » • وفى الصحيحين أيضا من حديث عائشة رضى الله عهنا ، قالت : « قدم ناس من الأعراب على رسول الله عليه الصلاة والسلام، فقال: تقبلون صبيانكم ؟ فقالوا : نعم ، قالوا : والله لكنا ما نقبل • فقال : أو أهلك ان كان الله نزع من قلوبكم الرحمة » • وفى المسند من حديث أم سلمة قالت : « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى يوما ، اذ قال الخادم : ان فاطمة وعليا رضى الله عنهما بالسدة • قالت : فقال لى : قومى فتنحى عن أهل بيتى • قالت : قمت ، فتنحيت فى البيت قريبا ، فدخل على وفاطمة ومعهما الحسن والحسين ، وهما صبيان صغيران ، فأخذ الصبيين، فوضعهما فى حجره ، فقبلهما ، واعتنق عليا باحدى يديه ، وفاطمة باليد الأخرى ، فقبل فاطمة ، وقبل عليا » (١) •

حق الأولاد فى التربية والتعليم :

يبين ابن قيم الجوزيه أن الشريعة الاسلامية توجب على الآباء تربية أولادهم وتعليمهم ، فقد خصص الباب الخامس عشر من كتابه « فى وجوب تأديب الأولاد وتعليمهم والعدل بينهم » ، استهله بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة » (التحريم : ٦) • قال على رضى الله

(١) نفس المصدر ، ص ١٧٥ •

عنه : « علموهم وأدبوهم » ، وقال الحسن : « مروهم بطاعة الله وعلموهم الخير » · وفى المسند وسنن أبى داود أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « مروا أبناءكم بالصلاة لسبع ، وأضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع » ، ففى هذا الحديث ثلاثة آداب : أمرهم بها وضربهم عليها ، والتفريق بينهم فى المضاجع · وفى معجم الطبرانى من حديث سمرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لأن يؤدب أحدكم ولده خير له من أن يتصدق كل يوم بنصف صاع على المساكين » ، وذكر البيهقى من حديث ابن عباس قال : « قالوا يارسول الله قد علمنا ماحق الوالد فما حق الولد ؟ قال : أن يحسن اسمه ، ويحسن أدبه » · وذكر البيهقى من حديث ابن عباس أيضا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « من ولد له ولد ، فليحسن اسمه وأدبه ، فاذا بلغ ، فليزوجه ، فان بلغ ولم يزوجه ، فأصاب اثما ، فانما اثمه على أبيه » ·

وقد روى البخارى عن ابن عمر قول النبى صلى الله عليه وسلم : « كلكم مسئول عن رعيته ، فالأمير راع على الناس ، وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته ، وامرأة الرجل راعية على بيت بعلها وولده ، وهى مسئولة عنهم ··· » ، قال ابن عمر « أدب ابنك فانك مسئول عنه : ماذا أدبته ؟ وماذا علمته ؟ وهو مسئول عن برك ، وطواعيته لك » (١) ·

ويؤكد ابن القيم فى أكثر من موضع (٢) أن تعليم الصبى

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٧٦ ـ ١٧٨ ·

(٢) نفس المصدر ، ص ١٣٥ ، ص ١٤٠ ·

وتأديبه « حق واجب على الولى » وعليه أن يخرج المال فيما لابد له من صلاحه فى دنياه وآخرته ، ولذلك عليه أن « يخرج من ماله أجرة المؤدب والمعلم » .

وتستند التربية الاسلامية الى مبدأ تحرص التربية المعاصرة على التأكيد عليه ، أعنى مبدأ العدل بين الأولاد ، ولهذا يوقف ابن القيم فصلا يبين فيه أن « من حقوق الأولاد العدل بينهم فى العطاء والمنع » ، يذكر فيه ما ورد فى السنن ومسند أحمد وصحيح ابن حبان من حديث النعمان بن بشير قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعدلوا بين أبنائكم ، اعدلوا بين أبنائكم ، اعدلوا بين أبنائكم » . وفى رواية لمسلم ، أنه قال : « اتقوا الله واعدلوا فى أولادكم » .

ويعجب ابن قيم الجوزيه ممن يحمل قول الرسول صلى الله عليه وسلم « اعدلوا بين أولادكم » على غير الوجوب ، انه أمر مطلق ، مؤكد ثلاث مرات ، وقد أخبر الآمر به أن خلافه جور ، هذا فضلا عن أن العدل واجب فى كل حال .

والعدل بين الأولاد يشمل الجنسين معا ، فهو واجب بين البنين والبنات على السواء دون تفرقة ، وهذا يتفق مع ماسبق أن ذكره ابن القيم من كراهة تسخط البنات ، ويشير الى ما ذكره البيهقى عن أنس « أن رجلا كان جالسا مع النبى صلى الله عليه وسلم فجاء بنى له ، فقبله ، وأجلسه فى حجره ، ثم جاءت بنته ، فأخذها ، فأجلسها الى جنبه ، فقال النبى عليه الصلاة والسلام : فما عدلت بينهما »

وقال بعض أهل العلم : ان الله سبحانه يسأل الوالد عن ولده يوم القيامة ، قبل أن يسأل الولد عن والده ، فانه كما أن للأب على ابنه حقا ، فللابن على أبيه حق · فكما قال تعالى : « ووصينا الانسان بوالديه حسنا » (العنكبوت : ٨) قال : « قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة » (التحريم : ٦) · أن وصية الله للآباء سابقة على وصية الأولاد بآبائهم ، فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه ، وتركه سدى ، فقد أساء اليه غاية الاساءة ، وأكثر الاولاد انما جاء فسادهم من قبل الآباء ، واهمالهم لهم ، وترك تعليمهم فرائض الدين وسننه ، فأضاعوهم صغارا ، فلم ينتفعوا بأنفسهم ، ولم ينفعوا آباءهم كبارا · كما عاتب بعضهم ولده على العقوق ، فقال : يا أبت انك عققتنى صغيرا ، فعققتك كبيرا ، وأضعتنى وليدا ، فأضعتك شيخا (١) ·

ويعرض ابن قيم الجوزيه فى كتابه تحفة المودود عدة « فصول نافعة فى تربية الأطفال تحمد عواقبها عند الكبر » ، يتناول فيها الأمور التى ينبغى مراعاتها فى تربية الطفل منذ ولادته حتى يجاوز مرحلة المراهقة · وفيما يلى أهم هذه الأمور وفقا للمراحل المختلفة :

الطفولة المبكرة :

١ ـ مرحلة الرضاعة :

يستهل ابن القيم كلامه بالقول : « ينبغى أن يكون رضاع

(١) نفس المصدر ، ص ١٧٨ ـ ١٨٠ ·

المولود من غير أمه بعد وضعه يومين أو ثلاثة ، وهو الأجود ، لما في لبنها ذلك الوقت من الغلظ والأخلاط بخلاف لبن من قد استقرت على الرضاع ، وكل العرب تعتنى بذلك » (١) ولكن الأبحاث الطبية المعاصرة تثبت خلاف ذلك ، اذ أن اللبن الذى يتناوله الرضيع فى أيامه الأولى انما يحتوى من الانزيمات والعصارات ما يصلح الجهاز الهضمى للطفل، ويحميه من التلوث، ولو أن ابن القيم لم يستق معلوماته من عادات العرب القديمة (٢)، وانما تمسك بمنهجه السلفى ، لتوصل — فى أغلب الظن — الى الاقرار بأن ثمت حكمة الهية اقتضت أن يكون لبن الام ، فى هذا الوقت المبكر من حياة الطفل ، على ما هو عليه من الغلظ والأخلاط لمنفعة الرضيع ، وليس من مصلحته أن يرضع من غير أمه ، ولكننا نلاحظ أن معظم آراء ابن القيم فى البابين الأخيرين من كتابه ، وهما السادس عشر والسابع عشر ، انما هى آراء مستمدة من خبراته الشخصية ، واطلاعه على كتب الأطباء القدماء كبقراط وجالينوس ٠

ومن الآراء الهامة التى يذكرها ابن القيم أنه ينبغى الامتناع عن حمل الأطفال ، فى هذه المرحلة المبكرة ، والتطواف بهم ، حتى

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٨١ ٠

(٢) كان يعتقد من قبل أن أول لبن ترضع به الأم وليدها بعد مولده ، والذى يشبه المصل ، يضر بالطفل ، وعلى الأم أن تتخلص منه قبل أن ترضع وليدها ٠ وكان روسو هو أول من نبه الأطباء الى مسألة معرفة : هل أول لبن لا يناسب الاطفال المولودين ، لأن « الطبيعة » لا تفعل شيئا باطلا ٠ وقد وجد بالفعل أن هذا اللبن هو الأقدر على طرد قاذورات الطفل الوليد ، والتى يسميها الاطباء « صمغه » meconium ٠وقد أعلن كانط أن هذا اللبن مفيد جدا للمولدين ٠ (د٠ بدوى : فلسفة الدين والتربية عند كنت ، ص ١٢٩ — ١٣٠)٠

يأتى عليهم ثلاثة أشهر فصاعدا ، لقرب عهدهم ببطون الأمهات ، وضعف أبدانهم .

وينبغى أن يقتصر بهم على اللبن وحده ، الى نبات أسنانهم ، لضعف معدتهم وقوتهم الهاضمة عن الطعام .

فاذا قربوا من وقت التكلم ، وأريد تسهيل الكلام عليهم ، فليدلك ألسنتهم بالعسل والملح الأندرانى (؟) لما فيهما من الجلاء للرطوبات الثقيلة المانعة من الكلام . ويذكر ابن القيم أن خير ما يبداون به النطق هو الشهادتان .

ولا ينبغى أن يشق على الأبوين بكاء الطفل وصراخه ، ولاسيما لشربه اللبن اذا جاع ، فانه ينتفع بذلك البكاء انتفاعا عظيما (؟) ، فانه يروض أعضاءه ، ويوسع أمعاءه ... الخ(١) . وفى موضع آخر يعلن ابن القيم أن بكاء الطفل ساعة ولادته يدل على صحته وقوته وشدته ، فليس البكاء اذن دليل على الالم ، ولكن اذا وضع الطفل يده أو ابهامه أو أصبعه على عضو من أعضائه ، فهو دليل على ألم ذلك العضو (٢) .

ويكتب ابن القيم عن أهمية القماط للرضيع ، فيحذر من اهمال أمر قماطه ورباطه ، ولو شق عليه ، الى أن يصلب بدنه ، وتقوى أعضاؤه ، ويجلس عى الارض ، فحينئذ يمرن ويدرب على الحركة والقيام قليلا ، الى أن تصير له ملكة وقوة يفعل

---

(١) تحفة المودود ، ص ١٨٢ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٢٢٤ .

ذلك بنفسه (١) ورأى ابن القيم يخالف رأى كانط الذى ذهب الى ضرورة استبعاد القماط ، لأنه يجعل الاطفال كأنهم موميات ، ويؤدى الى تشويه لابدانهم ، وانه لامر مفزع حقا للاطفال استعمال القماط فى نظر كانط ، لما ينشأ عنه من منعهم من حرية استعمال أعضائهم . وهذه الملاحظات للفيلسوف الالمانى نجد نظرئر لها عند روسو فى كتابه آميل (٢) .

ويطالب ابن قيم الجوزية بحماية الطفل من الأمور المفزعة ، وكان أفلاطون من قبل يرى أن الأحداث — الى سن معينة — لايجب أن يسمح لهم أن يطلعوا على مفزعات ، حتى اذا ما حلت الساعة المناسبة ، اطلعوا على مثيرات ، لا ينبغى أن تبث فيهم الفزع (٣) . وكذلك ذهب ابن القيم الى أنه ينبغى أن يوقى الطفل كل أمر يفزعه من الاصوات الشديدة الشنيعة ، والمناظر الفظيعة ، والحركات المزعجة ، فان ذلك ربما أدى الى فساد قوته العاقلة لضعفها ، فلاينتفع بها بعد كبره ، فاذا عرض له عارض من ذلك ، فينبغى المبادرة الى تلافيه بضده ، وايناسه بما ينسيه اياه ، وأن يلقم ثديه فى الحال ، ويسارع الى رضاعه ، ليزول عنه حفظ ذلك المزعج ، ولا يرتسم فى قوة الحافظة ، فيعسر زواله ، ويستعمل تمهيده بالحركة اللطيفة الى أن ينام فينسى ذلك . يقول ابن القيم ولا يهمل هذا الأمر ، فان فى اهماله اسكان الفزع والروع فى قلبه ، فينشأ على ذلك ، ويعسر زواله أو يتعذر (٤) .

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٨٢ .
(٢) د. بدوى : فلسفة الدين والتربية عند كنت ، ص ١٣٢ .
(٣) رسل : تاريخ الفلسفة الغربية : ١٧٨/١ .
(٤) تحفة المودود ، ص ١٨٣ .

ونلاحظ أن شيخنا السلفى قد توصل الى ما يثبته علماء التحليل النفسى اليوم ، من أهمية الخبرات التى يكتسبها الطفل فى طفولته المبكرة ، وأنها اذا ثبتت لديه ، فيعسر زوالها فى كبره ، كما أنه يتفق مع جمهرة علماء النفس المعاصرين فى أن الطفل لا يرضع من ثدى أمه اللبن فحسب ، بل أيضا يستمد منه حاجته من العطف والأمان النفسى ٠

٢ ـ مرحلـــه التســـنين :

وقت نبات الأسنان لسبعة أشهر ، وقد تنبت فى الخامس ، وقد تتأخر الى العاشر (٢) ٠ فان الله سبحانه أخرا نباتها الى وقت حاجته الى الطعام ، ولحكمته ولطفه ، ورحمة منه بالأم وحلمـــة ثديها ، فلا يعضه الولد بأسنانـــه (٣) ٠ واذا حضر وقت نبـــات الأسنان ، فينبغى ان يدلك لثاهم كل يوم بالزبد والسمن ، ويحذر عليهم كل الحذر ـ وقت نباتها الى حين تكاملها وقوتهـــا ـ من الأشياء الصلبة ، ويمنعون منها كل المنع ، لما فى التمكن منها من تعريض الأسنان لفسادهما ، وتعويجها وخللها (٤) ٠

ويلاحظ ابن القيم أن حال المولود يتغير عند نبات أسنانه ، فيهج به القىء والحميات وسوء الأخلاق ، ولاسيما اذا كان نباتها فى وقت الشتاء والبرد ، أو فى وقت الصيف وشدة الحر ، وأحمد

---

(٢) نفس المصدر والصفحة ٠
(٣) نفس المصدر ، ص ١٨١ ٠
(٤) نفس المصدر ، ص ١٨٢ ٠

أوقات نباتها الربيع والخريف • وينبغى التلطف فى تدبير الطفل وقت نباتها ، وأن يكرر عليه الحمام ، وأن يغذى غذاء يسيرا ، فلا يملأ بطنه من الطعام • وقد يعرض له انطلاق البطن (الاسهال)، فيعصب بما يكفيه ، مثل عصابة صوف عليها كمون ناعم ، وكرفس ، وأنيسون ، ومع هذا فانطلاق بطنه ، فى ذلك الوقت ، خير له من اعتقاله ، فاذا كان بطنه معتقلا عند نبات أسنانه ، فينبغى أن يبادر الى تليين طبيعته ، وأحمد ما تلين به عسل مطبوخ ، ويجب على المرضع ، فى ذلك الوقت ، تلطيف طعامها وشرابها ، وتجتنب الاغذية المضرة (١) •

٣ ـ مرحلة الفطام والتغذية :

قال تعالى : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين » (البقرة : ٢٣٣) ، ويستخلص ابن القيم من هذه الآية الكريمة الأحكام التالية :

أ ـ ان تمام الرضاع حولين ، وذلك حق للولد ، اذا احتاج اليه ، وأكد بكاملين ، لئلا يحمل اللفظ على حول وأكثر •

ب ـ ان الأبوين اذا أرادا فطامه قبل ذلك ، بتراضيهما وتشاورهما ، مع عدم مضرة الطفل ، فلهما ذلك •

جـ ـ ان الأب اذا أراد أن يسترضع لولده مرضعة أخرى غير

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٨٣ ـ ١٨٤ •

أمه ، فله ذلك ، ويجوز أن تستمر الام على رضاعه، بعد الحولين الى نصف الثالث أو أكثر ·

ويفطم الرضيع عند تكامل نبات أسنانه وأضراسه ، وعندما تقوى على تقطيع الغذاء ، وتقوى معدته ، ففطامه عند ذلك الوقت أجود له ·

وأحمد اوقات الفطام ، اذا كان الوقت معتدلا فى الحر والبرد ، ووقت الاعتدال الخريفى أنفع فى الفطام من وقت الاعتدال الربيعى ، لأنه فى الخريف يستقبل الشتاء ، والهواء يبرد فيه ، والحرارة الغريزية تنشأ فيه وتنمو ، والهضم يزداد قوة ، وكذلك شهوة الطعام ·

وينبغى للمرضع ، اذا أرادت فطام رضيعها ، أن تفطمه على التدريج ، ولا تفاجئه بالفطام وهلة واحدة ، بل تعوده اياه ، وتمرنه عليه ، لمضرة الانتقال عن الالف والعادة مرة واحدة (١)· ويقترح ابن القيم أن ينتقل الاطفال من تناول اللبن الى تناول الخبز المنقوع فى الماء الحار واللبن الحليب ، ثم بعد ذلك يطعمون الطبيخ والأمراق الخالية من اللحم ، ثم بعد ذلك مالطف جدا من اللحم ، بعد احكام مضغه أو رضه رضا ناعما (٢) ·

ومن سوء التدبير للأطفال أن يمكنوا من الامتلاء من الطعام ، وكثرة الأكل والشرب ، ومن أنفع التدبير لهم أن يعطوا دون

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٨٤ ·
(٢) نفس المصدر ، ص ١٨١ ·

شبعهم ، ليجود هضمهم ، وتعتدل أخلاطهم ، وتقل الفضول فى أبدانهم ، وتصح أجسادهم ، وتقل أمراضهم • قال بعض الأطباء: وأنا أمدح قوما _ ذكرهم _ حيث لا يطعمون الصبيان الا دون شبعهم ، ولذلك ترتفع قاماتهم ، وتعتدل أجسامهم ، ويقل فيهم ما يعرض لغيرهم من الأمراض • قال : فان أحببت أن يكون الصبى حسن الجسد ، مستقيم القامـــة ، غير منحدب ، فقد يترك كثرة الشبع ، فان الصبى اذا امتلأ وشبع ، فانه يكثر النوم من ساعته ، ويسترخى ، ويعرض له نفخة فى بطنه ، ورياح غليظة •

وينقل ابن القيم عن جالينوس قولـــــه : لست أمنع هؤلاء الصبيان من شرب الماء البارد أصلا ، لكنى أطلق لهم شربه تعقب الطعام فى أكثر الأمر ، وفى الأوقات الحارة فى زمن الصيف ، اذا تاقت أنفسهم اليه • ويعقب ابن القيم على كلام جالينوس، فيقول: وهذا لقوة وجود الحـــــار الغريزى فيهم _ اى بسبب حرارتهم الغريزية ، فلا يضرهم شرب الماء البارد فى هذه الأوقات، ولاسيما عقيب الطعام ، فانه يتعين تمكينهم منه بقدر ، لضعفهم عن احتمال العطش (١) •

ويحذر ابن القيم من تحميل الطفل من الأعباء ما هو فوق طاقته ، أو ما لا يتناسب مع سنه ، أو محاولة قمع رغباته ، بوضع معوقات تحول دون نموه نموا طبيعيا، فيقول: «ومما ينبغى أن يحذر حمل الطفل على المشى قبل وقته ، لما يعرض فى أرجلهم بسبب ذلك من الانتقال والاعوجاج ، بسبب ضعفها ، وقبولها لذلك •

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٨٥ •

واحذر كل الحذر أن تحبس عنه ما يحتاج اليه من قيء ، أو نوم ، أو طعام ، أو شراب ، أو عطاس ، أو بول ، أو اخراج دم ، فان لحبس ذلك عواقب رديئة فى حق الطفل والكبير » (١) ٠

الصبا والمراهقة :

ينشأ مع الطفل التمييز والعقل على التدريج ، شيئا فشيئا ، الى سن التمييز ، وليس له سن معين ، بل من الناس من يميز لخمس ، وبعضهم يميز لأقل منها ، وبعضهم يميز لسبع أو فوق ذلك (٢) ٠

وكلما ازداد عمر الحدث ازداد قوة وعقلا ، فاذا بلغ خمس عشرة سنة ، وصل الى سن البلوغ ، ويسمى مراهقا ومناهزا للاحتلام ، ومن مظاهر المراهقة كما يلاحظ ابن القيم : الاحتلام ، ونبات الشعر الخشن حول القبل ، وغلظ الصوت ، وانفراق أرنبة الأنف ٠ وقد اعتبر الشارع من ذلك أمرين : الاحتلام والانبات ٠

وليس لوقت الاحتلام سن معتاد ، فان من الصبيان من يحتلم لاثنتى عشرة ، ومنهم من يأتى عليه خمس عشرة ، وست عشرة ، وأكثر من ذلك ولا يحتلم ٠ واختلف الفقهاء فى السن الذى يبلغ به المراهقة ، فمنهم من قال : خمس عشرة ، ومنهم من قال : سبع عشرة ، ومنهم من قال : ثمانى عشرة ٠٠ وهكذا اضطربت أقوال

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٨٥ — ١٨٦ ٠

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٢٨ وما بعدها ٠

الفقاء فى السن الذى يحكم ببلوغ الصبى له · ويميل ابن القيم الى ترجيح رأى الامام أحمد ومن حذا حذوه ، فى أن البلوغ لاحد له بالسن ، وانما يشترط فيه الاحتلام أو نبات الشعر الخشن على عانة الصبى أو البنت (١) ·

ويفتقر الصبى والمراهق الى ما يأتى :

١ ـ التربيـــة الدينيـــة :

تبدأ التربية الدينية للأطفال منذ بلوغهم السابعة ، لقوله : صلى الله عليه وسلم « علموا أولادكم الصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر » ، لأنه عند بلوغ العشر يزداد قوة وعقلا واحتمالا للعبادات ، فيضرب على ترك الصلاة ، كما أمر النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا ضرب للتأديب والتمرين ·

وقد ذهب كثير من الفقهاء الى وجوب الايمان على ابن عشر ، وأنه يعاقب على تركه ، لأنه قد أعطى آلة معرفة الصانع،والاقرار بتوحيده ، وصدق رسله ، وتمكن من نظر مثله واستدلاله ، كما هو متمكن من فهم العلوم والصنائع ومصالح دنياه ، فلا عذر له فى الكفر (٢) ·

٢ ـ التربيـــة الخلقليـــة :

ومما يحتاج اليه الصبى والمراهق غاية الاحتياج ، الاعتناء

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢٣٢ ومابعدها ·
(٢) نفس المصدر ، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ ·

بأمر خلقه ، فانه ينشأ عما عوده المربى فى صغره من حرد وغضب ولجاج وعجلة وخفة مع هواه ، وطيش وحدة وجشع ، فيصعب عليه فى كبره تلافى ذلك ، وتصير هذه الأخلاق صفات وهيئات راسخة له ، فلو تحرز منها غاية التحرز ، لنشأ صحيحا ، ولهذا تجد أكثر الناس منحرفة أخلاقهم ، وذلك من قبل التربية التى نشأوا عليها .

ولهذا يجب أن يجتنب الصـــبى ، اذا عقل ، مجالس اللهو والباطل ، والغناء ، وسماع الفحش والبدع ، ومنطق السوء ، فانه اذا علق بسمعه ، عسر عليه مفارقته فى الكبر ، وعز على وليه استنقاذه منه ، فتغيير العوائد (العادات) من أصعب الأمور ، ويحتاج صاحبه الى استجداد طبيعة ثانيـــة ، والخروج عن حكم الطبيعة عسر جدا .

وينبغى لوليه أن يجنبه الأخذ من غيره ، دون البذل ، فانه متى اعتاد الأخذ ، صار له طبيعة ، ونشأ بأن يأخذ لا بأن يعطى ، فيجب أن يعوده البذل والاعطاء ، واذا أراد الولى أن يعطى شيئا ، أعطاه على يده ، ليذوق حلاوة الاعطاء .

ويجب على الولى أن يجنب الصبى الكذب والخيانة ، أعظم مما يجنبه السم الناقع ، فانه متى سهل له سبيل الكذب والخيانة ، أفسد عليه سعادة الدنيا والآخرة ، وحرمه كل خير .

كما يجنبه الكسل والبطالة والدعة والراحة ، بل يأخـــذه بأضدادها ، ولا يريحه الا بما يجم نفسه وبدنه للشغل ، فـــان

للكسل والبطالة عواقب سوء ومغبة وندم ، وللجد والتعب عواقب حميدة ، اما فى الدنيا ، واما فى العقبى ، واما فيهما ٠

ويجنبه كذلك فضول الطعام والكلام والمنام ومخالطة الأنام، ويجنبه مضار الشهوات المتعلقة بالبطن والفرج غاية التجنب ، فان تمكينه من أسبابها يفسده فسادا يعز عليه بعده صلاحه ٠ وكم من أشقى ولده وفلذة كبده ، فى الدنيا والآخرة ، باهماله ، وترك تأديبه ، واعانته له على شهوته ، ويزعم أنه يكرمه وقد أهانه ، وأنه يرحمه وقد ظلمه ٠ وهكذا يرى ابن القيم أن فساد أخلاق الأولاد انما هو مسئولية الاباء ٠ يقول : واذا اعتبرت الفساد فى الأولاد ، رأيت عامته من قبل الآباء ، وما أفسد الأبناء مثل تفريط الآباء واهمالهم ٠

ويحذر ابن القيم كل الحذر من تمكين الولد من تناول ما يزيل عقله من مسكر وغيره ، أو عشرة من يخشى فساده ، أو كلامه له ، فان ذلك الهلاك كله ٠

ويجب أن يتجنب أيضا لبس الحرير ، فانه مفسد له ، ومخنثا لطبيعته ، كما يخنثه اللواط ،وشرب الخمر ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « يحرم الحرير والذهب على ذكور أمتى ، وأحل لاناثهم » ٠

والصبى — وان لم يكن مكلفا — فوليه مكلف،لا يحل له تمكينه من المحرم ، كالسرقة والكذب ، فانه يعتاده ، ويعسر فطامه عنه ٠ وقد يحتج من لم يره حراما عليه بأنه غير مكلف كالدابة،فلم يحرم

لبسه للحرير ، ويبطل ابن القيم هذا القياس،فيذكر أن الصبى، وان لم يكن مكلفا فانه مستعد للتكليف ، ولهذا لا يمكن من الصلاة بغير وضوء ، ولا من الصلاة عريانا او نخسا ، ولا من شرب الخمر أو القمار أو اللواط (١) ٠

٣ — التعليـــــم :

كان ابن القيم يرى أن الناشئة يختلفون فيما بينهم ، من حيث القدرات والاستعدادات وأنه يجب مراعاة ذلك عند توجيههم الى تحصيل العلوم المختلفة أو تعليمهم الحرف والمهن والأعمـــــال المتباينـــــة ٠ يقول : « وممـــــا ينبغى أن يعتمد حـــال الصبى ، وما هو مستعد له من الأعمال ، ومهيأ له منها ، فيعلم أنه مخلوق له ، فلا يحمله على غيره ، ما كان مأذونا فيه شرعا ، فانه ان حمل على غير ما هو مستعد له لم يفلح فيه ، وفاته ما هو مهيأ له ٠

فاذا رآه حسن الفهم ، صحيح الادراك ، جيد الحفظ ، واعياء فهذه من علامات قبوله وتهيؤه للعلم ، لينقشه فى لوح قلبه ، مادام خاليا ،فانه يتمكن فيه ، ويستقر ، ويزكو معه ٠

وان رآه بخلاف ذلك من كل وجه ، وهو مستعد للفروسية ، وأسبابها من الركوب والرمى واللعب بالرمح ، وأنه لانفاذ له فى العلم ، ولم يخلق له ، مكنه من أسباب الفروسية والتمرن عليها ، فانه أنفع له وللمسلمين ٠

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٨٧ — ١٨٩ ٠

وان رآه بخلاف ذلك ، وأنه لم يخلق لذلك ، ورأى عينه مفتوحة الى صنعه من الصنائع مستعدا لها ، قابلا لها،وهى صناعة مباحة ، نافعة للناس ، فليمكنه منها ·

هذا كله بعد تعليمه له مايحتاج اليه فى دينه ، فان ذلك ميسر على كل أحد » (١) ·

ونلاحظ أن ابن القيم متفق فيما يقوله مع جمهرة علماء النفس والتربية المعاصرين ، لولا آنه جعل التربية الرياضية ، والتعليم الفنى الحرفى ، بديلين للتعليم الأكاديمى · حقا ان كل انسان خلق مزودا بامكانية النجاح فى أحد هذه المجالات كما ذهب، ولكن ما الذى يحول دون الجمع بين هذه المجالات أو بعضها الى جانب التفوق فى احداها ؟ وبعبارة أخرى ما الذى يمنع من أن يعد الصبى لأن يكون من رجال العلم ، وأن يدرب على الفروسية ، وأن ينال قسطا من التدريب المهنى فى نفس الوقت ؟ ألم يكن أستاذه شيخ الاسلام ابن تيمية عالما كبيرا وفارسا مقاتلا ؟ ·

(١) نفس المصدر ، ص ١٩٠ ·

الفصل الرابع

ابن الجـــوزى

ونصيحته للولد فى طلب العلم

حياتـــه :

هو عبد الرحمن بن على بن الجوزى ، ويكنى أبا الفرج ، ولد على الأرجح فى سنة ٥١١ هـ ، وتوفى والده ، وعمره نحو ثلاث سنوات ، وكان ثريا ، خلف له مالا أنفقه ابن الجوزى فى التعليم وشراء الكتب ٠

ويعد ابن الجوزى من كبار علماء السلف فى القرن السادس الهجرى ، وكان موسوعيا ، صنف فى العلوم والفنون المختلفة ، وأجاد فى التفسير والوعظ ، وتربو مؤلفاته على الخمسمائـــة مصنف ٠

توفى يوم الجمعة ١٢ رمضان سنة ٥٩٧ ٠

صنف ابن الجوزى فيما صنف رسالة بعنوان « لفتة الكبد الى نصيحة الولد » وكانت موجهة منه الى ابنـــه يوسف المكنى بأبى القاسم ، المولود فى سنة ٥٨٠ هـ ٠ ، والمتوفى فى وقعة التتـــار ببغداد سنة ٦٥٦ (١) ٠

---

(١) ابن الجوزى : لفتة الكبد الى نصيحة الولد ، مقدمة المحقق دكتور فؤاد عبد المنعم ، ص ٥ ـ ٨ ٠

وكان أبو القاسم هو الابن الوحيد الذى بقى لابن الجوزى من أولاده ، اذ يذكر انه رزق عشرة أولاد كانوا خمسة ذكورا وخمسة اناثا ، فمات من الاناث اثنتـــان ، ومن الذكور أربعة . يقول : « ولم يبق لى من الذكور سوى ولدى أبى القاسم ، فسـألت الله تعـالى أن يجعل فيه الخلف الصـالح ، وأن يبلغنى فيه المنى والمنـاجح . ثم رأيت منه نوع توان عن الجـد فى طلب العلم ، فكتبت اليه هذه الرسالة ، أحثه بها على طلب العلم ، وأحركه على سلوك طريقى فى كسب العلم ... » (١) .

الجمع بين العلم والعمل :

يستهل ابن الجوزى الفصل الأول من كتابه قائـلا : « اعلم يا بنى — وفقـك الله — أنه لم يميز الآدمى بالعقـل الا ليعمل بمقتضاه ... انك مخلوق مكلـف ، وأن عليك فرائض أنت مطالب بها » ، ويذكره بأن مقـدار اللبث فى الدنيا قليل ، والحبس فى القبور طويل ، والعذاب على موافقة الهوى وبيـل . فأين لذة الأمس ؟ وأين شهوة النفس ؟ انها قد رحلت وأبقـت ندما . وما سعد من سعد الا بخلاف هواه ، ولا شقى من شقى الا بايثار دنياه ، فاعتبر بمن مضى من الملوك والزهاد ، أين لـذة هؤلاء ؟ وأين تعب أولئك ؟ قد بقى الذكر الجميل للصالحين ، والمقالة القبيحة للعاصين .

ان حب الراحة يورث الندم ، ما يربو على كل لذة ، فانتبه

---

(١) لفتة الكبد ، ص ١٧ — ١٨ .

لنفسك ، وأعلم أن أداء الفرائض ، واجتناب المحارم لازم ، فمتى تعدى فالنار ٠

ان طلب الفضائل نهاية مراد المجتهدين ، ولكن الفضائل تتفاوت باختلاف الناس ، فمنهم من يرى الفضائل فى الزهد فى الدنيا ، ومنهم من يراها التشاغل بالتعبد ، وفى رأى ابن الجوزى أن الفضائل الكاملة ليست الا الجمع بين العلم والعمل ، فاذا حصلا ، دفعا صاحبهما الى تحقيق معرفة الخالق سبحانه ، وحركاه الى محبته والشوق اليه ، فتلك الغاية القصوى ٠

ان بلوغ هذه الغاية القصوى — فى نظر ابن الجوزى — ليس سهل المنال ، فليس كل مريد مرادا ، ولا كل طالب واجدا ، ولكن على قدر أهل العزم تأتى العزائم ، وعلى العبد الاجتهاد ، « وكل ميسر لما خلق له » (رواه البخارى ومسلم وأبو داود وأحمد والترمزى) (١) ٠

ما ينبغى تحصيله من العلوم :

واضح مما تقدم أن العلم الذى يقصده ابن الجوزى هو العلم الدينى ، فما هى العلوم الدينية التى يرى أنه من الواجب تحصيلها ؟

١ — معرفة الله وأدلة وجوده : يقول ابن الجوزى : « وأول ما ينبغى النظر فيه معرفة الله تعالى بالدليل » ، ويقصد الدليل

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٨ — ٢٠ ، ص ٤٤ ٠

العقلى على وجوده تعالى ، ومن الواضح أن هذه المعـــرفة هى جزء من علم أصول الدين أو علم التوحيد أو علم الكـــلام · والدليل الذى يسوقه ابن الجوزى يعرف فى تاريخ الفلسفة باسم الدليل الكونى أو الكوزمولوجى أو البرهـــان الطبيعى · يقول ابن الجوزى : « ومعلوم أن من رأى السماء مرفوعة ، والأرض موضوعة ، وشاهد الأبنية المحكمة ، خصوصا جسد نفسه ، علم أنه لابد حينئذ للصنعة من صانع ، وللمبنى من بان » ·

٢ ـ النبوة : كما يجب على المرء أن يتأمل صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك بالنظر فى القرآن الذى أعجز الخلق أن يأتوا بسورة مثله ·

٣ ـ فقه العبادات : فاذا ثبت عنده وجود الخالق ، وصـــدق الرســـول صلى الله عليه وسلم ، وجب عليه من الوضـــوء ، والصلاة ، والزكاة ان كان له مال ، والحج ، وغير ذلـــك من الواجبات ، التى يتعين عليه معرفتها ، ليقوم بتأديتها ·

٤ ـ حفظ القرآن والحديث : فاذا عرف ما تقدم ، فينبغى لذى الهمة أن يتشاغل بحفظ القرآن وتفسيره ، وبحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ·

٥ ـ معرفة سيرة النبى وأصحـــابه والتابعين : يدعو ابن الجوزى الى معرفة سيرة الرســـول صلى الله عليه وسلم ، وسير أصحابه والعلماء بعدهم ، ليتخير الانسان مرتبة الأعلى فالأعلى ·

٦ ـ علوم اللغة : ويرى ابن الجـــوزى أنه لابد من معرفة

الطالب ما يقيم به لسانه من النحو ، ومعرفة طرف من اللغة ٠

٧ ـ الوعظ : اذا كان الفقه أم العلـــوم ، فان الوعظ حلواؤهــا ، وأعمها نفعا ٠

ويشير ابن الجوزى الى أنه قد وضع فى هذه العلوم المذكورة ، وغيرها من التصـــانيف ما يغنى عن كل ما سبق من تصانيـــف القدماء (١) ٠ ويذكر أنه صنـــف مائة كتاب ، ويعـــرض لبعضها (٢) ٠

الهمة فى طلب العلوم :

يرى ابن الجوزى أن الدافع لطلب العلم فطرى فى الانسان ٠ يقول : « وقد عرفت بالدليل أن الهمة مولدة مع الآدمى ، وانما تقصر بعض الهمم ، فاذا حثت سارت ، ومتى رأيت فى نفسك عجزا فسل المنعم ، أو كسلا فالجأ الى الموفق ٠٠٠ » (٣) ٠

ويذكر ابن الجوزى جانبا من تجربته الشـخصية فى طلب العلم ، ويبين كيف أنه استثمر هذا الدافع الفطرى عنده لتحصيل العلوم ٠ يقول : « فانى أذكر نفسى ولى همـة عالية ، وأنا فى المكتب ، ولى نحو ست سنين ، وأنا قرين الصبيان ، ثم رزقت عقلا فى الصغر يزيد على الأشـياخ ، فما أذكر أنى لعبت فى طريق مع صبى ، ولا ضحكت ضحكا خارجا ، حتى انى كنت ـ ولى سـبع

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢٠ ـ ٢٢ ٠
(٢) نفس المصدر ، ص ٤٣ ومابعدها ٠
(٣) نفس المصدر ، ص ٢٢ ٠

سنين أو نحوها — أحضر رحبة الجامع ، ولا أتخير حلقة مشعبز ، بل أطب المحدث ، فيحدث بالمثمر ، فأحفظه ، فأرجـع الى البيت ، فأكتبه » ٠

ويعترف ابن الجـوزى بفضل أستاذه أبى الفضل محمد بن ناصر (ت ٠ سنة ٥٥٠) المحـدث والفقيه الحنبلى ، فيقول : « ولقد وفق لى شيخنا أبو الفضل ، فكان يحملنى الى الأشـياخ ، فأسمعنى المسند (لاحمد بن حنبل) وغيره من الكتب الكبـار ، وأنا لا أعلم ما يراد منى ، وضبط لى مسـموعاتى الى أن بلغت ، فناولنى ثبتها ، ولازمته الى أن توفى ، فأدركت به معرفة الحديث والنقل ٠

ولقد كان الصبيان ينزلون دجلة ، ويتفرجون على الجسر ، وأنا فى زمن الصغر آخـذ خبزا ، وأقعد حجزة من الناس ، الى جانب الرقة (مكان بجوار نهر عيسى) ، فأتشاغل بالعلم ٠ ثم الهمت الزهد ، فسردت الصوم وتشـاغلت بالتقلل ، وألزمت نفسى صبرها ، فاستمرت ، وأحببت السهر ٠

ولم أقنع بفن واحد من العلم ، بل كنت أسمع الفقه والوعظ والحديث ، واتبع الزهاد ، ثم قرأت اللغة ، ولم أترك أحدا ممن قد انزوى أو وعظ ، ولا غريبا يقـدم الا وأحضره ٠٠٠ » ، ويمضى ابن الجوزى مبينا اهتمامه منذ صغره بالعلم والعلماء ، وكيف كان يدور على المشايخ لسماع الحـديث ، حتى ينقطع نفسه من العدو ؟ فماذا كانت ثمرة حرصه على العلم ؟

لقد أحسن الله تدبيره وتربيته ، ودفع عنه الأعداء والحساد ، ومن كان يكيد له ، وهيأ له أسباب العلم ، وبعث اليه الكسب من حيث لا يحتسب ، ورزقه الفهم ، وسرعة الحفظ ، وجودة التصنيف ، ولم يعوزه شيئا من الدنيا ، بل ساق اليه مقدار الكفاية وأزيد ، ووضع له فى قلوب الخلق من القبول فوق الحد ، وأوقع كلامه فى نفوسهم ، فلم يرتابوا بصحته ، وأسلم على يديه نحو مائتين ، وتاب فى مجلسه أكثر من مائة ألف ، وتأثر بوعظه نحو عشرين ألف (١) .

ويجمل ابن الجوزى ما قد آلت اليه حالته ، فى كلمة واحدة ، وهى قوله تعالى : « واتقوا الله ويعلمكم الله » (البقرة : ٢٨٢) (٢) .

اغتنام الوقت :

يستخلص ابن الجوزى من تجربته فى طلب العلم ، ورحلته فى تحصيله منذ حداثة سنه ، أهمية الوقت ، وضرورة الافادة منه . يقول : « فانتبه يا بنى لنفسك ، واندم على ما مضى من تفريطك واجتهد فى لحاق الكاملين ما دام فى الوقت سعة ، واسق غصنك ما دامت فيه رطوبة ، واذكر ساعاتك التى ضاعت ، فكفى بها عظة ، ذهبت لذة الكسل فيها ، وفاتت مراتب الفضائل » .

ويشير ابن الجوزى الى أن السلف الصالح كانوا يغتنمون

(١) نفس المصدر ، ص ٢٣ ـ ٢٥
(٢) نفس المصدر ، ص ٢٦

اللحظات فى جمع الفضائل ، واكتساب العلوم ، ويذكر فى هذا الصدد بعض الصوفية الأوائـــل ، مثل ابراهيم بن آدهم (ت • سنة ١٦١) الذى قال : « دخلنا على عابد مريض ، وهو ينظر الى رجليه ويبكى ، فقلنا : مالك تبكى ؟ فقال : ما أغبرنا فى سبيل الله تعالى • وبكى أخرى ، فقيل ما يبكيك ؟ قال : على يوم مضى ما صمته ، وعلى ليلة ذهبت ما قمتهـــا » (١) ، وكانت رابعة العدوية (ت • سنة ١٣٥) لا تنام الليل ، فاذا طلع الفجر هجعت هجعة خفيفة ، وقامت فزعة ، وقالت لنفسها : النوم فى القبـــور طويل (٢) •

وفى الحديث « من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له بها نخلة فى الجنة » (رواه النيسابورى والحاكم والترمــــزى وغيرهم) ، فانظر الى مضيع الساعات كم يفوته من النخل (٣) •

ويدعو ابن الجوزى الانسان الى النظر فى مقدار بقـــائه فى الدنيا ، فرضنا ستين سنة مثلا ، فانه يمضى منها ثلاثـــون فى النوم ، ونحو من خمسة عشر فى الصبا ، فاذا حسبت الباقى ، فان أكثره فى الشهوات والمطاعم والمكاســـــب ، فاذا أخلص ما للآخرة فيه من الرياء والغفلة كثيرا ، فبماذا يشترى الحيـــــاة الأبدية وانما الثمن هذه الساعات ؟

ولكن ماذا عمن أضاع جزءا من عمره سدى دون أن يستفيد

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢٦ — ٢٧
(٢) نفس المصدر ، ص ٢٩
(٣) نفس المصدر ، ص ٢٨

علما أو فضلا ؟ هل يصاب باليأس بسبب تفريطه فيما مضى من عمره ؟ يقول ابن الجوزى : « ولا يؤيسك من الخير ما مضى من التفريط ، فانه قد انتبه خلق كثير بعد الغفلة والرقاد الطويل » (١) . ثم يقدم نموذجين لاثبات صحة ما يقول :

أولهما هو قاضى القضاة أبو الحسن الدامغانى الحنفى (٤٤٩ — ٥١٣ هـ .) الذى قال : « كنت فى صبوتى متشاغلا بالبطالة ، غير ملتفت الى العلم ، فأحضرنى أبو عبد الله ، وقال : يا بنى انى لست أبقى لك أبدا ، فخذ عشرين دينارا ، وافتح دكان خباز وتمعن ، فقلت : ما هذا الكلام ؟ ... تقول هذا وأنا ابن قاضى القضاة ؟ قال : فما أراك تحب العلم ، فقلت : اذكر لى الدرس الساعة ، فذكر لى ، فأقبلت على التشاغل بالعلم ».

والنموذج الآخر هو المفسر والفقيه أبو محمد الحلوانى (ت . سنة ٤٥٦) الذى قال : « مات أبى وأنا ابن أحدى وعشرين سنة ، وكنت فى البطالة ، فأتيت اتقاضى بعض ساكنى دار ورثتها ، فسمعتهم يقولون : قد جاء المدبر (أى المتعطل) ، فقلت فى نفسى : يقال عنى هذا ؟ فجئت الى والدتى ، فقلت : اذا أردت طلبى فاطلبينى من مسجد الشيخ أبى الخطاب ، ولازمته فما خرجت الا الى القضاء ، فصرت قاضيا مدة ... » (٢) .

خطة يومية للطالب :

يضع ابن الجوزى لولده خطة لما ينبغى أن يقوم به فى اليوم ،

---

(١) نفس المصدر ، ص ٣٠

(٢) نفس المصدر ، ص ٣١ — ٣٢

ويطلب منه أن يلزم نفسه بها ، وتتلخص فيما يلى :

عند طلوع الفجر : لا تتحدث بحديث الدنيا ، فقد كان السلف لا يتكلمون فى ذلك الوقت بشىء من أمور الدنيا ، وقل عند انتباهك ، أى عند يقظتك من النوم : « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور . الحمد لله الذى يمسك السماء أن تقع على الأرض الا باذنه ان الله بالناس لرءوف رحيم » (رواه الترمذى والنووى) . ثم قم الى الطهارة ، واركع سنة الفجر ، وأخرج الى المسجد خاشعا ، وقل فى طريقك : « اللهم انى أسألك بحق السائلين عليك ، وبممشاى هذا اليك ، انى لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعه ، خرجت اتقاء سخطك ، وابتغاء مرضاتك ،أسألك أن تجيرنى من النار ، وأن تغفر لى ذنوبى انه لا يغفرالذنوب الا أنت » وأقصد الامام ، فاذا فرغت من الصلاة ، فقل : « لا اله الا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير . عشر مرات ، ثم سبح عشرا ، وأحمد عشرا ، وكبر عشرا » (أخرجه الترمذى عن أنس بن مالك) ، واقرأ آية الكرسى ، وسل الله سبحانه قبول الصلاة ، فان صح لك فاجلس ذاكرا الله تعالى الى أن تطلع الشمس ، فتركع وتقوم .

بعد طلوع الشمس : تشاغل بما يمكن من العلوم ، وأهمها تصحيح القرآن ، ثم الفقه ، فاذا أعددت دروسك الى وقت الضحى الأعلى فصل الضحى ثمانى ركعات .

ثم تشاغل بمطالعة أو بنسخ الى وقت العصر ، ثم عد الى

دروسك بعد العصر الى المغرب ، وصل بعد المغرب ركعتين ، تقرأ فيهما جزءين ٠

فاذا صليت العشاء ، فعد الى دروسك ، ثم اضطجع ، فسبح ثلاثا وثلاثين ، وأحمد ثلاثا وثلاثين ، وكبر أربعا وثلاثين ، وقل : اللهم قنى عذابك يوم تجمع عبادك ٠

واذا أفتحت عينك من النوم (فى أثناء الليل) ، فأعلم أن النفس قد أخذت حظها ، فقم الى الوضوء ، وصل فى ظلام الليل ما أمكن ٠ والتوسط أن تصلى ركعتين خفيفتين ، ثم بعدهما ركعتين بجزءين من القرآن ٠ ثم تعود على دروسك العلم ، فان العلم أفضل من كل نافلة (١) ٠

وعليك بالعزلة ، فهى أصل كل خير ، وليكن جلساؤك الكتب ، والنظر فى سير السلف ٠ ولا تشتغل بعلم حتى تحكم ما قبله ، وتلمح سير الكاملين فى العلم والعمل ، ولا تقنع بالدون ، فقد قال الشاعر (المتنبى المتوفى سنة ٣٥٤) فى ذلك :

ولم أر فى عيوب الناس شيئا كنقض القادرين على التمام (٢)

شرف العلم :

ان العلم يرفع الأراذل ، فقد كان خلق كثير من العلماء ، لا نسب لهم بذكر ، ولا صورة تستحسن ٠ فقد كان عطاء بن أبى

(١) نفس المصدر ، ص ٣٢ — ٣٤
(٢) نفس المصدر ، ص ٣٤ — ٣٥

رباح (تابعى فقيه توفى سنة ١١٥) أسود اللون ، ومستوحش الخلقة ، جاء اليه سليمان بن عبد الملك (ت ٠ سنة ٩٩) وهو خليفة ، ومعه ولداه ، فجلسوا يسألونه عن المناسك ،فحدثهم ، وهو معرض عنهم بوجهه ، فقال سليمان لولديه : قوما ولاتنيا فى طلب العلم ، فما أنس ذلنا بين يدى هذا العبد الأسود ٠

وكان كثير من علماء التابعين من الموالى ، ومنهم الحسن البصرى ، وابن سيرين (ت ٠ سنة ١١٠ هـ ٠) ، ومكحول (ت ٠ سنة ١١٣) ، وغيرهم خلق كثير ، وانما شرفوا بالعلم والتقوى ٠

ويوصى ابن الجوزى ابنه بصيانة عرضه من التعرض لطلب الدنيا ، والاستغناء عنها ، والافتقار الى العلم ، وأن يقتدى فى ذلك بابن الجوزى نفسه ٠ يقول : « وأعلم يا بنى أن أباك كان له والد موسر ، خلف ألوفا من المال ، وكان أبوك طفلا ، فأنفق عليه من ذلك ، الى آن بلغ ، ولم يرد بعد بلوغه سوى دارين ، كان يسكن واحدة ، ويأخذ آجرة أخرى ، ثم أعطى نحو عشرين دينارا ، وقيل : هذه التركة كلها ، فاشترى كتبا من العلم ، وباع داريه ، وأنفقهما فى طلب العلم ، ولم يبق له شىء ، وما ذل فى طلب الدنيا كذل غيره ، ولاخرج يطوف البلدان كغيره من الوعاظ ٠٠٠ » (١) ٠

ويوصى ابن الجوزى ابنه بتقوى الله ، عملا بقوله تعالى « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب »

---

(١) نفس المصدر ، ص ٣٥ ـ ٣٨

(الطلاق : ٢ — ٣) ، ويقول : « يا بنى ومتى صححت التقوى رأيت كل خير » فالمتقى الذى يجعل له ذخائر من تقوى يجد تأثيرها ، فلا يتعرض لما يؤذى دينه كما أنها تنجى المرء من الشدة ، وتخلصه من الكرب ، وترفع مكانته ، فقد جاء فى الحديث « ما من شاب اتقى الله تعالى فى شبابه الا رفعه الله تعالى فى كبره » ، كما أنها تزيده علما وحكمة • قال تعالى « ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين » (القصص : ١٤) •

ومن ذخائر التقوى غض طرف عن محرم ، وامساك فضول كلمة ، ومراعاة حد ، وايثار الله تعالى على هوى النفس (١) •

والعبادة الحقة لله تعالى تستلزم العلم « واياك أن تتشاغل بالتعبد من غير علم ، فان خلقا من المتزهدين والمتصوفة خلوا طريق الهدى اذ عملوا بغير علم » (٢) • وهكذا تتضح أهمية العلم ومنزلته فى نظر ابن الجوزى •

---

(١) نفس المصدر ص ٣٨ — ٤٠
(٢) نفس المصدر ، ص ٤٤ — ٤٥

الفصل الخامس

أبو بكر الآجرى

وأخلاق العلماء

حياته وعصره :

هو الامام محمد بن الحسين بن عبد الله الآجرى (١) ، والآجرى بفتح الهمزة الممدودة وضم الجيم وتشديد الراء ، وينسب الى قرية من قرى بغداد يقال لها آجر فيما يذكر ابن خلكان • ولا يذكر لنا المؤرخون متى ولد ؟ ولكن من المرجح أنه ولد سنة ٢٦٤ هـ • ويحدد التقى الفاسى يوم وفاة الآجرى فيقول : توفى — رحمه الله — يوم الجمعة أول يوم من المحرم سنة ستين وثلاثمائة بمكة ، ودفن بها ، وكان قد بلغ من العمر ستا وتسعين سنة أو نحوها •

حدث أولا ببغداد قبل سنة ثلاثين وثلاثمائة ، ثم انتقل من بغداد الى مكة ، فاستوطنها الى أن توفى ، ودفن فيها •

اختلف المؤرخون فى المذهب الذى كان عليه الآجرى ، فيجزم ابن خلكان فى كتابه « وفيات الأعيان » بأن آبا بكر الآجرى شافعى

---

(١) راجع ترجمته فى المصادر الاتية : الخطيب البغدادى :تاريخ بغداد ، ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والامم ، التاج السبكى : طبقات الشافعية، الذهبى : تذكرة الحفاظ ، التقى الفاسى : العقد الثمن فى تاريخ البلد الامين ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ياقوت الحموى : معجم البلدان ، وكذلك اسماعيل الانصارى فى مقدمته لكتاب أخلاق العلماء للاجرى .

المذهب ، وكذلك يذكره التاج السبكى فى « طبقات الشافعية » . أما التقى الفاسى صاحب « العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين » فيقطع بأن الاجرى حنبلى المذهب . وعلى أية حال فان من تأمل كتابه « أخلاق العلماء » تبين له أن الرجل كان على طريقة السلف .

ولشيخنا السلفى مصنفات كثيرة ، اذ يذكر لنا المؤرخون أكثر من عشرين كتابا من تصنيفه ، ومن بين هذه الكتب كتاب « أخلاق العلماء » المار ذكره ، والذى سنعرض له بعد قليل .

ولقد تبين لنا أن الآجرى كان أحد علماء بغداد فى القرن الرابع الهجرى ، قبل أن يرتحل الى مكة ، اذ أنه ولد فى قرية قريبة من بغداد ، وعاش فى عاصمة الخلافة العباسية حتى بلغ السادسة والستين تقريبا ، واهتم بدراسة أحوالها ، فيذكر المؤرخون من مصنفاته المفقودة « رسالته الى أهل بغداد » . فما هى أهم معالم الحياة فى بغداد فى ذلك العصر ؟

منذ منتصف القرن الثالث الهجرى بدأت الدولة الاسلامية تنقسم الى دويلات شبه مستقلة ، بسبب ضعف الخلفاء العباسيين ، وزوال سلطانهم ، واستبداد أمراء الأقاليم بالحكم ، واتسم الحكم بالبطش تارة ، وبالمكر والخديعة تارة أخرى ، فكثرت الثورات ، وتعددت المؤامرات .

ولجأ الأمراء والوزراء الى وسائل متعددة لامتصاص ثروات الناس ، من خلال فرض الجبايات المتنوعة ومصادرة الأموال ، والاستيلاء على المواريث ، فتجمعت الكنوز ، واستفحل الغنى ، ولكن توزيع الثروة لم يكن عادلا ، فاشتد التمايز بين الطبقات ،

فكانت طبقة الأغنياء من رجال الحكم ومن شايعهم يعيشون فى القصور الفاخرة ، وتتسم حياتهم بالبذخ والترف ، بينما كانت الفئات الفقيرة تعانى شظف العيش ، حتى قيل عن بغداد انها « جنة الموسر وجحيم المعسر » .

حقا ان الحياة العلمية فى القرن الرابع الهجرى لم يصبها الوهن كما أصاب الحياة السياسية والاقتصادية ، بل لقد كان ذلك العصر هو العصر الذهبى للعلم والفكر ، وكان للازدهار العلمى حينذاك عوامل متعددة ، فقد استمرت حركة ترجمة التراث اليونانى والفارسى والهندى الى العربية ، وظهرت مراكز علمية نشيطة فى كثير من مدن الأقاليم الاسلامية ، وكانت تنافس بغداد ، وكان ذلك بفضل تشجيع أمراء هذه الأقاليم للعلماء والأدباء ، وحرص الحكام على أن تكون لهم مجالس تضم أكبر عدد من رجال الفكر ، ومكتبات تضم الكتب النفيسة النادرة .

الا أن الازدهار العلمى والأدبى فى ذلك العصر كان له جانب غير مشرق ، فقد نشأ فى ذلك الجو « أدب التكدية » (١) الذى يسوغ النفاق ويدعو له ، بعد أن أصبح الناس فرقا شتى ، وطبقات متمايزة ، كل منهم يسعى وراء منفعته بكل ما أوتى من جهد ، وما أتيح له من قوة ، فلجأ فريق من الأدباء والعلماء الى طرق الاحتيال المختلفة فى جلب المنافع والاستجداء ، فنافقوا

---

(١) التكدية كلمة مأخوذة كدى تكدية ، أى سأل واستعطى ، وتكدى أى تسول وتكلف التكدية ، والتكدية الاستعطاء وحرفة السائل الملح .

رجـــال الحكم من أجل الحصول على الأمـــوال ، واصطنعوا مذاهبهم لينالوا رضاهم ، ولم يستحوا مما اتسم به سـلوكهم من مداهنة وكذب ، وتنافسوا فيما بينهم فى الرياء ، وكثر التحاسد والتباغض بينهم ، وتآمر بعضهم على بعض ، وعلى الجملة تدهورت أخلاق العلماء والمتعلمين فى ذلك العصر . ويؤكدهذا المعنى أديب الفلاسفة ، وفيلسوف الأدباء فى القرن الرابع ، أعنى أبا حيان التوحيدى حين يقول : « الى الله عز وجل أشكو عصرنا وعلماءنا وطالبى العلم منا ، فانه قد دب فيهم داء الحمية ، واستولى عليهم فساد العصبية ... » (١) .

ومن أجل اصلاح « أخلاق العلمـــاء » كتب أبوبكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجرى كتابه «أخلاق العلماء» بعد أن لاحظ تغير طريقة السلف من العلماء ، اذ كان علمـــاء السلف وأئمتهم يطلبون العلم لأنه فريضة ، وللتخلص من الجهل لأنه رذيلة ، أما علماء زمانه فقد فتنتهم الدنيا ، فاتخذوا من العلم وسيلة لتحقيق مآربهم الخسيسة .

ويعد هذا الكتاب من أهم كتب التربية الاسلامية ، اذ يعرض للصفات أو الشروط التى يجب توافراها فى المعلم ، ويبين السلوك الذى ينبغى أن يسلكه رجال العلم .

فضل العلماء :

يستهل أبو بكر الآجرى كتابه بالاشارة الى سمو منزلة العلم ،

---

(١) التوحيد : البصائر والذخائر : ١ / ٤٠٥

ورفعة شأن العلماء بين سائر البشر فى كل زمان ومكان ، ذلك أن الله « اختص من خلقه من أحب ، فهداهم للايمان ، ثم اختص من سائر المؤمنين من أحب ، فتفضل عليهم ، فعلمهم الكتاب والحكمة وفقههم فى الدين ، وعلمهم التأويل وفضلهم على سائر المؤمنين ، وذلك فى كل زمان وأوان ، رفعهم بالعلم ، وزينهم بالحلم » (١) ويتبين لنا بادىء ذى بدء أن الآجرى يقصد بالعلم هنا العلم الدينى بشتى فروعه • وأن العلماء فى نظره هم أولئك الذين تفقهوا فى العلوم الدينية •

ويؤكد الآجرى مفهومه للعلماء من خلال عرضـه لدورهم فى المجتمع ، ووظيفتهم الاجتماعية الهامـة ، فبهم يعرف الحلال من الحرام ، والحق من الباطل ، والضار من النـافع ، والحسن من القبيح ، فضلهم عظيم ، وخطرهم جليل ، انهم ورثـة الأنبياء ، وقرة عين الأولياء •

ان فضل العلمـاء لايعترف بـه البشر وحدهم ، بل سـائر المخلوقات تقر بذلك أيضا ، حتى « الحيتـان فى البحـار لهم تستغفر ، والملائكة بأجنحتها لهم تخضع »

ولايحتل العلماء هذه المنزلة الرفيعة فى الدنيا فحسب ، بـل لهم كذلك درجة عالية فى الآخرة « والعلماء فى القيامـة بعد الأنبياء تشفع » •

ويعقد الآجرى مقارنة بين مكانة العلماء وبين مكانة العبـاد

---

(١) الآجرى : أخلاق العلماء ، ص ١٥

والزهاد ، فيرجح كفة العلماء لما لهم من دور ايجابى ، اذ أن نفعهم عام للمسلمين بخلاف دور العباد والزهاد . يقول : « مجالسهم تفيد الحكمة ،وبأعمالهم ينزجر أهل الغفلة ، هم أفضل من العباد ، وأعلا درجة من الزهاد ، حياتهم غنيمة ، وموتهم مصيبة ، يذكرون الغافل ، ويعلمون الجاهل ... » .

ولاغنى للناس جميعا عن هؤلاء العلماء ، فان « جميع الخلق الى علمهم محتاج » ، وينبغى على جميع الناس أن يلتزموا آراء العلماء « الطاعة لهم من جميع الخلق واجبة ، والمعصية لهم محرمة من أطاعهم رشد ، ومن عصاهم عند » .

ويجب على الحاكم وسائر ولاة الأمر أن يرجعوا الى العلماء اذا ما التبس عليهم أمر من الأمور . « ما ورد على امام المسلمين من أمر اشتبه عليه حتى وقف فيه ، فبقول العلماء يعمل ، وعن رأيهم يصدر . وما ورد على أمراء المسلمين من حكم لاعلم لهم به ، فبقول العلماء يحكمون ، وعليه يعولون ، فهم سراج العباد (ومنار البلاد ، وقوام الأمة ... مثلهم فى الأرض كمثل النجوم فى السماء يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، اذا انطمست النجوم تحيروا ، واذا أسفر عنها الظلام أبصروا » (١) .

ولكن ما هى الأدلة التى يثبت بها الآجرى صحة آرائه ؟ الواقع أن الرجل — مثله كمثل سائر أهل السنة — يستند الى القرآن الكريم والسنة المطهرة فى التدليل على صدق مذهبه . يقول :

(١) نفس المصدر ، ١٥ — ١٦

« فان قال قائل ما دل على ما قلت ؟ قيل له : الكتاب ثم السنة » (١) ، ويضيف أيضا آراء السلف ·

أولا — أدلة الكتاب :

يورد الآجرى بعض الآيات الكريمة التى يذكر أن المؤمن اذا ما سمعها سارع فى طلب العلم ، ورغب فيه ، ومن هذه الايات ما يلى :

« يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم واذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير » (المجادلة : ١١) · يقول الآجرى : « فوعد الله عز وجل المؤمنين أن يرفعهم ، ثم خص العلماء منهم بفضل الدرجات » ·

وقال عز وجل « انما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور » (فاطر : ٢٨)

ولفظ « ربانيون » الذى يرد فى بعض الآيات كمثل قوله تعالى « ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » (آل عمران : ٧٩) ، وقوله تعالى : « لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الاثم » (المائدة : ٦٣) ، فيقال ان المقصود بهذا اللفظ الفقهاء والعلماء ·

كما أن كلمة « الحكمة » التى وردت فى قوله تعالى « يؤتى

(١) نفس المصدر ، ص ١٥ — ١٧

الحكمة من يشـــاء ومن يؤت الحكمة فقـــد أوتى خيرا كثيرا » (البقرة : ٢٦٩) ، وكذلك فى قوله « ولقد آتينا لقمان الحكمة » (لقمان : ٣١) ، انما يقصد بهذه الكلمة هنا العلم والفقه والعقل واصابة القول فى غير نبوة ٠

أما عن طاعة العلماء واتخاذهم أئمة يهتـــدى بهم ، فهذا ما يستفاد من آيات مثل « وجعلنـــا منهم أئمة يهدون بأمرنا » (السجدة : ٢٤) ، وكقوله تعالى « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ٠٠٠ » الى قوله « واجعلنا للمتقين اماما » (الفرقان : ٦٣ ـ ٧٤) ، وكذلك قوله عز وجل « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » (النساء : ٥٩) وقد ذهب بعض السلف الى أن المقصود بأولى الأمر الفقهاء والعلماء (١) ٠

ثانيا ـ أدلة السنة :

يورد الآجرى بعض الأحاديث النبوية التى تثبت فضل العلماء فى الدنيا والآخرة ، مثال ذلـــك ما رواه أبو الدرداء « ولفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ٠ ان العلماء ورثة الأنبياء ٠ ان الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما انما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » (أورده ابن عبد البر فى كتابه جامع بيان العلم وفضله) ٠

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٨ ـــ ٢١

ويذكر أيضا الحديث الذى رواه أبو هريرة « ما عبد الله بشىء أفضل من فقه فى دين ، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ، ولكل شىء عماد ، وعماد الدين الفقه » (أورده الخطيب فى كتابه الفقيه والمتفقه ، وللحديث روايـات مختلفة يشير الى بعضها الآجرى) ٠

ويورد كذلك الحديث الذى رواه كل من معاوية وابن عباس « من يرد الله به خـيرا يفقهه فى الـدين » (رواه الخطيـب والترمزى) ٠

ويعرض الآجرى بعض الأحاديث النبوية التى تبين أن العلماء فى الأرض كالنجوم أو المصابيح ، يهتدى بها ، وتضىء للناس فى الليلة الظلماء ، فان لم يكن ثمة ضياء تحيروا ٠ هكذا العلماء فى الناس ، اذ لا يعلم كثير من الناس كيفية أداء الفرائض أو اجتناب المحارم ، أو كيف يعبد الله فى جميع ما يعبده به خلقه الا ببقـاء العلمـاء ٠

ويلزم عن ذلك أن العالم الذى لا ينفع الناس بعلمه ، لا فضل له ، ولا يستحق هذه المكانة العالية ، وانما يحتل العلماء منزلتهم السـامية لدورهم التربـوى ، ولوظيفتهم التعليمية ٠ ويؤكد الآجرى هذا المعنى بالاشارة الى ما كتبه الصحابى الجليل سلمان الفارسى الى أبى الدرداء « ان العلم كالينابيع يغشى النـاس ، فيختلجه هذا وهذا ، فينفـع الله به غير واحـد ٠ وان حكمة لا يتكلم بها كجسد لا روح فيه ، وأن علما لا يخرج ككنز لا ينفق ،

وانما مثل المعلم كمثل رجل عمل سراجا فى طريق مظلم يستضىء به من مر به ، وكل يدعو الى الخير » (رواه الدارمى فى سننه) ٠

وروى عن معاذ بن جبل أنه قال « تعلموا العلم فان تعلمه لله خشية ، وطلبه عباده ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلم صدقة ، وبذله لأهله قربة ، لأنه معالم الحلال والحرام ، والأنيس فى الوحشة ، والصاحب فى الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والزين عند الأخلاء ، والقرب عند الغرباء ، يرفع الله به أقواما فيجعلهم فى الخلق قادة يقتدى بهم ، وأئمة فى الخلق تقتص آثارهم ، وينتهى الى رأيهم ، وترغب الملائكة فى حبهم ، بأجنحتها تمسحهم ، حتى كل رطب ويابس لهم مستغفر ، حتى حيتان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه ، والسماء ونجومها ، لأن العلم حياة القلوب من العمى ، ونور الأبصار من الظلم ، وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ به العبد منازل الأحرار ، ومجالسة الملوك ، والدرجات العلى فى الدنيا والآخرة ، والفكر به يعدل الصيام ، ومدارسته بالقيام ، به يطاع الله عز وجل ، وبه يعبد الله عز وجل ، وبه توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال من الحرام ٠ امام العمل ، والعمل تابعه ، يلهمه السعداء ، ويحرمه الأشقياء » (رواه أبو نعيم فى ترجمة معاذ مع بعض الاختلاف ، وساقه ابن القيم فى كتابه مفتاح دار السعادة) ٠

ولئن كان للعلم هذا الفضل العظيم ، لزم الاقبال على تعلمه ويورد الآجرى عدة أحاديث فى الحث على طلب العلم ، مثال ذلك

ما يرويه أبو الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم « ما سـلك عبد طريقا يقتبس فيه علما الا سلك به طريقا الى الجنة ، وان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم ، رضى عنه ، وأنه ليستغفر للعالم من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى البحر » (رواه ابن ماجة) ٠ وقال صفوان بن عسـال المرادى : « آتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ، انى جئت أطلب العلم ، فقال : مرحبا يا طالب العلم ٠ ان طالب العلم لتحفه الملائكة ، وتظلله بأجنحتها ، ثم يركب بعضهم بعضا حتى يبلغـوا سماء الدنيا من حبهم لما يطلب » (رواه ابن عبد البـر) ٠ وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سـلك طريقا يطلب فيه علما سهل الله له طريقـا الى الجنة » (رواه الترمذى) ، وقال عليه الصلاة والسلام « العالم والمتعلم شريكان فى الأجر ولا خير فى سائر الناس بعد » (رواه ابن عبد البر) ٠

وينبغى على الناس أن يقبلـوا على العلم قبل أن يذهب ، فان ذهاب العلم موت أهله ، وان موت العالم انما هو نجـم طمس ، وكسر لا يجبر ، وثلمة لا تسد ، فاذا مات العلمـاء تحير الناس ، ودرس العلم بموتهم ، وظهر الجهل ٠ انها مصيبة ما أعظمها على المسلمين ٠ يروى عبد الله بن عمرو بن العاص عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ان الله عز وجل لا يقبض العلم انتزاعا انما يقبض العلماء حتى اذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤسـاء جهالا ، فسئلوا ، فافتـوا بغير علم ، فضلوا وأضلـوا » (١) ٠ (أخرجه مسلم) ٠

(١) نفس المصدر ص ٢٢ ـ ٤٥

أوصاف العلماء :

يخصص الأجرى بابا لأوصاف العلماء (١) ، ويمهد له بتوطئة كالمقدمة (٢) ، يبين فيها هدفه من ذكر أوصاف العلماء ، فيذهب الى أنه ذكرها حتى يتسنى لمن تدبرها من أهل العلم ، أن يرجع الى نفسه ، فان كان منهم شكر الله عز وجل على ما خصه به ، وان كانت أوصافه مخالفة لأوصافهم ، استغفر الله ، ورجع الى الحق من قريب ٠

ويستهل الآجرى الباب الثانى من كتـــــابه بالاشارة الى أن للعالم صفات وأحوال شتى ومقامات لابد له من استعمالها ، فهو مستعمل فى كل حال ما يجب عليه ، وفيما يلى أهم صفاته :

١ ـ صفته فى طلب العلم :

من صفات العـــالم ، أنه « يعلم أن الله عز وجل فرض عليه عبادته ، والعبادة لا تكون الا بعلم » ، انه يعلم «أن العلم فريضة عليه » ٠ الهدف الأول اذن لطلب العلم هو عبادة الله ، ولذلـــك فان العالم يرى لله الفضل عليه ، اذا وفقه لطلب علم ما يعبده به من أداء فرائضه ، واجتناب محارمه ٠

ومن ناحية أخرى فان العالم يعلم أن المؤمن لا يحسن به الجهل ،

---

(١) نفس المصدر ، ص ٤٥
(٢) نفس المصدر ، ص ٤٦ — ٧٦

ومن أجل ذلك فهو يطلب العلم لينفى عن نفسه الجهل (١) ، أى أنه يطلب العلم لذات العلم وللتخلص من الجهل •

٢ ـ صفته فى مشيه الى العلماء :

من أهم ما يتسم به سلوك العالم ، فى نظر الآجـــرى ، أنه « يمشى برفق وحلم ووقار وأدب ، مكتسب فى مشيه كل خير » •

ويؤثر العالم الحق الوحدة ، لكى يكون للقـــرآن تاليا ، أو بالذكر مشغولا ، أو لكى يحدث نفسه بنعم الله ، ويقتضى منها الشكر ، ويستعيذ بالله من شر سمعه وبصره ولسانه ونفســـه وشيطانه •

ولكن اذا بلى بمصاحبة الناس فى طريقه ،لم يصاحب الا من يعود عليه نفعه ، أى الذى ينتفع بعلمه ، ويرى الآجـــرى أن الأصحاب الذين يمكن أن ينتفع منهم العالم ثلاثة « اما رجل يتعلم منه خيرا ان كان أعلم منه • أو رجل هو مثله فى العلم فيذاكره العلم لئلا ينسى ما لا ينبغى أن ينساه • أو رجـــل هو أعلم منه فيعلمه ، يريد الله عز وجل بتعليمه اياه » •

ولا يمل العالم من أصحابه ان كانوا على هذا النحو ، بل على العكس ، انه يحب كثرة صحبه ، لما يعود عليه من البركـــــــة ، بصحبته لهم •

ومن صفات العالم الخوف الدائم على نفسه من الاشتغال بغير

(١) نفس المصدر ، ٤٧ ، ص ٩٧

الحق ، فهو دائما يحذر الشيطان الذى يزين له قبيح ما نهى عنه ·

كما يكثر العالم الاستعاذة بالله من علم لا ينفع ، ويسأله تعالى علما نافعا · همه فى تلاوة القرآن الفهم عن الله فيما أمر ونهى ، وفى حفظ السنن والآثار والفقه لئلا يضيع ما أمـــر به ، ولأن يتأدب بالعلم ، أى أن يتخذ من العلم وسيلة لاصلاح خلقه ·

ويكره العالم الثرثرة ، فهو « طويل السكوت عما لا يعنيه ، حتى يشتاق جليسه الى حديثه » ·

ولا يصاب العالم الحق بالغـــرور ، ان ازداد علما ، بل على العكس ، انه يخاف من ثبات الحجة ، فهو مشفق فى علمه ، وكلما ازداد علما ازداد اشفاقا ·

وعليه ان فاته سماع علم قد سمعه غيره ، ألا يستسلم للحزن على ما فاته ، وألا يغالى فى حـــزنه ، بل عليه أن يواقف نفسه ، ويحاسبها على الحزن « فيقول : لم حزنت ؟ احذرى يا نفسى أن يكون الحزن عليك لا لك · اذا سمعه (أى العلـــم) غيرك فلم تسمعيه أنت فكان أولى بك أن تحزنى على علم قد قرع السمع ، وقد ثبتت عليك به الحجة فلم تعملى به ، فكان حزنك على ذلك أولى من حزنك على علم لم تسمعيه ، ولعلك لو قدر لك سماعه كانـــت الحجة عليك أوكد ، فاستغفر الله من حزنه ، وسأل مولاه الكريم أن ينفعه بما قد سمع » (١) ·

---

(١) نفس المصدر ، ص ٤٨ — ٤٩

٣ — صفة مجالسته للعلماء :

يبين الآجرى ما ينبغى أن تكون عليه علاقة التلميذ بأساتذته أهل العلم ، فيذهب الى أن طالب العلم يجب عليه — اذا أحب مجالسة العلماء — أن يجالسهم بأدب وتواضع ، فيخفض صوته عن صوتهم ، ويسألهم برفق ، ولا يضجرهم فى السؤال ، ويخبرهم أنه فقير الى علم ما يسأل عنه ، فاذا استفاد منهم علما اعترف لهم بذلك ، وشكرهم عليه ،وان غضبوا عليه لم يغضب عليهم ، وانما نظر الى السبب الذى من أجله غضبوا عليه ، فرجع عنه ، واعتذر اليهم ٠

وعليه ألا يناظرهم مناظرة من يريهم أنه أعلم منهم ، وانما غايته البحث لطلب الفائدة منهم ، مع حسن التلطف لهم ، ومن ثم فلا ينبغى أن يجادل العلماء ، ولكن يحسن التأتى لهم مع توقيره لهم ، حتى يتعلم ما يزداد به عند الله فهما فى دينه (١) ٠

٤ — صفته اذا عرف بالعلم :

فاذا اشتهر بأنه من أهل العلم ، واحتاج الناس الى ما عنده من علم ، ألزم نفسه التواضع للجميع العلماء وغير العلماء ٠

فأما تواضعه لمن هم مثله فى العلم ، فلأنه يؤدى الى محبة تنبت له فى قلوبهم ، فتجعلهم يحبون قربه ، واذا غاب عنهم حنت اليه قلوبهم ٠

---

(١) نفس المصدر ، ص ٥٠

وأما تواضعه للعلماء — الذين هم أعلى منه فى العلم — فهو أمر واجب عليه ، لأن العلم يقتضى ذلك ٠

وأما تواضعه لمن هو دونه فى العلم ، فلأن شرف العلم له عند الله وعند أولى الألباب ، اذ العالم الحق هو الذى يريد الله بعلمه ، لا من يطلب بعلمه شرف منزلة عند الملوك أو نحو ذلك ٠

وعلى الرغم من تحذير الآجرى للعلماء من الغرور ، وحثهم على التحلى بصفة التواضع ، الا أن هذه الصفة لا تعنى أن يقوم رجل العلم بتعليم من لا يستحق ، بل ينبغى أن يكون صائنا للعلم الا عن أهله ، فيقبل على من يعلم أنه محتاج الى علم ما يسأل عنه ، ويترك من يعلم أنه يريد الجدل والمراء ٠ يجب على العالم أن « يضع الحكمة عند أهلها ، ويمنعها من ليس بأهلها ، مثله مثل الطبيب يضع الدواء بحيث يعلم أنه ينفع » (١) ٠

وينقل الآجرى عن عبد الله بن مسعود قوله : « لو أن أهل العلم صانوا العلم ووضعوه عند أهله ، سادوا به أهل زمانهم ، ولكنهم بذلوه لأهل الدنيا ، لينالوا من دنياهم ، فهانوا على أهلها » (٢) ، يجب على العالم اذن ألا يتخذ من علمه وسيلة لتحقيق مآربه الدنيوية ، ومن أجل ذلك ينبغى عليه ألا يأخذ على العلم ثمنا ، ولا يستقضى به الحوائج ، ولا يقرب أبناء الدنيا ، ويباعد الفقراء ، وانما يجب عليه أن يتواضع للفقراء والصالحين ليفيدهم العلم ٠

---

(١) نفس المصدر ، ص ٥١ — ٥٥
(٢) نفس المصدر ، ص ٩٢

ويعرض الآجرى بعض المبادىء التربويـــــة الهامة فى طرق التدريس ، فيذهب الى أن العالم ، ان كان له مجلس للعلم ، فعلية أن يلزم نفس حسن المداراة لمن جالسه ، والرفق بمن سائلـــــه واستعمال الأخلاق الجميلة ، ويجب عليـه أن يتجافى عن الأخلاق الدنية ٠

ومن المبادىء الأخلاقية الهامـــة التى يجب أن يتسم بهــا مع مجالسيه ، أن يكون صبورا « على من كان ذهنه بطيئا عن الفهم ، حتى يفهم عنه » ٠ لقد أدرك الآجرى أن الناس يتفاوتون فيمـــا بينهم فى القـــدرة على الفهم، ومن ثم فيجب على المعلم أن يراعى ذلك ،

ويجب عليه أيضا أن يكون صبورا على جفاء من جهل عليـه ، حتى يرده بحلم ، فالعنف وسيلة تربوية غير مجدية فى رأى الآجرى، ولذلك ينبغى على المعلم أن « يؤدب جلســـاءه بأحسن ما يكون من الأدب ، لا يدعهم يخوضون فيما لا يعنيهم ، ويأمرهم بالانصات مع الاستماع الى ما ينطق بــه من العلم ، فان تخطى أحدهم الى خلق لايحسن بأهل العلم لم يجبهه فى وجهه على جهة التبكيت له ، ولكن يقول : لايحسن بأهل العلم والأدب كذا وكذا ، وينبغى لأهل العلم أن يتجافوا كذا وكذا ، فيكون الفاعل لخلق لايحسن ، قد علم أنه المراد بهذا ، فيبادر برفقه به » ٠

والمعلم القدير فى نظر الآجرى هو من لا يترك أسئلة تلاميذه تتطرق الى موضوعات شتى لاتمت بصلـــة الى الموضوع المطروح

للدراسة ، بل « ان سأله منهم سائل عما لا يعنيه ، رده عنه وأمره أن يسأل عما يعنيه » .

وعلى العكس اذا لاحظ أن طلابه قد أغفلوا السؤال عن أمر ذى أهمية كبيرة ، فعليه أن يلفت أنظارهم الى أهميته وشدة حاجتهم الى معرفته ، وذلك توطئة لتعليمهم اياه . يقول : « فاذا علم أنهم فقراء الى علم قد اغفلوه عنه ، أبداه اليهم ، وأعلمهم شدة فقرهم اليه » (١) .

والمعلم الكفء فيمـــا يرى الآجرى هو الذى « لايعنف السائل بالتوبيخ القبيح فيخجله ، و لا يزجره فيضع من قدره ،ولكن يبسطه فى المسئلة ليجبره فيها » ، انه من ينشر العلم « بالحكمة والموعظة الحسنة » . (٢)

وينتقل الآجرى من عرض المبادىء التربوية التى يجب مراعتها فى التدريس بعامة ، الى منهج أهل السنة والجماعة بخاصة فى الرد على ما قد يثار من أسئلة تتعلق بمباحث فقهيـــــة أو أصولية ، فيقول : « وأما مايستعمل مع من يسأله عن العلم والفتيا ، فان من صفته اذا سأله سائل عن مسألة ، فان كان عنده علم أجاب ، وجعل أصله أن الجواب من كتاب أوسنة أواجماع ، فاذا وردت عليـــه مسئلة قد اختلف فيهـا أهل العلم اجتهد فيها . فما كان أشبــه بالكتاب والسنة والاجماع ، ولم يخرج به من قول الصحابة وقول الفقهاء بعدهم قال به ، اذا كان موافقا لقول بعض الصحابة وقول

---

(١) نفس المصدر ، ص ٥٢
(٢) نفس المصدر ص ٥٣

بعض ائمة المسلمين قال به ، وان كان قد رآه مما يخالف به قول الصحابة وقول فقهاء المسلمين حتى يخرج عن قولهم لم يقبل به ، واتهم رأيه ، ووجبب عليه أن يسأل من هو أعلم منه أو مثله حتى ينكشف له الحق ، ويسأل مولاه أن يوفقه لاصابة الخير والحق » ٠
هذه هى المصادر الأربعة التى يعول عليها أهل السنة والجماعة : الكتاب والسنة ، والاجماع ، والاجتهاد ٠

ولكن ماذا يفعل المعلم بصدد سؤال لم يتمكن من استخراج اجابته من أحد هذه المصدر الأربعة ، أو اذا اكتشف أنه أخطأ فى الاجابة ؟ يقول الآجرى : « واذا سئل عن علم لايعلمه لم يستح أن يقول لا أعلم ٠٠٠ وان أفتى بمسألة فعلم أنه أخطأ لم يستنكف أن يرجع عنها، وان قال قولا فرده عليه غيره ممن هو أعلم منه أومثله أودونه ، فعلم أن القول كذلك ، رجع عن قوله ، وحمده على ذلك ، وجزاه خيرا ، وان سئل عن مسألة اشتبه القول عليه فيها، قال : سلوا غيرى ، ولم يتكلف مالا يتقرر عليه » (١) ، ولذلك قيل « أجرأ القوم على الفتيا أدناهم علما » (٢) ٠

هذا هو طريق الصحابة ومن بعدهم من أئمة المسلمين ، لايستنكف أحدهم أن يقول لاأعلم اذا سئل عن شىء لايعلمه ، ولقد اتبعوا فى ذلك نبيهم صلى الله عليه وسلم ، لأنه كان اذا سئل عن الشىء مما لم يتقدم له فيه علم الوحى من الله عز وجل ، فيقول : لا أدرى ٠ وهكذا يجب على كل من سئل عن شىء لم يتقدم فيه العلم

(١) نفس المصدر ص ٥٣ ـ ٥٤
(٢) نفس المصدر ، ص ١٠٤

أن يقول : الله أعلم به ، ولا علم لى به • (١) •

وتظهر سلفية الآجرى فى رقة حينمـــا يعلن نفوره من الجدل العقيم الذى لايستهدف معرفة الحق ، بقدر مايرمى الى اثارة الفتن أو انتشار البدع • يقول : « واذا سئل عن مسألة ، فعلم أنها من مسائل الشغب،ومما يورث بين المسلمين الفتنة،استعفى منها،ورد السائل الى ما هو أولى به على أرفق مايكون ••• يحذر من المسائل المحدثـــات فى البدع ، لايصغى الى أهلها بسمعـــه ، ولا يرضى بمجالسة أهل البدع ، ولا يماريهم » (٢) •

٥ ـ صفة مناظرته :

خصص صاحب كتـاب أخلاق العلماء فصـــلا (٣) لمعالجة شروط المناظرة أو الحوار والمناقشة ، وعرض آداب المناظرة التى ينبغى مراعاتها ، كما بين أن من المناظـــرة ما يرمى الى غايات سامية ، ومنها ما يستهدف أغراضا غير مشروعة • فمن صفات العالم ألا يجادل أو يمارى أو يغالب بالعلم الا من يستحق أن يغلبه بالعلم • ولكن من ذا الذى يستحق أن يغلب بالعلم ؟ يقول : « ••• وذلك يحتاج فى وقت من الأوقـات الى مناظرة أحد من أهل الزيغ ، ليدفع بحقه باطل من خالف الحق وخرج عن جماعة المسلمين ، فتكون غلبته لأهل الزيغ تعود بركـــة على المسلمين » • اذن يلجأ أهل السنة والجماعة الى الرد على أهـــل

---

(١) نفس المصدر • ص ١١١ — ١١٢ • وراجع ص ١١٦ — ١١٧ موقف مالك بن أنس حين جاءه رجل يسأل عن شىء ، فقال مالك : لادرى •

(٢) نفس المصدر • ص ٥٤ — ٥٥ •

(٣) نفس المصدر • ص ٥٦ — ٦٣ •

البدع اضطرارا ، أو « على جهة الاضطرار الى المناظرة ، لا على الاختيار ، لأن من صفة العالم العاقل أن لا يجالس أهل الأهواء ولا يجادلهم » ٠

لقد كان أكثر المتكلمين على اختلاف فرقهم ـ مولعين بالمناظرة ، اذ كانوا يعدون الحوار من أهم مصادر بلوغ الحقيقة ، ولكن الآجرى يرفض هذا الموقف ، ويرد على أصحابه بقوله « فان قال قائل : فان احتاج الى علم مسألة قد أشكل عليه معرفتها ، لاختلاف العلماء فيها ، لابد له من أن يجالس العلماء ويناظرهم حتى يعرف القول فيها على صحته ، وان لم يناظر لم تقو معرفته ٠ قيل له : بهذه الحجة يدخل العدو على النفس المتبعة للهوى ، فتقول : ان لم تناظر وتجادل لم تفقه ، فيجعل هذا سببا للجدل والمراء المنهى عنه الذى يخاف منه سوء عاقبته (١) ٠ اذ قد يغير قلوب الاخوان ، ويورث التفرقة بعد الألفة ، والوحشة بعد الأنس ، ولهذا حذرنا النبى صلى الله عليه وسلم منه ، وكذلك حذرناه العلماء من أئمة المسلمين (٢) ٠

اذن يجب على « العالم العاقل اذا عارضه ـ فى مجلس العلم والمناظرة ـ بعض من يعلم أنه يريد مناظرته للجدل والمراء والمغالبة ، لم يسعه مناظرته ، لأنه قد علم أنه انما يريد أن يدفع قوله ، وينصر مذهبه ، ولو أتاه بكل حجة مثلها يجب أن

---

(١) نفس المصدر ، ص ٥٦ ـ ٥٧ ٠
(٢) نفس المصدر ، ص ٥٧ ـ ٥٩ ٠

يقبلها ، لم يقبل ذلك ونصر قوله • ومن كـــان هذا مراده لم تؤمن فتنته ، ولم تحمد عواقبه » (١) •

من أجل ذلـــك كره الآجرى المناظـــــرة على الطريقة السوفسطائية ، أعنى الجدل الذى لا يستهدف بلوغ الحقيقة ، وانما نصرة مذهب ما ، والدفـــاع عنه ، ولو استلزم ذلـــك استخدام شتى المغالطات ولهذا ينبغى على العالم ، قبل أن يبدأ المناظرة ، أن يختبـــر نية من يناظـــره ، وما يرمى اليه من المناقشة • « ويقال لمن مراده فى المناظـرة والمغالبة والجدل : أخبرنى اذا كنت أنا حجازيا وأنت عراقيا ، وبيننا مسألة على مذهبى ، أقول أنا : انها حـــلال ، وعلى مذهبك أنها حرام ، فسألتنى المناظرة لك عليها ، وليس مرادك في مناظرتك الرجوع عن قولك • والحق عندك أن أقول فيها قولك ، وكان عندى أنا أن أقول ، وليس مرادى فى مناظرتى الرجوع عما هو عندى ، وانما مرادى أن أرد قولك ، ومرادك أن ترد قولى ، فلا وجـــه لمناظرتنا ، فالأحسن بنا السكوت على ما تعرف من قولك ، وعلى ما أعرف من قولى ، وهو أسلم لنا وأقرب الى الحق الذى ينبغى أن نستعمله • فان قال : وكيف ذلك ؟ قيل : لأنـــك تريد أن أخطىء الحق وأنت على الباطل ولا أوفق للصواب ، ثم تســـر بذلك وتبتهج به ، ويكون مرادى فيك كذلك ، فاذا كنا كذلك ، فنحن قوم سوء لم نوفق للرشاد ، وكان العلم علينا حجة ، وكان الجاهل أعذر منا » •

---

(١) نفس المصدر • ص ٦١ •

ولعل من أهم أسباب نفور الآجرى من هذا النـــوع من المناظرة ، التى يجادل فيها كل طرف من أجل نصرة موقفه لا من أجل بلوغ الحقيقة ، هو أنه لاحظ ـ مع سائر أهل السلف ـ أن كثيرا من خلافات المتكلمين ، وما وقع بينهم من خصومات ، حتى كفر بعضهم بعضا ، انما كان نتيجة لما نشأ بينهم من مناظرات ، وكان كل فريق يستهدف منها الانتصـــار لمذهبه ، ودحض رأى خصمه وهزيمته ، بغض النظر عماذا كان هذا المذهب يتفق مع الكتاب والسنة والاجماع أو يتعارض معهم ، ولقد نجم عن ذلك الانحراف عن النهج الاسلامى الأصيل ، بل « واعظم من هذا كله ، أنه ربما احتج احدهما بسنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على خصمه ، فيردها عليه بغير تمييز . كل ذلك يخشى ان تنكر حجته ، حتى أنه لعله ان يقول بسنة عن رســـول الله صلى الله عليه وسلم ثابتة ، فيقول : هذا باطل ، وهـــذا لا اقول به فيرد سنة رسول الله صلى الله عليه وســلم برأيه بغير تمييز . ومنهم من يحتج فى مسألة بقول صحـــابى ، فيرد عليه خصمه ذلك ، ولا يلتفت الى ما يحتج عليه . كل ذلك نصرة منه لقوله ، لا يبالى أن يرد السنن والآثار » (١) .

وعلى الرغم من ذلك ، فلا يجب أن يفهم مما تقـــــدم أن الآجرى كان يرفض تماما جميع صور المناظرة ، فقد سبق أن عرفنا أنه أجازها اذا اضطر اليها العالم لدفع بدع أهل الزيغ ، كما أنه يقرها فى حالة أخرى ، اذ يعدها أسلوبا تربويا مثمرا ،

---

(١) نفس المصدر ، ص ٦١ ـ ٦٣ .

وطريقة تعليمية فعالة ، فعن سؤال عما ينبغى أن يفعل المرء فى علم قد أشكل عليه ، يجيب الآجرى قائلا : « اذا كـــان كذلك ، وأراد أن يستنبط علم ما أشكل عليه ، قصد الى عالم ممن يعلم أنه يريد بعلمه الله،ممن يرتضى علمه وفهمه وعقله ، فذاكره مذاكرة من يطلب الفائدة ، وأعلمه أن مناظرتى اياك مناظرة من يطلب الحق،وليست مناظرة مغالب،ثم ألزم نفسه الانصاف له فى مناظرته ، وذلك أنه واجب عليه أن يحب صواب مناظره ويكره خطأه ، كما يحب ذلك لنفسه ، ويكره له ما يكره لنفسه ،ويعلمه أيضا ان كان مرادك فى مناظرتى أن أخطىء الحق ، وتكون أنت المصيب ، ويكون مرادى أن تخطىء الحق ، وأكون أنا المصيب ، فان هذا حرام علينا فعله ، لأن هذا خلق لا يرضاه الله منـــا ، وواجب علينا أن نتوب من هذا . فان قال : فكيف نتناظر ؟ قيل له : مناصحة » .

اذن المناظرة الايجابية المثمرة التى يرحب بها الآجرى هى التى تستهدف معرفة الحق ، وهى التى يتسم فيهـا التناظر أو الحوار بما أسماه الآجرى بالمناصحة ، فكيف يكون التناظـــر بالمناصحة ؟ يقول الآجرى : « لما كانت مسئلة فيما بيننا ، أقول أنا : انها حلال ، وتقول أنت : انها حرام ، فحكمنا جميعا أن نتكلم فيها كلام من يطلب السلامة : مرادى أن ينكشـــف لى على لسانك الحق ، فأصير الى قولك ، أو ينكشـــف لك على لسانى الحق ، فتصير الى قولى ،مما يوافق الكتاب والسنة والاجماع . فان كان هذا مرادنا ، رجوت أن تحمد عواقب هذه المناظرة ،

ونوفق للصواب ، ولايكون للشيطان فيما نحن فيه نصيب » (١) .

٦ ـ معاشرته لمن عاشره من سائر الخلق :

يعرض أبوبكر الآجرى لأهم الصفات التى ينبغى أن تتسم بها أخلاق العالم مع سائر الناس الذين يعاشرهم ، فيقدم لنـــا صورة مثالية للانسان الفاضل وعلاقاته الاجتماعيـــة ، الا أن النموزج الذى يقدمه يخلو من المبالغـــة التى قد نرها مثلا فى الصورة الخيالية التى يرسمها الرواقيون للحكيم الفاضل الذين يعترفون بتعذر وجوده وجودا واقعيا ، او صورة الحكيم الفاضل التى يقدمها لنا معاصره مسكويه (ت.سنة ٤٢١) متأثرا فى ذلك بالرواقية . ان الصفات الأخلاقية التى يوردها الآجرى انمـــا استقاها من مصادر اسلامية صحيحة ، لا غلو فيها ولاتطرف .

فمن أخلاق العالم « آن يأمن شره من خالطه ، ويأمل خيره من صاحبه ، لا يؤاخذ بالعثرات ، ولايشيع الذنوب عن غيره ، ولايقطع بالبلاغات ، ولايغشى سر من عاداه ، ولاينتصر منه بغير حق ، ويعفو ويصفح عنه . ذليل للحق ، عزيز عن الباطـــل ، كاظم للغيظ عمن آذاه ، شديد البغض لمن عصى مولاه . يجيب السفيه بالصمت عنه ، والعـــالم بالقبول منـــه ، لامداهن ولا مشاحن ، ولامختال ، ولاحسود ، ولاحقود ، ولاسفيه ، ولاجاف ، ولافظ ، ولاغليظ ، ولاطعان ، ولالعان ، ولامغتاب ، ولاسباب ، يخالط من الاخوان من عاونه على طاعة ربـــه ، ونهاه عما يكره

---

(١) نفس المصدر ،ص ٦٠ ـ ٦١ .

مولاه ، ويخالق بالجميل من لايأمن شره ، ابقاء على دينه · سليم القلب للعباد من الغل والحسد · يغلب على قلبه حسن الظن بالمؤمنين فى كل ماأمكن فيه العذر · لايحب زوال النعم عن أحد من العباد · يدارى جهل من عامله برفقه · اذا تعجب من جهل غيره ذكر أن جهله أكثر فيما بينه وبين ربه عز وجل · لايتوقع له بائقة ، ولايخاف منه غائلة · الناس منه فى راحة ، ونفسه منه فى جهد » (١) ·

٧ — أوصافه فيما بينه وبين ربه :

يخصص الآجرى فصلا للحديث عن علاقة العالم الحق بربه ، يستهله بالاشارة الى أن العالم الذى يستعمل الأخلاق الشريفة فى علاقته بمن يعاشره من سائر الخلق ، على نحو ما عرفنا ، ينبغى أن يكون « استعماله للأخلاق الشريفة فيما بينه وبين ربه عز وجل أعظم شأنا » (٢) ·

فمن صفاته «أن يكون لله شاكرا ، وله ذاكرا ، دائم الذكر بحلاوة حب المذكور ، منعم قلبه بمناجاه الرحمن ، يعد نفسه — مع شدة اجتهاده — خاطئا مذنبا — ومع الدؤوب على حسن العمل — مقصرا · لجأ الى الله فقوى ظهره ، ووثق بالله فلم يخف غيره ، مستغن بالله عن كل شيء ، مفتقر الى الله فى كل شيء ، أنسه بالله وحده ، ووحشته ممن يشغله عن ربه · ان ازداد علما خاف توكيد الحجة ، مشفق على مامضى من صالح عمله أن لايقبل منه · همه فى تلاوة

(١) نفس المصدر ، ص ٦٤ — ٦٥ ·
(٢) نفس المصدر ، ص ٦٥ ·

كلام الله الفهم عن مولاه ، وفى سنن الرسول صلى الله عليه وسلم الفقه لئلا يضيع ماأمر به . متأدب بالقرآن والسنة . لاينافس أهل الدنيا فى عزها ، ولايجذع من ذلها ، يمشى على الأرض هونا بالسكينة والوقار ، ومشتغل قلبه بالفهم والاعتبار . ان فرغ قلبه عن ذكر الله فمعصية عنده عظيمة ، وان أطاع الله عز وجل بغير حضور فهم فخسران عنده مبين . يذكر الله مع الذاكرين ، ويعتبر بلسان الغافلين . عالم بداء نفسه ، ومتهم لها فى كل حال . اتسع فى العلوم فتراكمت على قلبه الفهوم ، فاستحى من الحى القيوم . وشغله بالله فى جميع سعيه متصل ، وعن غيره منفصل » .

ويدلل الآجرى على صحة هذا النعت الذى نعت به العلماء ، ووصفهم به ، وذلك بالبحث عن أصل له فى القرآن أو السنة أو أثر عمن تقدم من أئمة المسلمين . فيشير الى قوله تعالى « ان الذين أوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا » (الاسراء : ١٠٧) . ثم يقول الآجرى : « أفلا ترى — رحمك الله — كيف وصف العلماء بالبكاء والخشية والطاعة والتذلل فيما بينه وبينهم » (١) .

ويؤكد الآجرى مسئولية أهل العلم أمام الله ، وأنه تعالى يسألهم عن علمهم ماذا عملوا فيه ؟ فقد روى معاذ بن جبل عن

---

(١) نفس المصدر ، ص ٦٦ — ٦٧

الرسول صلى الله عليه وسلم قوله « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسئل عن أربع خصال : عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه » (رواه الخطيب فى كتابه اقتضاء العلم العمل) . ولذلك قال أبو الدرداء : « ان أخوف ما أخاف اذا وقفت على الحساب أن يقال : قد علمت ، فماذا عملت فيما علمت ؟ » ، وقال أيضا : « لا تكون عالما حتى تكون بالعلم عاملا » .

وبعد أن يورد الآجرى هذه الروايات وغيرها ، يقول : « من تدبر هذا ، أشفق من علمه أن يكون عليه لا له ، فاذا أشفق مقت نفسه ، وبان بأخلاقه الشريفة ... » (١) . أى أن محاسبة النفس ومعاتبتها على عدم تأثر السلوك بالعلم ، انما هى عند الآجرى وسيلة لاصلاح الخلق ، واقتران العلم بالعمل ، والنظر بالتطبيق .

أخلاق العالم الجاهل :

بعد أن فرغ الآجرى من تقديم أوصاف العلماء وخصالهم ، يذكر أن من تدبر هذه الخصال فعرف أنه خلو من بعض ما ذكر ، وجب عليه أن يستحى من الله ، وأن يسرع الرجوع الى الحق (٢) . ثم ينتقل الى الحديث عن الخصال التى لا ينبغى أن يتسم بها العالم الحق ، ويستهدف بذلك التحذير من هذه الخصال المكروهة

---

(١) نفس المصدر ، ص ٧٧ ـ ٨٢ .
(٢) نفس المصدر ، ص ١٠٠ .

التى اذا اتصف بها أحد العلماء ، كان فى نظر الآجرى ، عالمـــا جاهــلا ٠

« والعالم الجاهل » هو العالم المفتتن بعلمه ، والذى لم ينتفع بعلمه فى سلوكه ٠ وقد أشرنا فى مطلع هذا الفصل الى فســـاد كثير من علماء العصر الذى عاش فيه الآجرى (القرن الرابـــع الهجرى) أولئك الذين اتخذوا من العلم وسيلة لكســـب أموال الأغنياء من الأمراء والوزراء وغيرهم ٠ أو لنيل الشهرة أو لتحقيق مآرب دنيوية أخرى ٠ كان الآجرى يعتبر أولئك العلماء جهلاء ، وليسوا علماء بمعنى الكلمة ، انهم يتصفون « بصفة علماء فى الظاهر ، لم ينفعهم الله بالعلم ، ممن طلبه للفخر والرياء والجدل والمراء ، وتأكل به الأغنياء ، وجالس به الملوك وأبنـــاء الملوك ، لينال به الدنيا ، فهو ينسب نفسه الى أنه من العلماء ، وأخلاقه أخلاق أهل الجهل والجفاء ٠ فتنة لكل مفتون ، لسانه لسان العلماء وعمله عمل السفهاء » (١) ٠

ويستطرد أبو بكر الآجرى ـ فى موضع آخر ـ فى وصـــف أخلاق العالم الجاهل المفتتن بعلمه ، فيبين أنه من يتفقه للريـــاء ويحاج للمراء ، يحتج على خطئه وهو يعرفه ، مراده فى مناظرته أن يعرف بالبلاغة ، ويرمى الى أن يخطىء مناظره ٠ ان أصـــاب مناظره الحق ساءه ذلك ٠ يسره ما يسر الشيطان ، ويكره مايحب الرحمن ٠ يرخص فى الفتوى لمن أحب ، ويشدد على من لاهوى له

---

(١) نفس المصدر ، ص ٨٣ ٠

فيه • من تعلم منه علما فهمته فيه منافع الدنيا • ينطق بالحكمة فيظن أنه من أهلها ، ولا يخاف عظم الحجة عليه لتركه استعمالها ، ان علم ازداد مباهاة وتصنعا ، وان احتاج الى معرفة علم تركه أنفا • ان كثر العلماء فى عصره فذكروا بالعلم ، أحب أن يذكر معهم ، ان سئل العلماء عن مسألة فلم يسأل هو أحب أن يسأل كما سئل غيره • ان مات أحد من العلماء سره موته ، ليحتاج الناس الى علمه • ان سئل عما لا يعلم أنف أن يقول : لا أعلم • ان علم أن غيره أنفع للمسلمين منه كره حياته ، ولم يرشد الناس اليه • ان علم أنه قال قولا فتوبع عليه ، ثم علم أنه أخطأ أنف أن يرجع عن خطئه لئلا تسقط رتبته عند المخلوقين • يتواضع بعلمه للملوك وأبناء الدنيا لينال حظه منهم ، ويتكبر على من لا دنيا له من المستورين والفقراء فيحرمهم علمه • يتجمل بالعلم كما يتجمل بالحلة الحسناء للدنيا ، ولا يجمل علمه بالعمل به (١) •

ويحذر الآجرى من العلم الذى لا يبتغى به المرء وجه الله ، وانما يتعلمه لكى يصيب به عرضا من الدنيا ، ويورد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « من تعلم علما لغير الله ، أو أراد به غير الله ، فليتبوأ مقعده من النار » (رواه الترمذى وابن ماجه) ، وقول سفيان الثورى « يقال تعوذوا بالله من فتنة العابد الجاهل ، وفتنة العالم الفاجر ، فان فتنتهما فتنة لكل مفتون » ، ويذكر أقوالا أخرى لأئمة المسلمين فى هذا الصدد •

اذن ينبغى التمييز بين ضربين من العلماء : علماء ينشرون

---

(١) نفس المصدر ، ص ٩٦ _ ١٠٠ •

علمهم لتحقيق أغراض دنيوية بحتة ، وعلماء يســـترون علمهم ابتغاء وجه الله ، فلا يلجأون الى الدعاية أو الاعلان عن علمهم ٠ علم الفريق الأول علم منشور ، وعلم الفريق الآخر علم مستور ، ولفظ علماء يشمل الفريقين ، ولكن ينفرد أهل الفريق الثـــانى باسم العلماء الحكماء ٠ ويرجع هذا التمييز الى الفضيل بن عياض الذى قال : « انما هما عالمان : عالم دنيا وعالم آخرة ، فعالم الدنيا علمه منشور ، وعالم الآخرة علمه مستور ، فاتبعوا عالم الاخرة ، واحذروا عالم الدنيا ٠٠٠ » ، وقال الفضيل أيضا « العلماء كثير والحكماء قليل » ، ويعقب الاجرى على ذلك بقوله : يعنى قليل من العلماء من صان علمه عن الدنيا وطلب به الآخـرة ، والكثير من العلماء قد افتتن بعلمه ٠ ويتحدث الاجرى بحسرة عما آلت اليه أخلاق العلماء فى زمانه ٠ يقول : « ما أعظم ما قد حل بالعلماء من الفتن وهم عنه فى غفلة » (١) ٠

ومن خصالهم المذمومة الولوع باثارة المســائل المعقدة التى لا تكاد تقع ، فيتعجلون بالبلاء قبل نزوله ، أو يطرحون القضايا التى لا تستهدف سوى احراج الخصم ، واستدراجه الى الوقوع فى الخطأ ، وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن القيل والقـــال وكثرة السؤال ، كما نهى عن الأغلوطات ٠ روى ثوبـــان قوله «سيكون أقوام من أمتى ، يتغلطون فقاءهم بعضل المسائل، أولئك شرار أمتى » (٢) (أورده الخطيب فى كتابه الفقيه والمتفقه) ٠

---

(١) نفس المصدر ، ص ٩٠ _ ٩٣ ٠
(٢) نفس المصدر ، ص ١٠٩ ٠

كره الآجرى لعلماء وفقهاء عصره هذه الأمـــور « وأما ما ذكرنا فى الأغلوطات ، وتعقيد المسـائل ، مما ينبغى للعالم أن ينزه نفسه عن البحث عنهما مما لم يكن ، ولعلها لا تكون أبـدا ، فيشغلوا نفوسهم بالنظر والجدل والمراء فيهما ، حتى يشـتغلوا بها عما هو أولى بهم ٠ ويغالط بعضهم بعضا ، ويطلب بعضهم زلل بعض ، ويسأل بعضهم بعضا ٠ هذا كله مكـــروه ، منهى عنه ، لا يعود على من أراد هذا منفعة فى دينه ، وليس هـذا طريق من تقدم من السلف الصالح ٠ ما كـــان يطلب بعضهم غلط بعض ، ولا مرادهم أن يخطىء بعضهم بعضا ، بل كانوا علماء عقـلاء ، يتكلمون فى العلم مناصحة ، وقد نفعهم الله بالعلم » (١) ٠

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٠٧

الفصل السادس

برهان الاسلام الزرنوجي
وتعليم المتعلم طريق التعلم

عصره :

عاش برهان الاسلام الزرنوجي ، الفقيه الحنفى ، فى القرن السادس الهجرى ، وتوفى فى أواخره وعلى وجه التحديد فى سنة ٥٩١ . وكان القرن الذى عاش فيه الزرنوجي أحد القرون التى تعرضت فيها الحضارة الاسلامية للحملات الصليبية (٤٩٨ ــ ٦٩٢ هـ .) ، وكان لذلك الغزو الخارجي دوافع شتى ، من أهمها ضعف الجبهة الداخلية ، بسبب تمزق المسلمين وانقسامهم الى طوائف متناحرة ، وفرق متصارعة ، تسربت الى بعضها أفكار غير اسلامية كالأفكار الغنوصية التى أثرت فى الباطنية والفرق الصوفية المتطرفة ، فانتشرت فى العالم الاسلامى نزعة سلبية تدعو الى التواكل والكسل ، فخمدت همة المسلمين .

وقد عز على المخلصين من مفكرى الاسلام ، فى ذلك العصر ، أن يروا الغزو الصليبى يعصف بحضارتهم ، ويزلزل الأرض تحت أقدامهم ، فدعوا الى الرجوع لأسس بنيان حضارتهم العريقة ، والتمسك بأصولها القوية الثابتة ، وذلك بالعودة الى الكتاب والسنة ، ونبذ الخلافات المذهبية .

ولكن كيف يمكن التمسك بهذه الأصول ؟ وكيف يمكن درسها وتعلمها ؟ لقد كانت العناية بالتعليم من أهم وسائل تثبيت الجبهة الدخلية ، ووصلها بجذورها الراسخة • من أجل ذلك كانت العناية بالتعليم عناية بالغة ، تمثلت فى الاهتمام بانشـــاء المدارس ، وتأسيس المعاهد الدينية ، كما ظهر عند الأيوبيين ، ومن أشهرها المدرسة الكاملية التى انشأها الكامل محمد الايوبى سنة ٦٢١ ، كما تمثلت أيضا فى مجانية التعليم • (١)

ولم يكن غريبا أن يظهر فى ذلك العصر كتـــاب عن التعلم والتعليم ، يضعه برهان الاسلام الزرنوجى ، وعنوانه « تعليم المتعلم طريق التعلم » ، وأن يحظى بعناية المفكرين ، فيقوم بشرحه الشيخ ابراهيم بن اسماعيل ، وذلك لأن الشارح قد لاحظ اهتمام رجال التعليم وطلاب العلم على السواء بهذا الكتاب • قال شارح كتاب الزرنوجى : « رأيت الكتاب المسمى بتعليم المتعلم مرغوبـا ومقبولا بين أولى التعليم والتعلم » (٢) •

وقد عنى بدراسة الكتاب من الباحثين الدكتور سيد عثمان ، وكانت دراسته محاولة تنظير حديثة لأفكار سابقة ، نظرة جديدة من أحد المشتغلين بعلم النفس التربوى المعاصر الى مادة قديمة ، وتعريف لأبناء العصر بسبق لعالم متقدم على طريق التعلم • وبين فى هذه الدراسة أن كتاب الزرنوجى قد ترجم الى اللاتينية ، كما طبع عدة طبعات فى ترجمات حديثة الى الانجليزية والألمانيـــة • ولفت

---

(١) د • سيد عثمان : التعلم عند برهان الاسلام الزرنوجى ، ص ٢٦ – ٢٧ • راجع الخطط المقريزية •

(٢) شرح ابراهيم بن اسماعيل على كتاب تعليم المتعلم . ص ٢

الأنظار الى أن هذا الكتاب قد طبع فى ألمانيا فى سنة ١٧٠٩ ، ثم فى سنة ١٨٣٨ ، وفى مدينة ليبزج على وجه الخصوص ، حيث ظهرت بدايات الدراسة العلمية فى علم النفس على يد فوند Wudt (١٨٣٢ — ١٩٢٠) ومعاصريه . ثم يقول الدكتور سيد عثمان : لاشك أن هذا الكتاب ، وقد عرف هناك ، فى ذلك الوقت المبكر ، قد أسهم بشكل ما فى تطوير هذه الدراسة فى بدايتها فى ألمانيا . أما كيف كان هذا الاسهام ، وما قدره ؟ فانها أمور تحتاج الى دراسة قائمة بذاتها . ويمكن أن يكون كتاب الزرنوجى قد أثر فى بقاع أخرى غير ألمانيا ، وبصفة خاصة فى الفكر التربوى الانجليزى (١) .

ويلاحظ الدكتور سيد عثمان أن اختيار الزرنوجى عنوانا لكتابه بهذا الشكل « تعليم المتعلم طريق التعلم » انما يحمل فى ثناياه اتجاها عميقا وأصيلا ، انه يهدف بكتابه هذا أن يتعلم المتعلم طريق التعلم ، أو كما نقول فى اصطلاحنا الحديث فى علم النفس : ان غاية التعلم أن يتعلم المتعلم كيف يتعلم ؟ وهذا ماقصده الزرنوجى . فالأصل فى التعلم عنده أن يتعرف المتعلم على طرائق التعلم وشرائطه ليصبح معلم نفسه . (٢)

أهمية التعليم :

أدرك الزرنوجى الأهمية البالغة للتعليم ، وعرف أن للتعليم شروطا يجب مراعاتها ، وطرقا يتعين سلوكها ، ولاحظ أن أهل

---

(١) د. سيد عثمان : التعلم عند برهان الاسلام الزرنوجى ، ص ٢٨ — ٣٠ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٣٧ .

عصره فى حاجة ملحة لمعرفة طرائق التعليم وشرائطه . لأنهم يجهلونها ، فلم يثمر سعيهم لطلب العلم . شعر الزرنوجى بحاجة طلاب العلم فى عصره الى كتاب يشرح لهم عملية التعلم شرحا وافيا ، ومن أجل ذلك صنف كتابه « تعليم المتعلم طريق التعلم » ، الذى يستهله بالقول : « فلما رأيت كثيرا من طلاب العلم فى زماننا يجدون الى العلم ولا يصلون ، ومن منافعه وثمراته يحرمون ، لما أنهم أخطئوا طرائقه ، وتركوا شرائطه ـ وكل من أخطأ الطريق ضل ، فلا ينال المقصود قل أو أجل ـ أردت وأحببت أن أبين لهم طريق التعليم على ما رأيت فى الكتب ، وسمعت من أساتيذى » (١) .

وقد جعل الزرنوجى كتابه ثلاثة عشر فصلا ، الفصل الأول « فى ما هية العلم والفقه وفضله » ، ويلاحظ شارح الكتاب أن المؤلف قد قدم فى الاجمال (أى عنوان الفصل) ماهية العلم ، وفى التفصيل بيان فضله ، تنبيها على أن المقصود فى هذا الكتاب أولا بيان فضل العلم والفقه تحريضا للطالبين على طلبهما ، وثانيا بيان ماهيتهما ، لئلا يلزم طلب المجهول (٢) .

ابتدأ الزرنوجى هذا الفصل تبركا وتيمنا بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » (رواه ابن ماجة عن أنس بن مالك . ولفظة مسلمة لم

---

(١) الزرنوجى : تعليم المتعلم ، ص ٢ .
(٢) شرح ابراهيم بن اسماعيل ، ص ٤ .

ترد فى الحديث) ، ويستخلص من هذا الحديث أن طلب فرض عين على كل مسلم ومسلمة ٠

وشرف العلم لا يخفى على أحد ،اذ هو المختص بالانسانية ، لأن جميع الخصال سوى العلم يشترك فيها الانسان وسائر الحيوانات كالشجاعة والجرأة والقوة ، ولكن بالعلم وحده أظهر الله تعالى فضل آدم على الملائكة ، وأمرهم بالسجود له ٠

ولكن لماذا كان للعلم هذا الشرف ؟ وما هو العلم الذى فرض على كل مسلم ومسلمة طلبه ؟ أما شرف العلم فلأنه وسيلة الى التقوى التى يستحق بها المرء الكرامة عند الله ، والسعادة الأبدية ٠ والعلم وسيلة أيضا لاكتساب الفضائل الأخلاقية ، ولا يمكن ذلك الا بعلمها ، وعلم ما يضادها ، لكى يمكن التحرز عن الرذائل ٠ لذلك لا يفترض على كل مسلم طلب كل علم ، وانما يفترض عليه طلبعلم الحال ٠ ويبين شارح كتاب تعليم المتعلم أن المقصود بعلم الحال علم أصول الدين ، المتكفل لبيان معرفته تعالى ووحدانيته وصفاته وصدق الرسول ، وعلم الفقه الذى يبحث فى الصلاة والطهارة والزكاة والحج وما شابه ذلك ٠ والمراد من الحال هنا الأمر العارض للانسان من الكفر والايمان ، والصلاة ، والزكاة ، وغيرها من الأحوال ٠

وليس العلم عند الزرنوجى هو العلم الدينى وحده ، فالى جانب هذا العلم الذى يفترض على كل مسلم معرفته ، هناك العلوم الدنيوية ، وهى علوم مقبولة عند الزرنوجى اللهم الا اذا كانت تتعارض مع الدين ، مثال ذلك علم النجوم ، الذى

كان يطلق فى العالم الاسلامى بمعنيين أحدهما علم التنجيم أى محاولة التنبوء بالغيب ومعرفة المستقبل · اذا كـان المقصود بعلم النجوم هذا المعنى « فتعلمه حرام ، لأنه يضر ولا ينفع · والهرب من قضاء الله تعالى وقدره غير ممكن » ، وخير للمسلم أن يشتغل بذكر الله والدعاء ليصونه عن البلاء والافات · أما اذا كان علم النجوم يقصد به المعنى الثانى وهو علم الفلك ، ويستهدف المرء من تحصيله معرفة القبلة واوقات الصلاة ونحو ذلك ، فان الزرنوجى لا يرى فى تعلمه ما يمنع ، بل يجوز ذلك ·

أما علم الطب ، فيجوز تعلمه ، لأنه سبب من الأسـباب ، فيجوز تعلمه كسائر الأسـباب · وقد تداوى النبى صلى الله عليه وسلم ، وحكى عن الشافعى أنه قال : « العلم علمان : علم الفقه للأديان ، وعلم الطب للابدان » (١) · وفى موضع آخـر يؤكد هذا المعنى ، بل يجعل تعلم الطـب واجبا ، فيقول : ولا بد من أن يتعلم (الطالب) شيئا من الطب » (٢) ·

التأهب :

للتأهب دور كبير فى بحـوث علم النفس الحديث فى الادراك والتفكير والتعلم ، والمقصود بالتأهب عند علماء النفس المعاصرين هو الاتجاه العقلى والانفعـالى الذى يهىء الفرد ، أو يتهيأ به الفرد لمواجهة موقف أو مشكلة أو موضوع · والتأهب

---

(١) تعليم المتعلم ، ص ٤ — ٦

(٢) نفس المصدر ، ص ٦٣

عند الزرنوجى عنصر أساسى من عناصر التعلم الذى يجب أن يتوافر بشكل مناسب عند المتعلم ، ومن أهم عناصر التـــأهب النية (١) ٠

ان طالب العلم « لابد له من النية فى زمان تعلم العلم ، اذ النية هى الاصل فى جميع الأحـــوال ، لقوله عليه الصلاة والسلام : انما الأعمال بالنيات » (رواه البخارى) ٠ وينبغى أن ينوى المتعلم بطلب العلم رضاء الله تعالى والدار الآخرة ، وازالة الجهل عن نفسه ، وعن سائر الجهال ، بتعليمهم العلم ، واحياء الدين ، وابقاء الاسلام ، فان بقاء الاســـلام بالعلم ، ولا يصح الزهد والتقوى مع الجهل ٠ وينوى به أيضا الشكر على نعمة العقل ، وصحة البدن ، ولا ينوى به اقبـــال الناس اليه ولا استجلاب حطام الدنيا ، والكرامة عند السلطان وغيره ، اللهم الا اذا طلب الجاه للأمر بالمعـــروف والنهى عن المنكر ، الذى لا يمكن الا بان يكون الآمر والناهى ذا عز وجاه لتنفيـذ الحق ، واعزاز الدين ، لا لنفسه وهواه ، فيجوز من أجل ذلك طلب الجاه بالعلم ، بقدر ما يقيم به الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٠

والنية عند الزرنـــوجى من أهم دوافع طلـــب العلم ، ومواصلة طريق تحصيله ، على ما فيه من مشقة ، والتغلب على معوقات الحياة اليومية ومشاغلها (٢) ٠

---

(١) د ٠ سيد عثمان : التعلم عند الزرنوجى ، ص ٤٣ ــ ٤٤ ٠
(٢) تعليم المتعلم ، ص ٨ ــ ١٠ ٠

وبعد النية لابد لطالب العلم من التوكل فى طلب العلم ، ولا يهتم بالرزق ، ولا يشغل قلبه بذلـك ، أى يجب ألا يشغل الطالب فكره بالرزق ، حتى تكثر همومه ومخاوفه ، ويعيش فى كآبة وتوتر ، فتعوقه هذه الأمور عن طلب العلم ، وانما يجب عليه أن يفوض أمره الى الله ، وليترك له تعالى تدبير رزقـه • روى أبو حنيفة عن الصحابى عبد الله بن الحسن (١) الزبيدى قوله « من تفقه فى دين الله كفاه الله تعـالى همه ورزقه من حيث لا يحتسب » • أما من اشتغل قلبه بأمر الرزق من القوت والكسوة ، فانه قلما يتفرغ لتحصيل العلم ومكارم الأخـلاق ، فينبغى لكل طالب أن يشغل نفسه بأعمال الخير ، حتى لا تشتغل بهواها ، ولا يهتم (أى يصاب بالهم) العاقل لأمر الدنيا ، لأن الهم والحـزن لا يرد المصيبة ، ولا ينفع ، بل يضر بالقلـب والعقل والبدن ، ويخل بأعمال الخير ، ويهتم لأمر الآخرة ،لأنه ينفع •

ولا بد لطالب العلم من تقليل العلائق الدنيوية ، بقـدر الوسع ، ولهذا اختار العلماء الغربة ، لأن الغريب تقل علائقه بانقطاعه واعتزاله عن الخلق (٢) •

والتوكل عند الزرنوجى لا يعنى التواكل ، أى ترك الآخذ بالأسباب وقد عرفنـا منذ هنيهة أنـه يدعو الى الأخـذ بالأسباب • فاذا كان يطالب المتعلم بالتوكل على الله فى رزقه ، ويفوض له تعالى أمره ، فانما يكون ذلك بعد الأخذ بالأسباب •

---

(١) فى طبعة صبيح : عبد الله بن جزء الزبيدى ، وفى طبعة الحلبى ما اثبتناه ، وهو الصحيح •

(٢) تعليم المتعلم ، ص ٤٣ — ٤٤ •

اذ لابد لطالب العلم من القوت ، ومعرفة ما يزيد فيه ، ولذلك يفرد الزرنوجى الفصل الأخير من كتابه للكلام « فيما يجلب الرزق وما يمنعه ، وما يزيد فى العمر وما ينقص » (١) ، يذكر فيه أن هذا الموضوع قد صنفت فيه كتب كثيرة ، وأنه يورد فى هذا الفصل بعضها على سبيل الاختصار ٠

اختيار العلم والأستاذ والشريك :

يتيح الزرنوجى للمتعلم حرية اختيار العلم الذى يدرسه ، والأستاذ أو المعلم الذى يتولى مهمة التدريس له ، والشريك أو الزميل الذى يرافقه فى رحلته من اجل طلب العلم ٠ على أن يعقب عملية الاختيار « الثبات عليه » ، أى لا يحق للطالب ، بعد أن يقوم بارادته الحرة باختيار العلم والأستاذ والشريك أن يتراجع عما اختاره ،أو أن يتردد ويضطرب فى قراره ، لذلك لابد ان تسبق عملية الاختيار تفكير وروية قبل اتخاذ القرار ، والشروع فى تحصيل العلم ٠

ولكى يعين الزرنوجى الطالب على اتخاذ قرار سليم ، ينصحه بمراعاة قواعد عامة ، تهديه فى عملية الاختيار :

١ — اختيار العلم :

« ينبغى لطالب العلم أن يختار من كل علم أحسنه مما يحتاج اليه فى أمر دينه فى الحال ، ثم ما يحتاج اليه فى المآل » ٠

---

(١) نفس المصدر ، ص ٥٧ — ٦٣ ٠

وقد يظن أن الزرنوجي بهذا القول يضيق مجال الاختيار ، بحيث لا يسمح بالاختيار الا من دائرة العلوم الدينية ، ولكن هذا غير صحيح ، فانه فرق بين ما يحتاج اليه المرء فى الحال ، أى فى هذه الحياة الدنيا من علوم تصلحها ، وبين ما يحتاج اليه فى المآل ، أى فى الآخرة . حقا انه يقدم علم التوحيد والفقه على سائر العلوم ، ولكن من غير شك فان الانسان يحتاج فى الحال لعلوم أخرى غير شرعية كالطب الذى سبق أن عرفنا أن الزرنوجي يوجب تعلمه .

ومما يساعد الطالب على حسن اختيار العلم المشاورة ، اذ يتعين على المرء أن يشاور فى كل أمر ، لأن الله تعالى أمر رسوله بالمشاورة فى كل الأمور ، ولم يكن أحد أفطن منه صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك أمر بالمشاورة ، وكان يشاور أصحابه فى جميع الأمور ، حتى حوائج البيت . وقال على كرم الله وجهه : « ما هلك امرؤ عن مشورة » . ولئن كانت المشاورة هامة وواجبة فى جميع الأمور ، وكان طلب العلم من أعلى الأمور وأصعبها ، فان المشاورة فيه أهم وأوجب (١) .

الا أن الزرنوجي — فى موضع آخر — يحد من دور الطالب فى اختيار العلم الذى يزمع دراسته ، بل انه ينزع تماما من الطالب حقه فى اختيار العلم ، بعد أن سبق له أن أقر هذا الحق ، فنراه يسند مهمة الاختيار كلية الى المعلم ، اذ يقول : « وينبغى لطالب العلم ألا يختار نوع علم بنفسه ، بل يفوض

(١) نفس المصدر ، ص ١١ — ١٣

أمره الى الأستاذ ، فان الأستاذ قد حصل له التجارب فى ذلك ، فكان أعرف بما ينبغى لكل أحد ، وما يليق بطبيعته ... (و) كان طلبة العلم فى الزمان الأول يفوضون أمورهم فى التعلم الى أستاذهم ، فكانوا يصلون الى مقاصدهم ومرادهم . والآن يختارون بأنفسهم ، فلا يحصل مقصودهم من العلم والفقه » (١) .

ان انكار الزرنوجى لحق الطالب فى اختيار العلم ، فضلا عما فيه من تناقض مع ما سبق أن أقر به ، فهو أيضا لا يتسق مع ما قيل بصدد النية والتوكل ، وهما يقتضيان صدور السلوك عن ارادة حرة ، ولا يستقيم كذلك مع اقرار الزرنوجى بحق الطالب فى اختيار أستاذه على ما سنرى .

٢ ـ اختيار الأستاذ :

ينبغى أن يختار الطالب من بين الأساتذة والمعلمين الأعلم والأورع والأسن ، كما اختار أبو حنيفة أستاذه حماد بن أبى سليمان ، بعد التأمل والتفكر ، وقال : « وجدته شيخا وقورا حليما صبورا » . وقال : « نبت عند حماد بن أبى سليمان فنميت » ، وفى رواية أخرى « فنبت » (٢) . يقول ابراهيم بن اسماعيل شارح كتاب تعليم المتعلم « أى كنت ثابتا عند أستاذى حماد بن أبى سليمان ، وما تركت صحبته أبدا ، فصرت نابتا

(١) نفس المصدر ، ص ٢٠ ـ ٢١ .
(٢) فى طبعة صبيح : فنميت ، وفى طبعة الحلبى : فنبت .

وناميا كما ينمو النبات حينا فحينـــا ، حتى بلغت الى هـــذه المرتبة ، وهى مرتبة الاجتهاد » •

وهكذا نلاحـظ أن عملية التعلم ، وهى ثمرة العـــلاقة الثابتة بين المعلم والطالب ، انما هى عملية نمو مستمر ، تنمو فيها قدرات الطالب ، وتزداد حصيلته العلمية باضطراد •

ولما كان ثبات الطـالب على أستاذ بعينه أمـــرا مطلوبا ، لزم التريث فى اختيار الطالب لمن يقوم بتعليمه • يروى أبو حنيفة رواية عن أحـــد حكماء سمرقند ، مؤداها أن واحدا من طلا بةالعلم شـــاوره فى طلب العلم ، وكان عازما على الذهاب الى بخارى لهذا الغرض ، فقال له الحكيم : « اذا ذهبت الى بخارى لا تعجل فى الاختلاف الى الأئمة ، وامكث شهرين حتى تتـأمل وتختار أستاذا ، فانك اذا ذهبت الى عالم ، وبدأت بالســـبق عنده ، ربما لا يعجبك درسه ، فتتركه وتذهب الى آخـــر ، فلا يبارك لك فى التعلم ، فتأمل شهرين فى اختيـــار الأستاذ ، وشاور حتى لا تحتاج الى تركه والاعراض عنه ، فتثبت عنده ، حتى يكون تعلمك مباركا ، وتنتفع بعلمك كثيرا • واعلم أن الصبر والثبات أصل كبير فى جميع الأمور ، ولكنه عزيز » •

وهكذا ينبغى لطالب العلم أن يثبت ويصبر على أســتاذ ، وعلى كتاب حتى لا يتركه أبتـــرا ، وعلى فن (أى علـــم) حتى لا يشتغل بفن آخر قبل أن يتقن الأول ، وعلى بلد حتى لا ينتقل الى بلد آخر من غير ضـــرورة ، فان ذلك كله يفرق الأمـــور ،

ويشغل القلب ، ويضيع الأوقات ، ويؤذى المعلم (١) .

٣ ــ اختيار الشريك :

وأما اختيار الشريك فينبغى أن يختار المجد ، والورع ، وصاحب الطبع المستقيم ، والمتفهم (٢) ، ويفر من الكسلان ، والمعطل ، والمكثار (٣) ، والمفسد ، والفتان ، ولذلك قيـــل :

عن المــرء لا تسأل وأبصــر قرينه
فكل قريـــن بالمقارن يقتدى
فان كان ذا شر فجانبه (٤) سرعة
وان كان ذا خير فقارنه تهتدى

وقيل أيضا :

لاتصحب الكســـلان فى حـــالاته
كم صالح بفساد آخر يفســـــد
عدوى البليد الى الجليد ســـريعة
كالجمر يوضع فى الرماد فيخمد

ويورد الزرنوجى فى هذا المعنى أبيات أخرى من الشـــعر العربى ، وكذلك يورد بعض أبيات فى الحكمة بالفارســـية ،

(١) تعليم المتعلم ، ص ١٢ ــ ١٤
(٢) والمتفهم ناقصة فى طبعة صبيح
(٣) المكثار : صيغة مبالغة الفاعل من الكثرة ، أى كثر الكلام (شرح تعليم المتعلم ، ص ١٥)
(٤) فى طبعة الحلبى : فجنبه

يترجمها شارح الكتاب الى العربية ، ومفادها أن الصاحب السوء أسوأ من الحية وأكثر منها ضررا ، وأن هذا الصاحب السوء سيأتى بك الى الجحيم ، ولذلك يجب أن تتخذ الصاحب الصالح الذى تجد بسببه جنات النعيم ٠

ويذكر الزرنوجي أيضا الحديث النبوى « كل مولود يولد على فطرة الاسلام ، الا أن أبويه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » ، ليدلل على أثر الصحبة (١) ٠

شروط تحصيل العلم :

يضع الزرنوجي عدة شروط للتحصيل الجيد ، ويرى أن طالب العلم يجب عليه مراعاتها حتى تحقق عملية التعلم أغراضها ، وفيما يلى أهم هذه الشروط :

١ ـ تعظيم العلم وأهله :

« ان طالب العلم لا ينال العلم ، ولا ينتفع به ، الا بتعظيم العلم وأهله ، وتعظيم الأستاذ وتوقيره ٠ فقد قيل : ما وصل من وصل الا بالحرمة ، وما سقط من سقط الا بترك الحرمة » (٢) هكذا تعلو قيمة العلم عند الزرنوجي ، كما أن تعظيمه للعلم ، انما هو تعظيم ايجابى ، انه تعظيم يؤدى الى عمل وسلوك ، فتعظيم العلم فى القلب مرتبط بسلوك يعبر عنه (٣) ٠

---

(١) تعليم المتعلم ، ص ١٤ ـ ١٥خ ٠ وللحديث رويات مختلفة
(٢) نفس المصدر : ١٥ ـ ١٦ ٠
(٣) د ٠ سيد عثمان : التعلم عند الزرنوجي ، ص ٤٨ ـ ٤٩ ٠

ومن تعظيم العلم تعظيم المعلم . قال على كرم الله وجهه . « أنا عبد من علمنى حرفا واحدا ، ان شاء باع ، وان شــــاء عتق ، وان شاء استرق » وقيل (١) :

رأيت أحـــق الحق حـــق المعلم
وأوجبه حفظـا على كل مســـلم
لقد حق أن يهـــدى اليه كرامة
لتعليم حـــرف واحد ألف درهم

ينبغى اذن على طالب العلم توقير المعلم ، ومن مظاهر توقيره ألا يمشى أمامه ، ولا يجلس مكانه ، ولا يبتدىء بالكلام عنده الا باذنه ، ولا يكثر الكلام عنده الا باذنه ، ولا يسأل شيئا عند ملالته ، ويراعى الـوقت (الذى عينه للدرس) ، ولا يـــدق الباب ، بل يصبر حتى يخرج . وينبغى له ألا يجلس قريبا من الأستاذ بغير ضرورة ، بل ينبغى ان يكـــون بينه وبين الأستاذ قدر القوس ، فانه أقــرب الى التعظيم . وفى الجملة يطلـــب رضاه ، ويجتنب سخطه ، ويمتثل أمره فى غير معصية الله .

ومن توقيره توقـــير أولاده ، ومن يتعلق به . يحكى أن واحدا من كبار أئمة بخارى كان يجلس مجلس الدرس ، وكان يقوم فى خلال الدرس احيانا ، فسألوه عن ذلك ، فقـــال : « ان ابن أستاذى يلعب مع الصبيان فى السكة ، ويجىء أحيـــانا الى

---

(١) منشد هذه الأبيات هو على بن أبى طالب ، على ما يذكر شارح تعليم المتعلم

باب المسجد ، فاذا رأيته أقوم تعظيما لأستاذى » • ويستطرد الزرنوجى فى عرض روايات عن بعض الحكام والسلاطين وكبار الشخصيات تبين كيف أنهم كانوا يحترمون أساتذتهم ويعظمونهم ويقومون بخدمتهم محبة لهم (١) •

واذا كان من الواجب على الطلاب تعظيم أساتذتهم وتوقيرهم ، فمن ناحية أخرى يجب على الأساتذة والمعلمين أن يظهروا بمظهر يستوجب توقيرهم ، وأن يتحلوا بأخلاق تستلزم تعظيمهم ، فينبغى لأهل العلم ألا يذل نفسه بالطمع فى غير مطمع ، ويتحرز عما فيه مذلة العلم وأهله ، ويكون متواضعا ، والتواضع لا يعنى المذلة كما يوضح الزرنوجى ، ولكن التواضع بين التكبر والمذلة والعفة •

وعلى رجل العلم أن يراعى الوقار فى مظهره وثيابه لذلك قال أبو حنيفة رحمه الله لأصحابه : « عظموا عمائمكم ، ووسعوا أكمامكم » ، وانما قال ذلك لئلا يستخف بالعلم وأهله (٢) •

ومن تعظيم العلم تعظيم الكتاب ، فينبغى لطالب العلم ألا يأخذ الكتاب الا بالطهارة ، وهذا لأن العلم نور ، والوضوء نور ، فيزداد نور العلم به • ومن التعظيم الواجب ألا يمد رجله الى الكتاب ، ويضع كتب التفسير فوق سائر الكتب تعظيما ،

---

(١) تعليم ، ص ١٦ — ١٨ ، ص ٢١ •
(٢) نفس المصدر ، ص ١٠ — ١١

ولا يليق الاستخفاف بالكتاب بأية صورة من الصـــور ، كأن يضع على الكتاب شيئا آخر ، حتى ولو كان المحبرة ٠

ومن التعظيم الواجـــب أن يجود كتابة الكتـــاب ، ولا يقرمط (١) ٠ رأى أبو حنيفة كاتبا يقرمط فى الكتابة ، فقال « لم تقرمط خطك ؟ ان عشت تندم ، وان مــت تشتم » ، يعنى اذا شخت ، وضعف بصرك ، ندمت على ذلك ٠

ويتطرق الزرنوجى الى الحديـث عن تنسيق الكتـــابة ، واخراج الكتاب ، فيوجب تقطيع الكتاب مربعا ، كما كـــان يفعل أبو حنيفة ، لا مدورا كما يفعل غيره ، لأن الكتاب بهـذا الشكل المربع يكون أيسر الى الرفع والوضع والمطالعة ٠ وينبغى ألا يكون فى الكتاب شىء من الحمرة ، فانها صنيع الفلاسفة ، لا صنيع السلف ٠ ويرجح شارح تعليم المتعلم كره المصنـــف لاستعمال المركب (المداد) الأحمـــر للعلة السابقة ، أى حتى لا يرهق بصر القارىء ، أو لكراهة الحمرة ٠

ومن تعظيم العلم تعظيم الشركاء فى طلب العلم والدرس ، فضلا عن تعظيم المعلم ، كما رأينا ٠ وينبغى لطالب العلم أن يستمع العلم والحكمة بالتعظيم والحرمة ، حتى ولو كان يستمع المسألة الواحدة ألف مرة من قبل (٢) ٠

---

(١) القرمطة رقة الكتابة ، أى لايجعل الكتابة رقيقة غير جلية ٠ (شرح تعلم المتعلم ، ص ١٩) ٠

(٢) تعليم المتعلم ، ص ١٨ — ٢٠

٢ ـ الورع فى حالة التعلم :

كلما كان طالب العلم أورع ، كان علمه أنفع ، والتعلم له أيسر ، وفوائده أكثر . وقد كان الأئمة والفقهاء الأوائل يتورعون ، فلذلك وفقوا للعلم والنشر ، حتى بقى اسمهم الى يوم القيامة .

ومن الورع الاحتراز عن الأخلاق الذميمة ، فانها كلاب معنوية ، ويحذر الزرنوجى بخاصة من التكبر ، فمع التكبر لا يحصل العلم (١) . ومن الورع عدم الاسراف فى الأكل والنوم ، وتجنب اكل طعام السوق ، لأن أبصار الفقراء تقع عليه ، ولا يقدرون على الشراء منه ، فيتأذون بذلك ، فتذهب بركته .

ومن الورع التحرز عن الغيبة ، ومجالسة من يكثر الكلام ، لأنه يسرق العمر ، ويضيع الوقت . ومن الورع تجنب أهل الفساد والمعاصى ، ومجاورة الصلحاء ، واستقبال القبلة فى الجلوس ، لأنه السنة ، وعدم التهاون بالسنن ، واغتنام دعاء أهل الخير ، والتحرز من دعاء المظلومين ، وكثرة الصلاة ، والخشوع فيها عون على التحصيل والتعلم (٢) . ومن أسباب زيادة العلم الحمد والشكر وطلب الهداية من الله بالدعاء والتضرع (٣) .

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢١ ـ ٢٢ .
(٢) تعليم المتعلم ، ص ٥٠ ـ ٥٣ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٣٨ .

وينبغى أن يكون طالب العلم مشفقا ناصحا غير حاسد ، فالحسد يضر ولا ينفع ، وينبغى ألا ينازع أحدا ، ولا يخاصمه ، لأنه يضيع أوقاته (١) ، ولا يرتكب الذنوب ، ولا يكثر من النوم ، فان كثرة النوم تورث الفقر وفقد العلم أيضا ، لذلك قيل : « وجمع العلم فى ترك النعاس » (٢) ٠

٣ ـ الجد والهمة والمواظبة :

لابد من الجد والهمة والمواظبة والملازمة لطالب العلم ، واليه الاشارة فى القرآن بقوله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » (العنكبوت : ٦٩) وقوله « يا يحى خذ الكتاب بقوة » (مريم :١٢) ، وقد قيل : من طلب شيئا وجد (٣) وجد ، ومن قرع الباب ولج (٤) ولج ، وقيل : بقدر ما تتمنى (٥) تنال ما تتمنى ٠

ويورد الزرنوجى من أشعار الامام الشافعى والمتبنى وغيرهما ، ومن أقوال الفقهاء كأبى حنيفة ما يؤكد أن الهمة العالية ضرورية كبا عث لطلب العلم ، فان المرء يطير بهمته كالطير يطير بجناحيه ٠ وأن الجد يدنى كل أمر شاسع ، ويفتح

---

(١) نفس المصدر ، ص ٤٦ ٠
(٢) نفس المصدر ، ص ٥٧ ـ ٥٨ ٠
(٣) بتشديد الدال أى اجتهد ٠
(٤) بتشديد اللام أى أقدم فيه ٠
(٥) من العناء ٠

كل باب مغلق ، وأن الطالب اذا كانت له همة عالية ، ولم يكن له جد ، أو كان له جد ولم تكن له همة عاليـــة ، فلايحصل له علم الا القليل ، فمن العبث تمنى التفوق العلمى بغير عناء ، بل لابد للطالب من سهر الليالى فى طلب العلم ، وترك الكسل ، لأنـــه آفة عظيمة ٠

ولكن كيف يمكن ترك الكسل ؟ الكسل ينشأ من قلة التأمل فى مناقب العلم وفضائله ، فينبغى للمتعلم أن يبعث نفســه على التحصيل والجد فى طلب العلم بالتأمل فى فضائل العلم ٠ ويرجع الزرنوجى الكسل أيضا الى عوامل فسيولوجية ، فيذهب الى أن الكسل قد يتولد من كثرة البلغم والرطوبات ، وطريق تقليلـه تقليل الطعـــام ، لأن كثرة البلغم من كثرة شرب المـــاء ، وكثرة شرب الماء من كثرة الأكـــل ٠ والخبز اليـــابســ يقطع البلغم ، وكذلك أكل الزبيب على الريق دون أكثار ، والسواك أيضـــا يقلل البلغم ، وبالتالى يقضى على الكسل ٠

واذا كـــان الزرنوجي يوصى ببذل الجهد فى طلب العلم ، فانه يمنع من الاسراف فيه ، حتى لايصاب الطالب بالتعب الذى يعده من معوقات التعلم ، فان المنبت لا أرضـــا قطع ، ولا ظهرا أبقى ، فلابد لطالب العلم أن يرفق بنفسه ، والرفق أصل عظيم فى جميع الأشياء (١) ٠

ولابد من تحمل النصب والمشقـــة فى السفر والتنقل من أجل طلب العلم ، كما قال موسى عليــــه السلام فى سفر التعلم

---

(١) تعليم المتعلم ، ص ٢٢ — ٣٢

« لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا » (الكهف : ٦٢)ليعلم الناس أن سفر التعلم لايخلو من التعب ، لأن العلم أمر عظيم ، وهو أفضل من الجهاد عند أكثر العلماء والأجرة على قدر التعب والنصب ، فمن صبر على ذلك وجد لذه تفوق سائر لذات الدنيا ، ولهذا كان محمد الحسن بن عبد الله (١) اذا سهر الليالى ، وانحلت له المشكلات (العلمية) يقول : « أين أبناء الملوك من هذه اللذات ؟ » ٠

ولابد لطالب العلم من المواظبة على الدرس ، والحذر من آفة الانقطاع عن العلم فمن أهم خصائص التعلم عند الزرنوجى الاستمرار والاتصال ، وذلك ينبغى لطالب العلم ألا ينشغل بشىء غيرالعلم ، ومن أجل ذلك يقول محمد بن الحسن : « ان صناعتنا هذه (أى العلم) من المهد الى اللحد ، فمن أراد أن يترك علمنا هذا ساعة ، فليتركه الساعة » (٢) ٠ويرى علماء النفس التعليمى المعاصرون أن الترك آفة التعلم ، لأن عدم ممارسة عملية التعلم انما هو اضعاف لما تم تحصيله ، فضلا عن أنه يحرم المتعلم من النمو فى التعلم (٣) ٠

٤ ــ وقت تحصيل العلم :

قلنا ان عملية التعلم عند الزرنوجى عملية مستمرة متصلة ، وليس لها حد تتوقف عنده ، لذلك قيل « وقت التعلم من المهد الى اللحد » ، ولكن الأوقات تتفاوت فيما بينها بالنسبة

---

(١) هو تلميذ أبى يوسف ، وأبو يوسف تلميذ أبى حنيفة
(٢) تعليم المتعلم ، ص ٤٤
(٣) راجع د ٠ سيد عثمان : التعلم عند الزرنوجى ، ص ٦٧ ــ ٦٨ ٠

للقدرة على التحصيل ، فأفضل الأوقات شرخ الشباب ،لذلك يجب على الانسان أن يغتنم أيام الحداثة وعنفوان الشاب ، لأن الانسان فى هذه المرحلة من العمر يكون أكثر قدرة على تحصيل العلوم واستيعابها ويحدد شارح تعليم المتعلم أيام الحداثة من عشرين الى أربعين ٠

وأفضل أوقات اليوم للتحصيل ما بين العشاءين ووقت السحر ، لأنه وقت مبارك ٠ ولايعنى هذا أن سائر الأوقات لاتصلح ، بل ينبغى لطالب العلم أن يستغرق جميع أوقاته فى التعلم ، فاذا مل من علم ، عليه أن يشتغل بعلم آخر (١) ، لأن التنوع فى تحصيل العلوم يقضى على ظاهرة الملل ٠

٥ ـ التكرار والمذاكرة والمراجعة :

من شروط التحصيل الجيد عند الزرنوجى أن يقوم الطالب بمراجعة ما قام بتعلمه ، ثم يزيد عدد مرات الاعادة باضطراد ، بالرفق والتدريج ٠ وينبغى أن يبتدىء بشىء يكون أقرب الى فهمه ،حتى لاتقع الملالة ٠ وينبغى ألا يقوم بتكرار شىء دون فهمه ، بل ولايكتب المتعلم شيئا لايفهمه ،فانه يورث كلالة الطبع ، ويذهب الفطنة ، ويضيع أوقاته ، وينبغى أن يجتهد فى الفهم عن الأستاذ ، أو التأمل والتفكر وكثرة التكرار ، أما اذا تهاون فى الفهم ، ولم يجتهد مرة أو مرتين ، فانه يعتاد ذلك ، فلايفهم الكلام اليسير ٠ والفهم يستلزم التأمل ، فيجب على طالب العلم أن يكون متأملا فى جميع الأوقات فى دقائق العلوم ، ويعتاد ذلك ، فانما تدرك الدقائق بالتأمل ٠

---

(١) تعليم المتعلم ، ص ٢٤ ، ص ٤٥

ولابد لطالب العلم من المذاكرة أوالمناظرة والمطارحة ، أى المناقشة والحوار مع الآخرين · والمذاكرة مشاورة ، والمشاورة انما تكون لاستخراج الصواب وذلك يحصل بالتأمل والتـــأنى والانصاف ، ولا يحصل بالغضب والشغب ، فان كانت النية الزام الخصم فلا تحل المناظرة ، وانما تحل لاظهار الحق ·

وفائدة المطارحة أو المناظرة أقوى من فائدة مجرد التكرار ، لأن فيها تكرار وزيادة ·فيها مشاركة مع الاخرين ، وهى تتيح معرفة مدى التقدم على طريق التعلم ، لذلك قيل : مطارحـــة ساعـــة خير من تكرار شهر ، بشرط أن تكون مع منصف سليم الطبيعة فايـــاك والمذاكرة مع متعنت غير مستقيم الطبع ·

ويقترح الزرنوجى نظاما محددا للمراجعـــة ، فيقول : « وينبغى لطالب العلم ان يكرر سبق الأمس خمس مرات ، وسبق اليوم الذى قبل الأمس أربع مرات ، والسبق الذى قبله ثـلاث مرات ،والذى قبله اثنين ، والذى قبله مرة واحدة ، فهذا أدعى الى الحفظ » (١) · ويلاحظ الدكتور سيد عثمان أن الزرنوجى بهذا قد وضع نظاما اسبوعيـــا للتعلم ، يتضمن تكرار الأجزاء أو الوحدات الدراسية ، ومراجعة ما درس من سبق ، طوال أيام الأسبوع الخمسة ، على أن تكون هذه المراجعة فى اليوم السادس ، ويكون اليوم السابع يوم راحة · ان فكرة الزرنوجى هذه عن توزيع التكرار ، بحيث يغطى المـــادة المتعلمة حديثا تكرارا أكبر من تلك التى تتعلم قبلها ، انما تدل على صدق فى البصيرة والالهام العلمى يلفت النظر ، وبخاصة أن الفكرة مخالفة تماما ،

---

(١) نفس المصدر ، ص ٤١

بل مناقضة لما هو متوقع ممن يفكر فى التعلـم تفكيرا عاديا غير متعمق أو متخصص • فالمألوف أن يكون تكرار الأقدم تعلما أكثر من تكرار الأحدث تعلما ، لان الأقدم أكثـر تعرضا للنسيان من الاحداث • ومن ثم يحتاج تكرارا أكثر • أما أن يتنبه الزرنوجى الى عكس المألوف أو المتوقع من التفكير العادى فى التعلم ، فانه دليل على صدق حدسه العلمى •

ويعقد الدكتور سيد عثمان مقارنـة بين فكرة الزرنوجى وبين الدراسات الأولى التى أجراها ابنجهاوس Ebbinghaus عن الحفظ ودور التكرار فيـه ، وطابع النسيـان للخبرات المتعلمة : ونشرهـا فى ليبزج عام ١٨٨٥ ،وقد سبق القول أن كتاب الزرنوجى قد ترجم الى اللاتينية ،وطبع فى ألمانيا فى عام ١٧٠٩ ، وفى ليبزج بالذات عـام ١٨٣٨ ، وأن من نتـائج دراسات ابنجهاوس التجريبية أن النسيان يكون أكبر مـايكون بعد الحفظ مباشرة ثم يقل تدريجيا •وكادت دراسات عـالم النفس الألمانى تؤكد فكرة الزرنوجى التى لم تصدر عن دراسة تجريبية ،وانمـا عن صدق حدس وعمق بصيرة • ذلك أن من نتائج دراسة ابنجهاوس أن معدل النسيان ، بعد زيارة سرعته بعد الحفظ مباشرة ، يكـاد يثبت بحيث يكون أقل ما يمكن فى فترات من يومين الى ستة أيـام ، ودورة « تكرار السبق » عند الزرنوجى هى خمسة أيام سادسها هو يوم المراجعة (١) •

ويذهب الزرنوجى الى أن طـالب العلم ينبغى ألايعتـاد المخافتة فى التكرار ، لأن الدرس والتكرار ، يجب أن يكونـا بقوة ونشاط ، ولايجهر جهرا يجهد نفسـه كيلا ينقطع عن

---

(١) د• سيد عثمان : التعلم عند الزرنوجى ، ص ٧٢ — ٧٣

التكرار ، فخير الأمور أوسطها (١) ٠ كأن الزرنوجى يذهب مذهب علماء النفس المحدثين ممن يؤكدون أن استخدام حاستى البصر والسمع فى التعلم أفضل من استعمال حاسة البصر وحدها فى تثبيت المعلومات ٠

٦ ـ تسجيل المعلومات :

ينبغى أن يكون طالب العلم مستفيدا كل يوم زيادة من العلم (٢) ، وطالبا فى كل وقت لفائدة العلم ٠ وطريق الاستفادة أن يكون معه فى كل وقت محبرة ، حتى يكتب ما يسمع من الفوائد ، لذلك قيل : « من حفظ فر ، ومن كتب شيئا قر » ٠ قال هلال بن يسار : « رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه شيئا من العلم والحكمة ، فقلت : يا رسول الله ، أعد لى ما قلت لهم ، فقال لى : معك محبرة ؟ فقلت : ما معى محبرة ، فقال : يا هلال لا تفارق المحبرة ، فان الخير فيها ، وفى أهلها الى يوم القيامة » (٣) ٠

وينبغى لطالب العلم أن يستصحب دفترا على كل حال ليطالعه ، كما ينبغى أن يكون فى الدفتر بياض ليكتب فيه ما سمعه من أفواه الرجال ، ولذلك قيل : « من لم يكن له دفتر فى كمه لم تثبت الحكمة فى قلبه » (٤) ٠

وينبغى على طالب العلم أن يغتنم الشيوخ ، ويستفيد

---

(١) تعليم المتعلم ، ص ٤٢ ـ ٤٣
(٢) نفس المصدر ، ص ٥
(٣) نفس المصدر ، ص ٤٨ ـ ٤٩
(٤) نفس المصدر ، ص ٥٤

منهم ، ولا يضيع الأوقات والساعات ، وانما يغتنم الليالى والخلوات ، فالعمر قصير والعلم كثير (١) ٠

٧ ـ الحفظ :

القدرة على الحفظ عند الزرنوجى قابلة للنمو والنقصان ، ويمكن زيادتها بوسائل شتى ، منها ما هو دينى ، وما هو نفسى ، وما هو جسمى ٠

فمن العوامل الدينية الخالصة التى تورث الحفظ ، صلاة الليل ، وقراءة القرآن ، فليس شىء أزيد للحفظ من قراءة القرآن نظرا ، وكذلك ترك المعاصى ، كما يتبين ذلك من قول الشافعى :

شكوت الى وكيع سوء حفظى
فأرشدنى الى ترك المعاصى
فان الحفظ فضل من الهى
وفضل الله لا يهدى لعاصى

وللعوامل السيكولوجية أو النفسية دور كبير فى تنمية الحفظ عند الزرنوجى ، فمن الأمور التى تورث الحفظ الجد والمواظبة ، وتجنب الأمور التى تورث النسيان ، مثل كثرة الهموم والأحزان فى شئون الدنيا ، وكثرة الأشغال والعلائق ٠ ويمكن القضاء على عوامل النسيان عن طريق الاشتغال بالصلاة على الخشوع ، بل ان الاقبال على تحصيل العلم فى نظر

(١) نفس المصدر ، ص ٤٩ ـ ٥٠

الزرنوجي يزيد القدرة على الحفظ ، ويقضى على آفة النسيان ، من حيث أنه ينفى الهم والحزن ·

كما أن نسيان العلم قد ينجم عن الانفعالات الشديدة ، مثال ذلك حالة النظر الى المصلوب ، وقراءة لوح القبور ، والمرور بين قطار الجمال ، وما أشبه تلك الأمور التى تورث النسيان ·

ولزيادة الحفظ أخيرا عوامل بيولوجية أو جسمانية ، فيذكر الزرنوجي أن من أقوى أسباب الحفظ تقليل الغذاء ، والسواك ، وتناول المواد السكرية كأكل السكر والزبيب ، ولكن دون افراط ، لذلك يحدد الزرنوجي بدقة كمية الزبيب التى تورث الحفظ باحدى وعشرين زبيبة ، كل يوم على الريق ! ويوصى بتجنب بعض الأطعمة التى تؤدى الى النسيان ، مثل الكزبرة الرطبة والتفاح الحامض (١) ·

هذا هو مذهب الزرنوجي فى التعلم والتعليم ، يؤكد حرصه على نشر العلم ، وتيسير سبل تحصيله ، ومحاربة الجهل ، والقضاء على الأمية ويدحض مزاعم المتكاسلين الذين يبررون جهلهم بضيق الوقت ، أو باشتغالهم بكسب الرزق ، ويدعون أن التفرغ الكامل شرط لتحصيل العلم · لا يقبل الزرنوجي هذه الدعاوى الباطلة التى تبرر التقاعس عن طلب العلم ، فلقد « تفقه أبو حنيفة رحمه الله تعالى بكثرة المطارحة والمذاكرة ، فى دكانه حين كان بزازا ، وبهذا يعلم أن تحصيل العلم والفقه يجتمع مع الكسب ··· فان كان لابد لطالب العلم من الكسب

---

(١) نفس المصدر ، ص ٥٤ ـ ٥٧

لنفقة عياله وغيرهم ، فليكتسب وليكرر وليذاكر ، ولا يكسل ، وليس لصحيح البدن والعقل عذر فى ترك التعلم والتفقه ، فانه لا يكون أفقر من أبى يوسف رحمه الله تعالى ، ولم يمنعه ذلك من التفقه ، فمن كان له مال كثير ، فنعم المال الصالح للرجل الصالح المنصرف فى طريق العلم » (١) .

(١) نفس المصدر ، ص ٣٧ ـ ٣٨

الفصل السابع

محمد بن على الشوكانى
وأدب الطلب

سيرته ومسيرته :

للشوكانى ترجمة ذاتية وردت فى كتابه « البدر الطالع » (١) ، واعتمد عليها الباحثون (٢) ، فى معرفة مولده ونشأته . اسمه محمد بن على بن محمد بن عبد الله الشوكانى ثم الصنعانى ، ولد حسبما وجد بخط والده فى وسط نهار يوم الاثنين الثامن والعشرين من شهر القعدة سنة ١١٧٣ هـ . بهجرة شوكان فى اليمن . وكان والده قد انتقل من هذه القرية الى صنعاء ، واستوطنها ، حيث كان قاضى صنعاء ومن العلماء البارزين فيها ، ولكنه خرج الى وطنه القديم ، فولد له صاحب الترجمة .

نشأ بصنعاء وتعلم بها ، فقرأ القرآن وجوده على جماعة من المعلمين والمشايخ ، ودرس التفسير وعلومه ، والحديث وعلومه ، والفقه وأصوله ، واللغة وآدابها ، كما ألم بمعظم المعارف العقلية والرياضية والفلكية . وكانت دراسته واقامته باسرها فى صنعاء ، ولم يرحل لاعذار ذكرها منها عدم الاذن من الأبوين . وتوفى بصنعاء سنة ١٢٥٠ .

---

(١) البدر الطالع : ١ / ٢١٤ وما بعدها

(٢) راجع : أستاذنا الدكتور احمد صبحى : الزيدية ، ص ٦٧٧ وما بعدها ، الدكتور ابراهيم هلال فى مقدمته لكتاب قطر الولى للشوكانى ، الدكتور محمد حسن الغمارى فى كتابه : الامام الشوكانى مفسرا ، ص ٥٩ وما بعدها

وقد أعانته ثقافته الواسعة والعميقة على أن يكون متعدد الاتجاهات ، فهو مفسر ، ومحدث ، وفقيه ، وأصولى ،ومؤرخ ، وأديب ، ونحـــوى ، ومنطقى ، ومتكلم ، وحكيم • أما مذهبه — فهو كما يؤكد معظم الباحثـــين — زيدى ، لأنه احتـــل مكانة مرموقة فى حكومة الأئمة الزيدية فى اليمن ، حيث كان رئيس قضاتها ، ووزير امامها ، والمستشار الأول لمهامها ، وكان كثيرا ما يقوم بالرد على خطابات الملوك والعلماء نيـــابة عن الامام ، كما تتمثل زيديته فى رسالته « العقد الثمين فى اثبات الوصية لأمير المؤمنين » • أما الدكتور ابراهيم هلال فيؤكد انه سلفى العقيدة ، وأنه اعترف بذلك فى كتابه البدر الطالع ، اذ أعلن أنه خلع ربقة التقليد ، وهو دون الثلاثين ، وكان قبل ذلك على المذهب الزيدى ، وصار علما من أعلام الاجتهـــاد • والخلاف حول حقيقة مذهبه لم يحسم بعد ، ولســـنا فى هذا المجال بصدد الخوض فى آرائه الكـــلامية والفقهية ، وانما يهمنـــا الآن الشوكانى معلما •

لقد كان يقوم بالتدريس ، وهو لا يزال فى دور الطلـــب الأول ، وكانت دروسه تبلغ فى اليوم والليلة ، ثلاثة عشـــر درسا ، منها ما يأخذه عن أساتذته ، ومنها ما يلقيه على تلاميذه وزملائه • يقـــول عن نفسه انه « فرغ نفسه لافـــادة الطلبة ، فكانوا يأخذون عنه فى كل يوم زيادة على عشرة دروس فى فنون متعددة ، واجتمع منها فى بعض الأوقات : التفســـير والحديث والأصول والنحو والصرف والمعانى والبيان والمنطق والفقـــه والجدل والعروض • وكـــان فى أيام قراءته على الشـــيوخ ، واقرائه لتلامذته يفتى أهل مدينة صنعاء ، بل ومن وفد اليها ،

بل ترد عليه الفتــاوى من الديار التهامية ، وشـــيوخه اذ ذاك أحياء · وكانت الفتيا تدور عليه من أعوام الناس وخواصتهم ، واستمر يفتي من نحو العشرين من عمره فما بعد ذلك ، وكان لا يأخذ على الفتيا شيئا تنزهـــا ، فاذا عوتب فى ذلك ، قال : « أنا آخذت العلم بلا ثمن فأريد انفاقه كذلك » ·

وأخذ عنه الطلبة ··· فى فنون عدة ، بل آخذوا عنه فى فنون دقيقة لم يقرأ (١) فى شيء منها كعلم الحكمة التى منهـا علم الريـــاضى والطبيعى والالهى ، وكعلم الهيئة ، وعلـــم المناظر ، وعلم الوضـــع » (٢) ·

وصنف الشوكانى تصانيف كثيرة ، مطولات ومختصرات ، ذكر بعضها فى كتابه البدر الطالع ، وحاول الباحثون المعاصرون حصرها ، وبينوا أن مؤلفاته التى لا تزال مخطوطة تزيد كثيرا على مؤلفاته المطبوعة · وقد طبع كتابه « أدب الطلب ومنتهى الآرب » ، ويخمن محققه عبد الله الحبشى أن تأليف هذا الكتاب كان فى فترة نضوج الشوكانى ، حـوالى سنة ١٢١٦ هـ (٣) · ويتضمن الكتاب آراء الشوكانى التربوية ، كما يستخلصها من خلال مسيرته منذ عهد الطلب الأول الى عهد الأستاذية ، ويقـدم لطلاب العلم تجاربه فى تحصيل العلم وتدريسه ، ويعالج مشكلة المناهج ، ويقترح برامج محددة ، لمقررات دراسية معينة ، ذات مستويات متفاوتة ·

---

(١) لعله يقصد لم يقرأ على أحد شيوخه هذه العلوم ، وانما تعلمها تعلما ذاتيا من مجرد مطالعة الكتب ·

(٢) البدر الطالع : ١ / ٢١٩

(٣) أدب الطب ـ مقدمة المحقق ، ص ١١

يحدثنا الشوكانى عن المرحلة المبكرة فى حياته ، وبداية دراسته الأولى ، فيذهب الى أنه لما أراد الشروع فى طلب العلم ، ولم يكن اذ ذاك قد عرف شيئا منه ، اللهم الا المبادىء التى تتعلق بكيفية الطهارة والصلاة ونحوهما ، كان أول بحث طالعه ، فى هذه المسائل الفقهية ، فى كتاب الأزهار (للامام المهدى احمد بن يحى المرتضى : ٧٧٥ ـ ٨٤٠ هـ ٠) ، فلما طالع هذا البحث قبل الحضور عند الشيخ الذى تولى التدريس له ، رأى اختلاف الأقوال فى الاحكام الفقهية ، فظهرت لديه ـ فى هذا العهد المبكر ـ الرغبة فى معرفة الحقيقة ٠ يقول الشوكانى : « سألت والدى ـ رحمه الله ـ عن تلك الاقوال : أيها يكون العمل عليه ؟ فقال : يكون العمل على مافى الأزهار ٠ فقلت : صاحب الازهار أكثر علما من هؤلاء ؟ قال : لا ٠ قلت : فكيف اتباع قوله دون اقوالهم لازما ؟ فقال : اصنع كما يصنع الناس ، فاذا فتح الله عليك ، فستعرف ما يؤخذ به وما يترك ٠ فسألت الله عند ذلك أن يفتح على من معارفه ما يتميز لى به الراجح من المرجوح ٠ وكان هذا فى اول بحث نظرته ، وأول موضع درسته ، وقعدت فيه بين يدى العلم » (١) ٠

وقد تعرض الشوكانى لمشكلات ومصادمات مع أساتذته ، فى أثناء رحلته الدراسية ، بسبب تلك الرغبة الجامحة فى المعرفة ، وقد حرص على ذكر أمثلة للنزاع الذى نشأ بينه وبين أساتذته ، ليأخذ طلاب العلم العبرة من تجاربه ، فيتجنبوا الأساليب العقيمة للتدريس ، ومن أهمها ضيق أفق المعلم

---

(١) أدب الطب ، ص ٢١

وتعصبه . يقول الشوكانى : « وانى أخبرك ايها الطـالب عن نفسى ، وعن الحوادث الجارية بينى وبين أهل عصرى ، ليزداد يقينك ، وتكون على بصيرة فيما أرشدتك اليه . اعلم أنى كنت عند شروعى فى الطلب على الصفة التى ذكرتها لك سابقا (أى الرغبة فى المعرفة والبحث عن الحقيقة) ثم كنت بعد التمكن من البحث عن الدليل والنظـــر فى مجاميعه ، أذكـــر فى مجالس شيوخى ، ومواقف تدريسهم ، وعند الاجتمـــاع بأهل العلم ، ما قد عرفته من ذلك ، لاسيما عند الكـــلام فى شىء من الرأى مخالف الدليل ، أو عند ورود قول عالم من أهل العلم قد تمسك بدليل ضعيف ، وترك الدليل القـــوى ... فكنت اذا ســمعت بشىء من هذا ــ لاســـيما فى مواقف المتعصبين ومجـــامع الجامدين ــ تكلمت بما بلغت اليه مقدرتى ، وأقل الأحوال أن أقــول : استدل هذا بكذا ، وفلان المخالف له بكذا ، ودليل فلان أرجح لكذا . فما زال أســـــراء التقليد يستنكرون ذلـــك ويستعظمونه ، لعدم الفهم به وقبول طبائعهم له ، حتى ولد ذلك فى قلوبهم من العداوة والبغضاء ما الله به عليم » (١) .

ظهر تفوق الشوكـــانى فى دور الطلب ، ولمع ذكـــاؤه بين زملائه الطلبة ، فالتف أكثرهم حوله ، وطلبوا منه أن يقـــوم بتدريس بعض الدروس لهم . يقول : « ثم كنت اذا فرغت من أخذ فن من الفنـــون أو مصنف من المصنفات على شيوخى ، أقبل جماعة من الطلبة الى ، وعولوا على فى تدريسهم فى ذلك ، فكان يأخذ أترابى شيئا من الحسد ، الذى لا يخلو عنه الا القليل ، ثم تكاثر الطلبة على فى علوم الاجتهاد وغيرها ، وأخذوا عنى أخذا

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢٨ ــ ٢٩

خاليا عن التعصب ، سالما من الاعتساف ، فكنت أقرر لهم دليل كل مسألة ، وأوضح لهم الراجح فيها ، وأصرح لهم بوجوب المصير الى ذلك ، وكانوا قد تمرنوا وعرفوا علوم الاجتهاد ، وذهب عنهم ما تكدرت به فطرهم من المغيرات ، فزاد ذلك المخالفين عداوة وشناعة وحسدا وبغضا ، وأطلقوا السنتهم بذلك » (١) ٠

ذاع صيت هذا الطالب المتفوق على أقرانه ، وطارت شهرته حتى تجاوزت حدود مدينته ، وبلغت أقاصى البلاد ، ووردت اليه استفسارات وأسئلة من شتى أنحاء اليمن ٠ يقول : « وكان مع ذلك ترد الى أبحاث من جماعة من أهل العلم الساكنين بصنعاء وغيرهم من اهل البلاد البعيدة ، والمدائن النائية ، فأحرر الجوابات عليهم فى رسائل مستقلة ، ويرغب تلامذتى لتحصيل ذلك ، وتنتشر فى الناس ، فاذا وقف عليه المتعصبون ، ورأوه يخالف ما يعتقدون ، استشاطوا غضبا ، وعرضوا ذلك على من يرجون منه الموافقة والمساعدة ، فمن ثالب بلسانه ، ومعترض بقلمه ، وأنا مصمم على ما انا فيه ، لا أنثنى عنه ، ولا اميل عن الطريقة التى آنا فيها ، وكثيرا ما يرفعون ذلك الى من لا علم عنده من رؤساء الدولة ٠٠٠ » (٢) ٠

كان نجمنا الصاعد مفكرا حرا شجاعا ، يتعالى على خصومه ٠ يقول : « وكنت أتصور فى نفسى ، أن هؤلاء الذين يتعصبون على ، ويشغلون أنفسهم بذكرى ، والحط على ، هم أحد رجلين :

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢٩
(٢) نفس المصدر والصفحة

اما جاهل لا يدرى أنه جاهل ، ولا يهتدى بالهداية ، ولا يعرف الصواب ، وهذا لا يعبأ الله به ، أو رجـــل متميز ، له حظ من علم ، وحصة من فهم ، لكنه قد أعمى بصيرته الحســد ، وذهب بانصافه حب الجاه ، وهذا لا ينجح فيه الدواء ٠٠٠ » (١) ٠

تفاقمت المحن التى تعرض لها الشـــوكانى من خصومه ، واشتد بلاهم ،الى أن فجروا ثورة عامة عليه ٠ يقول : « فقاموا قومة شيطانية ، وصـــالوا صولة جاهلية ، وذلـــك أنه ورد الى سؤال فى شأن ما يقع من كثير من المقصرين من الذم لجماعة من الصحابة ، صانهم الله ٠٠٠ فأجبت برسالة (٢) ، ذكرت فيهـــا ما كان عليه أئمة الزيـــدية من أهل البيت وغيرهم ، ونقلـــت اجماعهم من طرق ، وذكرت كلمـــات قالهـــا جماعة من أكـــابر الأئمة ، وظننت أن نقل اجماع أهل العلم ، يرفع عنهم العماية ، ويردهم عن طرق الغواية ، فقاموا بأجمعهم ، وحرروا جوابات زيادة على عشرين رسالة (٣) مشتملة على الشتم والمعارضة بما لا ينفق الا على بهيمة ، واشـــتغلوا بتحـــرير ذلك ، وأشاعوه بين العامة ، ولم يجدوا عند الخاصـــة الا الموافقة ، تقية لشـــرهم ، وفرارا من معرتهم ، وزاد الشر وتفاقم ، حتى أبلغوا ذلك الى أربـــاب الدولة ، والمخالطين للملـــوك من الوزراء وغيرهم ، وأبلغوه الى مقام خليفة العصـــــر (٤) ، حفظه الله ، وعظم القضية عليه جمـــاعة ممن يتصل به ، فمنهـــم من يشير عليه

(١) نفس المصدر ، ص ٣٠

(٢) هى رسالته المخطوطة المسماة « ارشاد الغبى الى مذهب أهـل البيت فى صحب النبى » ٠

(٣) جمعت فى كتاب بعنوان « اظهار الغبى فى الرد على ارشاد الغبى »

(٤) هو المنصور على بن العباس المتوفى سنة ١٢٢٤

بحبسى ، ومنهم من ينتصح له باخـــراجى من موطنى • وهو ساكت لا يلتفت الى شىء من ذلك ، وقاية من الله ، وحمـــاية لأهل العلم ، ومدافعة عن القائمين بالحجة فى عباده » (١) •

لم يتخل الشوكانى عن هذه المهنة الشريفة التى أحبهـــا ، أعنى مهنة التدريس ، ولم يتنكر لمبادئه ، بل قاوم المحـــن التى ابتلى بها ، دون أن يكون له سند لـدى الحكـام ، فلم تكن علاقته برجال الحكم ، وعلى رأسهم الامـام ، قد توطدت بعـد • يقول : « ولم تكن لى اذ ذاك مداخلة لأحد من أربـاب الدولة ، ولا اتصال بهم • واشتد لهج الناس بهذه القضية ، وجعلوهـــا حديثهم فى مجامعهم • وكان من بينى وبينهم مودة يشيرون على بالفرار أو الاستتار ، وأجمع رأيهم على أنى اذا لم أساعدهم على أحد الأمرين ، فلا أعود الى مجالس التدريس التى كنت أدرس بها فى جامع صنعاء • فنظرت ما عند تلامذتى ، فوجدت أنفسهم قوية ، ورغبتهم فى التدريس شـــديدة ، الا القليل منهم ، فقد كادوا يستترون من الخوف ، ويفرون من الفزع ، فلم أجد لى رخصة فى البعد عن مجالس التدريس ، وعدت ، وكـــان أول درس عاودتـــه عند وصولى الى الجامع فى أصـــول الفقه بين العشائين ، فانقلب من بالجامع ، وتركوا ماهم فيه من الدرس والتدريس ، ووقفـوا ينظرون الى متعجبين من الاقـــدام على ذلك ••• (فقد) ظنوا أنه لا يمكن (لى) البقاء فى صنعـــاء فضلا عن المعاودة للتدريس •

ثم وصل ـ وأنا فى حال ذلك الدرس ـ جماعة لم تجر لهم

(١) أدب الطلب ، ص ٣٠ ـ ٣١

عادة بالوصول الى الجامع ، وهم متلفعون بثيابهم لا يعرفون ، وكانوا ينظـرون الى ، ويقفون قليلا ، ثم يذهبـون ، ويأتى آخرون ، حتى لم يبق شك مع أحد أنها ، ان لم تحصـل منهم فتنة فى الحال ، وقعت مع خروجى من الجـامع ، فخرجت من الجامع ، وهم واقفون على مواضع من طريقى ، فما سمعت من أحدهم كلمة ، فضـلا عن غير ذلك ، وعاودت الدروس كلهـا ، وتكاثر الطلبة المتميـزون زيادة على ما كانـوا عليه ، فى كل فن » (١) . لقد ظن خصوم الشوكانى أن الحرب النفسية التى شنوها عليه ، ستحول دون مواصلته للتدريس ، أو انها ستمنع تجمع الطلبة عليه ، واقبالهم على دروسه ، مخـافة على أنفسهم من الدولة والعامة ، فكان الأمر على خلاف ما ظنوا .

ولم تتوقف الحملات ضد الشوكـانى ، ولم يتوقف هو عن القاء دروسه فى جامع صنعاء ، وكان يسـتمع له جمهور كبير من عامة الناس وأهل العلم ، فسمع بذلك وزير رافضى ،(٢) من وزراء الدولة ، وكانت له صولة وقبول كلمة ، بحيث لا يخالفه أحد ، وله تعلق بأمر الأجناد ، فاستدعى رجـلا من المساعدين له فى مذهبه ، فنصب له كرسيا فى مسجد من مساجد صنعاء ، وكان يسرج له الشمع الكثير فى ذلك المسجد ، حتى يصير عجبا من العجب ، فتسامع به الناس ، وقصدوا اليه ، لقصد الفرجة والنظر ، وكان الرجل يملى عليهم فى كل وقت ما يتضمن الثلب

---

(١) نفس المصدر ، ص ٣١

(٢) الرافضة هم الشيعة الامامية الذين انشقوا على الامام زيد ورفضوه . وانقسموا طائفتين : امامية اثنى عشرية ، واسـماعيلية باطنية ، وقد دخلت الأخيرة اليمن سنة ٢٩١ ، حين بعـث ميمون القداح مؤسس مذهـب الباطنية اثنين من دعاته الى اليمن ، وهما على بن الفضل ومنصور بن حسن ، وكان لهذه الطائفة فى وقت الشوكانى صولة وجولة .

لجماعة من الصحابة · ولم يكتف ذلك الوزير بذلك ، بل أغرى جماعة من الأجناد وغيرهم بالحضور الى الجامع الكبير — جامع صنعاء ، وصلوا وصلاة العشاء قائمة ، ودخلوا الجامع على هيئة منكرة ، وشاهدهم الشوكانى عند وصولهم ، فلما فرغت الصلاة ، قال له جماعة من معارفه : « انه يحسن ترك الاملاء تلك الليلة فى البخارى » ولكن الشوكانى أصر على القاء الدرس ، وأخذ فى الاملاء ، وعندئذ أخذ الجنود يدورون حول الحلقة من جانب الى جانب ، ويقعقعون بالسلاح ، ويضربون سلاح بعضهم فى بعض ، دون أن يتأثر المعلم الشجاع بما يدور حوله ، أو يجزع ، فلما فشلوا فى تحقيق هدفهم ، ذهبوا ولم يقع شىء (١) ·

ولجأ ذلك الوزير وأعوانه الى الامام ، يشكون له الشوكانى ، ويتهمونه بالتهم الباطلة ، واستعانوا فى ذلك برسائل بعضها من علماء السوء ، وبعضها من جماعة من المقصرين الذين يدعون أنهم من أهل العلم · وكانت التهمة الكبرى الموجهة للشوكانى أنه أراد تبديل مذهب أهل البيت الذى يدين به أكثر أهل اليمن ، وفى مقدمتهم الامام ، وطالبوا بمهاجمة مسكنه ومصادرة ما فيه من الكتب التى توجب العقوبة ، لما تتضمنه من اجتهادات مخالفة للمذهب الرسمى (وهو المذهب الزيدى) · وعز على الشوكانى أن تقع بين يديه رسالة تتضمن هذه الادعاءات التى كتبها أحد زملائه فى طلب العلم ، وكانت تربطهما علاقة المودة والصداقة · ولكن الله تعالى

---

(١) نفس المصدر ، ص ٣٢ ·

انتقم له ، من هذا الزميل ، وهو الفقيه اسماعيل بن عز الدين ابن محمد النعمى ، فشرده الامام ، ونفاه الى جزيرة زيلع ، مقرونا فى السلاسل بجماعة من السوقة (وظل بها حتى وفاته سنة ١٢٢٠) وكان حدوث هذه الحادثة بمرأى ومسمع من ذلك الوزير الرافضى الذى ألف له تلك الرسالة ، استجلابا لما عنده ، وطلبا للقرب اليه ، وتوددا له ٠

ويستطرد الشوكانى فى الاشارة الى جماعة من اهل العلم ممن حاولوا انزال الضرر به تقربا لذوى السلطان ، فأرجعهم الله اليه راغمين ، وأحوجهم لمعونته مضطرين ، ولم يعاقب أحدا منهم بما أسلفه ٠ يقول « وبالجملة فالشرح لما حدث لى من الحوادث فى هذا الشأن يطول ٠٠٠ وليس المقصود ههنا الا ما نحن بصدده من تنشيط طالب العلم ، وترغيبه فى التمسك بالانصاف ، والتحلى بحلية الحق » (١) ، وترك التعصب المذهبى الذى كان يراه أعظم محنة فى عصره (٢) ٠

مذهبه فى التعلم

يستهل الامام الشوكانى كتابه « أدب الطلب ومنتهى الأرب » بتحديد الغاية التى يسعى اليها فى هذا الكتاب ، فيقرر أنه عزم على أن يجمع « فى هذه الورقات ما ينبغى لطالب العلم اعتماده فى طلبه ، والتحلى به فى ايراده واصداره وابتدائه وانتمائه ، وما يشرع فيه ، ويتدرج اليه ، حتى يبلغ مراده ، على وجه يكون به فائزا بما هو الثمرة ، والعلة الغائية التى هى

(١) نفس المصدر ، ص ٣٢ — ٣٥ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٤٠ ، ص ٥٠ ، ص ٥٩ — ٦٠ .

أول الفكر وآخر العمل » • ويتصور الشوكانى أن تحقيق هذا الغرض يقتضى منه أن الكلام « لا بد أن يتعـــــدى الى فوائد ومطالب ينتفع بها المنتهى ، كما ينتفع بها المبتدىء ، ويحتاج اليها الكامل كما يحتاج اليها المقصـــر ••• » (١) • هكـــذا ينبغى أن تكـــون دراســـة موضوع التعلم دراسة شـــاملة متكاملة فى نظر الشوكانى •

نية المتعلم وقصـــــده :

رأينا فى الفصل السابق أهمية التـــــــأهب فى عملية التعلم ، وأن من أهم عناصر التأهب النيـــة • وللنية دور كبير فى التعلم عند الشوكانى « فأول ما على طالب العلم ، أن يحسن نيته ، ويصلح طويته ، ويتصور أن هذا العمل الذى قصد له ، والأمر الذى أراده ، هو الشـــريعة التى شرعها الله ســـبحانه لعبـــاده ، وبعث بها رسله ، وأنزل بها كتبه ، ويجرد نفسه عن أن يشوب ذلك • بمقصد من مقاصد الدنيا ، أو يخالطه بمـــا يكدره من الارادات التى ليست منه ، كمن يريد الظفر بشىء من المال ، أو يصل به الى نوع من الشرف ، أو البلوغ الى رئاسة من رئاسات الدنيا ، أو جاه يحصله به • فان العلم طيب لا يقبل غيره ، ولايحتمل الشركة » (٢) •

هكذا ينبغى أن يكون غرض طالب العلم خالصا لوجه الله تعالى ، لا يكدره بمطلب آخر ، والا كان مثله كمثل الماء الصافى العذب حين يكدر بشىء من الماء المالح أو القاذورات • أن من

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٥ •
(٢) نفس المصدر ، ص ١٥ — ١٦ •

أقدم على تشريك العلم مع غيره غلط أقبح الغلط ، ومن أراد أن يجمع فى طلبه العلم بين قصد الدنيـــا والاخرة ، فقد أراد الشطط ، ذلك أن طلب العلم من أشرف أنواع العبادة وأجلهـا وأعلاها ، « وما أمروا الا ليعبـــدوا الله مخلصين له الدين » (البينة : ٥) .

لابد اذن أن تكون هذه النية الخالصة سابقة لطلب العلم ، وملازمة له أيضا « بل وفى كل وقت من أوقـــات طلبه مبتديا ومنتهيا ، متعلما وعالما » ، فقد ورد فى الحديث الصحيح « انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى » (رواه البخارى) ويستفاد من هذا الحديث أن حصول الأعمال وثبوتها لا يكـون الا بالنية ، فكل طاعة من الطاعات ، وعبادة من العبادات ، اذا لم تصدر عن اخلاص نية ، وحســـن طوية ، لا اعتـداد بها ، ولا التفات اليها ، بل هى ان لم تكن معصية ، فأقل الأحـوال أن تكون من أعمال العبث واللعب التى هى بما يصدر عن المجانين أشبه منها بما يصدر عن العقلاء .

ويجب على الطالب أن تكون غايته العلم بما بعـث الله به رسله ، وأنزل فيه كتبــه ، وذلك سبب الظفر من عند الله من خير (١) .

كراهية التعصب والتقليد :

بعد أن حدد الشوكانى الغرض من طلب العلم كمـا سبق يقول : « ومثل هذا لا مدخـل فيه لعصبية ، ولا مجال عنـــده

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٦ ــ ١٧ .

لحمية » (١) . لقد كان الشوكانى يدعو الى العقيدة السلفية فى بساطتها أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويدعو الى الاجتهاد ونبذ التقليد (٢) ، وذلك بأخذ الأدلة الشرعية من مواطنها ، من الكتاب والسنة ، بحيث يفترض المرء نفسه موجودا فى زمن النبوة ، وعند نزول الوحى ، وان كان فى آخر الزمان ، وكأنه لم يسبقه عالم ، ولا تقدمه مجتهد ، فان الخطابات الشرعية تتناوله كما تناولت الصحابة من غير فرق (٣) . ان الأقوام متساوية ، ليس لواحد منهم أن يدعى أنه غير متعبد بما تعبد الله به عباده ، أو أنه خارج عن التكليف ، أو أنه غير محكوم عليه بأحكام الشرع ، ومطلوب منه ما طلبه الله من سائر الناس . وليس لواحد أن يرتقى الى درجة التشريع ، واثبات الأحكام الشرعية ، وتكليف العباد بما يصدر عنه من رأى ، فان هذا أمر لم يكن الا لله لا لغيره من البشر كائنا من كان ، الا فميا فوضه الى رسله .

أما سائر عباد الله ممن ليس هو من أهل الرسالة ، ولا جعله الله من أهل العصمة ، كالصحابة فالتابعين فتابعيهم من أئمة المذاهب ، فسائر حملة العلم ، فان من زعم أن لواحد من هؤلاء أن يحدث فى الشرع ما لم يكن فيه ، فقد أوقع نفسه فى هوة لا ينجو منها الا اذا طرحها ، وأدخل نفسه فى باب من أبواب الشرك ، وصار اشتغاله بالعلم جناية عليه ، ومحنة له .

فاذا تقرر لك هذا ، تبين أن من أهم ما يجب عليك أن

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٧ .

(٢) راجع د. ابراهيم هلال : مقدمة لكتاب قطر الولى للشوكانى ، ص ٢٠ ، د. الغمارى : الامام الشوكانى مفسرا ، ص ٦٤

(٣) أدب الطلب ، ص ١٢٢

تكون منصفا لا متعصبا فى شىء من هذه الشريعة ، فلا تمحق بركتها بالتعصب لعالم من علماء الاسلام ، انه — وان فضلك بنوع من أنواع العلم ، فهو لم يخرج بذلك عن كونه محكوما عليه ، متعبدا بما أنت متعبد ، فضلا عن أن يرتفع عن هذه الدرجة الى درجة أن يكون رأيه فيها حجة على العباد ، واجتهاده لديها لازما لهم ·

ان الواجب عليك أن تعترف له بالسبق ، وتقر له بعلو الدرجة اللائقة به فى العلم ، معتقدا أن ذلك الاجتهاد الذى اجتهده ، والاختيار الذى اختاره لنفسه غير ملزم لمن سواه · وليس لك أن تعتقد أن صوابه صواب لك أو خطأه خطأ عليك ، بل عليك أن توطن نفسك على الجد والاجتهاد والبحث ، شيئا فشيئا ، حتى تبلغ الى ما بلغ اليه من أخذ الأحكام الشرعية من ذلك المعدن الذى لا معدن سواه ، فان ظفرت به فقد تدرجت من البداية الى النهاية ، وان قصرت عنه لم تكن ملوما · فلا يغرك ما استدل به القائلون بجواز التقليد ، ويشير الشوكانى الى أنه أفرد لهذا الموضوع كتابا مستقلا هو « القول المفيد فى حكم التقليد » (١) ·

لقد كره الشوكانى التقليد منذ حداثة سنه ، كما رأينا ، مثله كمثل الغزالى (٢) ، وبين أن التخلص من التقليد يقتضى البحث فى الكتب مع الجد والطلب ، واستغراق الأوقات فى العلم · وعندئذ يصبح الانسان منصفا ، والمنصف أعلم الناس ، لأنه أبصرهم بالحق ، اذا اختلف الناس ، لأنه ليس لديه هوى ،

(١) طبع بمصر سنة ١٣٤٠ هـ .
(٢) راجع المنقذ من الضلال ، ص ١٢٦

ولا حمية ، ولا عصبية لمذهب من المذاهب أو لعالم من العلماء ، فصفت غريزته عن أن تتكــدر بشيء ، وليس له مأرب ، ولا مقصد الا مجرد المعرفة ، فهو يظفر بذلك بسهولة من غير مشقة ولا تعب (١) • ان المنصف عند الشوكاني هو أكثـر النــاس تمسكا بالأمانة العلمية والموضوعية •

ويرى علماء النفس المعاصرون أن التقليد أحد الغرائـز الفطرية القوية فى الانسان ، وأنه يبدأ بعد الولادة بأسابيــع قلائل ، وهو يساعد الرضيع على تكييف نفسه للحيــاة ، وأن التقليد حتى سن الثالثة أو الرابعة له دور هام ، الا أن التقليد مرحلة انتقـــالية من تبعية فترة الرضاعة الى اســـتقلالية الطفولة المتأخرة ، فالطفل يتجاوز مرحلة التقليد ، لأنه يحتاج الى أن يكــون مستقلا يفعل أشــياء لنفسه (٢) • ولقــد أثنى برتراند رسل على أولئك الرجال الذين تخلصوا من التقليــد ، وعاشوا بوحى من أنفسهم ، احتراما للـــذات • بينما ازدرى المقلدة لأنهم ليسوا الا مرايا لمـــا يحس جيرانهم وما يقولون ، وأرجع ذلك الى التربية الخاطئة ، فانهم حينمـــا كانوا أطفالا كانوا يعلمون الخضوع الأعمى ، فاذا ما كبروا اعتـــادوا على ذلك ، ويعلن رسل معارضته لمثل هذه التربية ، ويقول : والذى أعرضه هو أن ليس لأحد أن يتعلم كيف يطيع (٣) •

لقد اعلن الشوكانى منذ قرن ونصف ما يعلنه علمــــاء النفس والتربية اليوم من كراهية الطاعة العمياء ، أو الخضوع

---

(١) أدب الطلب ، ص ١٧ — ٢٢

(٢) هادفيلد : الطفولة والمراهقة ، ص ٨٢ — ٨٣ •

(٣) رسل : فى التربية ، ص ٥١

الكامل ، أو التقليد كأسلوب تربوى ، لأنه يقضى على استقلالية المرء فى كبره ، ويحرمه من أن يكون ذا موقف خاص ، وشخصية متميزة ٠

أسباب التعصب :

يبين الشوكانى ان أسباب الخروج عن دائرة الانصاف ، والوقوع فى موبقات التعصب كثيرة جدا ، فمنها ما يأتى :

(١) أن ينشأ طالب العلم فى بلد قد تمذهب أهلها بمذهب معين ، واقتدوا بعالم مخصوص ، ثم لا يجد من يرشده الى خلاف هذا المذهب ، ان كان يتضمن شيئا من البدع ، ويرشده الى الحق ، ويبين له الصواب ، ويحول بينه وبين الباطل ، ويجنبه الغواية ٠ ويلاحظ الشوكانى أن هذا الداء (أى المذهبية) قد طبق فى بلاد الاسلام فى عصره ، وعم أهلها ، ولم يخرج عنه الا أفراد ، وقليل ما هم ، وصار أهل كل مذهب يعتقدون أنه الشريعة ، وأن الخروج عنه خروج عن الدين « وكل حزب بما لديهم فرحون » (الروم : ٣٢) فأهل هذا المذهب يعتقدون أن الحق بأيديهم ، وأن غيرهم على الخطأ والضلال والبدعة ، وأهل المذهب الآخر يقابلونهم بمثل ذلك ، والسبب أنهم نشأوا فوجدوا آباءهم وسائر قرابتهم على ذلك ، ورثه الخلف عن السلف ، والآخر عن الأول ٠ والناس اما عامة وهم يعتقدون فى البدع التى نشأوا عليها بسبب قصورهم عن ادراك الحقائق ، واما خاصة وهم قد يعرفون الحقائق ، ولكنهم لا يستطيعون أن ينطقوا بها ، مخافة الضرر على النفس أو المال أو الجاه أو العرض ، وقد يترك أحدهم التكلم بالحق الذى هو خلاف ما عليه الناس استجلابا لخواطر العوام ، ومخافة نفورهم عنه ، وقد

يترك التكلم بالحق لطمع يظنه ، ويرجو حصوله من الدولة أو من سائر الناس فى مستقبل الزمان . كمن يطمع فى نيل رئاسة من الرئاسات أو منصب من المناصب .

وسكوت من له فطنة ، ولديه عرفان ، عن تعليم الناس معالم الانصاف ، وهدايتهم الى طريق الحق ، ما يوجب جمودهم على ما هم عليه ، واعتقادهم أن الحق مقصور عليه ، منحصر فيه ، وأن ما عداه من البدع والضلال . ولو نظر المتعصب بعين الانصاف ، ورجع الى عقله ، وما تقتضيه فطرته الأصيلة ، لكف عن فعله ، وأقصر عن غيه وجهله ، وكذلك صاحب المعرفة لو وطن نفسه على الارشاد والتكلم بالحق ، وبينه للناس ، وخلص نفسه من كتم العلم الذى أمره الله بافشائه ، لانتهى حاله الى أن يكون كعبه الأعلى ، وقوله الأرفع ، ولم يزده ذلك الا رفعة فى الدنيا والآخرة ، وحظا عند عباد الله ، وظفرا بما وعد الله به عباده المتقين (١) .

ان العلماء اذا تمسكوا بالحق ، ونشروا العلم ، على الرغم مما قد يتعرضون له من محن ، فانهم ينالون من حسن الأحدوثة ، وبعد الصيت ، وقوة الشهرة ، وانتشار مؤلفاتهم ، وقبولها فى الناس ، ما لا يبلغه غيرهم ، ولا يناله سواهم ، ولكى يثبت الشوكانى صحة ذلك ، يلجأ الى تاريخ مفكرى الاسلام ، فيذكر جماعة ممن اشتهرت مذاهبهم ، وانتشرت أقوالهم ، وطارت مصنفاتهم بعدهم ، ويشير الى ما أصابهم من المحن (٢) .

---

(١) ادب الطلب ، ص ٢٣ — ٢٤ ، ص ٤١ — ٤٢

(٢)ممن يذكرهم : مالك بن انس ، وأحمد بن حنبل ، ومحمد بن اسماعيل البخارى ، وابن حزم ، وابن تيمية

ويذكر نماذج من العلماء الذين تعرضوا للمحن من أهل قطره اليمن (١) ، ثم يشير أخيرا الى أمثلة من الحوادث الكثيرة التى جرت بينه شخصيا وبين أهل عصره ، ويبين كيف ان كثير اممن حاولوا انزال الضرر به آرجعهم الله اليه راغمين ، وذلك لتمسكه بالانصاف ، ووقوفه عند الحق (٢) ٠

٢ — ومن جملة الأسباب التى يتسبب عنها ترك الانصاف ، ويصدر عنها البعد عن الحق ، وكتم الحجة ، وعدم البيان ، حب الشرف والمال ، فهما أكثر عداء على الانسان من ذئبين ضاريين ، انهما السبب الذى حرف به أهل الكتاب كتب الله المنزلة ٠ وكتموا ما جاءهم فيها من البيانات والهدى ، وبهذا السبب بقى من بقى على الكفر من العرب وغيرهم بعد الاسلام ، وبه نافق من نافق ، ووقع فى الاسلام من أهل العلم بذلك السبب عجائب مودعة بطون كتب التاريخ ، وكم من عالم قد مال الى هوى ملك من الملوك ، فوافقه على ما يريد ، وحسن له ما يخالف الشرع ، بل قد وضعت الأحاديث المكذوبة على الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا الغرض ، أعنى حب الدنيا ، والطمع فى حطامها ، والتقرب الى أهل الرئاسة ٠

ويذكر الشوكانى فى مرارة أنه كثيرا ما سمع ورأى فى عصره ، المنافقين من أهل العلم ، اذ كان يرى الرجل منهم يعتقد فى نفسه اعتقادا يوافق الحق ، ويطابق الواقع ، فاذا

---

(١) يذكر : الامام محمد بن ابراهيم الوزير (ت سنة ٨٤٠) ، والعلامة الحسين احمد الجلال (ت سنة ١٠٨٤) ، والعلامة صالح بن مهدى المقبلى (ت سنة ١١٠٨) والعلامة محمد بن اسماعيل الأمير (ت سنة ١١٨٢) وشيخه العلامةعبد القادر بن أحمد (ت سنة ١٢٠٧)

(٢) أدب الطلب ، ص ٢٥ — ٣٥

تكلم عند من يخـــالفه فى ذلك ، وبخاصة ان كان من أهـــل الرئاسة ، وممن بيده شيء من الدنيا ، وافقه وساعده وسانده وعاضده ، وعلى أقـــل الأحوال ، بأن يكتم ما يعتقده من الحق ، ويغمط ما قد تبين له من الصواب ، وهو لو أمعن نظره ، وتدبر ما وقع فيه ، لعلم أن ميله الى هوى من يجاملهم ، ويكتم الحـــق مطابقة لهم ، واستجلابا لمودتهم ، واستبقاء لما لديهم ، وفرارا من نفورهم ، انما هو التقصير بجانب الحق ، والتعظيـــم لجانب الباطل ، فلولا أن هؤلاء النفـــر لديه أعظم من الرب سبحانه لما مال الى هواهم · « فأنت أيها الحـــامل للعلم لا تزال بخير ، ما دمت قائما بالحجة ، مرشـــدا اليها ، ناشرا لها ، غير مستبدل بها عرضا من أعراض الدنيا ، أو مرضاة من أهلها » (١) ·

٣ ــ ومن الأسباب التى يتسبب عنها أيضا ترك الانصاف ، وكتم الحق ، وغمط الصواب ما يقع بين أهل العلم من الجـــدال والمـــراء ، فان الرجل قد تكون له بصيرة ، وحســـن ادراك ، ومعرفة بالحق ، ورغوب اليه ، فيخطىء فى المناظرة ، ويحمله الهوى ، ومحبة الغلبة ، وطلب الظهور ، على التصميم على مقاله ، وتصحيح خطأه ، وتقـــويم معوجه ، بالجدال والمـــراء ، فوقع بذلك من وقع فى مهاوى من التعصبات ، ومزالق من التعسفات ، عظيمة الخطر ، مخوفة العاقبة ، حتى أن بعض من يسلك هـــذا المسلك ، قد يجـــاوز ذلك الى الحلف بالايمـــان على حقيقة ما قاله ، وصواب ما ذهب اليه ، وكثيرا منهم يعتـــرف ــ بعد أن تذهب عنه سورة الغضب ــ بأنه فعل ذلك تعمدا ، مع علمه بأن الذى قاله غير صواب (٢) ·

---

(١) نفس المصدر ، ص ٣٦ — ٣٨
(٢) نفس المصدر ، ص ٣٨ — ٣٩

٤ — ومن الأسباب المقتضية للتعصب ، أن يكـــون بعض سلف المشتغل بالعلم ، قد قال بقول ، أو مـــال الى رأى ، فيأتى الذى جاء بعده ، فيحمله حـــب القرابة على الذهاب الى ذلـــك المذهب ، والقول بذلك القول ، وان كان يعلم أنه خطأ • واقل الأحـــوال — اذا لم يذهب اليه — ان يقـــول فيه : انه صحيح ، ويتطلب له الحجج ، ويبحث عما يقويه ، يدفعه الى ذلك مجرد المباهاة لمن يعرفه ، والتزين لأصحـــابه بانه فى العلم معرق ، وأن بيته قديم فيه ، ولهذا نرى كثيرا منهم يستكثر من « قـــال جدنا ، قال والدنا ••• » ، ويرجع الشوكانى ذلك الى الطبـــاع البشرية التى تميل الى التفاخر ، ولا سيما طبائع العـــرب ، فان الفخر بالأنساب ، والتحدث بما كان للسلف من الأحساب ، يجدون فيه من اللذة ما لا يجـــدونه فى تعـــدد مناقب أنفسهم ، ولكن ليس من المحمود أن يبلغ ذلك بصـــاحبه الى التعصب فى الدين ،وتأثير الباطل على الحق ، فلا يضيره أن يترك التعصب لسلفه ، بل ان هذا التعصب — مع كونه مفسدا للحظ الأخروى — يفسد عليه أيضا الخط الدنيـــوى ، فانه اذا تعصب لســـلفه بالباطل ، فلا بـــد أن يعرف كل من له فهم أنـــه متعصب ، وفى ذلك عليه من هدم الرفعة التى يريدها ، والمزية التى يطلبهـــا ، ما هو أعظم عليه وأشد من الفائدة التى يطلبها بكون له قريب عالم • واذا لم يعتقـــد فيـــه الســـامع التعصب اعتقـــد بـــلادة الفهم ، ونقصان الادراك ، وضعـــف التحصيل ، لأن الميل الى الأقوال الباطلة ليس من شأن أهل التحقيق ، بل ذلـــك دأب من ليس له بصيرة نافذة ولا معرفة نافعة (١) •

---

(١) نفس المصدر ، ص ٣٩ — ٤٠

دور العلمـاء فى الاصـلاح والتوجيه :

بعد أن آرجع الشوكانى سكوت العلماء عن اعلان الحقائق للأسباب التى أتينا على ذكرها ، يلاحظ أن هذا الموقف السلبى هو السائد بين أغلب المشتغلين بالعلـــم فى عصره ، ويتهمهم بالتخلى عن دورهم الحقيقى ، والتقـاعس عن تأدية مهمتهـم الأساسية ، « ومن شك فى هذا فليخبرنا من ذاك الذى يستطيع أن يصرخ بين ظهرانى دولة من تلك الدول بما يخالف اعتقـاد أهلها ، وما تألفه عامتها وخاصتها ؟ ووقـــوع مثل ذلك نادرا ، انما يقوم به أفراد من مخلصى العلماء ومنصفيهم ، وقليل مـا هم ، فانهم لا يوجدون الا على قلة واعواز » ٠

انهم ـ على قلتهم ـ حملة الحجة على الحقيقة ، وهم العلمـاء حقا ، أما غيرهم ممن يعلم كما يعلمـــون ، ولا يتكلم كمـا يتكلمون ، بل يكتم ما أخذ الله عليه بيانه ، ويعمل بالجهل مع كونه عالما بأنه جهل ، فهذا ليس بأهل لدخوله فى مسمى العلم ، ولا يستأهل أن يوصف بوصف من أوصافه ، أو يدخل فى عداد أهله ، بل هو متظهر ٠

ومن شك فى ذلك « فليمعن النظر فى أهل عصـــره ، هل يستطيع أحد من أهل العلم ، أن يخالف ما يهواه الســلطان من المذاهب ، فضلا عن أن يصرح للناس بخـــلافه ؟ » لقد لاحظ الشوكـــانى أن غالب من فى بلاد أهل البدع من العلمـــاء ، لا تخفى عليهم مناهج الحق ، ولكنهم يتظهرون للملوك والعامة بما يناسب ما هم عليه ، ويوهمونهم بأنهم يوافقونهم ، وأن تلك البدعة التى هم عليها ليست ببدعة ، بل هى سنة وحق وشريعة ،

وليس هذا فحسب ، بل أيضا يعملـــون كعملهم ، ويدخلون فى ضلالهم ، فيكونون ممن أضله الله على علم .

فمن كان من أهل العلم هكذا ، فهو لم ينتفع بعلمه ، فضلا عن أن ينتفع به غيره ، فعلمه محنة له ، وبلاء عليه ، والجاهل خير منه بكثير ، لأنه يعمل على ترويج بدع المبتدعين ، والتحسين لها ، وايهامهم أنهم على الحق ، « فانك اذا فعلت ذلك ، كـــان علمك ـ لا علمت ـ بلاء على أهل تلك البدع ، بعد كونه بـــلاء عليك ، لأنهم يفعلون تلك البدع على بصيرة ، ويتشددون فيها ، ولا تنجح فيهم بعد ذلك من موعظة واعظ ، ولا نصيحة ناصح ، ولا ارشاد مرشد ، لاعتقادهم فيك ، لا كثر الله فى أهل العلم من أمثالك ! » .

ان ضرر أمثال هؤلاء العلماء على عباد الله كبير ، فقد جرت قاعدة أهل البدع فى سابق الدهر ولاحقه بأنهم يفرحون بصدور الكلمة الواحدة عن عالم من العلماء ، ويبالغون فى اشهارهـــا واذاعتها فيما بينهم ، ويجعلونها حجة لبدعتهم .

ورب سائل يســأل : اذا ما فعل العـــالم ما ينبغى عليه ، فصرخ بالحق ، أفلا يؤدى ذلك الى التنكيل به ، والهتك لحرمته ، وانزال الضرر به ؟ يحيل الشوكـانى مثل هـذا السائـل الى ما سبق أن ذكره من أمثلة توضح أن العلمـــاء المتكلمين بالحق على مر التاريخ ، انما يحفظهم الله ويحميهم ، والناظر فيمـا تعرض له العلماء من محن يعلم صدق ما وعد الله به عبـــاده المؤمنين من أن العاقبة للمتقين . ولئن وقع ما وقع ، وحصلت المحنة ، ونزل الضرر ، « فنهاية ما ينزل عليك ، ويحل بك أن تكون قتيلا للحق ، وشهيدا للعلم ، فتظفر بالســعادة الأبدية ،

وتكون قدوة لأهل العلـــم الى آخر الدهـــر ، وخزيا لأهـــل البدع ٠٠٠ » (١) ٠

ولكى ينجح العالم فى مهمته ، لابد أن يسلك طرقا تربوية مختلفة تتناسب وطبيعة من يريد تعليمهم ، « فالعالم الذى أعطاه الله الأمانة ، وحمله الحجة ، وأخذ عليه البيان ، يورد الكلام مع كل أحد على حسب ما يقبله عقله ، وبقدر استعداده » (٢) ٠

ويبين لنا الشوكانى الأساليب التى يمكن أن نستعين بهـا للقيام بعملية ارشاد الناس وتعليمهم :

١ ــ بالنسبة للعامة ، ينبغى حثهم على التعلم ، والتدرج فى اعطائهم المعلومات ٠ يقول : « لا تأتى الناس بغتة ، وتصـــك وجوههم مكافحة ومجـــاهرة ، وتنعى عليهم ما هم فيه نعيـــا صراحا ، وتطلب منهم مفارقة ما ألفوه طلبا مضيقا ، وتقتضيه اقتضاء حثيثا ، بل اسلك معهم مسالك المتبصـــــرين ، فى جذب القلوب الى ما يطلبه الله من عباده ، ورغبهم فى ثواب المنقادين الى الشرع ، المؤثرين للدليل على الرأى ، وللحق على الباطل » ٠ ان العامة فى نظر الشوكانى أسرع الناس انقيادا ، وأقـــربهم امتثالا لما يطلب منهم ، والتعامل معهم لا يحتاج الى كثير مؤنة ، بل يكتفى معهم بترغيبهم فى التعلم ، وعنـــدئذ يقبلون ذلك قبولا فطريا ، لأن فطرتهم لم تتغير بالتقليد (٣) ٠

٢ ــ أمـــا فيما يتعلق بالخاصة ، أى أهـــل العلم الذين

---

(١) نفس المصدر ، ص ٤١ — ٤٤ ، ص ٨٣
(٢) نفس المصدر ، ص ٨٤ — ٨٥
(٣) نفس المصدر ، ص ٤٥

يفهمون الحجة ، ويعقلون البرهان ، فينبغى اقنـاعهم بالأدلة والبراهين ، واذا بقى فيهم شيء من العصبية كـــان ارجاعهم الى الانصاف متيسر غير متعسر ، بايراد الدليل الذى تقوم به الحجة لديهم ، فانهـم اذا سمعوا الدليل عرفـــوا الحق ، واذا حاولوا وكابروا فليس ذلك عن صميم اعتقاد ، ولا عن خلوص نية ، فرياضة الخاصة بايراد الأدلة عليهم ، واقـامة الحجج ، وايضاح البراهين ، وذلك يكفى . فانهم لما قد عرفوه من علوم الاجتهاد ، ومارسوه من الدقائق ، لا يخفى عليهم الصواب .

٣ـ أما أنصاف المتعلمين فيمثلون مشكلة كبرى فى نظـــر الشوكانى ، اذ يقول : « والعقبة الكؤود ، والطريق المستوعرة ، والخطب الجليل ، والعبء الثقيل ، ارشـاد طبقة متوسطة بين العامة والخاصة ، وهم قوم قلدوا الرجـــــال ، وتلقوا علـم الرأى ومارسوه ، حتى ظنـــوا أنهم بذلك قد فارقوا طبقــــة العامة ، وتميزوا عنهم . وهم لم يتميزوا فى الحقيقة عنهم ، ولا فارقوهم ، الا بكون جهـل العامة بسيطا ، وجهـــل هؤلاء مركبا » ، وأشد هؤلاء خطورة فى رأى الشوكانى هم أثبتهـم تمسكا بالتقليد ، وأعظمهم حرصا عليه ، فان الدواء قد ينجح فى أحد هؤلاء فى أوائل أمره ، واما بعد طول العكـــوف على ذلك ، والشغف به ، فما أبعد التأثير ، وما اصعب العــلاج ، لعداوتهم للحق ، ولعلم الأدلة ، وللقائمين بالحجة .

ولكن هل بقى مطمع فى اصلاح أهل هذه الطبقة ؟ وكيف الوصول الى ارشادهم الى الانصـــاف واخراجهم عن التعصب ؟ يرى الشوكانى أنه لا مطمع الا بتوفيق الله وهدايته ، وهـــو يعدهم مرضى ، لأن طبائعهم قد تكدرت ، وفطرهم قد تغيرت ،

وأحسن ما يستعمله العالم مع هؤلاء ترغيبهم فى العلم ، وتعظيم أمره ، والاكثار من مدح علوم الاجتهاد وأن بها يعرف أهل العلم الحق من الباطل ، ويميزون الصواب من الخطأ ، وأن مجرد التقليد ليس من العلم ، وأن المقلد لا يعد من جملة أهل العلم ، لأنه يقر على نفسه بأنه لا يعقل الحجج . ان توضيح هذه المسائل له قد يجعل نفسه تميل الى العلم بعض الميل ، ويعرف أنه كان مشتغلا بما لا يرتقى به الى شىء من درجات العلم .

فهذا الدواء لأهل هذه الطبقة من أنفع الأدوية ، ولكن يتوقف تأثيره على مدى استعداد المخاطب للفهم . فاذا كان قد انفق شطرا من عمره فى علم الرأى ، وسكنت نفسه الى التقليد سكونا تاما ، وقبلته قبولا كليا ، لم تبق فيه بقية لفهم شىء من العلوم . ومن كان على هذه الصفة لا يأتى ارشاده الى تعلم علوم الاجتهاد بفائدة . وأحسن ما يستعمله معه من يريد تقليل تعصبه ، هو أن ينظر العالم من عمل بذلك الدليل الذى هو الحق من قدماء المقلدين ، فيذكرهم أنه قد خالف امامهم فى تلك المسألة فلان وفلان ممن هو فى طبقته أو أعلى طبقة منه ، وليس هو بالحق أولى من المخالفين له ، فان قبل ذهنهم هذا ، فقد انفتح باب العلاج للطبيب ، لأنه ينتقل معهم من ذلك الى ما استدل به امامهم ، وما استدل به من خالفه ، وينتقل منه الى وجوه الترجيح ، مبتدئا بما هو أقرب الى قبول فهم ذلك العليل ، ثم ينقله من مرتبة الى مرتبة ، حتى يستعمل معه من الدواء ما يقلل تلك العلة ، فانه اذا أدرك العليل ذهاب شىء منها ، حصل له بعض نشاط يحمله على قبول ما يذهب بالبقية .

ولكن ما أقل من يقبل شيئا من هذه الأدوية ! فانه قد ارتكز

فى ذهن غالب هؤلاء أن الصحة والسلامة لهم هى فى نفس العلة التى قد تمكنت من أذهانهم ، فسرت الى قلوبهم وعقولهم ، وسبب ذلك أنهم اعتقدوا أن امامهم الذى قلدوه ، ليس فى علماء الأمة من يساويه أو يدانيه ، وقبلت عقولهم هذا الاعتقاد الباطل ، وزاد بزيادة الأيام والليالى ، حتى بلغ الى حـــد يتسبب عنه أن جميع أقواله صحيحة ، ليس فيها خطأ ، وأنه أعلم الناس . فاذا قال لهم قائل : اعملوا بهذه الآية او بهذا الحـــديث الصحيح ، قالوا : لست أعلم من امامنا حتى نتبعك ، ولو كـــان هذا كما تقول ، لم يخالفه من قلدناه ، فهو لم يخالفه الا الى ما هــو أرجح منـــه (١) .

الكتب العلمية المتخصصة :

كان الشوكانى يرى فى المحـــدثين المثل الأعلى ، والأسوة الحسنة للأمانة العلمية التى ينبغى أن تتوفر لمن يتصدى لتصنيف الكتب ، فلقد قصد أهل الحديث فى كتبهم التى صنفوها جمـــع ما بلغ اليهم من السنة ، بحسب ما بلغت اليه مقدرتهم ، وانتهى اليه علمهم ، ولم يتعصبـــوا فيها لمذهب ، ولا اقتصـــروا على ما يطابق بعض المذاهب دون بعض ، بل جمعوا السنة ليأخذ كل عالم بقدر علمه ، وبحسب استعداده .

وليت أهل التعصب والتقليد نزلوا كتب السنة منزلة فـــن من الفنون التى يعتقدون أن أهله أعرف به من غيرهم ، وأعلـــم ممن سواهم ، ان هؤلاء المقلدة ــ على اختلاف مذاهبهم ونحلهم ــ اذا نظروا فى مسألة من مسائل النحو بحثوا كتب النحـــاة ،

(١) نفس المصدر ص ٤٦ ــ ٤٩

وأخذوا بأقوال أهله وأكابر أئمته ، كسيبويه والأخفش ونحوهما ولم يلتفتوا الى ما قاله من قلدوهم فى تلك المسألة النحوية ، لأنهم يعلمون أن لهذا الفن أهلا هم المرجوع اليهم فيه • فلو فرضنا أنه اختلف احد كبار الفقهاء وسيبويه فى مسألة نحوية ، لم يشك احد ان سيبويه هو اولى بالحق فى تلك المسألة من الفقيه ، لأنه صاحب الفن وامامه ، واذا كان ذلك الفقيه بارعا فى علمه ، فلا يعنى هذا أنه بارع فى سواه ، بل قد لايرتقى فى الفنون الأخرى الى أقل أهلها رتبة •

وهكذا لو احتاج المرء أن ينظر فى مسألة لغوية ، أو أصولية ، أو كلامية ، أو تفسيرية ، او غير ذلك من العلوم ، لم يرجع فى كل فن الا الى أهله ، ولا يعول على سواهم ، لأن أهل تلك الفنون أخبر بها ، وأتقن لها ، وأعرف بدقائقها •

ان خير الفنون نفعا ، وأشرفها أهلا ، وأفضلها واضعا ، هو علم السنة ، واشتغال أهل هذا العلم به أعظم من اشتغال أهل سائر الفنون بفنونهم ، لقد اشتغلوا بتنقيح الحديث وتهذيبه ، والبحث عن صحيحه وسقيمه ، ومعرفة رواته ، وأتعبوا أنفسهم فى هذا الشأن ، حتى صار طالب الحديث لا يكون طالبا الا بعد أن يرحل الى أقطار متباينة ، ويسمع من شيوخ عدة ، ويعرف كل ما يتعلق بالأحاديث ، حتى لا يخفى عليه مخرج الحرف الواحد من الحديث ، وفيهم من يحفظ مائة ألف حديث الى ألف ألف حديث ، ولا يحفظون المتون فقط ، بل أيضا يحفظون ويتقنون أسانيدها • ولذلك كان طالب الحديث يفنى فى هذا الفن صباه وشبابه وكهولته وشيخوخته ، وهكذا كان اشتغال أهل الحديث بفنهم لا يساويه اشتغال سائر أهل الفنون بفنونهم ، ومع ذلك فان المقلدة – كما يلاحظ الشوكانى

فى دهشة — اذا أرادوا الرجوع الى فن السنة ، لم يصنعوا فيه كما يصنعون فى غيره ، من الرجوع الى أهـــل الفن ، وليس هذا الا من قبيل التعصب البحت ، والتعسف الخالص (١) ٠

ان انصـــاف الرجل لا يتم حتى يأخذ كل فن عن أهله ، فانه لو يأخذ العالم الحديث عن أهله ، ثم يريد أن يأخذ ما يتعلق بتفسيره فى اللغة عنهم كان مخطئا فى أخذ المدلول اللغوى عنهم ، وهكذا أخذ المعنى الاعرابى عنهم ، فانه خطأ ، بل يأخذ الحديث عن أئمته ، ثم اذا احتاج الى معرفة ما يتعلق بذلك الحـــديث من الغريب ، رجع الى الكتب المدونة فى غريب الحديث ، واذا احتاج الى معرفة اعراب أواخر كلمة رجع الى علم النحـــو ، واذا أراد الاطلاع على ما فى ذلك الحديث من دقائق العربية وأســـرارها رجع الى علم المعانى والبيـــان ، واذا أراد أن يسلك طريقـــة الجمع والترجيح بينه وبين غيره رجع الى علم أصول الفقـــه ٠ فالعالم اذا صنع هـــذا الصنع ظفر بالحق من أبوابه ، ودخل الى الانصاف بأقوى أسبابه ٠

وأما اذا أخذ العلم عن غير أهله ، فانه يخبط ويخلط ، فمن ذهب يقلد أهل علم الفقه فيما ينقلونه من أحاديث الأحكام ، ولم يقتد بأئمة الحديث ، ولا أخذ عنهم ، واعتمد مؤلفاتهم ، كـــان حقيقا بأن يأخذ بأحاديث موضوعة مكـــذوبة ، ويفرع عليها مسائل ليست من الشريعة فيكون من المتقولين على الله بمـــا لم يقل ، المكلفين عباده بما لم يشرعه ، فيضل ويضـــل ، وعليه نصيب من وزر العاملين بتلك المسائل الباطلة الى يوم القيامة ، فقد ورد فى الحديث « من أفتى بفتيا بغير علم كان اثم ذلك على

---

(١) نفس المصدر ، ص ٥٠ — ٥٣

الذى أفتاه » (أخرجه احمد وأبو داود) • وليس هذا بمجتهد ، حتى يقال انه ان أصاب فله أجران ، وان اخطأ فله اجر ، بل هو مجازف ، متجر على شريعة الله ، متلاعب بها ، لأنه عمد الى من لا يعرف علم الشريعة المطهرة ، فرواها عنه ، وترك اهلها بمعزل (١) •

ويتطرق الشوكانى بعد ذلك الى مسألة تاليف الكتب فى الشريعة الاسلامية ، ويبين مدى الخطورة التى تنجم عمن يتصدى للتأليف وهو ليس مؤهلا لذلك ، « فبعدا وسحقا للمتجرءين على الله ، وعلى شريعته بالاقدام على التأليفات للناس مع قصورهم وعدم تأهلهم » • لقد كثر هذا الصنع من جماعة يشتغلون بالفقه ، ويتصدرون لتعليم الطلبة لهذا العلم ، فاذا بأنفسهم تكبر عندهم ، لما يجدونه من اجتماع الناس عليهم ، وأخذ العامة بأقوالهم ، فيظنون أنهم قد عرفوا ما عرفه علماء الشريعة ، فيتصدرون للتأليف فى مسائل الشريعة ، وهم غير مؤهلين لتأليف الكتب فيها ، ويتسبب عن ذلك أن يأخذ عنهم من هو أجهل منهم ، وأقصر باعا فى العلم ، فتنتشر كتبهم فى العالم ، وتظهر فى الملة الاسلامية فاقرة من الفواقر ، وقاصمة من القواصم ، وصاحبها لجهله يظن أنه قد تقرب الى الله ، وهو فاسد الظن ، لأنه أقدم فى محل الاحجام ، وتحلى بما ليس له ، ودخل فى غير مدخله • انه بمنزلة القاضى الذى لا يعلم بالحق ، فهو فى النار سواء حكم بالحق أو بالباطل ، بل هذا الذى أقدم على تصنيف الكتب ، وتحرير المجلدات فى الشريعة الاسلامية ، مع قصوره ، أحق بالنار من ذلك القاضى الجاهل ، لأنه لم يصب

---

(١) نفس المصدر ، ص ٥٤ ـ ٥٥

بجهل القاضى الجاهل مثل من أصيب بمصنفات هذا المصنف المقصر ، الذى ينبغى ان يؤخذ على يده ، ويقال له : « أترك ما لا يعنيك ، ولا تشتغل بما ليس من شأنك ، ولا تدخل فيما لا مدخل لك فيه اما اذا فات أهل عصره أن يأخذوا على يده ، فلا ينبغى أن يفوت من بعدهم ان يأخذوا على ايدى الناس ، ويحولوا بينهم وبين هذا الكتاب الذى لا يفرق مؤلفه بين الحق والباطل (١) .

وقد يكون صاحب التصنيف بمكانة عالية من العلم ، ولكن قد يحمله على اخفاء الحقيقة الحرص على اشتهار مصنفه بين طبقة معينة ، وتداول أفرادها له ، وما كان أغناه عن هذه البلية التى وقع فيها ، والجناية التى جناها على نفسه فى العاجلة والآجلة . أما فى الآجلة فظاهر ، لأنه بذلك التصنيف ضال مضل ، وأما فى العاجلة ، فلأن العاقل لا يفرح بانتشار مصنفاته بين الجهلة ، وشيوعها بين من يشبهون الصم البكم ، لأنهم يفهمون لا العلم ، ولايعرفون أهله ، وفضلا عن هذا فانه يعرض نفسه بهذا التصنيف لاستحقار أهل العلم ما جاء به ، لا فى عصره فحسب ، بل أيضا فيما بعده من العصور ، ما دام ذلك المصنف المشؤوم موجودا على وجه الأرض . وهكذا فما صنع هذا المصنف لنفسه بذلك التصنيف الا ما هو خزى له فى الدنيا والآخرة ، ووبال عليه فى العاجلة والأولى (٢) .

وانما التصنيف الذى يستحق أن يقال له تصنيف ، والتأليف الذى ينبغى لاهل العلم بيانه ، هو أن ينصروا فيه

---

(١) نفس المصدر ، ص ٥٦ — ٥٧
(١) نفس المصدر ، ص ٧٩ — ٨٠

الحق ، ويخذلوا به الباطل ، ويهدموا بحججه أركـــان البدع ، ويقطعوا به حبائل التعصب ، ويوضحوا فيه للنـــاس ما نزل اليهم من البينات والهـــدى ، ويحببوا الى قلوبهم العمل بالكتاب والسنة (١) ٠

علاقة المعلم بطلبته :

يتحدث الشوكانى عن ســوء احوال كثير من أهل العلم فى عصره ، والآثار السيئة على طلبة العلم من مخالطتهم ، وصـــار دخول هؤلاء الذين دنسوا عرض العلم ، وجهموا وجهه ، وأهانوا شرفه ، من أعظم المصـــائب التى أصابت أهله ، وأكبر المحـــن التى امتحن بها حملته ، فانه يسمعهم السامع يثلبون أعـــراض الأحياء والأموات من المشـــهورين بالعلم ، الذين قد اشـــتهرت مصنفاتهم ، وانتشرت معارفهم فيزهد فى العلم ، ويخاف من أن يعرض نفســـه للوقيعة من مثل هؤلاء الجهلة ، فما أحق هؤلاء بالمنع لهم عن مجالس العلم ، والأخذ على أيديهم من الدخول فى مداخل أهله ، والزامهم بملازمة حرف آبائهم ، وصناعة أهلهم ، والوقـــوف فى الأســـواق لمباشرة الاعمـــال التى يباشـــــرها سلفهم (٢) ٠ ان من كان سلفه من أهـــل المهن الدنية والحـــرف الوضيعة ، فان نفسه لا تفـــارق الدناءة مهما اشتغل بالعلـــم ، ونال منه بعض النيل ، لأنه يقع فى العجب والزهو والخيـــلاء ، اذ يرى نفسه بعـــد أن كان فى أوضـــع مكان ، قاعـــدا فى أعلى محـــل (٣) ٠

---

(١) نفس المصدر ، ص ٨١
(٢) نفس المصدر ، ص ١٢٥ — ١٢٦
(٣) نفس المصدر ، ص ١٣٠

ويرى الشوكانى ضرورة توفر شــروط معينة فى كل من المعلمين والطلاب ، حتى تكون العملية التعليمية مثمرة ، فاذا افتقدت هذه الشروط أو بعضها ، نجــم عن ذلك خلل ونقص ، فنجاح عملية التعلم يتوقف على كل من المعلم والطالب ، « ومن الآفات ما يقع تارة من الشيوخ ، وأخرى من تلامذتهم » (١) . فما هى أهم الآفات التى تفسد عملية التعلم ؟ وما هى الشروط التى يجب توفرهــا لنجاح هذه العملية ؟

أولا : بالنســبة للمعلم ينبغى أن يكــون مطلعا ، واســع المعرفة ، والا لم يكن جديرا بمهنة التدريس ، ويحذر الشوكانى من الآثار السيئة التى تنجم عن تولى غير المؤهلين مهمة التدريس للطلبة ، فيتحدث عما يدور فى أثنــاء مناقشة الطلبة لهــؤلاء المعلمين ، فقد يسأل طالب سؤالا ثم يجيب عنه من لا التفات لــه الى العلوم ، ولا اشتغال منه بها ، ولا يعرف الحجة ، ولا يعقلهــا فيدون الطلبة جوابه ، ويصير حينئذ فقيها وعلمــا ، وهو كلام جاهل . ان هذا المعلم عليه أن يعرف قدر نفسه ، وأن معلوماته محدودة ، وليتسم بالأمانة فى اجابته عن أسئلة الطلبة ، ويتخلى عن ادعاء العلم ، فاذا سأله سائل عن شىء مما قد عرفه فعليه أن ينقله بنصه ، أمــا اذا ســأله عما لا يعــرف ، فعليه أن يقــول « لا أدرى » .

لقد لاحظ الشوكــانى أن كثيرا ممن كانوا يتــولون مهمة تدريس الفقــه فى عصــره ، يتســمون بضحالة معلومــاتهم ، واعتمــادهم على المختصرات دون المصــادر الأصيلة كمــا أنهم

(١) نفس المصدر ، ص ٦٧

حبسوا أنفسهم فى دائرة علمية ضيقة ، فلم يطلعوا على سائر العلوم الأخرى ، ويخاطب الشوكانى هذا المعلم الجاهل فيقول له : « لم تحط من علم الفقه الذى ألفه أهل مذهبك الا بمختصر من المختصرات ، فضلا عن مؤلفات غير اهل مذهبك فى الفقه فضلا عن المؤلفات فى سائر العلوم . فانت من علامات القيامة ، ومن دلائل رفع العلم ! ... » ، وينصحه الشوكانى بأن يترك ما ليس من شانه ، وأن يتركه لمن علمه الله ، وفتح له .

ان هؤلاء الذين جعلوا غاية مطلبهم ، ونهاية مقصدهم ، العلم بمختصر من مختصرات فن بعينه كالفقه ، ولم يرفعوا الى غير ذلك رأسا من جميع أنواع العلم ، فصاروا جاهلين اذ تقرر عندهم أن حكم الشريعة منحصر فى ذلك المختصر ، وأن ما عداه فضلة أو فضول ، فا شتد شغفهم به وتكالبهم عليه ، ورغبوا عما عداه ، وزهدوا فيه زهدا شديدا (١) .

والتعصب كما رأينا من أخطر الآفات التى تصيب أهل العلم ، اذ يدفع أهله الى الفرار من علماء الا نصاف ، والطعن على من يتصل بهم ، أو يأخذ عنهم ، وتحذير العامة والطلبة عن مجالستهم ، واخبارهم لهم بأن ذلك العالم سيضلهم ، ويخرجهم عما هم فيه من المذهب الذى هم عليه ، وعند سماع ذلك تقوم قيامة الطالب المسكين ، ولكنه ليس بملوم ، فانه جاهل ، جاء اليه من له ثياب أهل العلم وسمتهم وشكلهم ، فقال له : ان ذلك العالم يعتقد كذا أو يقول كذا ، فصدقه ، فالذنب محمول على ذلك القائل (٢) .

(١) نفس المصدر ص ٥٨ — ٥٩
(٢) نفس المصدر ص ٦٤

ومن آفـات التعصب الماحقة لبركـة العلم أن يكون رجـل العلم قد قال بقول فى مسألة ، كما يصدر ممن أفتى أو يصنف أو يناظر غيره ، ويشتهر ذلك القول عنه ، فانه قد يصعب عليه الرجوع عنه الى ما يخالفه ، وان علم أنه الحق ، وتبين له فساد ما قاله ، ولا سبب لهذا الاستصحاب الا تأثير الدنيـا على الدين ، فانه قد يظن أن ذلك ينقصه ويحط من رتبته وهذا تخيل مختل ، وتسويل باطل ، فان الرجوع الى الحق انما يوجب لـه من الجلالة والنبل وحسن الثناء ما لا يكون فى تصميمه على البـاطل ، بل ليس فى التصميم على الباطل الا محض النقص له ، والازدراء عليه ، والاستصغار لشأنه ·

ان هذا التعصب الـذى يقع فيه كثير ممن يتولـون مهمة التعليم يغلب وقوعه فى مجالس الدرس ومجامع أهل العلم ، ومن يقع فى هذا الخطأ لا يترك الباطل ويرجع الى الحق الا فى أندر الأحـــوال ·

ومن الأسباب التى تمنع رجوعه الى الحق ، أن يكون المتكلم بالحق حدث السـن بالنسبة الى من يناظره ، أو قليل العلـم أو الشهرة فى الناس ، والمعلم بعكس ذلك ، عندئذ قد تحمله حمية الجاهلية والعصبية على التمسك بالباطل ، أنفة منه عن الرجوع الى قـول من هو أصغر منه سنا أو أقل منه علما ، أو أخفى منه شهرة ، ظنا منه أن فى ذلك عليه ما يحط منه ، وينقص مـا هو فيه · وهذا ظن فاسـد ، فان الحط والنقص انما هو التصميم على الباطل ، والعلو والشرف فى الرجـــوع الى الحق ، بيد من كان ، وعلى أى وجه حصل (١) ·

---

(١) نفس المصدر ص ٦٥ — ٦٦

ومن الآفات التى تقع من الشيوخ ، أى المعلمين ، التظاهر بالعلم ، فان الشيخ قد يريد التظهر للطالب الذى يأخذ عنه ، بأنه بمحل من التحقيق ، وبمكان من الاتقان ، فيحمله ذلك على رفع الحق اذا سبق فهمه الى الباطل ، لئلا يظن من يأخذ عنه أنه يخطىء ويغلط ، وهو لو عرف ما عند ذلك الطالب الذى يأخذ عنه العلم ، أن رجوعه عن الخطأ الى الصواب ، أعظم فى عينه وأجل عنده ، لعلم أن هذا المسلك يزيد الطالب رغبة فى أستاذه ، ومحبة له (١) ٠

وقد يكون الشيخ بمكان من العلم لا يخفى عنده الصواب ، ولا يلتبس معه الحق ، ولكنه لا يعلن الحقيقة لتلاميذه مخافة على نفسه من نفوذ طبقة فى المجتمع ، أو تأثيرا لما قد ظفر به من حطام الدنيا والجاه الذى لا يستمر له الا بالموافقة لتلك الطبقة (٢) ٠

ثانيا – أما بالنسبة لطالب العلم فثمة شروط وخصال ينبغى أيضا توافرها فيه ، منها ان يكون الطالب من أصل رفيع ، ويبرر الشوكانى هذه النظرة الأرستقراطية بالحديث الشريف « كل مولود يولد على الفطرة ولكن أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » ، فاذا كان الصغير ينطبع بطابع الكفر بسبب أبويه ، فما بالك بسائر الأخلاق التى يجدهما عليه ٠ كأن الشوكانى يريد القول : ان عوامل البيئة التى ينشأ فيها الطفل لا يمكن اغفال آثرها عليه ، فالطالب الناشىء بين أهل الوضاعة ، المرتضع من ثدى الرقاعة ، هذا الطالب بحكم الطبع

(١) نفس المصدر ٦٧
(٢) نفس المصدر ص ٧٩

والف المنشأ لا يرى فى الناس الا أهل حرفته وبنى مهنته ، فيعود من حيث بدأ ، ويرجع من الباب الذى خرج منه ، فيكون فى ذلك من الاهانة للعلم ، والازدراء على أهله ، والوضع بجانبهم ، ما لا يقادر قدره ، لأن هذا يراه الناس تارة فى المدارس قاعدا بين أيدى شيوخ العلم مشاركا للمتعلمين ، وتارة يرونه فى دكاكين الحجامين وحوانيت العطارين ، ومن جرى هذا المجرى من المحترفين • ويذهب الشوكانى الى أن طالب العلم اذا خرج من بين هذه الطبقات الدنيا ، ودخل فى مداخل العلم ، وتزيا بزى أهله ، فانه يضمر لأهل العلم الحقد ، والتهاون بهم ، والتحقير من أمرهم ، وادخال الشحناء بينهم ، ولا يخرج من هؤلاء الطلبة ذوى الأصل الوضيع الا النادر القليل ، ولا يكون ذلك الا لعرق ينزعه الى الشرف ، ويجذبه الى الخير فى سلفه القديم • ويدلل على صحة ذلك بأدلة تجريبية وشرعية ، اذ يقول : « فهذا ما تفيده التجربة وتشير اليه بعض الأدلة الشرعية ••• (مثل) قوله صلى الله عليه وآله وسلم : واضع العلم فى غير أهله كمقلد الخنازير الجوهر •••» (١) (ورد فى سنن ابن ماجه عن أنس ابن مالك) •

وغنى عن البيان ما فى موقف الشوكانى من مغالطة ، فلم تعرف فى الاسلام التفرقة بين الناس على أساس الأصل أو السلالة ، وما أكثر علماء الاسلام البارزين الذين خرجوا من بيئات متواضعة فقيرة ، كأبى حامد الغزالى الذى كان والده فقيرا يحترف غزل الصوف ، وأبى حنيفة الذى علم نفسه تعليما ذاتيا فى دكانه كما أخبرنا الزرنوجى فى الفصل السابق •

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٣٠ — ١٣١

ويذم الشوكانى طائفة أخرى من الطلبة جعلوا العلم مكسبا من مكاسب الدنيا ، ومعيشة من معايش أهله ، لا غرض لهم فيه الا ادراك منصب من مناصب اسلافهم ، ونيل رئاسة من الرئاسات التى كانت لهم ، فان من كان طالبا للوصول الى شىء من هذه الأمور ذهب الى مدارس العلم يتعلم ما يتأهل به لما يطلبه ، وهو لا يتصور البلوغ الى الثمرة المستفادة من العلم ، والغاية الحاصلة لطالبه ، فيكون ذهنه كليلا ، وفهمه عليلا ، ونفسه خائرة ، ونيته خاسرة ، فاذا به يخدم فى مدة طلبه واشتغاله أهل المناصب ومن يرجو منهم الاعانة على بلوغ مراده أكثر مما يخدم العلم ، ويتردد الى أبوابهم ، ويذوق فى ذلك من الاهانة ما فيه أعظم مرارة ، فاذا نال ذلك المنصب ، ضرب بالدفاتر وجه الحائط ، وألقاها خلف السور لعدم الباعث عليها من جهة نفسه (١) ٠

ولا يقول الشوكانى ان أهل العلم يمنعون أنفسهم من المناصب الدينية ، وكيف يقول بهذا وهذه المناصب اذا لم تربط بهم ضاعت ، واذا لم يدخل فيها الأخيار تتابع فيها الأشرار ، واذا لم يقم بها أهل العلم قام بها أهل الجهل ٠ يعلن الشوكانى أنه لا يقول بهذا ، ولكنه يقول : انه ينبغى لطالب العلم أن يطلبه كما ينبغى ، ويتعلمه على الوجه الذى يريده الله منه ، معتقدا أنه أعلا أمور الدين والدنيا ، راجيا أن ينفع به عباد الله بعد الوصول الى الفائدة منه (٢) ٠

ويستهجن الشوكانى سلوك التلميذ الذى قد يخطر بباله

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٣٢
(٢) نفس المصدر ص ١٣٤ ــ ١٣٥

التزيــن لشيخــه ، والتجمل عنــده بأنه قوى الفهم ، ســريع الادراك ، صادق التصور ، فيحمله ذلك على الاقتصار على مذهب شيخه ، فيأخذ أدلة المسائل من أحد الكتب التى ينتسب مؤلفها الى هــذا المــذهب ،ويبــين أنهــا صحيحة ، ويفســد الأدلــة الأخــرى ، فاذا اقتصــر طالب العلم على النظر فى مثل هــذه المؤلفــات وقع فى البــاطل وهو يظنه الحــق ، وخالف الحــق وهو يظنه الباطل ، والذى أوقعه فى ذلك اقتصاره فى البحــث والنظر على ذلك الكتاب الذى آلفه ذلك المتعصب ، اذن ينبغى أن ينظر طالب الحــق فى كتب العلماء المشهرين بالانصــاف الذين لم يتعصبوا لمذهب من المذاهب ، ولا انتسبوا لعــالم من العلماء (١) .

والطريقة المثلى للتعلم عند الشوكــانى تبدأ بالحفظ ثــم الفهــم والاستيعاب ، فيذهب الى أن أقــرب الطرق الى ادراك مقصد الطالب ، ونيل مأربه ، أن يبتدىء بحفظ مختصــر من المختصــرات ،فاذا صار ذلك المختصر محفوظا لــه ، شرع فى تفهم معانيه ، وتدبر مسائله على شيخ من شيوخ ذلك الفــن ، حتى يكون جامعا بين حفظ ذلك المختصــر وفهم معانيه ، مــع كونه مكررا لدرسه ، متدبرا لمعانيه ، الوقت بعد الوقت ، ثم يكب على مطالعة مؤلفات المحققين من أهل ذلــك الفن بعد أن يتجاوز مرحلة دراسة المختصــرات (٢) .

معوقــات التعلــم :

قد يحول بين طالب العلم وبين بلوغ غايته معوقــات ، فمن

(١) نفس المصدر ، ص ٨٨ — ٨٩

(٢) نفس المصدر ، ص ١٤٣ — ١٤٤

عاقته بعض الأمور فى طلب العلم ، أو تضايقت مقاصده ، فليعلم أنه بذنبه أصيب ، وبعدم اخلاصه عوقب ، أو أنه أصيب بشيء من ذلك محنة له ، وابتلاء واختبارا ، لينظر كيف صبره واحتماله ، ثم يفيض عليه بعد ذلك من خزائن الخير ما لم يكن فى الحسبان • فليعض على العلم بناجذه ، فانه لا محالة واصل الى المنزل الذى يسعى اليه •

وما أحسن ما حكى عن الحكيم أفلاطون ، فانه قال : « الفضائل مرة الأوائل حلوة العواقب ، والرذائل حلوة الأوائل مرة العواقب » ، وقد صدق أفلاطون ، فان من شغل أوائل عمره ، وعنفوان شبابه بطلب فضائل العلم ، لابد أن يفطم نفسه عن بعض شهواتها ، ويحبسها عن الأمور التى يشتغل بها أترابه من الملاهى وشهوات الشباب ، وعندئذ يجد فى نفسه ـ بحكم الشباب وحداثة السن وميل الطبع ـ مرارة ، فيحتاج الى مجاهدة للنفس ، والجام شهوته بلجام الصبر ، وكيف لا يجد مرارة الحبس للنفس من كان فى زاوية من زوايا المساجد ، أو مقصورة من مقاصر المدارس ، لا ينظر الا فى دفتر ، ولا يتكلم الا فى فن من الفنون ، ولا يتحدث الا الى عالم أو متعلم ، بينما أترابه ومعارفه يتقلبون فى رافه العيش ؟ واذا انضم لذلك الطالب ، بجانب هذه المرارة الحاصلة له ، بعزوف النفس عن شهواتها ، مرارة أخرى ، هى اعواز الحال ، وضيق المكسب ، وحقارة الدخل ، فانه لابد أن يجد من المرارة المتضاعفة ما يعظم عنده موقعه •

بيد أن هذه المرارة تذهب عنه قليلا قليلا ، فأول عقدة تنحل عنه من عقدها ، عندما يتصور ما يؤول به الأمر ، وينتهى

اليه حاله من الوصول الى ما قد وصل اليه من يجده فى عصره من العلماء · أى أن الأمل الذى يتوق الطالب الى تحقيقه ، هو فى نظر الشوكانى ، من أهم عوامل التغلب على مشقة الدراسة ، والتخفيف من وطأتها ، ومن أكثر حوافز التعلم فعالية ، أن يتخذ الطالب لنفسه مستوى للطموح يسعى اليه ·

ثم تنحل عنه العقدة الثانية بفهم المباحث ، وحفظ المسائل ، وادراك الدقائق ، أى أن عدم فهم المادة المتعلمة هو من العوائق الخطيرة التى تحول دون استمرار عملية التعلم ، وعلى الطالب أن يزيل من طريقه هذا العائق ، وعندئذ يجد من اللذة والحلاوة ما يذهب بكل مرارة ، فاذا نال من المعارف حظا ، وأحرز منها نصيبا ، ودخل فى عداد أهل العلم ، كان متقلبا فى اللذات النفسانية التى هى اللذات بالحقيقة ، ولا يعدم عند ذلك من اللذات الجسمانية ما هو أفضل وأحلى من اللذات التى يتقلب فيها كل من كان من أترابه ، وهو اذا وازن بين نفسه الشريفة ، وبين فرد من معارفه الذين لم يشتغلوا بما اشتغل به ، اغتبط بنفسه غاية الاغتباط ، ووجد من السرور والحبور ما لا يقادر قدره · انه يجد هذه اللذة النفسانية (١) عندما يجد نفسه عالمة ،ونفس معارفه جاهلة · ويزداد ذلك الشعور بما يحصل له من لوازم العلم من الجلالة والفخامة ، وبعد الصيت ، وعظم الشهرة ، ونبالة الذكر ، ورفعة المحل ، والرجوع اليه فى مسائل الدين ، وتقديمه على غيره · اذا جمعه بسائر الناس مجلس كانوا له بمنزلة الخدم ، وان كان هو على غاية من الافلاس والعدم ·

---

(١) أوسعادة القصوى عند أسطو

أما اذا تناهى حاله ، وبلغ من الحظ فى العلم الى مكان على ، انثال عليه الطلبة للعلوم وأقبل اليه المستفتون فى أمر الدين ، واحتاج اليه ملوك الدنيا ، فضلا عن غيرهم ، فيكون عند هذه المنزلة عيشه حلوا محضا ، وعمره مغمورا باللذات النفسانية والجسمانية ، ويرتفع امره عن هذه الدرجة ارتفاعا لا يقادر قدره اذا تصور ماله عند الله من عظيم المنزلة (١) ٠

ولكنا نتساءل ألا يتعارض هذا القول مع ما أعلنه الشوكانى فى مستهل كتابه ، وهو بصدد الحديث عن نية المتعلم فى طلبه للعلم ، وأنها ينبغى أن تكون مجردة عن أى مقصد من مقاصد الدنيا ، وأن الطالب لا ينبغى أن يطلب العلم للظفر بشىء من المال أو الشرف أو الجاه . لأن العلم طيب لا يقبل غيره ، ولا يحتمل الشركة (٢) ؟ على آية حال فهاهو الشوكانى مرة ثانية يؤكد نظرته الأرستقراطية العلم وأهله ، بعد أن أكدها من قبل حين أغلق باب العلم فى وجه أبناء الطبقات الوضيعة من الحرفيين وأصحاب الدكاكين وأمثالهم ٠

ويشرح الشوكانى المقصود بالعبارة السابقة المنسوبة لافلاطون ، أعنى كون الرذائل حلوة الأوائل ، مرة العواقب ٠ فيذهب الى أن صدق هذا القول غير خاف . اذ أن من انغمس فى ميادين اللذات الجسمانية ، وأدرك منها ما أدرك ، ولا سيما اذا كان ذا مال وجمال ، فماذا تكون عاقبته ؟ ان هذه اللذات تنقضى عنه ، وتفارقه حلاوتها اذا تكامل عقله ، ورجح فهمه ، وقوى فكره ، فانه لا يدرى عند ذلك ما يدهمه من المرارات التى منها

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٠٣ — ١٠٥
(٢) راجع : أدب الطلب ، ص ١٥ — ١٦

الندامة على ما اقترفه من معاصى الله ، ثم الحسرة على ما فوته من العمر فى غير طائل ، ثم على ما أنفقه من المال فى غير حله ، ولم يفز بشيء ، ولا ظفر بطائل . وتزداد حسرته ، وتتعاظم كربته اذا قاس نفسه بنفس من اشتغل بطلب المعالى من أترابه ، فى مقتبل شبابه ، فان الموازنة تؤدى الى حسرات متجددة ، وزفرات متصاعدة ، ولا سيما اذا نشأ فى بيت علم (١) .

أهداف التعلم :

تتفاوت مطالب الطلاب ، وتتباين مقاصدهم ، وتختلف بالتالى المستويات العلمية التى يطمحون فى بلوغها . ويقسم الشوكانى الطلاب — وفقا لأغراضهم فى طلب العلم ، وتبعا لأهدافهم من عملية التعلم — الى أربع طبقات :

(١) فالطبقة الأولى من طلاب العلم هم الذين ترتفع همة الطالب منهم ، فيقصد البلوغ الى مرتبة فى الطلب لعلم الشرع ، بحيث يكون عند تحصيلها اماما مرجوعا اليه ، مستفادا منه ، مأخوذا بقوله ، وأن يصبح مدرسا مفتيا مصنفا .

(٢) أما الطبقة الثانية فتقصر همة الطالب منهم عن الغاية السابقة ، وتكون غاية مقصده ، ونهاية رغبته أن يعرف ما طلبه منه الشارع من أحكام التكليف ، على وجه يستقل فيه بنفسه ، ولا يحتاج الى غيره ، من دون أن يتصور البلوغ الى ما تصوره أهل الطبقة الأولى من تعدى فوائد معارفهم الى غيرهم .

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٠٦

(٣) أما الطبقة الثالثة ، فان نهاية ما يريده الطالب منهم ، وغاية ما يطلبه أمرا دون أهل الطبقة الثانية ، وذلك كما يكون من جماعة يرغبون الى اصلاح ألسنتهم ، وتقويم أفهامهم ، بما يقدرون به على فهم معانى ما يحتاجون اليه من الشرع ، وعدم تحريفه وتغييره ، من دون قصد منهم الى الاستقلال ، بل يعزمون على التعويل على السؤال عند عروض التعارض والاحتياج الى الترجيح ·

(٤) أما الطبقة الرابعة فانهم يختلفون تماما عن الطبقات الثلاث السابقة من حيث الهدف من التعلم ، فالطبقات السابقة يستهدفون جميعا دراسة العلوم الشرعية ، وان اختلفوا من حيث المستوى المراد بلوغه ، أما هذه الطبقة الرابعة من الطلبة فانهم يقصدون الوصول الى علم من العلوم أو علمين أو أكثر لغرض من الأغراض الدينية والدنيوية من دون تصور الوصول الى علم الشرع (١) · أى انهم طلاب العلوم غير الشرعية ، كالعلوم الطبيعية والطب والرياضيات ونحو ذلك · وهذا هو المقصود بقول الشوكانى ان طلاب هذه الطبقة يقصدون الوصول الى غرض من الأغراض الدنيوية ، أما أنهم يقصدون أيضا تحقيق غرض دينى فليس فى هذا القول تعارض على ما قد يظن ، فليس ثمة تعارض فى قولنا ان غرض الطبيب دينى ودنيوى ·

ولكن من الواضح أن الترتيب السابق لهذه الطبقات الأربع يمتل أيضا ترتيبا لها من حيث المنزلة لدى الشوكانى · فأهل الطبقة الأولى هم عنده أشرف مكانة من سائر الطبقات ،

---

(١) نفس المصدر ، ص ٩٧ — ٩٨

فان نالوا غرضهم فقد ظفروا من خير العاجلة والآجلة بما لا يظفر به غيرهم ، ان طلاب هذه الطبقة يتوقون الى بلوغ رتبة العلماء ، وهى أرفع من رتب الملوك ، لأن كل المعالى الدنيوية لا تبلغ شرف المعالى العلمية ، اذ يحصل للعالم — أولا وبالذات — الفوز بالنعيم الأخروى الدائم ، ويحصل له — ثانيا وبالعرض — من شرف الدنيا ، ما يصغر عنده كل شرف ، ويعنى الشوكانى بذلك الشرف احترام النفس وتقديرها ، فمن فهم مقدار ما فى العلوم من العلو ، كان عند نفسه اعز قدرا ، وأعلا محلا ، وان كان متضايق المعيشة ، « فاحرص ايها الطالب على أن تكون من أهل الطبقة الأولى » .

والعالم الحق الذى يصل الى أعلى المستويات العلمية — فى نظر الشوكانى — هو من يأخذ دينه عن الله وعن رسوله ، لا يقلد فى ذلك أحدا ، ولا يقتدى بقول رجل ، ولا يقف عند رأى ، ولا يخضع لغير الدليل ، وهذه رتبة تسمو على السماء ، ومنزلة تتقاصر عندها النجوم ، وعلى العاقل أن يعلم أن أعظم ما يريده الله منه ، ويقربه اليه ، ويفوز به عنده ، أن يشغل نفسه ، ويستغرق أوقاته ، فى طلب معرفة الشريعة التى شرعها الله لعباده ، وينفق ساعاته فى تحصيل هذا الأمر . ان المقارنة بين رجل فرغ نفسه للعلم ، وبين رجل استغرق جميع أوقاته فى تحصيل طعامه وشرابه وملبسه ، لتكشف الفرق الكبير بين الرجلين ، وتبين أن الأول حاله أقوم ، وسروره أتم (١) .

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٠٠ — ١٠٣

المناهـج الدراسـية :

قلنا ان أهداف التعلم متفاوتة ، ومقاصد الطلاب متباينة ، وأغراضهـم مختلفة ، ومن ثم فالمـواد العلمية التى قد يناسب تحصيلها فريق من الطلبة ، قد لا تفى بمطالب فريق آخـر • ولما كان طلاب العلم ينقسمون ـ فى نظر الشوكانى ـ الى أربع طبقات ، كان لكل طبقة منهم مجموعة من العلوم ينبغى تعلمها ، لتحقيق الهدف من التعلم •

ولا يكتفى الشوكـانى بتحـديد أسامى العلوم اللازمـة لطلاب كل طبقة فقط ، بـل يقترح أيضـا بعض الكتب التى تفى فى نظـره ، بتحقيـق الأهـداف التعليميـة الأسـاسية الأربعة وقد راعى فى اختياره لهذه الكتب أن تكون متوفرة فى اليمن ، حتى تكـون فى متناول أيدى طـلاب العلم من أبنـاء وطنه • أما بالنسبة لطلاب العلم خارج وطنه فيترك أمر تحديد قوائم الكتب اللازمة لهم لأساتذتهم ، لأنهم أعلم بالكتب المتوفرة فى أوطانهم ، والتى تحقق نفس الأهداف التعليمية • فيقـول عن الكتب التى يذكر عناوينها « واعلم أن ما أسميه هنا انما هو باعتبـار ما يشتغل به الناس فى الديار اليمنية • فمن كان فى غيرها ، فليأخذ عن شيوخها ـ فى كل فـن ـ مقدارا يوافق مـا أذكره هنا » (١) •

متطلبات الطبقـة الأولى :

عرفنا أن هذه الطبقة هى أرفـع الطبقات مكانة ، انهـم علماء الغـد فى مسائل الشريعة الاسلامية ، وينبغى لمن يروم

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٠٨

الوصول الى هذا المستوى العلمى الرفيع ، أن يقوم بتحصيل العلوم الآتية :

(١) علم النحو :

وهو العلم الذى ينبغى للطالب أن يشرع به ، مبتدئا بالمختصرات ، كمنظومة الحريرى (ت · سنة ٥١٦) المسماة بالملحة (ملحة الاعراب) وشروحها ، فاذا فهم ذلك وأتقنه انتقل الى « كافية » ابن الحاجب (ت · سنة ٦٤٦) وشروحها ، ومغنى اللبيب ، وهو من الكتب الكبيرة فى النحو من تأليف عبد الله بن يوسف بن هشام (ت · سنة ٧٦٢) ، وكذلك الألفية لابن مالك ، وكتب الزمخشرى وسيبويه وغيرها من الكتب التى يذكر الشوكانى أن طالب العلم فى الديار اليمنية يجد شراحا لها ، بينما لا يجد لغيرها من مصنفات النحو شيوخا يشرحونها ، ومن ثم فالطالب فى اليمن لا يستطيع دراسة هذه المصنفات الا باعتبار الوجادة (أى التحصيل الذاتى) لا باعتبار السماع · أما اذا كان طالب العلم ناشئا فى أرض يشتغلون فيها بغير هذه المصنفات التى ذكرها الشوكانى ، فعليه الاشتغال بما اشتغل به مشائخ تلك الأرض ، متبعا نفس القاعدة ، أى مبتدئا بما هو أقربها تناولا ، منتهيا الى ما هو النهاية للمشتغلين بذلك الفن (١) ·

(٢) علم المنطق :

وينبغى للطالب — فى هذه الفئة الأولى — أن يطلع على

(١) نفس المصدر ، ص ١٠٧ — ١٠٨

مختصرات المنطق ، ويأخذه عن شيوخه ، ويفهم معانيه ، بعد أن يفهم النحو ، ليستعين بذلك على فهم ما يورده المصنفون فى مطولات كتب النحو ومتوسطاتها من المباحث النحوية ٠

يوصى الشوكانى اذن بدراسة علم المنطق من حيث أنه يفيد فى دراسة النحو ، والصلة بين المنطق والنحو كانت موضع بحث عميق منذ القرن الرابع الهجرى ، كما يتضح ذلك من قراءة كتاب المقابسات لأبى حيان التوحيدى ٠ ولما كانت دراسة المنطق لا تطلب لذاتها فى راى الشوكانى ، فلا حاجة اذن لأن يطلع الطالب على أمهات الكتب المنطقية ، ويكفيه فى ذلك المختصر المعروف بايساغوجى (من تأليف فورفوريوس الصورى) أو كتاب تهذيب المنطق والكلام من تاليف سعد الدين التفتازانى (ت ٠ سنة ٧٩٢) أو الشمسية (من تاليف نجم الدين القزوينى ت ٠سنة ٦٧٥) ، ثم ياخذ فى سماع شروح مثل هذه الكتب على أهل هذا الفن ٠

والمراد من دراسة المنطق الاستعانة بمعرفة مباحث التصورات والتصديقات اجمالا ، لئلا يعثر على الطالب بحث من مباحث العربية من نحو او صرف أو بيان ٠ وقد سلك فيه صاحب الكتاب مسلكا على النمط الذى سلكه أهل المنطق فلا يفهمه ، كما يقع كثيرا فى الحدود والالزامات فان أهل العربية يتكلمون فى ذلك بكلام المناطقة ، فاذا كان الطالب عاطلا عن علم المنطق بالمرة ، لم يفهم تلك المباحث كما ينبغى ، اذن يستفيد الطالب بدراسة المنطق مزيد ادراك ، وكمال استعداد عند ورود الحجج العقلية عليه ، وأقل الأحوال أن يكون على بصيرة عند وقوفه على المباحث التى يوردها المؤلفون فى علوم

الاجتهاد من المباحث المنطقية (١) ٠ وهكذا نجد الشوكانى فى دعوته لتعلم علم المنطق أقرب الى موقف أبى حامد الغزالى ، وأبعد ما يكون عن الموقف السلفى الذى يعد المنطق الأرسطو طاليسى علما دخيلا على الفكر الاسلامى ، كما يتضح ذلك فى فتاوى ابن الصلاح وفى كتاب الرد على المنطقيين لابن تيمية ٠

(٣) علم الصرف :

بعد أن يتقدم الطالب فى دراسة علم النحو وما يستلزمه من دراسات منطقية مختصرة ، عليه أن يشرع فى الاشتغال بعلم الصرف ٠ ويقترح الشوكانى طائفة من المؤلفات فى هذا الصدد ، مثل الشافية لابن مالك (ت ٠ سنة ٦٧٢) وشروحها كشرح الرضى (ت ٠ سنة ٦٨٦) وشرح الجاربردى (ت ٠ سنة ٧٤٦) وغير ذلك (٢) ٠

(٤) علم المعانى والبيان :

ينبغى للطالب بعد ثبوت الملكة له نحوا وصرفا ـ وان لم يكن قد فرغ من سماع كتب الفنين ـ أن يشرع فى علم المعانى والبيان ، وينبغى له حال الاشتغال بهذا الفن أن يشتغل بكتب قريبة المأخذ ، قليلة المباحث ، فيبتدىء بحفظ مختصر من مختصرات الفن ، يشتمل على أهم مسائله ثم يتطرق بعد ذلك الى دراسة الكتب المتعمقة ، مثل مؤلفات عبد القادر الجرجانى (ت ٠ سنة ٤٧١ ٠ ومن كتبه أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز)

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٠٩ ، ص ١١٢
(٢) نفس المصدر ص ١٠٩

ويوسف بن محمد السكاكى (ت ٠ سنة ٦٢٦ صاحب كتاب مفتاح العلوم فى البلاغة) ٠

ويلاحظ الشوكانى التطور الذى لحق هذا الفن فى عصره ، وأن مسائله قد تشعبت فى الأزمنة الأخيرة ، ويحكى عن وصول رجل من الأكراد الى اليمن ، ومعه رسالة فى علم المناظرة يذكر أنها لبعض علماء الهند ، ولم يعرف اسم مؤلفها ، وفيها من الفوائد والشروح والتفاصيل ما لا يوجد فى غيرها ، وقد نقلها الناس عنه ، واشتهرت بين علماء صنعاء ، ولا يستغنى طالب هذا الفن عن امعان النظر فيها ، ويذكر الشوكانى أنه قد اشتغل بهذه الرسالة ، وقام بتحقيقها وشرحها ، بعد أن لاحظ قصورا فى فهم ذلك الرجل الكردى ، على الرغم من مكانته العلمية العالية (١) ٠

(٥) علم أصول الفقه :

يجب على الطالب بعد ذلك أن يشتغل بفن أصول الفقه ، بعد أن يحفظ مختصرا من مختصراته المشتملة على مهمات مسائله كمختصر المنتهى لابن الحاجب أو جمع الجوامع لتاج الدين السبكى (ت ٠ سنة ٧٧١) أو الغاية للحسين بن القاسم ابن محمد (ت ٠ سنة ١٠٥٠) ، ثم يشتغل بسماع شروح هذه المختصرات ٠

ولما كان الشوكانى بصدد الحديث عن اعداد العلماء المتخصصين فى علوم الدين ، فان الأمر يستلزم تعمق الطلاب

(١) نفس المصدر ، ص ١١٠ — ١١٢

فى دراسة علم أصول الفقه ، والعناية به أكثر من علوم اللغة والمنطق ، ولذلك يذهب الى أن الطالب ينبغى له أن يطول الباع فى هذا الفن ، ويطلع على مؤلفات أهل المذاهب المختلفة (١) . ومن المعلوم أن علم أصول الفقه بمثابة المنطق للفقهاء ، أى الأداة التى يستخرجون بها أحكامهم الفقهية .

(٦) علم الكلام :

ثم ينبغى للطالب بعد اتقان فن أصول الفقه — وان لم يكن قد فرغ من سماع مطولاته — أن يشتغل بفن الكلام ، المسمى بأصول الدين ، ويأخذ من مؤلفات الأشعرية بنصيب ، ومن مؤلفات المعتزلة بنصيب ، ومن مؤلفات الماتريدية بنصيب ، ومن مؤلفات المتوسطين بين هذه الفرق كالزيدية بنصيب . فانه اذا فعل كل هذا عرف الاعتقادات كما ينبغى ، وأنصف كل فرقة بالترجيح أو التجريح ، على بصيرة ، وقابل كل قول بالقبول أو الرد ، على الحقيقة . ثم يذكر الشوكانى أمثلة للكتب التى يعدها من أهم مؤلفات هذه الفرق الكلامية .

وعلى الرغم من كراهية الشوكانى الشخصية لعلم الكلام ، وزعمه أن أدلة المتكلمين لا تستند الى العقل ، وانما هى حديث خرافة ، أو خزعبلات ، وعلى الرغم من ادعاء الشوكانى أن اشتغاله بعلم الكلام لم يزدد به الا حيرة ، الا أنه مع ذلك يدعو طلاب العلم الى خوض غمار هذا العلم ، ويحذرهم من الاعراض عنه تقليدا لمن ذمه من العلماء من أمثال الشوكانى نفسه . وفى فقرة رائعة ، تعبر عن عقلية متفتحة ، يقول الشوكانى :

---

(١) نفس المصدر ، ص ١١٢ — ١١٣

« واياك أن يشنيك عن الاشتغال بهذا الفن ما تسمعه من كلمات بعض أهل العلـم فى التنفير منه ، والتزهـد فيه ، والتقليـل لفائدته ، فانك ان عملت على ذلك ، وقبلت ما يقال فى الفن قبل معرفته ، كنت مقلدا فيما لا تدرى ما هو · وذلك لا يليق بما تطلبه من المرتبة العلية ، والكون فى الطبقة الأولية ، بل اعرفه حق معرفته ، وآنت بعد ذلك مفوض فيما تقوله من مدح أو قدح ، فانه لا يقال لك حينئذ : آنت تمدح ما لاتعـرفه ، أو تقدح فيما لا تدرى ماهو » ·

على أن هذا العلم الـذى كرهه الشوكانى ، لا يخلـو فى نظره من فوائد ، فهو يتعلق به زيادة بصيرة فى علوم أخـرى ، كعلم التفسير ، وعلم تفسير الحديث ، فان فى مباحث المفسرين من التدقيقات الراجعة الى علم الكلام ، ما لا يفهمها حق الفهم الا من عرف هذا الفن ، واطلع على مذاهب المعتزلة والأشعرية وسائر الفرق (١) ·

(٧) علم التفسـير :

بعد احراز هـذه العلوم ، على الطـالب أن يشتغل بعلـم التفسير ، فيأخذ عن الشيوخ ما يحتاج مثله الى الأخـذ ، ويكب على كتب التفسير على اختـلاف أنواعها ، وتباين مقاديرهـا ، ويعتمد فى تفسير كلام الله ما ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسـلم ، فما وجده مـن تفاسير الرسـول فى الكتب المعتبـرة كالأمهات ، يتعين عليه الأخذ به ، ولا يحل له مخالفته ، وأجمع مؤلف فى ذلك ، وأنفعه ، وأكثره فائدة ، هو فى نظر الشوكانى الدر المنثور لجلال الدين السيوطى (ت · سنة ٩١١) ·

---

(١) نفس المصدر ص ١١٣ — ١١٦

ويدعو الشوكانى أيضـا الى الاعتماد على التفاسـير التى وردت عن الصحابة ، لأنهم ـ مع كونهم أعلم بمقاصد الشارع ـ فهم أيضا من أهل اللسان العربى . ولكن الشوكانى يشترط عند الأخذ بما ورد عن الصحابة ألا يكون مخالفا لما يعلم من لغة العرب ، ولم تكن تلك المخالفة لأجل معنى شرعى . فـان كانت لمعنى شرعى ، فقـد تقرر أن الحقائـق الشرعية مقـدمة على اللغوية . وأغلب الظن ان كراهية الشوكانى للتأويل المسرف للآيات القرآنية ، يرجع الى الشناعات التى روجتهـا الرافضة والباطنية فى عصره .

وينبغى للطالب أن يطول الباع فى علم التفسير ، ويطالع مطولات التفاسير ، فـان المعانى المأخوذة من كتـاب الله كثيرة العدد ، يستخرج منها كل عالم بحسب استعداده ، وقدر ملكته فى العلوم ، ولا يغتر بما يزعمه بعض أهل العلم من أنـه يكفى الاطلاع على تفسير آيات مخصوصة (١) ، فان القرآن جميعه ـ حتى قصصه وأمثـاله ـ لا يخلو من فوائـد متعلقة بالأحكـام الشرعية ، ولطائف لا يأتى الحصر عليها .

ان النظرة الشمولية التى يتسم بها الشوكانى تقتضى عدم الاكتفاء بتفسير بعض آيات القـرآن الكريم ، لذلـك ينصح الطالب بدراسة القـرآن كله ، بجميع آياتـه ، ويطالع كتـب التفسير المختلفة . ولكى تتحقـق هذه الغاية على أكمـل وجه ، ينبغى أن يقدم الطالب على قراءة التفاسير الاطلاع على علـوم

---

(١) مثل تفسير نور الدين الموزعى (ت . سنة ٨٢٥) لآيات الأحكام المسمى « تيسير البيان فى أحكام القرآن » وتفسير يوسف بن احمد بن عثمان (ت . سنة ٨٣٢) صاحب كتاب الثمرات . ويعتمد أهل اليمن على مثل هذه التفاسير .

الأداء والتلاوة والقراءات وسائر العلوم المتعلقة بالكتاب العزيز (٢) ٠

(٨) علم السنة :

ينبغى لمن أراد أن يكون من أهل الطبقة الأولى ، أن يدرس أيضا علم السنة المطهرة ، فانه أعظم العلوم فائدة ، وأكثرها نفعا ، وأوسعها قدرا ، وأجلها خطرا ، لأنه الذى تكفل ببيان الكتاب العزيز ، ثم استقل بما لا ينحصر من الأحكام ، ولذلك ينبغى لطالب العلم ـ بعد أن يقيم لسانه بما يحتاج اليه من النحو ـ أن يقبل على سماع الكتب التى جمع فيها أهل العلم متون الأحاديث مقطوعة الأسانيد مثل جامع الاصول لابن الاثير (ت ٠ سنة ٦٠٦) ومشارق الأنوار النبوية تأليف رضى الدين ابن محمد الصنعانى (ت ٠ سنة ٦٥٠) ومنتقى الأخبار لابن تيمية (الجد) وغيرها ، ثم يسمع الكتب التى فيها الأسانيد كالأمهات الست ، ومسند احمد ، وغير تلك من الكتب التى يستطيع الطالب أن يطلع عليها ، وكذلك عليه أن يجتهد بحسب ما يمكنه فى سماع شيوخ هذا العلم من أهل عصره ٠

ولكن هل هناك وقت معين يحدده الشوكانى للاشتغال بعلم السنة ؟ الواقع أنه لا يحدد لذلك وقتا معينا ، وانما يذهب الى أن الاشتغال بهذا العلم الجليل ينبغى أن يكون مصاحبا لاشتغال الطالب بجميع العلوم ـ ما تقدم ذكره وما تأخر ـ من البداية الى النهاية ٠

---

(٢) ادب الطلب ، ص ١١٦ ـ ١١٧

فاذا قضى وطره من سماع كتب المتن والاسـناد ، اشتغل بشروح هذه المؤلفات ، فيسمع منها ما تيسر له سماعه ، ويطالع ما لم يتيسر له سماعه ، ويستكثر من النظر فى المؤلفات فى علم الجرح والتعديل ، بل يتوسع فى هذا العلم ، الذى هو أصل علم الحديث ، وبه يعرف قدر الرجال والرواة . ويقدم الشوكانى قائمة ببعض المؤلفات فى هذا المجـال ، ويوصى بألا يستغنى الطالب عن المطولات بالمختصرات ، لاسيما اذا بالغ مؤلفوها فى الاختصـار (١) .

(٩) علـم التاريخ :

وينبغى للطـالب أن يشتغل بمطـالعة الكتب المصنفة فى تاريخ الدول وحوادث العالم فى كل سنة ، كما فعله الطبـرى (ت . سـنة ٣٦٠) فى تاريخه ، وابن الأثير (ت . سنة ٦٣٠) فى كامله ، وكما فعله كثير من المؤرخين على اختلاف مسالكهم ، سواء أكان ذلك فى تخصيص التصنيف بدولـة من الدول ، أو طائفة من طوائف أهل العلم والأدب ، أو فرقة من الفرق ، فان الاطلاع على ذلك فائدة جليلة ، لا يعرفها الا من عرف أحـوال العالم ، وأتقن أهل كل عصـر منهم ، وعلم بأوقـات موالدهم ووفياتهم (٢) .

(١٠) علـم الفقه :

يجب التفرقة بين علم أصول الفقه الذى أشرنا اليه ، وقلنا انه بمثابة المنطق لأهل الفقه ، ومن ثم يعتبر علمـا فلسفيا ،

---

(١) نفس المصدر ، ص ١١٨ — ١٢٠
(٢) نفس المصدر ، ص ١٢٠

وبين علم الفقه الذى يتضمن الأحكام الفقهية ، والـذى يدعو الشوكانى الى الاطـلاع عليه ، لكى يتم للطالب الظفـر ببلوغ الغاية ، وأقل الأحوال أن يعرف مختصرا فى فقه كل مذهب من المذاهب المشهورة ، فلا يقتصر على معرفة مذهب واحد بعينه ، والا وقع الطالب فيما لا يكف الشوكـانى عن التحـذير منه ، أعنى النظرة المذهبية التى تنجم عن التعصب وضيق الأفق • ان معرفة المذاهب الفقهية أمـر قد يحتاجه العالم المجتهـد لافادة المتمذهبين السائلين عن مذاهب أئمتهم ، وقد يحتاجه لدفع من يشنع عليه فى اجتهاده ، كما يقع ذلك كثيرا من أهل التعصب والتقصـير •

وما أنفع الاطلاع على المؤلفات البسيطة فى حكاية مذاهب السلف وأهل المذاهب ، وأدلتهم ، وما دار بين المتناظرين منهم ، فان المجتهد يزداد بذلك علما على علمه ، وبصيرة على بصيرته ، وقوة فى الاستدلال على قوته • على الطالب أن يطلع على كتـب الفقه ، ولا سيمـا مؤلفات أهل الانصـاف الذين لا يتعصبون لمذهب من المذاهـب ، ولا يقصدون الا تقرير الحـق ، وتبين الصواب (١) •

(١١) الشـعر :

ومما يزيد من أراد هذه الطبقة العلية علوا ، ويفيده قوة ادراك ، وصحة فهم ، وسيلان ذهن ، الاطلاع على أشعار فحول الشعراء ومجيديهـم ، والمشهورين منهـم باستخراج لطائـف المعـانى ، ان من يطلـع على هذه الأشـعار يحصـل له بذلـك

(١) نفس المصدر ، ص ١٢٠ — ١٢٢

الاقتدار على النظم الذى قد يحتاج اليه العالم لجـواب ما يرد عليه من الأسئلة المنظومة ، أو المطارحات الواردة اليه من أهل العلم ، وربما يستدعى الأمر أن ينظم فى فن من الفنون ، ان من بلغ المنزلة الرفيعة من العلم ، اذا كان لا يقتدر على النظم كـان ذلك خدشة فى وجه محاسنه ، ونقصا فى كمـاله ٠

لقد سبـق أن عرفنا أن الشوكـانى نفسه كان شاعـرا ، وكان يرد بالشعر على الأسئلة المنظومة التى كانت ترد عليه ، ويرى أن العلماء فى حاجة الى الاستكثار من النظر فى بلاغات أهل الانشاء ، المشهورين بالاجادة والاحسـان ، المتصرفين فى رسالاتهم وحكايـاتهم بأفصح لسـان ، وأبين بيـان ، ومن ثم فالطالب ينتفع بالشعر اذا احتـاج الى الانشاء أو جاوب صديقا أو كاتب حبيبا ، لأنه ينبغى أن يكون كلامه على قدر علمه ، وهو اذا لم يمارس جيد النظم والنثر كان كلامه ساقطـا من وجهة نظر أهل البلاغة ٠ والعلم شجرة ثمرتها الألفاظ ، وما أقبـح بالعالم المتجر فى كل فن ، أن يتـلاعب به فى النظم والنثر من لا يجاريه فى علم من علومه ٠

وعلى الطالب أن يستعين على بلوغ ذلك بدراسة العلـوم المتعلقة بالشـعر مثل علـم العروض والقـوافى ٠ ويقتـرح الشوكانى بعض المؤلفات فى هذا الميدان ، مثل منظومة الأديب اليمنى احمد بن محمد الجزاز (ت ٠ سنة ٩٤٣) وشروحها ، وغيرها من المؤلفات المدونة لذلك (١) ٠

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٢٢ — ١٢٣

(١٢) العلـوم غير الشرعية :

هل يجب على الطالب الذى يعد نفسه لأن يكون أحد علماء الدين المبرزين ، أن يقتصر فى دراسته على العلوم الشـرعية واللغوية التى أتينـا على ذكرها ؟ أفلا يعـد اقباله على علـوم أجنبية أمرا يتنافى مع العقيدة ، أو يتعارض مع الشريعة على نحو ما يروج العلماء ذوو الأفق الضيق ؟ يرفض الشوكانى هذه الدعاوى الباطلة ، ويعلـن أنه لا بأس على من رسخ قدمـه فى العلوم الشرعية أن يأخذ بطرف من فنون هى من أعظم ما يصقل الأفكار ، ويصفى القرائح ، ويزيد القلب سرورا ،والنفس انشراحا ، كالعلـم الرياضى والطبيعى والهندسـة والهيئـة والطـب • وبالجملة فالعلم لكل فـن خير من الجهـل به بكثير ، ولا سيما من رشح نفسه للطبقة العلية والمنزلة الرفيعة •

وهكذا يفتح الشوكانى باب العلم على مصراعيه ، ويمنح الطالب الحـرية التامة فى اختيـار العلوم التى تسـتهويه ، ويشجعه على أن يقبل على دراستهـا ، دون تردد أو خـوف على عقيدته من الاضطراب ، ودون تأثر بما يسمعه من التشنيعات ، فليس يخشى على من قد ثبت قدمه فى علم الشـرع من شىء ، وانمـا يخشى على من كان غير ثابت القـدم فى علوم الكتـاب والسنة ، فانـه ربما يتزلزل ، وتحـول ثقته • « فاذا قدمـت العلم ، بما قدمنا لك من العلوم الشرعية ، فاشتغل بما شئت ، واستكثر من الفنون ما أردت ، وتبحر فى الدقائق ما استطعت »•

ويتعجـب الشوكانى من رجـل يدعى الانصاف والمحبـة للعلم ، ويجرى على لسانه الطعن فى علم من العلوم ، لا يدرى به ، ولا يعرفه ، ولا يعرف موضوعه ، ولا غايته ، ولا فائدته ،

ولا يتصـــوره بوجه من الوجــوه · فما أحــق من كان هكــذا بالسكوت ، والاعتراف بالقصور ، والتمسك فى الجواب — اذا سئل عن ذلك — بقــوله : لا أدرى — أما اذا أراد أن يتكلــم عن أحد العلوم ، ســواء بالمدح أو بالقــدح ، فلا ينبغى أن يكــون متكلما بالجهل ، وعائبا لمــا لا يفهمه ، بل يقدم بين يدى ذلــك الاشتغال بذلك الفن ، حتى يعرفه حق المعرفة (١) ، ثم يقــول بعد ذلك ما يشاء ·

ولكن ما الذى يحدث لو عاب أحد علماء الشريعة فنا دون معرفته ؟ ان المشتغلين بهذا الفن لا يعدونه من أهل العلم ، وان كان بالمحل العالى من علوم الشرع ، كما أنهم لا يبالون بمقاله ، ويوردون عليه ما لا يدرى ما هو ، ويسخرون منه ، فيكون فى ذلك من المهانة على علماء الشريعة ما لا يقادر قــدره · أما اذا كان عالم الشريعة عالما بذلك الفن ، فانه يجرى معهم فى فنهم ، فيكبر فى عيونهم ، ثم يبين لهم بطلان ما يعتقدونه بمسلك من المسالك التى يعرفونها ، فان ذلك لا يصعب على مثله ، ويوضح لهم أدلة الشرع ، فيقبلون منه أحسن قبول · وأما العالم الذى لا يعرف ما يقولون ، فغاية ما يجرى بينه وبينهم خصام وسباب ومشاتمة · هو يرميهم بالاشتغال بالعلوم الكفــرية ولا يدرى ما هى تلك العلــوم ، وهم يرمــونه بالبلادة ، وعــدم الفهم ، والجهل بعلم العقل ، ولا يدرون ما لديه من علم الشرع (٢) ·

هكذا يكون اعداد العالم المجتهد — فى تصور الشوكانى —

---

(١) يتفق الشوكانى هنا مع الغزالى الذى قال : « لايقف على فساد نوع من العلوم من لايقف على منتهى ذلك العلم » (المنقذ من الضلال ، ص ١٣٨)

(٢) ادب الطلب ، ص ١٢٣ — ١٢٥

انه المفكر ذو الروح النقدية ، الذى لا يتسرع فى الحكم على العلماء ، ولا يبالغ فى تقديرهم أو الطعن عليهم ، وانما هو الذى يقوم بفحص أعمالهم فحصا منصفا ، ومن حق الانصاف أن لا يحسن الظن أو يسيئه بفرد من أفراد أهل العلم على وجه يوجب قبول ما جاء به أو رده ، من غير اهمال فكر ، وامعان نظر ، وكشف وبحث ، فان هذا شأن المقلدين ، وصنيع المتعصبين ، وليس هذا من سمات العلماء المجتهدين • والمجتهد هو الذى لا يغتر بالكثرة ، فيتبع رأى الأغلبية مع اهمال تفكيره الخاص ، والغاء عقله تماما • فمن وجد نفسه تنازعه الى الدخول فى قول الأكثرين ، والخروج عن قول الأقلين ، لا لأمر سوى ذلك ، فليعلم أنه قد بقى فيه عرق من عروق العصبية ، وشعبة من شعب التقليد ، وأنه لم يوف الاجتهاد حقه •

ان « المجتهد هو الذى لا ينظر الى من قال ، بل الى ما قال » ، أى انه لا ينبهر بشخصية من يستمع اليه ، أو يقرأ له ، فيفقد القدرة على تمييز أو فحص ما يطرح عليه ، وانما المجتهد هو من لا تشغله شخصية العالم عن تأمل كلامه بعمق وروية ، ولا تنازعه نفسه الى متابعة من له جلالة قدر ، ونباهة ذكر ، وسعة دائرة علم ، دون امعان نظر فيما يقوله •

ان المجتهد ، الطالب للحق ، هو الذى ينتفع بمؤلفات أهل الانصاف ، الذين لا يعرفون التعصب ، اذ ينظر فيما قد حرره أصحابها من الأدلة ، ويعمل فكره فى ذلك ، فيأخذ ما يرتضيه ،

ويزيد عليه ، ما بلغت اليه قدرته ، ووصلت اليه ملكته (١) .
هكذا كان الشوكانى ينظر الى العلم نظرة ديناميكية ، يرى أن العلم استمرار للفكر البشرى لا ينقطع ، وأن ما يسهم به العالم _ مهما كانت قيمته _ ليس الا حلقة من سلسلة متصلة الحلقات ، أو لبنة تضاف الى صرح العلم ليزداد شموخا وعلوا ، وأن المطلوب فى طلاب اليوم وعلماء الغد ليس مجرد استيعاب ما ورثوه من علوم أساتذتهم فحسب ، انما يتعين عليهم أيضا أن يضيفوا ويزيدوا ، لأن العلم ينمو بتراكم اسهامات العلماء جيلا بعد جيل .

متطلبات الطبقة الثانية :

بعد أن يفرغ الشوكانى من الحديث عن المتطلبات الدراسية للمستوى الرفيع ، وما ينبغى لأهل الطبقة الأولى تحصيله من العلوم المختلفة ، يتكلم عن متطلبات المستوى الثانى وما ينبغى تحصيله لأهل الطبقة الثانية ، وهى طبقة من يريد ان يعرف ما يطلبه منه الشارع ، على وجه يستقل فيه بنفسه ، ولا يحتاج الى غيره ، من دون أن يتصور البلوغ الى مستوى أهل الطبقة الأولى الذين يهدفون الى تعدى فوائد معارفهم الى غيرهم ، ولا يتطلع أهل الطبقة الثانية الى القيام بمهمة أكابر الأئمة المرجوع اليهم ، كما يتصوره أهل الطبقة الأولى .

ان الطالب الذى يعد نفسه لأن يكون من أهل هذه الطبقة الثانية ، عليه أن يكتفى بالأخذ من كل فن من فنون الاجتهاد بنصيب ، يعلم به ذلك الفن علما يستغنى به عن الحاجة اليه ،

(١) نفس المصدر ، ص ١٢٢

أو يهتدى به الى المكان الذى فيه ذلك البحث ، على وجه يفهم به ما يقف عليه منه ، وبلوغ هذا المستوى العلمى يقتضى أن يتضمن برنامج الدراسة ما يلى :

(١) علوم اللغـة :

يشرع الطالب بتعلم علم النحو ، حتى تثبت له فيه ملكة ، يقتدر بها على معرفة أحوال آواخر الكلم اعرابا وبناء ، وأقل ما يحصل له ذلك بحفظ مختصر من المختصـرات المشتملة على مهمات مسائل النحـو ، والمتضمنة لتقرير مباحثـه على الوجه المعتبر ، ثم يحفظ مختصـرا فى الصرف ، ثم يشتغـل بحفظ مختصر من مختصرات علم المعانى والبيان . ويقترح الشوكانى قائمة من الكتب المختصرة التى تفيد الطالب فى دراسة العلوم اللغويـة .

(٢) علم أصول الفقه :

بعد أن يقوم الطالب بدراسة علوم اللغة ، عليه أن يشتغل بحفظ مختصر من مختصرات الأصول الفقهية ، وقراءة شرح من شروحه .

(٣) التفسير :

ثم يشتغل الطالب بعد ذلـك بقراءة تفسير من التفاسـير المختصرة ، مع مراجعة ما يمكنه مراجعته من التفاسير .

(٤) الحـديث :

ثم يشتغل بسماع ما لا بد من سماعه من كتب الحديث ،

وهى الست الأمهات ، فان عجز عن ذلك ، اشتغل بسماع ما هو مشتمل على ما فيها من المتون • ومما يعينه على فهم الحديث ممارسته لعلم اللغة ، وكذلك علم اصطلاح الحديث ، وعلم الجرح والتعديل •

فمن علم بهذه العلوم علما متوسطا (أى بين السطحية والتعمق) صار مجتهدا ، مستغنيا عن غيره ، ممنوعا من العمل بغير الدليل ، وعليه أن يبحث عند كل حادثة يحتاج اليها فى دينه ، عن أقوال أهل العلم ، وكيفية استدلالهم فى تلك الحادثة ، وما قالوه ، وما رد عليهم به ، فانه ينتفع بذلك انتفاعا كاملا (١) •

متطلبات الطبقة الثالثة :

نصل الآن الى أدنى مستويات الدراسة الدينية فى نظر الشوكانى ، اذ يحدثنا عن الحد الأدنى للمعلومات الدينية التى ينبغى أن تتوفر لدى المثقف المسلم • فيعرف أهل الطبقة الثالثة بأنهم الذين يرغبون الى اصلاح ألسنتهم ، وتقويم أفهامهم ، بما يقتدرون به على فهم معانى ما يحتاجون اليه من الشرع ، وعدم تحريفه وتصحيفه وتغيير اعرابه ، من دون قصد منهم الى الاستقلال • أى أنهم لا يرقون الى مستوى الطبقة السابقة ، فلا يستهدفون بتحصيل العلوم الاعتماد على أنفسهم فى فهم دقائق الشريعة ، وانما يعزمون على التعويل على السؤال عند عروض التعارض والاحتياج الى الترجيح •

---

(١) نفس المصدر ص ١٣٦ ـ ١٣٧

ان أهل هذه الطبقة ينبغى لهم تعلم شيئا من علم الاعراب ، حتى يعرف به اعراب أواخر الكلم ، ويكفى الطالب فى مثل ذلك حفظ منظومة الحريرى المسماة الملحة وقراءة شروحها على أهل الفن ، وتدربه فى اعراب ما يطلع عليه من الكلام المنظوم والمنثور · ويسأل عن اعراب ما اشكل عليه حتى تثبت له بمجموع ذلك ملكة يعرف بها أحوال أواخر الكلم اعرابا وبناء ، ولكن الأمر لا يستلزم - أن يعلم الطالب وجوه العلل النحوية ، أى أن الذين يكتفون بهذا المستوى العلمى ، ليسوا فى حاجة الى الغوص فى دقائق المسائل النحوية ·

ويحتاج الطالب المنتمى الى هذه الطبقة الثالثة أيضا الى أن يتعلم ، بعد ذلك ، اصطلاح علم الحديث ، ويكفيه فى ذلك أن يدرس بعض المختصرات فى الحديث ، فاذا أشكل عليه معنى حديث ، نظر فى الشروح أو فى كتب اللغة ، أو لجأ الى سؤال علماء هذا الشأن ، وعليه أن يعمل على ما يرشدونه اليه ، بشرط أن يعمل بالدليل ، ولا يركن الى التقليد ·

ان الشوكانى لا يرتضى بالتقليد أسلوبا حتى لأهل هذه الطبقة الثالثة ·

وعليهم أيضا الاطلاع على أحد التفاسير التى لا تحتاج الى تحقيق وتدقيق ، واذا اشكل على الطالب بحث من المباحث ، أو تعارضت عليه التفاسير ، فالتبس عليه الأمر ، فعليه أن يرجع الى أهل العلم بذلك الفن ، سائلا لهم عن الرواية ، لا عن الرأى (١) ·

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٣٨ — ١٣٩

وهكذا أراد الشوكانى أن يحرر كل « من كان معتقلا فى سجن التقليد ، مكبلا بالقيل والقال ، مكتوفا بآراء الرجال » (١) ·

متطلبات الطبقة الرابعة :

قلنا ان أهل الطبقات الثلاث ، التى أتينا على ذكرها ، هم طلاب العلوم الدينية ، على تفاوت مستوياتهم ، أما الطبقة الرابعة فلا ينشد أهلها العلوم الشرعية ، وانما يستهدفون التخصص فى علم أو أكثر من العلوم الدنيوية ، وهى علوم لا يستهجنها الشوكانى ، بل يشجع الطالبين لها على تعلمها ، فمن يريد أن يكون مدركا لصناعة من الصناعات التى لها تعلق بالعلم ،أو من يريد أن يكون شاعرا أو حاسبا أو غير ذلك ، « فانه ينبغى له أن يتعلم ما يتوصل به الى ذلك المطلب » (٢) · بل قام الشوكانى نفسه بتدريس كثير من هذه العلوم ، وقد أخذ عنه الطلبة علم الحكمة التى منها علم الرياضى والطبيعى والالهى ، وأخذوا عنه أيضا علم الهيئة وعلم المناظر وغير ذلك (٣) ·

ان طلاب هذه الطبقة الرابعة ، لا يجمعهم اذن سوى أنهم لا يطلبون العلوم الشرعية ، ولكنهم فى الحقيقة ينقسمون الى تخصصات شتى ، ويدرسون علوما مختلفة أشد الاختلاف ، مثال ذلك ما يلى :

١ ـ فمن أراد أن يكون شاعرا ، تعلم من علم النحو

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٤٧
(٢) نفس المصدر ، ص ١٤٠
(٣) البدر الطالع : ٢ /٢١٩

والمعانى والبيان ، ما يفهم به مقاصد أهل هذه العلوم ، وعليه أن يستكثر من الاطلاع على علم البديع ، وعلم العروض والقوافى ، ويمارس أشعار العرب فى الجاهلية ، ويحفظ ما يمكنه حفظه منها ، ثم أشعار الطبقة الأولى من شعراء الاسلام ، وكذلك من جاء بعدهم من مشاهير الشعراء ، ثم أشعار المشهورين بالجودة من أهل العصور المتأخرة . ويضرب الشوكانى أمثلة لهؤلاء الشعراء المشهورين الذين يوصى بالاطلاع على أشعارهم ، ونلاحظ أنه يقترح دراسة أشعارهم وفقا للترتيب التاريخى ، ولعله يرى أن هذا المنهج هو أكثر فائدة من الناحية التعليمية .

ويوصى الشوكانى بأن يستعين الطالب على فهم ما استصعب عليه من الأشعار بكتب اللغة ، كما يوصى أيضا بأن يكب على الكتب المشتملة على تراجم أهل الأدب ، والاطلاع على كتب البلاغة (١) .

٢ — ومن أراد أن يكون حاسبا ، اشتغل بعلم الحساب ، ومؤلفاته معروفة (٢) . ولا يذكر لنا الشوكانى أمثلة لهذه المؤلفات ، على غير عادته .

٣ — ومن أراد أن يطلع على علم الفلسفة ، يحتاج الى معرفة العلوم الآتية :

ا — العلم الرياضى ، وهو علم يعرف به أحوال الكم المتصل والمنفصل .

---

(١) ادب الطلب ، ص ١٤٠ — ١٤١

(٢) نفس المصدر ، ص ١٤١

ب — العلـم الطبيعى ، وهو العلم البـاحث عـن أحـوال عالم الكون والفساد

حـ — العلم الالهى ، وهـو العلم الباحث عن أحـوال الموجود بما هو موجود ، مع مـا يتعلق بذلك من أحـوال المبدأ والمعاد ٠

د — علم الهندسة ، وهو العلم الباحث عن مقادير الأشياء كما وكيفا ٠

« فمن جمع هذه العلوم الأربعة ، أعنى الرياضى والطبيعى والالهى والهندسة ، صار فيلسوفا » ٠ ونلاحظ أن الشوكـانى لو وضع الهندسـة فى موضعهـا الصحيح ، كفـرع من فروع الرياضيـات ، لأصبـح بذلـك متفقـا مـع وجهـة النظـر الأرسطوطاليسية فى أقسام الفلسفة النظرية وان كـان أرسطو قد قدم دراسة العلـم الطبيعى على العلم الرياضى ، بخـلاف التصـور الفيثاغـورى الأفلاطونى الـذى يقضى بتقـديم الرياضيات ٠

ولا يحرم الشوكانى دراسة علوم الفلسفة ، بل يـرى أن ثمت أهمية فى تعلمها ، ولكنه يشترط لذلك أن يكون الطالب قد درس العلوم الدينية دراسة كافية ٠ يقول : « والعلم بالعلوم الفلسفية لا ينافى علم الشرع ، بـل يزيد المتشرع الـذى قد رسخت قدمه فى علم الشرع غبطة بعلم الشرع ، ومحبة لـه ، لأنه يعلم أنه لا سبيل للوقوف على ما حاول الفلاسفة الوقوف عليه الا من جهة الشرع ، وأن كل باب غير هذا الباب ، لا ينتهى

بمن دخل اليه الى غاية وفائدة » (١) ٠

٤ _ ومن كان مريدا لعلم الطب ، فعليه بمطالعة كتب جالينوس ، فانها أنفع شيء في هذا الفن ، وكذلك شروحها ، ويوصى الشوكانى أيضا طلاب الطب بدراسة كتاب القانون لابن سينا أو بعض المختصرات كتذكرة داود الأنطاكى (٢) ٠

ومن الواضح أن الشوكانى لم يكن على علم بما أحرزه الطب فى عصره ، أى فى القرن التاسع عشر الميلادى من تقدم كبير فى أوربا ، ولذلك اكتفى بذكر المؤلفات القديمة فى هذا المجال ، ولم يشر أدنى اشارة الى ما حدث من تطور علمى فى ميدان الطب وسائر الميادين العلمية ، مع أن مصر قد شهدت فى ذلك العصر بداية ازدهار علمى فى كثير من المجالات ، ومن أهمها الطب ، ففى عهد محمد على اقيمت مدرسة للطب أسسها كلوت بك ، وقام بالتدريس فيها أساتذة أوربيون ٠

وقد يكون الشوكانى معذورا الى حد ما فى عدم متابعته لتطور علم الطب خارج حدود وطنه ، لأنه كما عرفنا ، لم يغادر صنعاء قط ، ولكن من العجيب أن الشوكانى يشير فى كتابه البدر الطالع الى رجل يقال له محمد بن عابد بن على ٠٠٠ ابن محمد السندى الأنصارى (١١٩٠ _ ١٢٥٧) ويصفه بأنه كانت له يد طولى فى علم الطب ، طلبه الامام المنصور بالله من

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٤١ _ ١٤٢
(٢) نفس المصدر ، ص ١٤٢ _ ١٤٣

الحديـدة ، لاشتهاره بعلم الطـب فيها ، فوصـل الى صنعـاء سـنة ١٢١٣ ، وانتفع جمـاعة من الناس بأدويتـه ، والتقى بالشوكانى ، وقرأ عليه فى بعض العلوم ، ثم عاد الى الحديدة ، ثم تكرر وفـوده الى صنعاء مرة بعد مـرة ، فى أيام الامـام المنصور ، ثم المتوكـل ، ثم المهدى ، وأرسله الامـام الأخير الى مصر ، الى الباشا محمد على بهـدية منها فيل ، وكان ذلـك فى سنة ١٢٣٢ · يقول الشوكانى : « ورجع وأخبرنا باندراس العلـم فى الديـار المصرية ، وأنـه لم يبـق الا التقليـد والتصوف » (١) ·

ويبدو أن هذا الطبيـب اليمنى لم يكـن أمينا فى نقـل ما شاهده فى مصر · كيف لا وهو الذى لم تلفت نظره النهضـة العلمية والطبية المزدهرة فى مصر فى عهد محمد على ؟

---

(١) البدر الطالع : ٢ / ٢٢٧

الفصل الثامن

الكنــدى

رائد الثورة التعليمية فى القرن الثالث

حياته وعصـره :

هو (١) أبو يوسف يعقـوب بن اسحق بن الصبـاح ٠٠٠ الكندى ، من قبيلة كندة ، وينتهى نسبه الى يعـرب بن قحطان ، من جنوب الجزيرة العربية ، أى أنه من أصـل عربى صميم ، لذلك يسميه بعض أصحاب التراجم « فيلسوف العرب » تمييزا له عن معظم فلاسفة الاسـلام الذين ينحـدرون من أصـل غير عربى ، ويلقب أيضا بلقـب « فيلسوف الاسلام » ، لأنـه أول الفـلاسفة ظهـورا فى العالم الاسـلامى ، فلم يكن أحـد من المسلمين قبله اشتهر بمعاناة علـوم الفلسفة ٠

ولا تمدنا المصادر التى تحت أيدينا بمعلومات كافية عن حياة الكنـدى الأولى ، ولا بالظروف التى نشأ فيها ، فلا نجـد فيها تحديدا لتاريخ مولده أو وفاته ، ولذلك اختلف الباحثون

---

(١) راجع : ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٥٧ ، صاعد الاندلسى : طبقات الأمم ، ص ١٢٤ ، ابن جلجل : طبقات الاطباء ، ابن ابى أصيبعة : عيون الأنباء: ١/٢٠٧ — ٢٠٨ ، وكذلك : دى بور : تاريخ الفلسفة فى الاسلام ، ص ، ١٧٧ مصطفى عبد الرزاق : فليسوف العرب والمعلم الثـانى ، ص ١٨ — ٢٠ ، د. أبو ريدة : رسائل الكندى الفلسفية ، المقدمة ، د. الاهوانى : الكندى . ، د. أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفى فى الاسلام ، ص ٣٣٩ ، د. موسى الموسوى : من الكندى الى ابن رشد ، ص ٥١ وما بعدها ، د. جعفر آل ياسين : فيلسوفان رائدان ، ص ١٣ وما بعدها .

فيهما ، فيرجح معظمهم أنه ولد حوالى سنة ١٨٥ ، ويلاحظ الدكتور موسى الموسوى أن ابن خلدون ذكر فى مقدمته أن الكندى كان منجما للرشيد والمأمون ، واذا صحت الرواية ، فينبغى أن تكون ولادته قبل عام ١٨٥ بسنوات كثيرة لأن الرشيد توفى عام ١٩١ ، ولا يمكن أن يكون منجم القصر طفلا صغيرا لم يبلغ السابعة من العمر • أما وفاته فيرجح الشيخ مصطفى عبد الرازق أنها كانت سنة ٢٥٢ ، بينما يذهب بعض المستشرقين مثل ما سينيون وناللينو وهنرى كورين الى أنه توفى سنة ٢٦٠ • ويذكر ياقوت الحموى أن الكندى توفى بعد أن بلغ الثمانين أو جاوزها ولكن الدكتور جعفر آل ياسين يؤكد أن حياته امتدت الى سبع وستين سنة فقط •

ويذكر ان جلجل أن الكندى كان شريف الأصل بصريا ، أى أنه نشأ فى البصرة ، وعاش فيها فى مطلع حياته ، ولكن الأرجح ما يذكره أكثر المترجمين من أنه ولد فى الكوفة حيث كان والده اسحق بن الصباح واليا عليها فى أيام المهدى والرشيد ، ثم انتقل الى البصرة ، حيث تلقى فيها علوم اللغة كالنحو والبلاغة والشعر ، والعلوم الدينية كالفقه وعلم الكلام ، ثم رحل الى عاصمة الحضارة الاسلامية ، فى ذلك الوقت ، أعنى بغداد ، فاشتغل أولا بعلوم الأدب ، ثم اتجه الى تحصيل علوم الفلسفة حتى أتقنها •

وقد عرف المسلمون علوم الفلسفة ، أو علوم الأوائل كما كانوا يسمونها عن طريق ترجمة التراث اليونانى منذ عهد مبكر ، اذ يقول السيوطى : « ان علوم الأوائل دخلت الى المسلمين فى القرن الأول ، لما فتحوا بلاد الأعاجم ، لكنها لم

تكثر فيهم ، ولم تشتهر بينهم » (١) • فالحاصل من هذا أن حركة ترجمة الكتب اليونانية الى العربية قد بدأت فى العصر الأموى ، ولكنها لم تزدهر كثيرا فى ذلك العصر ، وكانت تقتصر فى الغالب على العلوم الطبية والطبيعية ، وبخاصة الكيميا ، وكان الأمير خالد بن يزيد بن معاوية (ت • سنة ٨٥) من أكثر المشجعين لترجمة هذه العلوم •

واذا انتقلنا الى العصر العباسى وجدنا الاهتمام بحركة الترجمة يتزايد شيئا فشيئا ، اذ شرع فى نقل كتب المنطق والرياضيات والفلك والفلسفة الالهية الى العربية ، فضلا عن استمرار حركة ترجمة كتب الطب والطبيعيات ، وكان ذلك بفضل تشجيع الخلفاء العباسيين •

فقد كان الخليفة المنصور يحرص على أن يجعل عاصمته الجديدة بغداد مركزا علميا نشيطا وكان يشجع العلماء على ذلك ، فقد استدعى لعلاجه جبرائيل بن بختيشوع رئيس أطباء جند يسابور ، وأسند اليه مهمة تأسيس مستشفى ومدرسة للطب فى بغداد ، وكلفه بترجمة كتب الطب الى العربية ، وفى عهد المنصور ترجمت أيضا بعض الكتب اليونانية والهندية والفارسية فى العلوم الرياضية والطبيعية والفلسفية ، وكان عبد الله بن المقفع (ت • سنة ١٣٩) من أشهر النقلة فى عهده •

وقد بلغت الترجمة ذروة سنامها فى عهد المأمون (١٩٨ _ ٢١٩) الذى كان أكثر من جده المنصور شغفا بالعلوم العقلية ، فبعث لملوك القسطنطينية الهدايا الثمينة لكى يرسلوا اليه

---

(١) السيوطى : صون المنطق والكلام ، ص ١٢

ما فى خزائنهم من كتب قيمة ، واستخار لها مهرة التراجمة ، وكلفهم احكام ترجمتها (١) ،وأنشأ فى بغداد فى سنة ٢١٥ مدرسة للترجمة ، سميت دار الحكمة ، وألحق بها مرصدا ، كان معهدا لتعليم الفلك ، ووضع على رأس دار الحكمة يوحنا بن ماسويه (ت · سنة ٢٤٣) واشتهر فى القرن الثالث الهجرى كثير من النقلة السريان ، مثل يوحنا بن البطريق (ت · حوالى سنة ٢٠٠) وعبد المسيح بن عبد الله ناعمة الحمصى (ت · حوالى سنة ٢٢٠) وحنين بن اسحق (ت · سنة ٢٦٠) وابنه اسحق بن حنين (ت · سنة ٢٩٨) وثابت بن قرة (ت · حوالى سنة ٢٨٨) وقسطا بن لوقا (ت · حوالى سنة ٣٠٠) ·

وكان فليسوف الاسلام الكندى يعاصر كثيرا من هؤلاء المترجمين النصارى ، ويعمل الى جانبهم تحت رعاية المأمون ، ويذكر بعض المؤرخين (٢) أن الكندى كان أحد حذاق المترجمين ، ويشك بعض الباحثين المعاصرين (٣) فى ذلك ، فاتقان الرجل للغات الأجنبية موضع شك ، ولئن كانت هذه المسألة لم تحسم بعد ، فمن الثابت أن فيلسوفنا كان يصلح بعض ما يترجمه زملاؤه من النقلة النصارى ، ومن أشهر أعماله فى هذا الصدد اصلاح ترجمة عبد المسيح بن عبد الله ناعمةالحمصى لكتاب الربوبية أو أثولوجيا المنحول على أرسطوطاليس (٤) ،

---

(١) صاعد : طبقات الأمم ، ص ٦٥

(٢) صاعد طبقات الأمم ، ص ١٢٤ ، ابن ابى اصيبعة : عيون : ١ / ٢٠٧

(٣) د. ابوريدة : رسائل الكندى الفلسفية ، المقدمة ، ص ٩ ، د. جعفر آل ياسين : فليسوفان رائدان ، ص ٢٣ ،
El - Ehwany : Islamic Philosophy, P. 32

(٤) يلاحظ د. جعفر آل ياسين أن الكندى حين احصى كتب المعلم الاول لميذكر كتاب الربوبية من ضمنها ، وهذا يدعو الى اثارة التساؤل حول الكندى =

فلقد كان معظم النقلة فى عصره من السريان وكانوا يقدمون التراث اليونانى للمسلمين فى صيغ مبهمة ، وعبارات غامضة ، وأسلوب ركيك ، لعدم تمكنهم من اللغـــة العربيـــة أو عدم اهتمامهم بفصاحة اللسان العربى ، فضلا عن تزيدهم فيمـــا ينقلون ،كما أن الترجمة لم تكن فى العادة تتم بطريق مباشر ، بل كان التراث اليونانى ينقل أولا الى السريانية ، ثم من هـذه اللغة الأخيرة الى العربية . ومن أجل هذا تولى فيلسوفنا العربى الأصل مهمة اصلاح الترجمـة ، ومحاولـة تنقيتها مما كـان يشوبها من عور وخلل .

وبالاضافة الى ذلك كان للكندى دور خطير فى تطوير التعليم فى عصره ،ذلك أن الاشتغال بعلوم اليونان المختلفـــة ، حتى عهده ، كان يقتصر على النصارى السريان فى الغالب فلما جاء فيلسوف الاسلام الكندى « كـان أول من تبحر من المسلمين فى الفلسفة وسائر أجزائها من المنطق والطبيعيات والرياضيـات والالهيات ،مع تبحره فى علوم العرب ، وبراعتـه فى الآداب من النحو والشعر ، وكان يعرف الطب والنجوم وأحكامهـــا ، وضروبا من الصناعات والمعارف التى قل أن تجتمع فى انسان واحد » (٢) . لقد ابتدأ عصرا جديـدا ، فكتب فى « الحث على تعلم الفلسفة » (٣) .

ولئن كانت عبقرية الكندى الفلسفية موضع شك من جانب

= وموقفه : ترى هل أدرك خطأ النسبة الى أرسطوطاليس أم كان سهوالم يتعمده؟ (فليسوفان رائدان ، ص ٢٤)

(٢) الشهر زورى : نزهة الأرواح (مخطوط) نقلا عن د. الأهوانى : الكندى ، ص ١١ — ١٢

(٣) وهو عنوان أحد كتبه التى يذكرها له صاحب الفهرست ، ص ٣٥٨

بعض المفكرين ، فان عبقريتــــه فى نظرى تظهر بوضوح فى مجال التعليم ، ولاأحسبنى مغاليـــا ان قلت : ان الكندى كـان رائدا لثورة تعليمية كبرى فى العالم الاسلامى فى القرن الثالث الهجرى ، بل انه يمثل نقطة تحول جوهرى فى مجرى التعليم فى الاسلام ، اذ أنه يشطر تاريخ التعليم الى عصرين : عصر ما قبل الكندى حيث كان المسلمون يقتصرون فى برامجهم التعليمية على العلوم الاسلامية والعــربية ، أعنى بالعلوم الاســلامية دراسة القرآن وعلومه ، والسنة ، والفقه ، وعلم الكلام ، والتصوف السنى ٠٠٠ وأعنى بالعلوم العــربية علوم اللغـة والأدب ٠٠ وعصر ما بعد الكندى حيث اتسع مجال التعليم فاصبح يشتمل أيضا على الثقافة الأجنبيـــة أو « علوم الأوائل » التى لم يكن يجرؤ أحد من المسلمين – قبل الكنـدى – على الخوض فيهـا ، لأن بعض رجال الفقه أقاموا حاجزا نفسيا يحول دون الاقتراب منها ، وأعلنوا أن من يدنس نفسه بشىء منها ، فقـد دخل فى الكفر لامحالة ٠

جاء الكندى فكان أول من اخترق بشجاعـــة هذا الحاجز النفسى ، وقـاوم الحظر الـذى فرض على العلوم الأجنبيـة ، وأقام الجسور بينها وبين العلوم الاســلامية والعربية ، ودعـا الى سياسة الانفتاح فى مجال التعليم ، وكان على رأس المدرسة الفلسفية التى أحدثت تغييرا جوهريـا فى ميدان التربيـــة والتعليم فى العالم الاسلامى بخلاف ما يزعم بعض البــاحثين المحدثين (١) ٠

---

(١) يذهب حسن عبد العال الى ان المدرسة الفلسفية كانت اقل تاثيرا من غيرها فى ميدان التربية والتعليم فى العالم الاسلامى (التربية الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ص ٣٠ وكذلك ص٩٩)وقد اعتمد فى هذاالقول على =

كان الكندى رائد حركة تغيير كبرى فى مجال التعليم ، وطريق الرواد ليس مفروشا فى العادة بالزهور ، وانما تعترضه الأشواك ، وتعوقه المعوقات ، فالدعوة الى تغيير نظام التعليم الذى كان سائدا زمنا طويلا ، انما هو تغيير عادة مألوفة ، وقد أدرك الكندى صعوبة تغيير ما اعتاد عليه الناس من أساليب المعيشة ، وتطوير أنماط الحياة المعتادة ، وبين أن الناس يكرهون بالطبع كل تغير جوهرى فى حياتهم ، فالانسان يكره انتقاله من طور الى طور خلال مراحل حياته المختلفة ، حتى الجنين فانه يكره الخروج من رحم أمه ، الا أن الانسان بعد أن يجتاز عملية الانتقال من طور الى طور ، وهى العملية التى كرهها فى البداية ، يكتشف فيما بعد أنه كان مخطئا فى موقفه السابق ، وآن المرحلة التى انتقل اليها كانت أفضل من سابقتها (٢) ٠

لقد كره الناس دعوة الكندى الى تغيير نظام التعليم ، وقيامه بفتح جميع نوافذ المعرفة ، فتعرض بذلك لهجوم عنيف ، وسوء ظن المتزمتين من معاصريه ، فيحدثنا الكندى نفسه ، فى مرارة واستياء ، عن « ٠٠٠ سوء تأويل كثير من المتسمين بالنظر فى دهرنا ، من أهل الغربة عن الحق ، وان تتوجوا بتيجان الحق من غير استحقاق ، لضيق فطنهم عن

= المرحوم ابرهيم عبد المجيد اللبان فى كتابه : الفلسفة والمجتمع الاسلامى ٠ مكتبة النهضة ، ١٩٥٤ ، ص ١٧٦ . ولم يتنبة الباحث الى انه قد تناقض مع نفسه حين تعرض فى رسالته المذكورة الماجستير الى جهود مسكويه وابن سينا فى مجال التربية والتعليم .

(٢) راجع الكندى : الحيلة لدفع الاحزان . ضمن رسائل نشرها د. بدوى ، ص ٢٨ — ٢٩

أساليب الحق ، وقلة معرفتهم بما يستحق ذوو الجلالة فى الرأى والاجتهاد ··· ذبا عن كراسيهم المزورة التى نصبوها عن غير استحقاق ، بل للترؤس والتجارة بالدين ، وهم عدماء الدين ، لأن من تجر بشىء باعه ، ومن باع شيئا لم يكن له ، فمن تجر بالدين لم يكن له دين ، ويحق ان يتعرى من الدين من عاند قنية علم الأشياء بحقائقها (اى الفلسفة) ، وسماها كفرا » (١)·

هكذا تخلص الكندى من القيود التى كانت تكبل كل من أقدم على تعلم العلوم العقلية وحاول الاشتغال بالعلوم الأجنبية ، وكان له فضل السبق فى اقتحام هذا الميدان الجديد ، مع عدم التنكر للعلوم الدينية التقليدية ، بل حاول مزج هذه العلوم مع العلوم العقلية الفلسفية · يقول البيهقى : « وقد جمع فى بعض تصانيفه بين أصول الشرع ، وأصول المعقولات » (٢) ·

وترك الكندى مصنفات كثيرة (٣) ، وابن النديم هو أقدم من أحصى مؤلفات الكندى ويميل الدكتور جعفر آل ياسين الى أن الكثرة العددية التى أوردها ابن النديم فى الفهرست لمؤلفات الكندى ، وزاد عليها المتأخرون عنه ، ليست فى حقيقتها كتبا أو رسائل مستقلة بذاتها ، بل قد تكون

---

(١) رسالة الكندى فى الفلسفة الأولى — الرسائل : ١ / ١٠٣ — ١٠٤

(٢) البيهقى : تاريخ حكماء الاسلام ، ص ٤١

(٣) انظر : الدكتور الأب رتشرد يوسف مكارثى اليسوعى : التصانيف المنسوبة الى فليسوف العرب . بغداد ، ١٩٦٢ . وقد أبلغ المصنف كتب الكندى المنسوبه اليه ٣٦١ رسالة . راجع د. جعفر آل ياسين ، ص ٢١

فصـولا لموضوعـات مختلفـة ، أو جملا لعلـم واحد ، أخطـأ الناسخـون فى تنسيقهـا (١) . وعلى أية حـال فان عنـاوين مؤلفات الكندى التى يذكرها أصحاب التراجم له تدل على أن الرجل لم يترك مجالا من مجالات الفكر السائـد فى عصـره ، الا وقد اسهم فيه بنصيب .

وتتسـم مؤلفـات الكنـدى التى وصلتنا (٢) بالايجـاز والاختصـار ، ويغلـب على الظن أن فيلسـوف الاسلام كـان يستهدف بهذا الطابع المميز تيسير الثقـافة الأجنبية للراغبين فى تعلمها من طلاب عصـره ، اذ لم يحن بعد الوقـت المناسب للخوض فى تفاصيل النظريـات العلمية والفلسفية بتعمـق ، على نحو ما حدث فيما بعد ، على أيدى الفلاسفة اللاحقين .

كـان تيسير الفكر الأجنبى سمة هامـة من سمات أسلوب الكندى ، وأمرا مألوفا فى كتاباته ، حتى فى أكبـر مصنفاته التى وصلتنـا ، والتى تعالـج أشـد الموضوعـات صعـوبة وغموضا ، أعنى كتابه « فى الفلسفة الأولى » . يقول الكندى : « ... أن نلزم فى كتابنا هذا عادتنـا فى جميع موضوعاتنا ، من احضـار ما قال القدمـاء فى ذلك قـولا تاما ، على أقصـد سبله وأسهلها سلوكا على أبناء هذه السبيل ... مع الانحصار عن الاتساع فى القول المحلل لعقد العويص الملتبسة » (٣) .

ومن أجل هذا الهـدف التعليمى ، أعنى تمهيد الطريـق

---

(١) جعفر آل ياسين : فيلسوفان رائدان ، ص ٢٠ — ٢١

(٢) وقام بتحقيقها الدكتور ابوريدة

(٣) فى الفلسفة الاولى — رسائل الكندى الفلسفة : ١ / ١٠٣

أمام الدارسين لعلوم الأوائل ، عنى فيلسوفنا بشرح المصطلحات العلمية والفلسفية ، شرحا مبسطا موجزا ، وتحت أيدينا رسالته « فى حدود الاشياء ورسومها » (١) ، وهى تحتوى على عدد كبير من التعريفات لمصطلحات العلوم الفلسفية الحديثة العهد ، ولم يسبقه احد فى ذلك ، وانما حذا حذوه المشتغلون بهذه العلوم من بعده ·

اشتغاله بالتعليم :

من الأسئلة التى يتعين علينا أن نحاول الاجابة عنها : هل كان الكندى يمارس مهنة التعليم بالفعل ، أم أنه كان عالما أرستقراطيا يطلع ويؤلف لمجرد العلم وحسب ؟ يشك بعض الباحثين (٢) فى اشتغال الكندى بالتعليم ، ويذهب بعضهم الى أنه « لم يكن يدير آية مدرسة ، وانما كان يعطى دروسا خاصة » (٣) · والواقع أن الكندى لم يكن رئيسا لمدرسة فى بغداد ، بالمعنى المقصود من مدرسة ذات بنيان يتكون من حجرات ، يجرى فيها التعليم بطريقة منتظمة ، فقد كانت تلك المدارس وقفا على النصارى ، وملحقة فى الأغلب بالأديرة ، ولم يكن عصر الكندى يسمح لمسلم باقامة مدرسة على هذا النحو ، وانما استطاع الكندى أن يربى جيلا من التلاميذ ، أصبح أحدهم ، وهو أبو احمد الحسين بن كرنيب رئيسا لمدرسة فى

---

(١) الرسائل : ١ / ١٦٣ — ١٧٩

(٢) مثل د. ابوريدة : رسائل الكندى الفلسفة ، المقدمة ، ص · ز

(٣) ماكس مايرهوف : من الاسكندرية الى بغداد . مقالة فى كتاب التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية ، ترجمة د. عبد الرحمن بدوى ، ص٧١

بغداد (١) ، ومن أشـهر تلامذة ابن كرنيـب أبو بشر متى بن يونس (٢) الذى كان رئيسا للمناطقة فى عصره ، والذى تتلمذ على يديه أبو نصر الفارابى ·

كان تلامذة الكندى كثيرون (٣) ، يقـول عنه ابن نبـاته : « وكثرت فوائده وتلامذته » (٤)·

ومن أشهر تلامذته الى جانب ابن كرنيب المار ذكره : احمد ابن الطيب السرخسى ، وأبو زيد احمد بن سهل البلخى ، وزرنب الذى وضع الكندى رسالة باسمه وسماها « فى أسرار النجوم وتعليم مبادىء الأعمـال » (أوردها ابن أبى اصيبعة) · ومن المعروف أن الكندى كان مؤدبا (أى معلما) لأحمد ابن الخليفة العباسى المعتصم ، الذى كتب له بعض الرسائل ومنها رسالته « فى الفلسفة الأولى » ·

وقد لاحظ الدكتور احمد فؤاد الأهوانى أن معظم رسائـل الكندى الموجودة تحت أيدينا ، لا تفصح عن أسماء التلاميذ الذين كتب اليهم هذه الرسائـل ، ولكـن يمكن لنا أن نستنتـج أن الكندى كان يكتب رسائله فى الغالب ليجيب عن أسئلة وجهها اليه تلامذته ، ففى رسالة « فى مائية ما لا يمكـن أن يكـون لا نهاية لـه » ، يقول الكنـدى : « فهمت ما سـألت ··· وقـد رسمت من ذلك ، بحسب ما رأيته لك كافيا بقدر موضعـك من النظر ··· » ، وفي رسالة « النوم والرؤيا » ، يقول : « وقـد

---

(١) د. الأهوانى : الكندى ، ص ٣١٦
(٢) ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٦٨
(٣) بخلاف ما يذكر د. الأهوانى : الكندى ، ص ٣١٦
(٤) سرح العيون ، ص ١٥٨

رسمت من ذلك بقدر ما ظننته لمثلك كافيا ٠٠٠ » ، ونحو ذلك ٠ ويلوح أن تلاميذه كانوا يختلفون اليه فى داره ، حيث توجد مكتبته « الكندية » الغنية بالمؤلفات (١) ٠

ويستفاد من العبارات السابقة ، التى كان الكندى يخاطب بها تلاميذه ، أنه كان معلما بارعا ، يعرف المستوى العلمى لتلاميذه بدقة ، ويراعى ذلك عند قيامه بشرح المسائل التى يعالجها ، حتى لا يستعصى عليهم فهمها وتحصيلها ٠

ويثبت النقد الداخلى لبعض رسائل الكندى ، أننا بصدد معلم يقوم بتدريس العلوم اليونانية الحديثة العهد لتلاميذه ٠ فقد لاحظ الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده (٢) أن بعض رسائل الكندى فيها تكرار ممل ، فى بسط آراء قليلة ، وقد يكون فيها استطراد الى تفصيل فكرة ، أو اثبات مقدمة ، وقد يكون هذا الاستطراد طويلا ، يباعد بين أجزاء الاستدلال ، ولكن الطريقة التعليمية ، وما تستلزمه من وضع المقدمات واثباتها ، والاستنباط منها ، والسير بالمتعلم على مهل ، مع تذكيره بالمقدمات والأصول بين حين وآخر ــ كل هذا يتحكم فى طريقة عرض الكندى للآراء (٣) ٠

ولعل هذه الطريقة التعليمية لدى الكندى تبرز أيضا ما يلاحظه الدكتور عاطف العراقى من أن الكندى لم يتعمق فى دراسة آراء المخالفين له ، ولم يكلف نفسه عرضها فى موضوعية ،

---

(١) د. الاهوانى : الكندى ،ص ٧٦ ــ ٧٨
(٢) الذى قلنا انه يشك فى اشتغال الكندى بالتدريس
(٣) د٠ أبوريدة : رسائل الكندى الفلسفة ــ المقدمة ، ص ٠ و

ولم يكشف عما فيها من خطأ أو من صواب ، قبل أن يدلى برأى فى المسائل التى يعالجها (١) · ويبدو لنا أن نزعته التعليمية قد أدت بــه الى هذا الاتجـاه ، أعنى عدم الخـوض فى عرض الخلافات الدقيقة بين المفكرين ، لأن ذلـك من شأنه ان يشتت أذهان تلاميذه الذين كانوا لا يزالـون حديثى العهد بدراســة العلوم العقلية اليونانية ·

آراؤه فى التعليم

المعلـم :

حرص الكندى على ابراز أهمية المعلم ، وضرورة احترامه ، وتقدير دوره ،فهو الأساس الأول لعملية التعلم ، ولا ينبغى أن يقتصر احترامنا وتقديرنا للمعلمين المباشرين لنا فحسب ، بل يدعو الكندى الى احترام العلماء على مر العصور ، فهم أساتذة البشرية ، ولهم فضل كبير علينا ، اذ يفيضون علينــا بعلمهم ، وينيرون أمامنا طريق العلم ، فمن الحق ان نقدرهم جميعا دون تعصب ·

حقا ان عملية التعلم تقتضى نشاطا ذاتيا من جانب طالب العلم ، وتستلزم منه مجهــودا كبيرا ، الا ان النشــاط الذاتى ومجهود الطالب مهما عظم لا يكفى وحده ، بل لا بد من معاونة الأساتذة ، والانتفاع بخبراتهم · ولئن جانبهم التوفيق أحيانا ، وخفيت عنهم بعض الحقائق ، فينبغى أن نلتمس لهم العــذر ،

---

(١) د. العراقى : مذاهب فلاسفة المشرق ، ص ٥٩

لأن الطبيعة البشرية تثبت تعذر أن يحيط انسان واحد بالعلم كله ، وانما يسهم كل بدوره فى تقديم العلم ، اذ العلم لا تنمو الا بتراكم المعلومات وتضافر الجهود ·

يؤكد الكندى هذه المعانى فى رسالته فى الفلسفة الأولى ، حيث يقول : « ومن أوجب الحق ألا نذم من كان أحد أسباب منافعنا الصغار الهزلية ، فكيف بالذين هم أكبر أسباب منافعنا العظام الحقيقية الجدية ؟ فانهم — وان قصروا عن بعض الحق — فقد كانوا لنا أنسابا وشركاء فيما أفادونا من ثمار فكرهم ، التى صارت لنا سبلا وآلات مؤدية الى علم كثير مما قصروا عن نيل حقيقته ، ولا سيما اذ هو بين عندنا ، وعند المبرزين من المتفلسفين قبلنا ، من غير أهل لساننا ، أنه لم ينل الحق — بما يستأهل الحق — أحد من الناس الا بجهد طلبه ، ولا أحاط به جميعهم ، بل كل واحد منهم ، اما لم ينل منه شيئا ، واما نال منه شيئا يسيرا ، بالاضافة الى ما يستأهل الحق · فاذا جمع يسير ما نال كل واحد من النائلين الحق منهم ، اجتمع من ذلك شىء له قدر جليل ·

فينبغى أن يعظم شكرنا للآتين بيسير الحق ، فضلا عمن أتى بكثير من الحق ، اذ أشركونا فى ثمار فكرهم ، وسهلوا لنا المطالب الحقية الخفية ، بما أفادونا من المقدمات المسهلة لنا سبل الحق ، فانهم لو لم يكونوا ، لم يجتمع لنا — مع شدة البحث فى مددنا كلها — هذه الأوائل الحقية ، التى بها تخرجنا الى الأواخر من مطلوباتنا الخفية ، فان ذلك انما اجتمع فى الأعصار السالفة المتقادمة ، عصرا بعد عصر ، الى زماننا هذا ، مع شدة البحث ، ولزوم الدأب ، وايثار التعب فى ذلك ·

وغير ممكن أن يجتمع فى زمن المرء الواحد ، وان اتسعت مدته ، واشتد بحثه ، ولطف نظره ، وآثر الدأب – ما اجتمع بمثل ذلك من شدة البحث ، والطاف النظر ، وايثار الدآب فى أضعاف ذلك من الزمان الأضعا فالكثيرة » (١) .

المناهج والمواد الدراسية :

سبقت الاشارة الى أن العلوم فى عهد الكندى كانت تنقسم قسمين : أحدهما يتضمن العلوم الدينية واللغوية ، وهى المناهج التقليدية للتعليم فى ذلك العصر ، أما القسم الآخر فيتعلق بالعلوم ذات المصادر الأجنبية ، التى عدها بعض رجال الدين علوما دخيلة ، وهاجموها بشدة ، بينما تولى الكندى مهمة الدفاع عنها ، والدعوة الى دراستها وتعلمها الى جانب العلوم التقليدية .

وكان الكندى أول من وضع للمسلمين التخطيط العام للعلوم ، وبين أقسامها المختلفة ، فوضع لهذا الغرض بعض الكتب ، مثل « كتاب مائية العلم وأقسامه » و« كتاب أقسام العلم الانسى » (٢) ، وللأسف ضاع الكتابان ، ولذلك سنعتمد فى التعرف على رأى الكندى فى تصنيف العلوم الفلسفية ، وترتيب تحصيلها ، على ما تحت أيدينا من رسائله ، وبخاصة رسالته « فى كمية كتب أرسطوطاليس وما يحتاج اليه فى تحصيل الفلسفة » ، وقد كتبها الكندى الى أحد تلاميذه ، دون أن يذكر اسمه ،اذ يستهلها بقوله : « سألت – أسعدك الله

(١) فى الفلسفة الأولى – الرسائه : ١ / ١٠٢
(٢) ذكرهما ابن النديم فى الفهرست ، ص ٣٥٨

بمطلوباتك ... أن انبئك بكتب أرسطوطاليس اليونانى الذى تفلسف فيها ، على عدتها ومراتبها التى لا غنى لمن أراد نيل الفلسفة واقتنائها وتثبيتها عنها » (١) .

وقد يتبادر الى الذهن ، من عنوان هذه الرسالة ومطلعها ، أن فيلسوفنا يحاذى أرسطو كحذو النعل للنعل ، ولكن الواقع غير ذلك ، فقد كانت للفيلسوف رؤيته الخاصة ، فقد تأثر بأفلاطون فضلا عن أرسطو ، وحاول التوفيق بينهما ، كما سنرى .

ويتلخص البرنامج التعليمى الذى يقدمه الكندى ، فى ضرورة البدء بدراسة الرياضيات فيذكر صاحب الفهرست من تصانيف الكندى « رسالته فى أنه لا تنال الفلسفة الا بعلم الرياضيات » ، على أن يراعى فى دراسة هذا العلم ، بل وفى سائر العلوم الأخرى ، الانتقال التدريجى من البساطة الى التعقيد ، فيراعى فى التحصيل البدء بالمادة الأيسر تعلما ، ثم الانتقال الى ما هو أصعب منها شيئا فشيئا .

وبعد أن ينتهى الطالب من دراسة الرياضيات ، ينبغى أن يستوعب أربعة علوم أخرى وفقا لترتيب معين ، حتى يكتمل تعليمه ، ويحدد الكندى هذه العلوم ، ومصادرها ، أعنى الكتب التى يمكن للمتعلم التعويل عليها ، اذ يقول : « فكتب أرسطوطاليس المرتبة التى يحتاج المتعلم الى استطراقها على الولاء ، على ترتيبها ونظمها ، ليكون بها فليسوفا ، بعد علم الرياضات ، هى أربعة أنواع من الكتب » ، وهى : المنطقيات ،

---

(١) فى كمية ارسطو — الرسائل : / ٣٦٣

فالطبيعيات ، فالنفسيات ، فما بعد الطبيعة (١) ٠

وهذه العلوم — باستثناء المنطق (٢) — تكون فى مجموعها القسم النظرى من الفلسفة عند أرسطو ، أو ما يعرف بالفلسفة النظرية (٣) ، والاقتصار على تحصيلها لايكفى ، وانما يبين الكندى ضرورة تحصيل كتب أرسطو فى القسم الثانى من الفلسفة ، أى الفلسفة العلمية ، التى صنف فيها أرسطو كتبه فى الأخلاق والسياسة ٠

لقد تابع الكندى أرسطو فى التقسيم العام للفلسفة وعلومها ، ولكنه خالفه فى بعض التفاصيل ، وأعنى بالتقسيم العام للفلسفة أنها تنقسم قسمين كبيرين : القسم النظرى والقسم العلمى ٠ ولقد ارتضى الكندى ، ومن بعده سائر فلاسفة الاسلام ، هذا التقسيم الثنائى ٠ يقول فيلسوف الاسلام فى مستهل رسالته « فى الفلسفة الأولى » : « ان أعلى الصناعات الانسانية منزلة ، وأشرفها مرتبة صناعة الفلسفة ، التى حدها : علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الانسان ، لأن غرض الفليسوف فى علمه اصابة الحق ، وفى عمله العمل بالحق » (٤) ٠ أى أن للفيلسوف غرضا علميا نظريا وآخر عمليا ٠

والآن نعود بشىء من التفصيل ، لما سبق أن عرضناه

---

(١) فى كمية كتب — الرسائل : ١ / ٣٦٤ وما بعدها

(٢) لم يحدد أرسطو مكانه المنطق من الفلسفة ، ثم جاء أحد اتباعه وهو الاسكندر الأفروديس فأطلق على مجموعة كتب أرسطو المنطقية Orggnon أسم أى الآلة ، فأصبح المنطق عند المشائيين آلة أوآداة للفلسفة ، وليس حزئا منها كما هو الحال عند الرواقيين

(٣) الفلسفة النظرية عند أرسطو ثلاثة أقسام : الطبيعة ، الرياضيات، الفلسفة الأولى ٠ أما علم النفس فهو جزء من علم الطبيعة عند المعلم الأول ٠

(٤) فى الفلسفة الاولى — الرسائل : ١ / ٩٧

مجملا ، أعنى أن برنامج التعليم لدى الكندى يتضمن ما يأتى :

الرياضيات :

أخذ الكندى بوجهة النظر الفيثاغورية الأفلاطونية فى ضرورة البدء بتعلم الرياضيات،اذ قال—فيما يروى ابن نباته — : علوم الفلسفة ثلاثة ، فأولها العلم الرياضى فى التعليم وهو أوسطها فى الطبع، والثانى علم الطبيعيات وهو أسفلها فى الطبع ، والثالث علم الربوبية وهو أعلاها فى الطبع » (١) • وذهب الكندى الى أن من أراد علم الفلسفة ، ينبغى أن يقدم استعمال كتب الرياضيات على مراتبها أو علومها المختلفة ، فمن عدم هذه العلوم الرياضية ، التى يطلق عليها اسم الرياضيات أو التعاليم ، عدم الفلسفة (٢) •

والعلوم الرياضية أربعة ، ينبغى تحصيلها وفقا للترتيب التالى :

١ — علم العدد أو الحساب ، وهو الأول فى الترتيب (٣) ، فان لم يكن عدد لم تكن سائر العلوم الرياضية ، ويبحث هذا العلم فى الكمية المفردة ، وما يتعلق بها من عمليات حسابية أربع ١ — جمع بعضه الى بعض ٢ — وفرق (أى طرح) بعضه من بعض ٣ — وتضعيف (أى ضرب) بعضه ببعض ٤ — وقسمة بعضه على بعض •

---

(١) سرح ، ص ١٢٥

(٢) فى كمية أرسطو — الرسائل : ١ / ٣٧٨

(٣) قارن : Plato : The Republic, VII, 522, P. 245

٢ ــ علم المساحة ، أى الهندسة ، وهو علم الكيفية الثابتة ، وهو العلم الذى يلى الحساب (١) فى الترتيب ·

٣ ــ علم التنجيم (٢) ، أو علم هيئة الكل ، أى علم الفلك ، وهو علم الكيفية المتحركة ، وهو يتعلق بأجرام العالم ، ويبحث فيها من حيث الشكل والحركة ، وأزمان الحركة فى كل واحد من هذه الأجرام · وهذا العلم مركب من عدد ومساحة ، أى أنه يعتمد على العلمين السابقين ·

٤ ــ علم التأليف « فانه ايجاد نسبة عدد الى عدد ، وقرنه اليه ، ومعرفة المؤتلف منه والمختلف » ، وهذا العلم مركب من عدد ومساحة وتنجيم · ويرجح الدكتور الأهوانى أن لفظ « التأليف » ترجمة لكلمة الموسيقى (٣) ، وسنعود لفحص مدلول هذا اللفظ عند حديثنا عن أبى الحسن العامرى ، الذى يبين لنا دلالة هذا العلم بعبارات أوضح من كلمات الكندى الموجزة ·

المنطقيات :

ينبغى أن يدرس الطالب بعد ذلك كتب أرسطو المنطقية ، ومن المعلوم أنها ستة ، ولكن الكندى يضيف اليها كتابين آخرين لأرسطو ، هما الخطابة والشعر ، ويعرض الكندى الكتب الثمانية ، مع تعريب اسم الكتاب اليونانى ، وترجمته ، موضحا فى ايجاز موضوع كل كتاب ، وهما الكتب الثمانية (٤) :

---

(١) Ibid, VII, 526, P. 251

(٢) لايستخدم معظم مفكرى الاسلام مصطلح علم التنجيم على نحو مايقصد الكندى ، انما يقصدون به فى العادة علم أحكام النجوم ، أى دلالاتها على مايقع للانسان من أحداث مستقبلة ، أى أنه ضرب من أضرب التنبؤ بالغيب .

(٣) د· الاهوانى : الكندى ، ص ١٠٧

(٤) فى كمية كتب ــ الرسائل : ١ / ٣٦٥ ــ ٣٦٨ ، ٣٧٩ ــ ٣٨٢

١ ـ قاطيغورياس ، وهو المقولات
٢ ـ باربارمانياس (بارى أرمنياس) ، ومعناه على التفسير (العبارة) .
٣ ـ أنولوطيقى الأولى ، ومعناه العكس من الرأس ! (التحليلات الأولى)
٤ ـ أنولوطيقى الثانية ، ومعناه الايضاح (التحليلات الثانية)
٥ ـ طوبيقا ، ومعناه المواضع (الجدل) .
٦ ـ سوفسطيقا ، ومعناه المنسوب الى السوفسطائيين (الأغاليط)
٧ ـ ريطورايقا ، ومعناه البلاغى (الخطابة)
٨ ـ بوييطيقا ، ومعناه الشعرى (الشعر) .

الطبيعيات :

يقدم الكندى قائمة بعناوين كتب أرسطو الطبيعية ، ويذكر أنها سبعة (١) ، ثم يعرض فى ايجاز موضوع كل منها (٢) ، على النحو التالى :

١ ـ كتاب الخبر الطبيعى (السماع الطبيعى) ، وغرضه الابانة عن الأشياء العامة لجميع الأشياء الطبيعية ، مثل العلل ، والأوائل ، والبخت ، والخلاء ، والمكان والزمان ، والحركة .

٢ ـ كتاب السماء (٣) ، وموضوعه هيئة الكل (العالم) ،

---

(١) فى كمية كتب ـ الرسائل : ١ / ٣٦٨ ، وقارن يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص ١١٥
(٢) نفس الرسالة : ١ / ٣٨٢ ـ ٣٨٣
(٣) عرف هذا الكتاب فى العصور الوسطى باسم De Caelo

والأجرام السماوية وأحوالها الطبيعية وخواصها .

٣ ـ كتاب الكون والفساد ، وغـرضه الابـانة عن مائية الكون والفساد الكلى .

٤ ـ كتاب أحـداث الجو والأرض (الآثـار العلـوية) ، وغرضه الابانة عن علـل كون وفساد كل كائـن فاسد ، ما بين حضيض فلك القمر الى مركز الأرض .

٥ ـ كتاب المعادن ، ويبحث فى علل كون الآجرام المتكونة فى باطن الارض ، وكيفياتها ، وخواصها ، وعوامها .

٦ ـ كتاب النبات ، وغرضه الابانة عن علل كون النبات ، وكيفياته ، وخواصه ، وعوامه ، والمواضع الخاصة به .

٧ ـ كتاب الحيوان ، وغرضه الابانة عن علل كون الحيوان فى طبائعه ، وعلل اعضائه ، والمواضع الخاصة به ، وحركاته ، وما يعمه فى ذلك ، وما يخصه .

النفسانيات :

من المعلوم أن علم النفس عند أرسطو جزء من علم الطبيعة ، أما الكندى فقد تأرجـح بين موافقة أرسطو وبين مخالفتـه . تارة لا يشير الى علم النفس كعلم قائم بذاته فيتابع المعلم الأول ، اذ يقول فى رسالته « فى كمية كتب أرسطوطاليس » : « ينبغى لمن أراد علم الفلسفة أن يقدم استعمـال كتب الرياضـات على مراتبها التى حددناها ، والمنطقيات على مراتبها التى حددناها

أيضا ، ثم الكتب على الأشياء الطبيعية على القول الذى حددنا أيضا ، ثم ما فوق الطبيعيات ، ثم كتب الأخلاق وسياسة النفس بالأخلاق المحمودة ، ثم ما بقى مما لم نحد من العلوم مركب من الذى حددنا ٠٠٠ » (١) ٠وتارة أخرى يخالف أرسطو فى نفس الرسالة السابقة حين يفصل بين الطبيعيات التى تبحث فى الأجسام الطبيعية وبين علم النفس الذى يبحث فى « الأشياء التى لا تحتاج الى الأجسام فى قوامها وثباتها ، وقد توجد فى أجسام » ويعد الكندى كتب النفسانيات نوعا قائما بذاته من الأنواع الأربعة التى ينبغى تحصيلها : المنطقيات ، فالطبيعيات ، فالنفسانيات ، فما بعد الطبيعة ٠

ويذكر لأرسطو أربعة كتب فى علم النفس ، ويبين موضوع كل منها (٢) ، كما يلى :

١ ـ كتاب النفس ، وغرضه الابانة عن مائية النفس وأحوالها ، والابانة عن كل واحد من قواها ، والحس وأنواعه ٠

٢ ـ كتاب الحس والمحسوس ، وغرضه الابانة عن علل الحس والمحسوسات ، وفيه شرح لما ورد عن الحس فى كتاب النفس السالف الذكر ، ويقارن الكندى بين الكتابين ، من حيث دراسة موضوع الحس ، فيلاحظ أن دراسة هذا الموضوع ، فى الكتاب الثانى أشد استقصاء من الكتاب الأول ٠

٣ ـ كتاب النوم واليقظة ، وغرضه الابانة عن النوم :

---

(١) الرسالة : ١ / ٣٧٨
(٢) الرسائل : ١ ٣٦٨ ، ٣٨٣ ـ ٣٨٤

ما هو ؟ وكيفيته ، والرؤيا وعللها · ومن المعروف أن لأرسطو رسالتين صغيرتين ، همـا : رسالة الأحـلام ، ورسالة التنبـؤ بواسطة النوم ، وقد أحرزتا فى العالم الاسلامى منزلة لا نظير لها ، فقد كانتا الدعامة الأولى التى قامت عليها نظرية الأحـلام والنبوة الفلسفية · ولسنا نعرف هل ترجمت هاتان الرسالتان الى العربية أم لا ؟ وبالتالى لا ندرى ان كان الكندى قد وقف على كتاب النوم واليقظة أو عـرف اسمه فقط وان كان الاحتمـال الأول هـو الارجـح ، لانه كتـب « رسالة فى مـا هية النـوم والرؤيا » ، وقد وصل الامر ببعض الباحثين ان عدها ترجمـة لبعض الرسائل الارسطية (١) ·

٤ ــ كتاب طول العمر وقصره ·

ما بعد الطبيعة :

موضوع هذا العلم « ما لا يحتاج الى الأجسام ، ولا يتصـل بالأجسام » ، ويذكر الكنـدى أن لأرسطو فى هذا العلم كتابـا واحدا ، هو كتابه الموسوم بما بعد الطبيعيات ، ويبحث فى الأمور الالهية ، ويحاول الكندى نفى التعارض القائم بين الألوهية عند فيلسوف اليونان وبين التصور الاسلامى لها ، فيذكر أن أرسطـو يبحث فى هذا الكتـاب « توحيد الله جل وتعـالى ، والابانـة عن أسمائه الحسنى ، وأنه علة الكل الفاعلة والمتممة (أى الغائية) ، اله الكل ، وسايس الكل ، بتدبيره المتقن ، وحكمته التامة » (٢) ·

---

(١) د. مدكور : فى الفلسفة الاسلامية : ١ / ٩٠ — ٩٢

(٢) فى كمية كتب ــ الرسائل : ١ ٣٨٤

ولكن من المعلوم أن اله أرسطو ليس علة فاعلة ، كما أنه لا يعنى بالعالم ، كما ظن الكندى ٠

الأخـلاق :

يذكر الكندى (١) أن كتب أرسطوطاليس فى الأخلاق تعنى بأخلاق النفس وسياستها ، حتى تقـوم على الفضيلة الانسانية ، التى هى غرض الانسان المستوى الطبع ، والتباعد عن الرذيلة ، والابانة أن السعادة هى الفضيلة فى كـل أوان ، والفضيلة فى النفس والبدن ، ومـا خرج عنهما أيضـا ٠ أما هـذه الكتـب الأخلاقية فهى :

١ _ كتابه الكبير فى الأخـلاق الى ابنه نيقوماخس ، وهـو المسمى نيقوماخيا ، ويقول الكندى عن هذا الكتاب انه « أحـد عشر قولا » ، ولكنا نعلم أن كتاب الأخلاق النيقوماخية يتضمـن عشر مقالات فقط ٠

٢ _ يذكر الكندى لأرسطو كتابا آخر يقول : انه أقـل من عـدة هـذه المقـالات (السـابقة) ، وشبيه بمعـانى كتـابه الى نيقوماخس ، كتبه الى بعض اخوانه ٠ ويقصد الكندى فى الغالب كتاب الأخلاق الى أوديموس ، الذى كتبه أرسطو فى مرحلة مبكرة من حياته ، وهو سبع مقالات ٠

٣ _ وأخيرا يذكر الكنـدى لأرسطو « الثـلاث المقالات » ، ولعله يقصد كتاب الأخلاق الكبرى ، وان كان من المعروف أن هذا الكتاب يتكون من مقالتين فقط ٠

---

(١) نفس المصدر : ١ / ٣٦٩ ، ٣٨٣ _ ٣٨٤

السياســة :

يشير الكندى اشارة موجزة الى كتاب أرسطو فى السياسة (١) ، ومن المعلوم أن هــذا الكتاب لم يترجــم الى العربية قديمــا ، فلم يطلع عليه مفكرو الاسلام اطلاعا مباشرا ٠

ونلاحظ أخيرا أن الكندى لا يشير أدنى اشارة الى علم تدبير المنزل ، كما نجد ذلك عند فلاسفة الاسلام اللاحقين ، والواقع أن أرسطو قد خصص المقــالة الأولى من كتابه فى السياسة لمعــالجة هذا العلم ، الــذى يعد عند المشــائين العلم الأوســط من العلــوم العملية الثلاثة ٠

شروط تحصيــل العلوم :

يطلق الكنــدى على مجموعة العلوم الســابقة من رياضيــات ومنطق وطبيعة وعلم النفس وما بعد الطبيعة وأخلاق وسياسة ، يطلق على كل تلك العلــوم اسم « العلوم الانسانيــة » (٢) ٠ ولا يستخدم الكندى هذا المصطلح كما نستخدمه اليوم ، أى للدلالة على العلوم التى تتعلق بالجوانب المختلفة للانسان ، ومن ثم فلا تعــد بعض العلوم السابقة كالرياضيــات أو الطبيعة علوما انســانية من وجهة النظر الحديثة ٠

أما الكندى فقد كان يطلق لفظ العلم الانسانى فى مقابــل العلم الالهى الذى يوحى به الى الرسل ، فيحصــل لهم « بلا طلب ، ولا تكلف ، ولا بحــث ، ولا بحيلــة بالرياضيــات والمنطــق ، ولا

---

(١) نفس المصدر : ١ / ٣٨٤
(٢) نفس المصدر : ١ / ٣٧٢

بزمان ، بل مع ارادته ، جل وتعالى ، بتطهير أنفسهم ، وانارتها للحق ، بتأييده وتسديده والهامه ورسالاته ، فان هذا العلم (الالهى) خاصة للرسل ، صلوات الله عليهم ، دون البشر » (١) .

أما العلوم الانسانية فكان الكندى يقصد بها العلوم التى هى ثمرة تحصيل البشر ، بقواهم وتفكيرهم وجهودهم ، على قدر طاقتهم ، وهى على العكس من العلم الالهى (٢) تقتضى ممن يطلب تحصيلها شروطا هامة ، تنحصر فى أربعة أمور ، هى : الطلب ، والبحث ، والحيلة ، والزمان (٣) :

١ ـ الطلب :

هو اتجاه ارادى للحصول على المعرفة ، فكل طالب انما يستهدف الوقوف على معرفة معينة وفهمها ، والفهم يقتضى الاحاطة بالمقصود اليه (٤) . فالرغبة فى الحصول على العلم اذن، هى الخطوة الأولى على طريق التعلم ، ولا تعلم بدون دافع ، وأهم دوافع التعلم عند الكندى هو الحصول على اللذة العقلية التى تفوق كل لذة حسية (٥) .

٢ ـ البحث :

يقصد الكندى بالبحث السعى الى اماطة اللثام عن الأمور

(١) نفس المصدر : / ٣٧٣

(٢) استخدام فلاسفة الاسلام بعد الكندى مصطلح العلم الالهى عند الفارابى وابن سينا بخلاف الكندى يستخدم المصطلح بمعنى علم النبى بمعنى theology اى الفلسفة الالهية او علم الربوانية ، كما هو الحال مثلا الذى يأتى عن طريق الوحى كما هو موضح بعالية .

(٣) راجع : د. الاهوانى : الكندى ، ص ١١٥ — ١١٦

(٤) فى حدود الاشياء — الرسائل : ١ / ١٧٠

(٥) القول فى النفس — الرسائل : ١ / ٢٧٢ وما بعدها

الغامضة المجهولة ، ابتغاء معرفتها ، والبحث يستلزم مشقة وتكلفا . وهكذا تنبه فيلسوف الاسلام الكندى منذ أحد عشر قرنا أو يزيد ، الى ما يثبته اليوم علماء النفس والتربية ، وهو أن التعلم الصحيح ، انما هو مجهود شخصى ، وبحث وتنقيب ، وأن طرق التربية الحديثة جميعها تدور على مبدأ النشاط الذاتى للمتعلم (١) . لقد أعلن الكندى أن النفس اذا كانت كثيرة البحث والنظر فى معرفة الأشياء انصقلت ، وكلما ازدادت صقالا اكتسبت العلم ، وظهر لها وفيها معرفة الأشياء . أما النفس العقلية اذا كانت صدئة دنسة كانت على غاية الجهل ، ولم تظهر فيها صور المعلومات (٢) .

٣ ـ الحيلة :

يعنى الكندى بالحيلة الأداة أو الوسيلة التى يتبعها الطالب فى بحثه عن معرفة حقائق الأشياء ، أو المنهج المناسب الذى يصطنعه الباحث ، اذ ليس للعلوم جميعا منهج واحد ، وانما تختلف مناهج البحث باختلاف العلوم . لقد اهتم الكندى بمناهج البحث ، وسمى دراستها « علم أساليب المطلوبات » ، وحذر من اهمال هذا العلم أو التقصير فيه ، ودعا كل باحث فى علم من العلوم الى أن يعرف بادىء ذى بدء الأسلوب المناسب الذى يطلب به العلم الذى يزمع الاشتغال به ، فمثلا « ينبغى أن لا نطلب الاقناعات فى العلوم الرياضية ، بل البرهان ، فأما اذا استعملنا الاقناع فى العلم الرياضى كانت احاطتنا به ظنية لا علمية ، وكذلك لكل نظر تمييزى وجود خاص غير وجود الآخر ، ولذلك ضل كثير من

---

(١) د. عزت راجح : أصول علم النفس ، ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠
(٢) القول فى النفس ـ الرسائل : ١ / ٢٧٦

الناظرين فى الأشياء التمييزية ، لأن منهم من جرى على عادة طلب الاقناع ، وبعضهم جرى على عادة الحس ، وبعضهم جرى على عادة البرهان ، لما قصروا عن تمييز المطلوبات ، وبعضهم أراد استعمال ذلك فى وجود مطلوبه ، اما للتقصير عن علم أساليب المطلوبات ، واما للعشق للتكثير من سبل الحق ـ فينبغى أن نقصد بكل مطلوب ما يجب ، ولا نطلب فى العلم الرياضى اقناعا ، ولا فى العلم الالهى حسا ولا تمثيلا ، ولا فى أوائل العلم الطبيعى الجوامع الفكرية (١) ، ولا فى البلاغة برهانا ، ولا فى أوائل البرهان برهان ، فانا اذ تحفظنا هذه الشرائط ، سهلت علينا المطالب المقصودة ، وان خالفنا ذلك أخطأنا أغراضنا من مطالبنا ، وعسر علينا وجدان مقصوداتنا » (٢) ٠

٤ ـ الزمان :

وهو أمر لا غنى عنه للتعلم ، اذ أن تحصيل الانسان للمعرفة يستغرق وقتا لا محالة ، قد تطول أو تقصر ، ومما يتحكم فى طول وقت التحصيل أو قصره طريقة التحصيل ذاتها ٠ فقد لاحظنا من قبل أن التعلم ـ فى نظر الكندى ـ يجب أن يبدأ من المحسوسات القريبة من المتعلم ، ثم ينتقل المتعلم تدريجيا الى معرفة الأمور المجردة ، أى أن يراعى فى التعلم أن يبدأ بالمألوف اليسير قبل الغريب الصعب ٠ اذا اتبع المتعلم هذا الأسلوب ، وأخذ فى الاعتبار هذا الترتيب اللازم ، والتدرج الضرورى ، كان تحصيل فى وقت أقصر مما فى حالة عدم مراعاة ذلك ، بل ان من طلب مثلا معرفة المجردات أو الأمور المعقولة ، دون الترتيب اللازم ، فقد

---

(١) ربما يقصد الأقية وأنواع الاستبدال المنطقى

(٢) فى الفلسفة الاولى ـ الرسائل : ١ / ١١١ ـ ١١٢

فشل لا محالة فى تحقيق ما طلبه ، « وعمى عنه كعشاء الوطواط عن نيل الأشخاص البينة الواضحة لنا فى شعاع الشمس · ولهذه العلة تحير كثير من الناظرين فى الأشياء التى فوق الطبيعة ، اذا استعملوا فى البحث عنها تمثلها فى النفس على قدر عاداتهم للحس ، مثل الصبى ، فان التعليم انما يكون سهلا عليه فى المعتادات ، ومن الدليل على ذلك سرعة المتعلمين من الخطب والرسائل أو الشعر أو القصص ، أى ما كان حديثا لعاداتهم للحديث والخرافات من بدء النشوء ··· » (١) ·

دعوته الى تطوير التعليم :

قلنا ان الكندى نادى بفتح نوافذ الثقافة ، وكره أن ينغلق المسلمون على علومهم التقليدية وحدها ، فكان بذلك مرآة تعكس الاتجاه الجديد الذى بدأ يسود عصره ، ومؤيدا ذلك الاتجاه ، أعنى الانفتاح الثقافى،فقد أصبحت بغدادعاصمةللدولةالاسلامية المترامية الأطراف ، التى تضم شعوبا مختلفة ، وأجناسا متباينة ، كالفرس والترك والروم والزنج وغيرهم فضلا عن العرب · أدرك الكندى أن الوقت قد حان لأن ينفتح التعليم على شتى الثقافات ، حتى يمكن الاستفادة مما لدى الشعوب جميعا من علوم ومعارف ، واستلهم فيلسوف الاسلام روح الدين الحنيف الذى يثنى على الذين يطلبون العلم ولو فى الصين ، ويمتدح « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » (الزمر : ١٨) استلهم هذه المعانى الكريمة ، فقال : « وينبغى لنا آن لا نستحى من استحسان الحق ، واقتناء الحق من أين أتى ، وان أتى من الأجناس القاصية عنا ، والأمم

---

(١) فى الفلسفة الاولى — الرسائل : ١ / ١١٠ .

المباينــة لنا ، فانه لا شيء أولى بطـالب الحق من الحــق ، وليس ينبغي بخس الحــق ، ولا تصغير قائلــه ، ولا الآتى به ، ولا أحـد يبخس بالحق ، بل كل يشرفه الحق » (١) ٠

لقد اشتهى الكنــدى ثمـار العبقرية اليونـانية بخاصــة ، وتذوقها ، فاستساغها ،وأقبل بنهم على تناولها ، وأراد أن يروج لها ، فصرخ بأنها لا تتعــارض مع العقيــدة ، حتى الميتافيزيقـا الاغريقية ، على ما فيها من أفكار وثنية ، لم يجد الكندى غضاضة فى قبولها بعد محاولة تعديلها ، وأعلن التطابق التام بين الديـن والفلسفة الأولى التى يحدها (٢) بأنها علم الأشيـاء بحقائقها ـ اعلن التطابق بينهمـا « لأن فى علم الأشيـاء بحقائقهـا : علـم الربوبية ، وعلم الوحدانية ، وعلم الفضيلة ، وجملة علم كل نافع والسبيل اليه ، والبعد عن كل ضار والاحتــراس منه ٠ واقتناء هذه جميعا هو الذى أتت به الرسل الصــادقة عن الله جل ثناؤه فان الرسل الصادقة صلوات الله عليها انما أتت بالاقرار بربوبية الله وحده ، وبلزوم الفضــائل المرتضاه عنــده وترك الرذائــل المضادة للفضائل فى ذواتها وايثــارها » ، وهكــذا فان الفلسفة والدين يبحثان موضوعات واحدة ، وليس الخلاف بينهما الا فى المنهــج (٣) ٠

ولكن ما سبب ولوع الكندى بالفكر اليونانى الى هذه الدرجة ؟ ولماذا كان يدعو الى ادخال العلوم الفلسفية فى برامج التعليم فى

---

(١) نفس المصدر : ١ / ١٠٣

(٢) يذكر الكندى ستة تعريفات مختلفة الفلسفة فى رسالته فى حدود الاشياء ورسومها ـ الرسائل : ١ / ١٧٢ ـ ١٧٣

(٣) فى الفلسفة الاولى ـ الرسائل : ١ / ١٠٤

عصره ؟ فى الواقع لم تكن دعوة الكندى من قبيل الترف العقلى ، وانما استهدفت دعوته الدفاع عن الدين بازاء الحمـلات العنيفة التى شنها عليه أعداؤه من أصحاب الديانات الأخرى والملاحدة الذين ضمتهم الدولة الاسلامية تحت لوائها بعد الفتوحات الواسعة ، وأراد الكندى دحض مزاعم الملاحدة والزنادقة الـذين بثوا سمومهم بغرض التشكيك فى عقائد الاسلام ، والطعن عليه ، وهدم دعائمه ، كانكار النبـوة · وكان أعداء الاسـلام مسلحين بعلوم اليونان وفلسفتها ، فارتأى الكندى أن الدفاع عن العقيدة الاسلامية يستلزم استخدام نفس الأسلحة التى يحارب بها الأعداء ، أى بتحصيل الفلسفة وعلومها ، « فواجب اذن التمسك بهذه القنية النفيسة (أى قنية الفلسفـة) عند ذوى الحـق ، وان نسعى فى طلبها بغاية جهدنا » (١) ·

كان الكندى يستهـدف من دعوته لتحصيل علـوم الفلسفة تجديد الفكر الدينى لا فى جانبه السلبى فحسب ، أعنى فى الـرد على الملاحدة ، بل أيضا فى الجانب الايجابى ، أعنى اسهام العلوم الأجنبية فى اثبات العقائد الاسلامية ، ومن المحاولات التى قـام بها فى هذا الصدد ، والتى اعتبرت نموذجا يحـاكى ، ما ورد فى رسالته « فى الابانة عن العلـة الفاعلة » ، وقد لاحظ الدكتـور أبو ريدة أن هذه الرسالـة تتضمن آراء جريئـة وطريفة ، تبين سبق الكندى لمفكرى عصره بكثير ، وتظهر تفكيره مصطبغا — من بعض الوجوه — بالصبغة الحديثة ·

يقدم الكندى فى هذه الرسالة دليلا على وجود الله ، يستند

---

(١) نفس المصدر : ١ / ١٠٥

فيه الى مظاهر العناية الالهية التى تسرى فى هـذا العالم فى أدق تفاصيله ، وهذا الدليل يعرف فى تاريخ الفلسفة باسم الدليـل الغائى ، ولم يكن الكندى أول من قال به ، بل سبقه اليه المتكلمون ، بل يرجع هـذا الدليل الى أبعد من ذلك ، اذ نجده لـدى فلاسفة اليونان القدماء كأفـلاطون فى محاورتـه طيماوس والرواقيـة وغيرهم • فما الجديد اذن فى موقف الكندى ؟

لقد ذهب الكندى الى مظاهـر عناية الله وتدبيره وحكمتـه وقدرته وعلمه ، تظهر لذوى العيون العقلية الصافية الذين حصلوا « علم هيئة الكل والأشياء الطبيعيـة » ، أى أن الاشتغـال بعلمى الطبيعة والفلك ينتهى بنا الى الاقرار بالعناية الالهية ، ومن ثـم بوجود البارى ، وابطال مزاعم الملاحدة •

ويتحدث الكندى فى رسالته المذكورة ، فى شىء من التفصيل عن مسائل فلكية ، تتعلق بالأجرام السماوية ، وحركاتها ، وتأثير بعضها فى بعض ، والمسافـات التى تفصل بعضهـا عن بعض ، وعلاقتها بالأرض ••• ويخـرج من كل ذلك بنتيجة مؤداهـا أن شيئا من هذه الأمور لم يخلق عبثا ، وانما كل شىء خلـق بعناية دقيقة ، ويضـرب أمثلة ، يستنـد فيها الى معلومـاته الطبيعيـة والفلكية والجغرافية ، يبين بها أن شيئا من نظام العالم لو فرض أنه كان على نحو مخالف لما هو عليه ، لأدى ذلك الى اختلال العـالم كله وفساده • « فلو لم يكن بعـد الشمس من الأرض (١) بهـذا التعديل ، فكانت أعلى ، لقل اسخانها لهذا الجو ، حتى تكـون فى موضع لو كانـت فيه ، لم يؤثر فينـا أثرا يظهـر ، فجمد مـا على

---

(١) راجع استخدام نفس هذا المثال لدى المفكر المعاصر وحيد الدين خان : الاسلام يتحدى ، ص ٨٨

الأرض ، كما يكون ذلك فى المواضع التى قربت من الأقطاب ، فلم يكن حرث ولا نسل ولا غير ذلك من الكائنات كما يكون ذلك فى هذه المواضع ، ولو قربت جدا ، لاحترق ما على الأرض ، ولم يكن حرث ولا نسل ولا غير ذلك ، كما يوجد ذلك فى المواضع التى تقرب منها الشمس أكثر ... »

ويستطرد الكندى كثيرا فى بيان مظاهر الخلل الذى كان يعترى العالم وما فيه من كائنات « لو كانت الشمس أبعد ، أو أقرب ، أو ظاهرة دهرا طويلا ، أو غائبة دهرا طويلا ، أو غير فاعلة آزمانا فى كل موضع بقسطه » ، ثم يتحدث بمثل هذا عن القمر وسائر الكواكب ، مبينا أن وجودها على النحو الذى وجدت به انما يدل على تدبير حكيم عليم متقن لما صنع . ويختتم الكندى رسالته بتأكيد أن هذه المعانى الجليلة لا تتضح الا لمن أقبل على تحصيل علمى الطبيعة والفلك . يقول : « فان جميع ما ذكرنا ظاهر لمن كانت مرتبته علم هيئة الكل والأشياء الطبيعية ، فأما من قصر عن ذلك ، فانه يقصر عن فهم ما ذكرنا ، لتقصيره فى علم هيئة الكل والطبيعيات » (١) .

هكذا فتح الكندى الباب على مصراعيه أمام العلوم المختلفة ، من شتى المصادر ، الا أن دعوة الكندى قد أدت فيما بعد الى تسرب نظريات فلسفية تتعارض مع الدين . حقا ان الكندى لم يقل بمثل هذه النظريات ، ولم يقحم فى فلسفته أفكارا وثنية ، كنظرية الفيض أو الصدور ، أو القول بقدم العالم ، أو انكار حشر الأجساد ، ولعل الوازع الداخلى هو الذى عصم الكندى عن الزلل ،

(١) الابانه عن العلة القريبة ـ الرسائل : ١ / ٢٢٩ ـ ٢٣٧

بيد أن تيار دعوته اجتاح حدود مقاصده ، وتجاوزها فى القرنين الرابع والخامس الهجريين ، فاذا بفلاسفة الاسلام من بعده ، يعتنقون الاراء التى تجنبها ، والتى كانت سببا فى رميهم بالكفر والتهافت ، فلم يعد الركون الى الوازع الداخلى وحده يكفى ، وانما وجب أن توضع الضوابط اللازمة لحماية العقيدة من الغزو الفكرى المتدفق ، مع المحافظة فى نفس الوقت على الجوانب الايجابية فى الدعوة الكندية للانفتاح الثقافى ٠

وقد تولى أبو حامد الغزالى (٤٥٠ ـ ٥٠٥) فى أواخر القرن الخامس ومطلع القرن السادس هذه المهمة ، أعنى مهمة الانتفاع من الجانب الايجابى فى دعوة الكندى والتخلص من الجانب السلبى فيها ، وذلك بوضع الضوابط التى تحمى العقيدة وتصونها ، فتكون بمثابة « المنقذ من الضلال » ، فقسم العلوم الفلسفية ثلاثة أقسام (١) : قسم يجب التكفير به ، وقسم يجب التبديع به ، وهذان القسمان يتعلقان ببعض مسائل الفلسفة الالهية ، أما القسم الأخير ، فلا يجب أنكاره أصلا ، ومن انكره من المسلمين كان جاهلا ، ويتضمن هذا القسم سائر العلوم العقلية كالرياضيات والمنطق والطبيعيات ٠٠٠

---

(١) الغزالى المنقذ من الضلال ، ص ١٤٨

الفصل التاسع

أبو الحسن العامرى

التعلم من أجل عمارة البلاد وسياسة العباد

حياته :

هو (١) أبو الحسن محمد بن أبى ذر يوسف العامرى النيسابورى ، أحد متفلسفة الاسلام فى القرن الرابع الهجرى ، اذ ولد فى أوائل ذلك القرن ، فى نيسابور ، ودرس الفلسفة بها على يد أحد تلاميذ الكندى ، أعنى أبا زيد احمد بن سهل البلخى (ت · سنة ٣٢٢) ، وكانت نيسابور فى ذلك العصر من أكبر مراكز الثقافة بخراسان ، بل كانت مهد المدارس فى تاريخ التربية الاسلامية · يقول المقريزى : « ان أول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة فى الاسلام أهل نيسابور » (٢) ·

لم يستقر العامرى فى نيسابور ، وانما كثر ترحاله ، فكان من الجوالين الذين نقبوا فى البلاد · ويمكن أن نرجع كثرة تنقله الى أسباب متعددة ، من أهمها رغبته فى الاطلاع على أسرار الله فى العباد ، وتحصيل العلم والمعرفة ، فقد زار المركز الكبرى للثقافة فى عصره ، وبخاصة بغداد والرى وبخارى ، كما كان فى تجاوله وسياحته يقصد الأمراء والوزراء فى الدويلات الاسلامية بأعماله الفلسفية لكى يهدى اليهم هذه الأعمال ، أملا فى مكافآتهم ،

---

(١) راجع حياته وعصره فى المقدمة القيمة التى كتبها د. احمد غراب لكتاب الاعلام بمناقب الاسلام

(٢) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار : ١٩٢/٤ نقلا عن مقدمة د. غراب ، ص ٦

شأنه فى ذلك شأن معظم الأدباء والشعراء والعلماء فى عصره ، وكان أيضا من أهم أسباب تنقل العامرى بين البلدان الاسلامية ، وعدم استقراره فى مكان واحد ، هو التوتر السياسى الذى كان سائدا فى الدولة الاسلامية فى القرن الرابع ، وكثرة الفتن والمؤامرات والاضطرابات ، هذا فضلا عن ازدياد اضطهاد الفلسفة ، وتضييق الخناق على رجالها من أمثال العامرى ·

وبعد أن طوف متفلسفا فى المدن الاسلامية ، عاد أخيرا الى مسقط رأسه نيسابور ، حيث توفى بها يوم ٢٧ شوال سنة ٣٨١ فيما يروى ياقوت صاحب معجم الأدباء (١ / ٤١١) ·

وتثبت مؤلفات (١) العامرى الكثيرة أن ثقافته كانت واسعة شاملة ، فقد كان الرجل ينتمى الى مدرسة الكندى التى تميز أصحابها بعدم الاقتصار فى دراستهم على الثقافة اليونانية وحدها ، ولا على الثقافة العربية الاسلامية وحدها ، بل جمعوا بين الثقافتين ، واستفادوا منهما معا ، بل وتأثروا أيضا بتراث الفرس والهند ، ونادوا بسياسة الانفتاح فى التعليم ، وكان العامرى من أكثر رجال المدرسة تشجيعا للتعليم ، واهتماما بنشره ، فمن أقواله المؤثورة « أعون الأشياء على تذكية العقل الخضوع للتعلم » ، وكذلك « استفادة العلم عمارة القلب » ، كما كان يرى أن « مجالسة العلماء تجلية للأبصار » (٢)·

وكان أبو الحسن العامرى — شأنه فى ذلك شأن سائر الفلاسفة — من أنصار المذهب العقلى ، فالعقل عنده معيار الحكم

(١) انظر مؤلفاته فى مقدمة د. غراب ، ص ١٩ — ٢١
(٢) الاعلام بمناقب الاسلام ، ص ٩٩

على جميع الأمور ، حتى فى مجـال العقائد الدينية ، ولذلـك لم يرض لنفسه فى شىء من الأصـول الاعتقادية «بدرجة المقلدين» ، وانما أثنى على من يروم الأخذ « برتبة المستبصرين » .

والمستبصرون ـ فى نظره ـ هم الذين يقرون بأن العقل هو المختص بالجوهر الانسى ، ومن شأن العقـل « أن يعرف الحـق ، ويعمل بمـا يوافق الحـق ، فمن الواجب أن يكون أكمـل الناس أغزرهم عرفانا للحق ، وأقدرهم على العمـل بما يوافق الحـق ، وأرذل الناس أنزرهم معرفة بالحق ، وأعجزهم عن العمل بمـا يوافق الحق » (١) .

بهذه الدعوة العقلانية يفتتح العامرى كتابه « الاعلام بمناقب الاسـلام » ، ذلك الكتاب الـذى اشتمل على جمـل ما اختص بـه الاسلام من المناقب العلية ، ليعلم الناظر فيه أنه بالحرى أن يكون ناسخا للأديان كلها (٢) . ويقارن العامرى فى هذا الكتـاب بين الأديان ، فى مجـال العقائد والعبادات والمعامـلات والحـدود ، بمنهج عقلى دقيق ، يستخلص به رجحان الدين الاسلامى على سائر الأديـان .

والمنهج العقلى هو منهج الحكماء ، ولكـن « مرتبة الحكمة ـ وان كانت فى نهاية الرفعة ، ومحلهـا من بين المعارف على غايـة المعلوة ـ فان طبقات العوام قد أعرضوا عنها ، وكرهوا الاصغاء اليها ، لا لأنها منعت عنهم ، بل لأن عقولهم بالاضافة اليها ، نزلت

---

(١) الاعلام ، ص ٧٧
(٢) الاعلام ، ص ٧٥

منزلة الأعين الرمدة بالاضافة الى نور الشمس » (١) ٠

ولكن هل كان العامرى يدعو الى المنهج العقلى الخالص أم كان منهجه عقليا تجريبيا ؟ واذا كان يطالب الانسان بأن يتخلص من مساوئه باصلاح أخلاقه (٢) فهل العلم عنده يطلب من أجل اصلاح الخلق فقط أم أن الأهداف التربوية عنده أعم وأشمل ؟

ذهب بعض الباحثين الى أن التربية الخلقية كانت المحور الذى دارت حوله برامج التعليم فى القرن الرابع الهجرى ، بل وفى التربية الاسلامية عموما (٣) ، ويقول بعضهم : « أجمع فلاسفة الاسلام على أن التربية الخلقية هى روح التربية الاسلامية ، فالغرض الأول والأسمى من التربية الاسلامية ، تهذيب الخلق وتربية الروح » (٤) ٠ فما مدى صحة هذا الرأى ؟

كذلك من الأسئلة التى يتعين علينا الاجابة عنها من خلال استعراض آراء العامرى التربوية مدى صحة رأى بعض المستشرقين من أمثال جرونيباوم الذى أعلن فى كتابه « حضارة الاسلام » أن فكرة العلم للمجتمع كانت فكرة غريبة عن العصور الوسطى الاسلامية (٥) ؟

ويذهب هذا المذهب أيضا بعض أساتذتنا الآن ، فيقرر الدكتور

---

(١) الاعلام ، ص ٧٣ _ ٧٤
(٢) الاعلام ، ص ٧٧
(٣) حسن عبد العال : التربية الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى :ص١٣٠
(٤) عبد الله فياض : تاريخ التربية عند الامامية وأسلافهم ، ص ٢٣٢ نقلا عن المصدر السابق ، نفس الصفحة ٠
(٥) جرونيباوم : حضارة الاسلام ، ص ٣٠٥

زكى نجيب محمود أن العالم كله قد بدأ عصرا جديدا ، أصبحت المعرفة فيه من جنس يختلف تماما عما كان يسميه آباؤنا « معرفة » ، فلقد انتقل الانسان المعاصر — فى البلاد المتقدمة — من عهود طويلة كانت خلالها كلام فى كلام ، انتقل من هذه المعرفة التى تسمى معرفة « اللفظ » الى معرفة « الأداء » ، فلم يكن العالم فى العهود السابقة يبلغ من علمه حدا يجاوز احسانه للكتابة والقراءة ، ولكن لا تحركت طائرة بتلك الكتابة والقراءة ، ولا غاصت غائصة ، ولا نطق مذياع · ان هذه التفرقة بين نوعى المعرفة يصدق علينا نحن العرب ألف مرة ، اذا صدق على شعوب أخرى مرة واحدة ، لأن عبقرية العرب كانت فى لسانها (١) ·

ويلاحظ الدكتور زكى نجيب أن من علامات هذا العصر المميزة ، أنه عصر « العلم » المقترن « بالعمل » حتى لتجد فلاسفة عصرنا منصرفين بكثير من عنايتهم وجهدهم نحو تحليل العلاقة بين العلم والعمل تحليلا ينتهى ببعضهم الى القول بأن العلم والعمل موصول أحدهما بالآخر · وان كلمة علم science — التى تعنى فى عصرنا العلم الطبيعى وتطبيقه — لم تدخل اللغة الانجليزية الا فى الثلث الأول من القرن الماضى ، مما يدل على أن ما قد سبق ذلك من علم لم يكن بـه كل المقومات التى تميز علم العصر الراهن · ويرفض الدكتور زكى نجيب الرأى القائل ان تراثنا عرف العلم بهذا المعنى ، فان من يراجع معنى الكلمة فى تراثنا القديم وفى عصرنا الراهن ، ليجد فرقا جوهريا ، فاللفظ واحد والمضمون مختلف (٢) ·

---

(١) د· زكى نجيب محمود : تجديد الفكر العربى ، ص ٨٠ — ٨١
نفس المصدر ، ص ١٧٩ — ١٨٠

ويحاول الدكتور زكى نجيب أن يثبت صحة رأيه ، فيعود الى تراثنا العربى ، ويفحص مفهوم كلمتى « علم » و « عمل » ، تلك اللفظتان الدالتان على جانبين يميزان العصر الحاضر وثقافته ، ويلجأ الى أبى حامد الغزالى فى كتابه « ميزان العمل » حيث أشار الى أن السعادة لا تنال الا بالعلم والعمل ٠ ويتساءل الدكتور زكى بأى المعانى استخدمت الكلمتان ؟ فيتبين له أنهما لا تتصلان أدنى صلة ٠ بما يراد اليوم حين نطلق هاتين الكلمتين ، فالغزالى انما يقصد بالعلم : العلم بالله وصفاته وملائكته وكتبه ورسله وغير تلك من مفاهيم علم الله (العلم الدينى) أما العمل عند الغزالى فمقصود به مجاهدة الهوى ، حتى تزول الحوائل التى ربما أعاقت الانسان عن العلم بالله (١) ٠ ويخلص الدكتور زكى نجيب مما تقدم الى أن العلم يقصد به فى عصرنا الراهن العلوم الطبيعية بمعناها الحديث من فزياء وكيمياء وما اليها ، وأن العمل يقصد به ما يجرى فى المعامل من تجارب من شأنها أن تخلق لنا من الوسائل والأدوات والأطعمة والاشربة والثياب والمساكن والمواصلات ما لم يكن للعصور السابقة عهد بمثلها (٢) ، ويؤكد الدكتور زكى أن المبدأ فى التعليم كان عند أسلافنا أن يكون مداره اعادة الموروث وتحليله وشرحه ، فكان العالم هو من ازداد الماما بالتراث وقدرة على فهمه وشرحه وتحليله واعرابه ٠٠٠ ان أحدا لم يكن يتصور مجرد تصور أن يكون « التعليم » تعليما لمعالجة الطبيعة ، بحيث ينصب العلم على الزراعة وتركيب الآلات وهندسة المدن ، فذلك حتى ان وجد شىء منه ، كان متروكا

(١) نفس المصدر ، ص ١٨١
(٢) نفس المصدر ، ص ١٨٣

« للخبرة » ينقلها الحرفى الكبير الى الحــرفى الناشىء ، ولا شأن « للعلم » به (١) ٠

والآن نحاول أن نفحص هــذه الأحكام من خــلال عرضنــا للأهداف التربوية عند العامرى :

أهــداف التعلم :

يبين لنا أبو الحســن العامرى أن المفكــرين فى عصره قــد اختلفــوا فيما بينهم حــول أغراض طلب العلــم وأهداف عملية التعلم ، فكان بعضهم يميل الى الموقف الذى بينه الدكتــور زكى نجيب فيما سلف ، ولكن هــذا الموقف لم يكن يمثــل وجهة نظــر مفكرى الاسلام جميعــا ، فقد كانــت هناك وجهــة نظر أخــرى معارضة ، وهى أقرب الى النظرة السائدة فى عصرنا الراهــن ، وقد تبناها العامرى ، ودافع عنها ، منذ أكثر من ألف عام ٠

يقول العامــرى : « ان فــرقة من الفــلاسفة ، وطائفــة من الباطنية ، قد ادعــوا أن المبــرز فى العلوم لن يلزمــه شىء من وظائف العبودية غير الهداية للخليقة ، وأن العاقل منا ليس يلزمه اقتباس العلم ليتوصل به الى الأعمال الصالحة ، بل يلزمه ذلــك ليسلم به عن وحشة الجهالة ، فانها فى ذاتها قبيحة مظلمة ، كمــا أن ضدها فى نفسه حسن ملذ » (٢) ٠

ترى ما المقصود هنا بكلمتى العلم والعمــل ؟ هل العلم كما كان يفهمه العامرى هو مجرد العلم الدينى ؟ وهل كل الأعمــال

(١) نفس المصدر ، ص ٢٠٣
(٢) الاعلام ، ص ٧٧ — ٧٨

الصالحة فى نظره هى مجاهدة النفس واصلاح الخلق ؟ ولئن كان الغزالى (ت · سنة ٥٠٥) قد ذهب هذا المذهب كما بين الدكتور زكى نجيب محمود ، فهل كان الغزالى (١) هو المتحدث باسم المفكرين الاسلاميين جميعا ؟ ها هو أبو الحسن العامرى الذى توفى قبل الغزالى بنحو قرن وربع يستخدم لفظتى العلم والعمل كما نستخدمها نحن اليوم ، فنجده بعد أن يستعرض الرأى السابق الذى فحواه أن العلم يطلب لذاته ،وليس من أجل التوصل به الى الأعمال الصالحة للفرد والمجتمع ، بل لمجرد التخلص من وحشة الجهالة ، يأخذ فى تفنيد هذا الرأى وتبيين تهافته ، فيقول : « ان كل من آثر لنفسه هذه العقيدة فقد ارتكب خطأ فاحشا ، فان العلم مبدأ للعمل ، والعمل تمام العلم ، ولا يرغب فى العلوم الفاضلة الا لأجل الأعمال الصالحة ، ولو جعل الله تعالى الجبلة البشرية مقصورة على تحصيل العلم دون تقويم العمل ، لكانت القوة العملية اما فضلا زائدا ، واما تبعا عارضا · ولو أنها كانت كذلك ، لما كان عدمها ليخل فى عمارة البلاد ، وسياسة العباد » ·

وهكذا يؤكد العامرى أن للانسان قدرتين : قدرة على تحصيل العلم أو التعلم ، وقدرة على تقويم العمل أو التطبيق العملى ، ولا يجوز الاقتصار على احداهما دون الأخرى ، اذ لو كانت احداهما تكفى للانسان ، لما زود الله تعالى الطبيعة البشرية بهما

---

(١) كان الغزالى فى المنقذ من الضلال يستخدم لفظ العمل بالمعنى الواسع بحيث يشمل الطبيعيات والرياضيات والمنطق وغير ذلك فضلا عن العلم الالهى، وأعلن أنه ليس من شرط الدين انكار علم الطب ولاعلم الطبيعيات الافى مسائل معينة ، أما الالهيات ففيها أكثر أغاليط الفلاسفة (ص ١٥١ وما بعدها) · ولكن الغزالى فى رسالته أيها الولد المحب اعتبر الطب من العلوم التى يعد الاشتغال بها ضرب من تضييع العمر (أيها الولد المحب ، ص ٣٤

معا ، كما أن كلا منهما مرتبطة بالأخرى مكملة لها ، ولئن صح الزعم القائل ان تحصيل العلم وحده يكفى ، لما أثر ذلك على حركة العمران ونشاط السكان ، والواقع يشهد بغير ذلك ، فالتخلف العلمى يستلزم التخلف الحضارى ، لأن اصلاح المجتمع فى هذه الحالة سوف يسند الى الجهلاء الأغبياء . ومن أجل ذلك يحذر العامرى من خطورة فصل العلم عن العمل ، فيقول : « كلا ! ان توهم هذا يؤدى الى تفويض الأعمال الصالحة بأسرها الى ذوى الجهل والغباوة ، ولو جعل الأمر كذلك لوجدت الطبيعة الانسية عند اقامتها الأعمال الصالحة مستغنية عن العلوم الحقيقية » .

ولقد كان العامرى يدرك أهمية هذه القضية التى تشغل الفكر المعاصر ، ولذلك عالجها معالجة أكثر استفاضة فى موضع آخر ، فقال : « وهذا الباب قد استقصينا القول فيه فى كتاب الاتمام لفضائل الأنام » (١) . ولكن للأسف لم يصلنا هذا الكتاب .

لم تكن اذن فكرة العلم للمجتمع فكرة غريبة عن العصور الوسطى الاسلامية كما زعم الأستاذ جرونيباوم ، ولم يكن التعليم كله عند فلاسفة الاسلام يستهدف تهذيب الأخلاق كما ظن بعض الباحثين ، ولم يكن التعليم عند جميع أسلافنا بعيدا عن معالجة الطبيعة ، أو بمعزل عن التطبيق العملى فى مجال الزراعة وتركيب الآلات والهندسة المدنية ، وليس أدل على ذلك من تعريف العامرى لعلم الميكانيكا أو ـ الحيل كما كان يسميه ـ بقوله : « وأما الحيل فهى فن مشترك بين (العلم) الرياضى والطبيعى، وبها

---

(١) الاعلام ، ص ٧٨ ـ ٧٩

يتوصل الى استنباط المياه المستكنة فى بطون الأرض ، واساحتها على وجهها ــ وهى اما بالدواليب واما بالفوارات ، وبها يتقوى على حمل الأشياء الثقيلة بمعونة القوى الضعيفة (يقصد الروافع) ، وبها يستعان على اتخاذ القناطر على الأودية القعرة ، وعقد الجسور العجيبة فى الأنهار العميقة ، وغيرها مما يطول شرحه » (١) • وعند عرضنا بعد هنيهة لتصنيف العلوم عند العامرى ، تتضح لنا أهمية كل علم من العلوم السائدة فى عصره ، ورأيه فى مدى الافادة من هذه العلوم فى مجال التطبيق العملى من أجل مصلحة الفرد والمجتمع •

تصنيف العلوم :

يذهب العامرى الى أن العلوم كثيرة ، وهى مع كثرتها متفاضلة ، فان علم العروض وعلم النحو ــ وان كانا فاضلين ــ فانهما لن ينالا فضيلة الفقه الذى به يتوصل الى اظهار العبودية ، ولا فضيلة علم الكلام الذى هو المجاهدة عن الدين باللسان • ان خاصية التفاضل ليست بمقصورة على العلوم ، بل هى عامة للأشياء ، فالشمس والقمر أفضل من المصابيح والشهب ، والبازى أفضل من الدود ، كما أن الناس يتفاضلون فيما بينهم ، بل حتى الأنبياء •

على أن التفاضل بين الأشياء لا يعنى امكان الاستغناء عن بعضها ، ولو توهمنا ذلك لظهر الخلل فى نظام العالم ، مثال ذلك أن غرض السمع والبصر أشرف من غرضى الظفر والشعر ، وقوة الدماغ والقلب أنفذ فى البدن كله من قوة المعدة ، فهل

---

(١) الاعلام ، ص ٩١

يعنى هذا عدم جدوى الظفر أو الشعر أو المعدة ؟ وبالمثل فان العلوم – ولو أنها متفاضلة فيما بينها – الا أن كل واحد منها ، وان قل خطره ، فانه فى نفسه جليل الشأن ، رفيع المكان ، وما الذل والنقيصة الا فى الجهل والغباوة (١) ·

ويقسم العامرى العلوم كلها مجموعتين : العلوم الملية والعلوم الحكمية ، ولكل من المجموعتين أداة ، فصناعة الأدب تنزل منزلة الأداة للعلوم الملية ، وصناعة المنطق تنزل منزلة الأداة للعلوم الحكمية (٢) · ويدعو العامرى الى أن تتضمن برامج التعليم كلا من المجموعتين ، لأن كل مجموعة منهما تشمل من العلوم الهامة ما لا يمكن الاستغناء عنه ، على نحو ما يلى :

أولا – العلوم الحكمية :

ويقصد بها العلوم ذات المصادر الأجنبية ، أو على وجه التحديد علوم اليونان ، والمصطلح الذى يستخدمه للدلالة عليها ، وهو العلوم الحكمية مشتق من الحكمة أى الفلسفة ، اذن فالمقصود بالمصطلح العلوم الفلسفية أو علوم الفلسفة ، ومن المعلوم أن لفظ الفلسفة كان يقصد به حتى أوائل العصر الحديث جميع العلوم العقلية والمعارف الانسانية ·

ويثنى العامرى على حركة ترجمة التراث الأجنبى الى العربية ، ويلاحظ أن « الألباء من أهل الاسلام قد سعدوا ··· لنقل الكتب المنسوبة الى ذوى الشهرة من حكماء الروم ، وحكماء الفرس ،

---

(١) الاعلام ، ص ٩٩ – ١٠٠

(٢) الاعلام ، ص ١٨٠

وحكماء الهند ، وحكماء يونان ، واستقصوا تأمل معانيها ، وحلوا مواقــع الشبهة منها ، وتولــوا شرحها واذاعتهــا » ، ولكى يثبــت العامرى أن ترجمة كتب الحكماء الأجانب انما هى عمل مشروع ، يستشهد بقوله تعالى « فبشر عباد ، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئــك الذين هــداهم الله وأولئــك هم أولوا الألبــاب » (الزمر : ١٧ ، ١٨) وبحديث ينسبه الى الرسول (١) عليه الصلاة والسلام ، وهو : « العلم كثير فخذوا من كل شىء احسنه » (٢) ·

ولكن ألا يقدح فى مشروعية الترجمة أن معظم من قاموا بهــا كانوا من المسيحيين السريان ؟ يقول العامرى : « وليس لقــائل أن يقول : ان الأكثرين من المترجمين كانــوا يتدينون بالنصــرانية وبالصباوة — فانهم ما فعلوا ذلــك الا لما شاهدوا من قوة الاســلام وشرفه ، وما كان قصدهم الا التقرب الى الخلفاء الضابطين لعــرى الاسلام وقواعده » (٣) ·

ويشير العامرى الى العــداء الذى واجه العلــوم الحكمية عند انتقالها الى العالم الاسلامى ، فيقول : « ان العلوم الحكمية قد طعن عليها قوم من الحشوية (٤) ، وزعموا أنها مضادة للعلوم الدينية ، وأن من مال اليها ، وعنى بدراستها ، فقد خسر الدنيا والاخرة · قالوا : وليست هى الا ألفاظا هائلة ، وألقابا مزخرفة ، زينت بمعان

---

(١) وينسبه الى على بن أبى طالب فى موضع آخر من كتاب الاعــلام ، ص ١٢٢

(٢) الاعلام ، ص ١٨٢

(٣) الاعلام ، ص ١٨٣

(٤) الحشوية مصطلح يستعمل بمعــان مختلفــة باختــلاف الفرق التى تستعمله ، فأهل السنة يرون أن « الحشو » هو حشو الحديث بالاخبار الغريبة الموضوعــة ، أما الشيعــة فيستعملون اللفظ · بمعنى شطط الكلم وساقطــه (راجع تعليق د· غراب ، ص ٨٦ هـ ١)

ملفقة ، لينخدع بها الجاهل الغر ، ويولع بها المتطرف الغمر » .

ثم يبطل العامرى هذا الزعم ، ويفنده ، فيقول : « وليس الأمر كذلك ، بل توجد أصولها وفروعها عقائد موافقة للعقل الصريح ، ومؤيدة بالبرهان الصحيح حسب ما توجد العلوم الملية . ومعلوم أن الذى حققه البرهان واوجبه العقل ، لن يكون بينه وبين ما يوجبه الدين الحق مدافعة ولا عناد » (١) .

ويأخذ العامرى بوجهة النظر المشائية فى تقسيم الفلسفة تقسيما ثنائيا ، على النحو التالى :

أ — العلوم الحكمية النظرية :

وتفتن الى الصناعات الثلاث الآتية : صناعة الرياضيين ، صناعة الطبيعيين ، صناعة الالهيين . أما صناعة المنطق فهى نازلة منزلة الآلة (٢) .

ب — العلوم العملية :

وهى تتعلق بثلاثة أصناف من القنيات المتصلة بالانسان :

١ — القنيات النفسانية (وهى موضوع علم الأخلاق) ، وتحصل بقمع القوة الشهوانية ، ورياضة القوة الغضبية ، وجعل القوة العاقلة رئيسا على القوتين السابقتين . وواضح هنا الأثر الأفلاطونى .

---

(١) الاعلام ، ص ٨٦ — ٨٧

(٢) الاعلام ، ص ٨٧

٢ ـ القنيـات الكذخـداييـة (٣) (وهى موضـوع علم تدبير المنزل) ، وتتعلق بمزاوجات (علاقات) أربعة : مزاوجة الرجل مع امرأته ، ومزاوجة الوالد مع أولاده ، ومزاوجة المالك مع أملاكه ، ومزاوجة الملك مع رعيته ٠

٣ ـ القنيات الرياسية (وهى موضوع علم السياسة المدنية) ومدارها كلها معلق بالانتصاب لحفظ طبقات الخليقة وصناعـاتهم على خصائص مراتبها ، بحسب نسبة بعضها الى بعض ، على مايوجبه الدين الصحيح ، والرأى الصريح ٠

واذا كان العامـرى قد اكتفى بهذه الاشـارة الموجزة لأقسام الفلسفة العملية ، واقتصر على ما ذكره من عبارات مختصرة (١) ، فانه على العكس من هذا يعود الى أقسام الفلسفة النظرية ، ويعرض بالتفصيل لموضوع كل منها ، وأهميته ، ويدحض مزاعم خصومها ، ويبطل دعاوى تحريم الاشتغال بها وتعلمها ٠

١ ـ صناعة الرياضيين :

وهى مفتنة الى شعب خمسة (٢) هى :

١ ـ العـدد (علم الحسـاب) : والارتياض به ، والمهـارة فيه ، تجعل الفكـر ينغمس فى اللـذات العقلية ، بحيـث لا يشبع العاقل من الاستمتاع به ، فضلا عن أهمية هـذا العلم من الناحية

---

(٣) لفظ مشتق من الكلمة الفارسية كدخدا أى رب المنزل (كد = البيت ، خدا = رب) ، راجع تعليق د٠ غراب ص ٨٠ الهامش ٠
(١) الاعلام ، ص ٧٩ ـ ٨١
(٢) الاعلام ، ص ٨٨ ـ ٩١

العملية ، اذ أنه « المحتكم اليه فى المعاملات » .

٢ — الهندسة : وهى تتلو العدد فى جلالة القدر ، وهى أقرب الى الادراك لوقوعها تحت الأمثلة الحسية ، ويشير العامرى الى الأهمية العملية للهندسة ، فيقول : « لولاها لما قدر الحساب على استخراج الجذور الصم ، ولما قدر المساح على معرفة أشكال العقارات ، ولما وصلت العقول الى التحقيق لمبلغ الأبحر فى أطوالها وعروضها ، ومبلغ الجبال فى أعمدتها وارتفاعها . هذا — أيدك الله — مع ما ينتفع به الحذاق من البنائين والنجارين والنقاشين والصواغين ، وما يتوصل بها الى اتخاذ الآلات الرصدية : كالكرى (١) والاصطرلابات (٢) وذوات الحلق (٣) والرخامات (٤) .

٣ — التنجيم : ويقصد به العامرى — كالكندى من قبل — علم الفلك ، اذ يحد هذا العلم بأنه « باحث عن هيئة العالم العلوى فى كميته وكيفيته ، وحركات كل جرم من أجرامه ، واستخراج علل كسوفاته ، وما يلحق بالخنس الجوارى (أى الكواكب السيارة) من الحالات المختلفة ... » .

٤ — التأليف : « فهو ما لا ينكر شرفه ، فان اقامة البراهين على ما يأتلف وما لا يأتلف من القوى والمقادير فى العالم السماوى والعالم الأرضى ، بل وفى العالم الروحانى والعالم الجسمانى معلق

---

(١) الكرة آلة كانت تعرف بها هيئة الفلك وصورة الكوكب .
(٢) الاصطرلاب آلة كان يقاس بها ارتفاع النجوم
(٣) ذات الحلق آلة كان يرصد بها الكوكب .
(٤) الرخامة كانت آلة من آلات الساعات الفلكية

به • ولولا قوة هذه الصناعة لما وصل المنجمون الى تحقيق ما ادعوه من أحوال الكواكب فى اتصالاتها وامتزاج أشيعتها ، ولما وصل العروضيون الى اقامة العلل فى أوزان الشعر ، وانحصار أجناسها الخمسة عشر فى الدوائر الخمسة • وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : زينوا القرآن بأصواتكم » (١) • فما المقصود بالتأليف ؟ سبق أن ذكرت أن الدكتور احمد فؤاد الأهوانى قد أشار الى أن هذا اللفظ الذى استعمله الكندى انما هو ترجمة لكلمة الموسيقى (٢) ، أما الدكتور احمد عبد الحميد غراب فيرى أن هذا اللفظ يستعمله كل من الكندى والعامرى فيما هو أعم من الموسيقى (٣) • والرأى عندى أن لفظ التأليف انما هو ترجمة لكلمة الموسيقى ، لا بمعناها الضيق الذى نفهمه اليوم ، وانما بمعناها الواسع الذى كان يقصده أفلاطون (٤) ، حيث كانت كلمة الموسيقى (٥) عنده ـ كما لاحظ برتراند رسل ـ تشمل كل شىء فى عالم الفنون والاداب ، أى أن الموسيقى عند أفلاطون تكاد تشمل بمعناها ما نعنيه نحن اليوم بكلمة ثقافة (٦) • وهكذا تكون مهمة « التأليف » عند العامرى ـ متابعا فى ذلك أفلاطون ـ هى اعداد الانسان المثقف ثقافة عامة ، كما يتضح من النص السابق •

٥ ـ الحيل : ويقصد بها العامرى علم الميكانيكا التطبيقى ،

---

(١) الاعلام ، ص ٩٠ ـ ٩١
(٢) د• الاهوانى : الكندى ، ص ١٠٧
(٣) الاعلام ، ص ٩٠ ، هـ ٣
(٤) راجع :
(٥) يجب ملاحظة العلاقة اللغوية بين كلمتى music التى معناها موسيقى ، وكلمة muse التى معناها ربة الفنون ، كما أشار الدكتور زكى نجيب محمود فى ترجمة لكتاب برتراندرسل : تاريخ الفلسفة الغربية : ١ / ١٧٥ الهامش •
(٦) رسل : تاريخ الفلسفة الغربية : ١ / ١٧٥

وهو يحد الحيل بأنها « فن مشترك بين الرياضى والطبيعى » ، أى أنها علم مشترك بين علم الرياضيات وعلم الطبيعيات . ولهذا العلم وظائف متعددة ، فنحن نتوصل به استخراج المياه من باطن الأرض للانتفاع بها ، وذلك عن طريق آلات رفع المياه ، وعن طريق معرفتنا بقوانين الميكانيكا يمكن « حمل الأشياء الثقيلة بمعونة القوى الضعيفة » ، كما هو معروف فى قانون الروافع (١) ، ويستعان بعلم الحيل أيضا على بناء القناطر على الأودية والجسور على الأنهار ، وغير تلك مما يطول شرحه (٢) .

وبعد أن يفرغ العامرى من عرض هذه العلوم الرياضية ، يؤكد « أنه ليس بينها وبين العلوم الملية عناد ولا مضادة » (٣) ، أى لا تعارض بينها وبين العلوم الدينية ، ومن ثم فلا ينبغى انكارها أو رفضها .

٢ – صناعة الطبيعيين :

وهى « متعلقة بالجسمانيات الواقعة تحت المشاعر » ، أى أن العلوم الطبيعية تعالج الأشياء المادية المحسوسة بخلاف المجردات التى يدرسها الرياضيون . ويقسم العامرى صناعة الطبيعيين الى قسمين :

أولهما يتلعق بالمبدعات بتمام قدرته الالهية ، نحو الأفلاك والكواكب والأسطقسات الأربعة أى العناصر الأربعة التى قال بها أنبا ذوقليس .

---

(١) القوة × ذراعها = المقاومة × ذراعها
(٢) الاعلام ، ص ٩١ . وقد سبق أن ذكرت النص كاملا
(٣) الاعلام ، ص ٩١

ثانيهما يتعلق بالمكونات عن المبدعات السابقة ، بالتسخير الالهى ، وهذه تنقسم بدورها ثلاثة أقسام :

١ ـ الحادث فى الجو كالثلج والأمطار والرعد والبرق والصواعق والشهب ، أى علم الأرصاد الجوية ٠

٢ ـ الحادث فى المعادن كالذهب والفضة والحديد والنحاس والزئبق والرصاص ، أى علم الكيميا ٠

٣ ـ الحادث بين الطرفين وهى منقسمة الى (علمى) النبات والحيوان ٠

وللطبيعيات فروع شتى ، يبينها العامرى ، ويشير الى أهميتها العملية ، فيقول : « وقد يتولد من هذا العلم صناعات شريفة كالطب والطبيخ (علم تركيب الأدوية) والأصباغ والأطلية ٠ ثم هو الذى شهد له بنفاسة الفائدة ، وجزالة العائدة » ٠ ويشير الى بعض الآيات الكريمة والأخبار الدالة على أن صناعة الطبيعيين ـ كسابقتها ـ « ليس بينها وبين العلوم الملية عناد ولا مضادة » (١) ٠

٣ ـ صناعة الالهيين :

لا يدرك الطالب أغراض هذه الصناعة « الا بقوة العقل المجرد ، وهذه القوة تسمى لبا ، ولب كل شىء هو خلاصته » ٠ أما موضوعات الفلسفة الالهية فهى البحث عن الأسباب الأولية

---

(١) الاعلام ، ص ٩٢

لحدوث الكائنات العالمية ، ثم التحقق للأول الفرد الحق (عز وجل) . وليس يشك أن الفوز بهذه الغبطة هو المنيل للسعادة الأبدية . وقد يصعب الارتقاء الى تحصيل الالهيات الا بعد تحصيل « المعلومات الأخر » التى نجعلها ذريعة لنا الى تحصيل الفلسفة الالهية . أما ما هى هذه المعلومات الأخر التى ينبغى تحصيلها قبل تعلم الفلسفة الالهية ؟ فان العامرى يذهب الى انه قد ذكرها فى كتاب مفقود عنوانه « العناية والدراية » ، ولم يكن الأوائل (اليونانيون) يسمون أحدا من الناس حكيما الا اذا فاز بهذه المعرفة . ويختتم العامرى حديثه عن صناعة الالهيين بالعبارة التقليدية « من المحال أن يكون بينها وبين العلوم الملية عناد أو مضادة » (١) .

٤ ــ صناعة المنطق :

لا يعد العامرى المنطق قسما من أقسام الفلسفة ، كما هو الشأن عند الرواقيين ومن حذا حذوهم ، وانما يأخذ بوجهة النظر المشائية ، فيصرح بأنه آلة لعلوم الفلسفة . ويتولى الدفاع عن المنطق ضد الحملات التى شنها عليه طائفة من المتكلمين . ويلخص هجومهم عليه فى حجتين ، ثم يدحضهما على النحو التالى :

١ ــ يقولون : لو نظرنا فى الكتب المنطقية ، لم نحصل منها الا على ألفاظ منغلقة . ويدحض العامرى هذه الحجة ، فيذهب الى أن قصور أفهام المتكلمين عن معانى الكتب المنطقية غير دال على فسادها ، بل ان المعترف بقصور فهمه عما تتضمنه هذه الصناعة

(١) الاعلام ، ص ٩٢ ــ ٩٣

من معان ، قد صار شاهدا بأن حكمه عليها يكون لا محالة مردودا ، وانما عليه أن يستفهم مضمونها ثم يحكم بالصواب أو الخطأ عليها ٠

٢ ـ يذهبون الى أن أرباب هذه الصناعة ، اتفقوا على أن الفائدة العظمى من اقتنائها هى المهارة فى شروط الاستدلال ، وأن منزلتها من العلوم النظرية مضاه لمنزلة صناعة العروض من أصناف الشعر ، ولكن ألا يمكن الاستغناء عن علم العروض بالنسبة لرجل اقتدر بذوقه على تقوال الشعر ؟ لئن صح ذلك فيكون المقتدر بفهمه على استعمال المقاييس ذا غنية عن صناعة المنطق ٠ وهذه أيضا حجة واهية عند العامرى ، فان العاقل منا ، وان اتفقت له الاصابة فى مقاييسه ، فان خصمه متى نازعه فى صحتها ، وادعى عليه صحة قياس مخالف لقوانينه ، لم يمكنه تحقيق ما نوزع فيه الا اذا كان عنده هذا الميزان اليقينى ، وكذلك الحال فيمن نوزع فى صحة بيت من الشعر ، فانه لن يتوصل الى تحقيق الصواب الا بقوة صناعة العروض ٠

وبعد أن بين العامرى سقم الحجتين السابقتين ، يذكر وظيفة صناعة المنطق أو فائدته وهى كما يتصورها على النحو التالى :

١ ـ انها آلة عقلية تكمل بها النفس الناطقة التمييز بين الحق والباطل فى الأبواب (العلوم) النظرية ، وبين الخير والشر فى الأبواب العملية ٠ ومحلها من الأنفس المستعملة لها قريب الشبه من محل عيار معدل توزن به المعلومات ، وبها يقتدر على حل الشبهات ، وكشف التمويهات ٠

٢ — ويستفاد بهـا أيضا من اللـذة العقلية التى تصفـو باستعمالها ، ومن الطمأنينة فى المعارف ، ما تصير به النفس من ذاتها أحـد الدعـاة الى اقتباس الحكمـة ، لا لتجلب بها حمـد الاخوان ، بل لتغتبط باصابة الحق من جهتها وروح اليقين (١) .

ثانيا — العلوم الملية :

ويقصد بها العامرى العلوم الاسلامية والعربية الخالصة ، وكما أن للعلوم الحكمية خصوما ، فكذلك للعلوم الملية أو الدينية خصوم ، واذا تقرر هذا فمن الواجب قبل أن نصرف القول الى ذكر أقسام العلوم الملية وموضوعاتها ، أن نحكى أولا مذهب من يزدريها ، ويغض من مقـدارها ، ونحل مـا يورده من الشبهة واللبس .

فمن هم اولئـك الذين يزدرون العلوم المليـة ؟ وما هى مزاعمهم ؟ يقول العامرى : « زعم بعض المتظرفة الذين حملهم المجون والخلاعة على الاستثقال لوظائف العبادات ، والانكـار لعزائم الأمـر ، انه ليس تحت شىء من الأديان علـم يقتضى العقل ايثاره ، والاعتداد به ، فانها فى الحقيقة مثل شرعية ، وأوضاع اصطلاحية ، تأخذ كـل ملة منها حظا تنتفـع به فى اقامة معاشها ، ودفع أسباب العبث عن انفسها ، ولو كان لهـا حقيقة لاستغنى فيهـا عن التوقيـف ، ولنيط أمرها بالعقـل ، ولو فعل ذلك لما صاروا فيها فرقا شتى ، وأحزابا متفرقين » .

هكذا يعرض العامرى لموقف الملاحدة ممن أنكروا الأديان

---

(١) الاعلام ، ص ٩٣ — ٩٥

جميعا ، بدعوى أنها لا تستند الى العقل ، وانما هى فى زعمهم نظم وضعتها المجتمعات ، لكى تحافظ على بقائها ، ولتحمى أنفسها ، ولو كانت للأديان حقائق لاستندت الى العقل ، ولكنها تتضمن التسليم بأمور توقيفية ، أى يتوقف عندها العقل ، ولا يبحثها كالمسائل الغيبية ، ولو أن أصحاب الأديان استغنوا عن عقائدهم ، واتبعوا العقل وحده ، لما اختلفوا وانقسموا الى طوائف شتى .

ويزعم هؤلاء الملاحدة أن قبول العقائد الدينية ، والتسليم بها ، انما هو امتهان النفس فيما لا يوجبه العقل ، وهذا شغل لا يفيد نائلا ، ولا يجدى طائلا ، فيجب على العاقل ـ فى نظرهم ـ « أن يعمد الى ما توجد الفرق كلها متفقة على اختياره ، كالعدل ، وصدق القول ، والوفاء بالعهد ، والأداء للأمانة ، ونصرة الضعيف ، واغاثة اللهيف ـ فيجعلها سيرة لنفسه ، ويترك ما عداها مما تنازعت فيه الأمم ، وتجاذبت فى شئونه الهمم » .

ويبطل العامرى هذه الدعوى مبينا أنها لا تصدر الا عن رجلين : اما رجل ضعفت منته عن اعطاء البحث حقه ، أى تقاعس عن بحث حقيقة عقيدته ، فصارت هشة ، وضعف ايمانه ، فانتهى فى اعتقاده الى حيرة وارتياب ، أو رجل أطلق نفسه لما تشتهيه من اللذات العاجلة ، وليس يهتم بما يؤول اليه الأمر فى العاقبة . وهذان الرجلان يبغضهما كل الناس ، ويشنون عليهما حربا ، ويحكمون بأنهما الأرذلان مذهبا ، الأحقران عملا .

أما القول ان العلوم الدينية كلها مثل شرعية ، وأوضاع اصطلاحية فهو قول باطل لان الاديان كلها تستند الى « الأركان الأول » ، وهى : الاعتقادات ، والعبادات ، والمعاملات ، والمزاجر (الحدود) ، وهى أمور عقلية ، أى يقتضيها العقل ويقرها ، ذلك « أن العقل الصريح لن يطلق لذوى الألباب ترك تعبد المولى ، ولن يطلق لهم ترك معاملة بعضهم لبعض بالحسنى ، ولن يطلق ترك زجر الأشرار عن السوء • وما ليس يطلق العقل تركه واهماله ، فهو يوجب اثباته وربطه » •

ويقيم العامرى التربية الدينية على دعامتين : العقل والنقل ، ذلك أن عقولنا الجزئية تقصر عن المعرفة الكاملة ، فيحوجنا الضعف الى من له الخلق والأمر • ان العقل يضطر فى بعض الأمور الى الالتجاء الى الوحى ، لعجزه عن ادراك الحقائق كلها بذاته (١) •

ويبرز العامرى مكانة العلوم الملية ، ويذهب الى أنها أشرف العلوم كلها منزلة لما يأتى :

١ ـ تفيد الانسان فى الزلفى الى مولاه ، وتمكنه من اخلاص العبودية لله ، وطلب مرضاته ، ولا يتم ذلك الا بعلم دينه الحق ، دون ما سواه من العلوم الأخر •

٢ ـ لا تستهدف العلوم الدينية النفع الخاصى ، أو الفائدة الجزئية ، بل يقصد بها أبدا المصلحة الكلية ، والحاجة

(١) الاعلام ، ص ١٠١ ـ ١٠٤

الى ما يعم الخلائق جدواه تكون آمس منها الى المقصور نفعه على شخص واحد ٠

٣ — يمتاز العلم الدينى بأنه يقتبس موضوعاته من الوحى الالهى الذى لا يعرض الشك عليه ، ولا يجوز السهو والغلط فيه ، أما العلوم الآخر فليس واحد منها كذلك (١) ٠

وتفتن العلوم الملية كلها الى صناعات اربعة ، وهى : الحديث ، والكلام ، والفقه ، واللغة ٠ وقد جعل العامرى الصناعة الأخيرة ، اى صناعة اللغة او الأدب كالالة للعلوم الملية :

(١) صناعة الحديث :

يقرر العامرى « أن علم الحديث جعل كالمادة للعلوم الدينية ، فله فضيلة الابتداء » ٠ ويستهل حديثه عن هذا العلم بالدفاع عنه ضد خصومه ، فيذكر أن طائفة من المتكلمين اتفقت على تهجين صناعة الحديث ، ولقبوا أربابها بالحشو والطغام ، بل اخرجوهم من جملة العلماء ، واحتجوا بأن علم الخبر نظير لعلم المدرك بالبصر ، وكما لا يجوز أن يسمى عالما برؤية الأبصار ، لايجوز أن يسمى عالما بسماع الأخبار ، وانما يستحق تسمية العلم ما كان تعلمه معلقا بحركة النفس العلامة ، واجالة الفكر والروية ٠

ويدحض العامرى هذا الموقف النقدى ، فيبين أن علم

---

(١) الاعلام ، ص ١٠٥ — ١٠٦

الحديث ليس بمقصور على ادراك الأصوات ، لكنه نظير الكتابة المشتملة على المعانى ، وان كانت الحروف بصورها هى المدركة بالبصر . انه علم يتفنن فى الأساليب ، ويتشعب فى الأبواب ، وتعتمد عليه شتى العلوم ، فهو اذن مادة لها كما تقدم . بل ان الدين مؤسس بنيانه على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وقد قال تعالى « من يطع الرسول فقد أطاع الله » (النساء : ٨) تلك هى منزلة الحديث الذى هو « زبدة تراثه عليه الصلاة والسلام » .

ويبين العامرى أن العناية بالحديث ، وجمعه ، وتمييز الصحيح منه عن الباطل ، ليس أمرا هينا ، بل انه علم دقيق يقوم به علماء متخصصون « ان أصحاب الحديث هم المعنيون بمعرفة التواريخ العائدة بالمنافع والمضار ، وهم العارفون لرجال السلف بأنسابهم وأماكنهم ، ومقادير أعمارهم ، ومن اختلف اليهم ، وأخذ العلم عنهم ، بل هم المتحققون لما يصح من الأحاديث الدينية وما يسقم ، ويقوى منها ويضعف . بل هم المتجشمون للحل والترحال فى أقاصى البلدان وأدانيها ، ليأخذوا عن الثقات سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم . بل هم المجتهدون أن يصيروا نقاد الآثار ، وجهابذة الأخبار ، فيعرفوا الموقوف منها والمرفوع ، والمسند والمرسل ، والمتصل والمنقطع ، والنسيب والملصق ، والمشهور منها والمدلس ، وأن يصونوا صناعتهم صيانة لو رام أحد أن يفتعل حديثا مزورا ، أو يغير اسنادا ، أو يحرف متنا ، أو يروج فيها ما

روج فى الأخبار الأدبية ، كالفتوح والسير ولاسمار والوقائع — للحقه من جماعتهم أعنف النكير » (١) .

(٢) صناعة الكلام :

كما أن لعلم الحديث خصوما من المتكلمين ، فان لعلم الكلام خصوما من المحدثين « ان قوما من حملة الآثار أقدموا على ثلب المتكلمين ، وأولعوا بذم صناعة الكلام ، ونسبوا أربابها الى البدعة والضلال ، واحتجوا بأنهم ليسوا يعرفون الا بأصحاب الجدل الذى وضعه الله تعالى فى موضع الذم (٢) . . ولهذا لم يوجد الصحابة خائضين فيه ، أومائلين اليه . ومعلوم أنهم ما كانوا ليتركوه الا لعلمهم بأنه أمر قد حظر عليهم » .

ويدافع العامرى عن علم الكلام ، ويبين أهميته ، ويدحض مزاعم منكريه على النحو التالى :

١ — يستشهد العامرى بقوله تعالى « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » (انحل: ٢٥) وكأنه يريد أن يستخلص من هذه الآية الكريمة أن الجدال ليس كله مذموما لأن « الشىء المذموم لن يقع فيه ما هو أحسن » ، ومن ثم فان علم الكلام الذى يستند فى منهجه الى الجدل غير مذموم ، بل على العكس انه ثمرة دعوة قرآنية .

---

(١) الاعلام ، ص ١١١ — ١١٤

(٢) راجع : سورة الانفال : ٦ ، سورة البقرة : ١٩٧

٢ _ لقد جادل عمر بن الخطاب اليهود فى شأن جبريل عليه السلام ، وأفحمهم ، كما أن أقوال على بن أبى طالب « نزلت من الشهرة والقوة بحيث لا يليق بأحد من ذوى الألباب أن ينسب الصحابه الى الاعراض عن صناعة الكلام » ٠ بل كان الصحابة على علم بهذه الصناعة ، ولم يرفضوها (١) ٠

٣ _ ينقسم الدين بين أشياء تحل محل الأصول كالاعتقاد فى توحيد الله ، واثبات الرسل ، والمعاد وهذه بعض مباحث علم الكلام ، وبين أشياء تحل محل الفروع ، وهو مايلزم المسلم اقامته من الشرائع والأحكام ، وهذه هى موضوعات علم الفقه ٠ ويعقد العامرى مقارنة بين العلمين من حيث المكانة ، فيضع علم الكلام فى الصدارة ، اذ « أن الأصل مقدم على الفرع ، اذ الفرع يفسد بفساده ، ولهذا ماعد الخطأ فى أصول الدين (٢) كفرا ٠ وأهل صناعة الكلام هم المحتسبون بتوطيد أركان الدين » ٠

٤ _ تستعمل صناعة الكلام مع الذمى كما تستعمل مع الملى ، وبها يصير الانسان داخلا فى جملة الخاصة الذين يبنون عقيدتهم على البصيرة ، أى على أساس عقلى لا على التقليد ، كما هو شأن العامة ، ويشيد العامرى بطريقة الخاصة ، مستشهدا بقوله تعالى « قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى » (يوسف : ١٠٨)

---

(١) يتفق هذا الموقف مع موقف ابن تيمية من علم الكلام ٠ راجع كتابنا : ابن تيمية وموقفه من الفكر الفلسفى ٠

(٢) يعرف علم الكلام بأسماء _ عدة منها أصول الدين ، علم التوحيد ، الفقه الأكبر ٠

ويخلص العامرى مما تقدم الى أن المتكلمين يستحقون الشكر والاحماد لأنهم المدافعون عن الدين ، والصائنون لأصوله من شوائب الجرح ، فلا ينبغى ان يقتصر المدح على المدافعين عنه بالجلد والقوة والسلاح والعدة (١) ·

(٣) صناعة الفقه :

كان لعلم الفقه خصوم من الشيعة وأهل السنة على السواء · يقول العامرى : « ان صنفا من الامامية ، وطائفة من الحنابلة ، عابوا صناعة الفقة ، ونسبوا اربابها الى ارتكاب البدعة ، وقالوا : ان الأحكام الدينية من حقها أن يتبع فيها الكتاب والسنة ، دون الراى والقياس (٢) ، وخصوصا فى باب التحليل والتحريم ··· » · ويبطل العامرى هذا النقد كالآتى :

١ — لقد وردت آيات كريمة وأحاديث صحيحة فى الدعوة الى التفقة فى الدين ، ومدح الفقه واستحسان الاجتهاد ، مثل قوله تعالى « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ··· » (التوبة : ١٢٢) ، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم « رب حامل فقه الى من هو افقه منه » (سنن ابن ماجه : ١ / ٥٢) ، كما أنه رضى من معاذ حين وجهه الى اليمن فقال : « بم تحكم بعد كتاب الله وسنة الرسول ؟ » فقال معاذ : « أجتهد رأيى » (مسند أحمد : ٥ / ٢٣٠) ·

٢ — كان الصحابة من بعد الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) الاعلام ، ص ١١٤ — ١١٦

(٢) وهذا هو موقف الشوكانى المار ذكره .

فرقتين : فرقة أقدمت على اسـتعمال المقاييس ، وفرقـة آثرت الكف عنها من غير أن توجه المعابة على الفرقـة الأولى · وليس يشك أنه لو كان محظورا فى الدين لوجد منهم طائفة تستنكر صنيع أولئك الذين استعملوا القيـاس ، واذن قد دل سكوتهم عنه على أنهم لم يعتقدوا فيـه الخطر ، فصـار استعمالـه على الحقيقة حكما اجماعيا ·

٣ ــ « ان الآثار المرويـة ــ وان كثرت ــ فانها تنحصـر ، بحيث لايحتمل الزيادة عليهـا ، والحوادث العارضة للخليقـة هى فى القوة غير متناهية » ، وهكذا لم يوجد بد من الرجـوع الى الاجتهاد ، ومن العبث القـول بالرجوع الى الامام المعصوم كما ادعته الاثناعشرية (١) ·

٤ ــ « من قوة هذه الصناعـة أنها وجدت مشاركة للملك فى سياسة الخليقة » اى ان الفقه آمر لا غنى عنـه فى الحكم ، ولا يمكن للحكام أن يقوموا بدورهم فى سياسة المجتمعات بدون الاعتماد على الفقهاء ، فهم فى حاجة الى الفقهاء ، كما أنهم فى حاجـة أيضا الى علماء الحديث والكلام « ان الملوك لو أعرضوا عن جماعة المحدثين وجماعة المتكلمين ، ولم يستعينوا بواحـد منهما ، لأخلوا بما هو عمدة فى قوام ملكهم ، وبمثله لو لازموا الاعراض عن جملة الفقهاء ، لكانوا قد أفسدوا ملكهم » ·

ان دور الفقهاء فى المجتمع « فيما استنبطوه من الأحكام ــ فى معاملاتهم ــ لفصل الحكومـات وقطع الخصومـات ، وكتب

---

(١) راجع ؛ ؤ ف الغزالى المشابه ــ المنقذ من الضلال ، ص ١٦٥ وما بعدها

الوثائق ، واستعمال الشروط » يضاهى دور « الأطباء الذين اعتدوا للأدواء المردية قبل حدوثها أدوية يستشفى بها عند طلب البرء منها » ، وكما أن الله تعالى أقام للخليقة أصول الأغذية ، ثم هداهم لجهات تمييزها ليستخلصوا باجتهادهم خصائص الموافق منها ، فكذلك أيضا شرع لهم فى أمر دينهم أصولا جامعة ، ووهب لهم العقول الصحيحة ، ليستعملوها فى رد الفروع اليها • وأخيرا يشيد العامرى بمذهب أبى حنيفة الذى أفشى طريقة الرأى والقياس •

(٤) صناعة الأدب :

هى أحد العلوم الملية الأربعة ، وفى نفس الوقت كالالة لها كلها ، فهى بمثابة وسيلة للتسهيل والتيسير (١) فى عرضها • وينقسم الأدب عند العامرى الى أربعة أقسام : الشعر ، والخطب ، والرسائل ، والأمثال •

وقد كان للدراسات الأدبية أيضا خصوم يستنكرونها ، ولا يرون أهمية فى تعلم الآداب ، ويبدو أن بعض الصوفية فى عصر العامرى كانو ممن شنوا على دراسة الأداب ، وهذا يستفاد من قول العامرى : « وجدنا طائفة من النساك يعيبون الآدب ، فيزعمون أن المشغوف باقتنائها لن يكون الا أحد رجلين : اما رجل همته المدح باللسن والفصاحة ، واما رجل يتحلى بها عند الأشراف والأجلة ، تدرجا برونقها الى النفع والرتبة • وكلاهما مخدوعان عن التمسك بالعبادة ، أو التطلب للحكمة » •

---

(١) الاعلام ، ص ١١٠ — ١١١

ويعلن العــامرى فى حسم أن هذا القول من هذه الطائفــة خطأ عظيم ، ويدافع عن الآداب من حيث أنها « صناعة لا حقة بالبيان الذى ينزل عند الأنفس اللطيفة منزلة الزمام واللجام » .

والناظر فى مصنفات العــامرى يتبين له أنه يندرج تحت طائفة الفلاسفة الأدباء الذين ازدهروا فى القرن الرابع الهجرى من أمثال صــديقه أبى حيان التوحيــدى الذى لقب بفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفــة . لقد كان معظم المشتغلين بالفلسفــة فى القرن الســابق (أى الثالث) من النقلــة السريان الذين لا يحسنون التعبير بالعربيــة فى الغــالب ، فخلت كتاباتهم من جمال الاسلوب ، مما دعا الكندى ـ كما ذكرنا ـ الى محــاولة اصلاح بعض ما قام به السريان من ترجمــات ركيكة ، الا أن الكندى لم يتمكن من التخلص تماما من فجاجة الأسلوب ، وكذلك الحال بالنسبة للفارابى ، ولكن بعد المعلم الثانى ظهر جيل من المفكرين ، هو جيل الفلاسفة الأدبــاء ، ممن نجحوا فى الجمع بين الفكر الفلسفى العميق وبين التعبير الأدبى اجميل ، ودعوا الى ذلك ، وهاهو العــامرى يمتــدح « المفــوه المنطيق » ويبين الخطأ العظيم الذى يقع فيه كل من اقتصرت عنايته على الأفكار أو المعانى دون الألفاظ ، فيقــول : « على أن محل الألفــاظ من المعانى أشبه شىء بمحل الأنفس من الأبدان ، وكما أن الانفس الشريفة لن تظهر أفعالها الحميدة الا فى الأبدان المختصة بمزاج فاضل ،كذا المعانى الحقيقية لن يتهيــأ تصويرها الابالألفاظ الشهية » .

ونظرا لأن « طائفة من النساك » كانــوا يعيبون الآداب ، لذلك لجأ العامرى فى ابطال موقفهم الى بعض الأدلة النقلية ،

بعد أن اثبت عقليا عقم موقفهم ، فأورد الحديث الصحيح « ان من البيـان لسحـرا » (رواه البخـارى واحمـد وأبـو داود والترمذى) ، وقوله تعـالى : « خلق الانسـان علمـه البيـان » (الرحمن : ٤) .

وليس المراد من‌الآداب حسن التمكن من الفصاحة فحسب ، بل المراد منها ما تشتمل عليـه من « فوائد يستعـان بها على تشحيذ العقول ، من الحكم البليغـة ، والتشبيهات العجيبـة ، ولهذا صارت مخلدة فى الكتب ، حتى قيل لفرط بقائها : انهـا كلام حى . على أن من يتأمـل ثمرتها عند المقامـات الجامعـة لاصلاح ذات البين ، وقوة تأثيرها فى دفع التعادى والتنـافر ، واستمالة قلوب الملوك والأجلة ، وتزيين المشاهدة لما يؤثر عنهم من الأفعال الشريفة ، والأقوال الحسنة — أيقن أن المقدم على تزييفها متجـاسر على تحقير ماهو خطير الشـأن ، فان حفظهـا وروايتهـا محرك للهمم الرفيعـة الى طلب المعلوة ، وباعث لمن ارتـاح لسماعهـا أن يجعل نفسـه منها سهمـة تحسن فيهـا الأحدوثة » (١) .

التعلم وشروطه :

كان العـامرى يرى أن الانسـان مفطور على طلب العلم ، وأنه يسعى بالطبع الى تحصيل المعرفة . الا أن الناس يتفاوتون فيما بينهم فى القـدرة الطبيعية لتحصيـل العلم ، وهكـذا يقترب العامرى من وجهة نظر علماء النفس والتربيـة المحدثين ممن يؤكدون أهميـة الاستعدادات والقدرات الفطريـة فى عمليـة

(١) الاعلام ، ص ٩٦ — ٩٧

التعلم ، كما يمهد بذلك لا بن سينـا لكى يعالج هذا الموضـوع معالجة أكثر استفاضة ، بعد نحو نصف قرن على ماسنرى فيما بعد ، فيقول العامرى : «ان من أعظم مواهب الله تعالى لعبـاده أن خلقهم من أنفسهم محبين للعلم ، ثم لما كانت الجبلة البشرية فى طباعها بحيث لا يقوى الانسان على ضبط جميع أقسامـه ، فجعل بين طباع البشر وبين أصناف المعالم علامة خفية ، ومناسبة ذاتية ، أعنى أن الواحد فالواحد منهم ينجذب بهمتـه الى قسم من أقسامها : اما باختيار نفسه ، أو باختيـار من يلى التقدير عليه ، فيتأكد الفـه له ، ويقوى شغفـه به ، فيخصه من بشدة المحبة ، ويفضله على غيره »

ومن الواضح أن أباالحسن لم يغفل أهمية دور القائمين بعملية التعليم • حقـا ان الانسـان قد زود باستعداد فطرى لتحصيـل بعض العلوم والتفوق فيهـا أكثر من غيرها، بحيث يختار بنفسه العلوم المفضلة ، وينجذب اليها ، الا أن « اختيار من يلى التقدير عليـه » يؤكد الاستعـداد الفطرى لدى المتعلم ويدعمه ، وهذا يعنى فى الوقت ذاته أن المسئولين عن التوجيه التعليمى ، ينبغى أن يأخذوا فى الاعتبار الاستعدادات الفطرية المختلفة لدى المتعلمين • ويلفت العـامرى الأنظار الى أهميـة « حسن الاختيار » فى طلب العلم (١) • وما تصنيفـه السابق للعلوم المختلفة الامن أجل هذا المبـدأ التربـوى الهام ، أعنى التوجيه التعليمى •

وقد رأينا كيف كـان العامرى يشيـد بالعلم فى مختلف

---

(١) الاعلام ، ص ٨٦

مجالاته ، ويحث على التعلم ، ويؤيد دعوته بالآية الكريمة « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات »(١) : (المجادلة : ١١) ، واذا كان الله تعالى قد رفع مكانة أهل العلم ، الا أنهم مطالبون ـ فى مقابل ذلك ـ بمراعاة قيم أخلاقية عامة ، يشترك فيها العلماء جميعا على اختلاف تخصصاتهم بالاضافة الى قواعد خاصة لكل طائفة منهم ، ينبغى التمسك بها ·

فمن الخصال التى يجب أن تتوفر فى جميع أهل العلم وطلابه القناعة والزهد · يقول : « ومتى أحب العالم أن تنظر العيون اليه بالاجلال ، فليقرن بعلمه القناعة والزهد ، ومهما فعل ذلك فقد صار مصباحا يقتدى به فى ظلمات الشبهة ، ثم ليكن بما عمله ، عند من عاشره ، كمن لاينسب الى عمله فى الانبساط اليهم ، وترك الاستطالة عليهم ، فان من هزه عمله الى الاعجاب بنفسه فقد أورثه الكبر والخيلاء ، وعرضه للعداوة والمقت » (١) ·

كما أن فرط اعجاب العالم بنفسه وبصناعته قد يحمله على الاستخفاف بغيره من العلماء وبعلومهم ، وقد يؤدى هذا بدوره الى عدم احترام مبدأ التخصص العلمى الذى ينبغى احترامه ، لذلك فمن الواجب على العالم « ألا يحمله الاغترار بما أوتيه من المهارة فى خاصى صناعته على الخوض فيما ليس هو من شأنه ، بل يعمل على تفويض كل صناعة الى أربابها ،

(١) الاعلام ، ص ١٠٩

ويوفى العارفين بها، والمتقدمين فيها ، أبلغ حقوقهم من التبجيل والتعظيم » (٢) ٠

ويحذر العـامرى العلماء من آفـة التقليد ، لأنه يتضمن ابطال التفكير العقلى المنطقى الذى هو لب المنهج العلمى ، فيجب على العالم « ألا يكابر ما أوجبه العقل الصريح لمحبـة التقليد ، وخصوصا لمن لا يشهد له بالعصمة ، فان الحق لايعرف بالرجال ، بل يعرف بنفسه ، فيعلم من أصابه ، ويعرف من أخطأه » ٠

والى جانب هذه المسائل العـامة التى ينبغى أن يراعيهـا أهل العلم على اختلاف تخصصاتهم ، فان لكل طائفة منهم خصال يجب توافرها ، لكى تزدهر علومهم ، على ما يتبين لنا من الأمثلة الآتية :

١ ـ صفات علماء الحديث :

أمـا الذى يستصلح به صناعـة الحـديث ، فهو أن يكون المنتمى اليها ـ مع حفظه الأخبار ، ومعرفته بطبقات الرواة ـ صادق التحرج ، ظاهـر العفـاف ، سالما من الكذب ، بريا من التجوز ، لايحمله اللهج بطلب الغرائب من الأخبار على سماع الحديث من غير الثقات ، ولا يحمله حب التقليد لأئمة المحدثين على استشعار البعض لصناعتى الفقه والكلام ٠

٢ ـ صفات علماء الكلام :

واما الذى يستصلح به صناعة الكلام ، فهو أن يكون المنتمى

(١) الاعلام ، ص ١٢٠ ـ ١٢١

اليها _ مع عرفانه أبواب المقاييس ، ومثل الاجتهاد ، وتأليف المقدمات لاستخراج النتائج _ مستبصرا فى اعتقاده ، متحققا لمذهبه ، مستنكفا عن اتباع أشياخه بحسن الظن ، متعففا عن التدليس عند لزوم الحجة ، متوقيا عن التدرج الى المغالبة والاستعلاء على الخصم بحسب الاستطالة ، فانه متى لم يأخذ نفسه به يوشك أن يصير مثيرا للفتنة ، فيخسر به الدنيا والآخرة ·

٣ _ صفات علماء الفقه :

وأما الذى يستصلح صناعة الفقه ، فهو أن يكون المنتمى اليها _ مع تحققه لقوى الأخبار ، أى الخبر المتواتر ، وخبر الآحاد ، والخبر المجمل ، والخبر المفصل ، وتحققه لقوى الاجماع ،شديد الحذر من استعمال الحيل فى وجوه الفتاوى ، غير متطلب للرخص فيما يعرض من الحوادث ، بل يكون فيها الى التوقف والاحجام ، أسرع منه الى التقحم والاقدام ، فانه يحكم فى دماء المسلمين وأموالهم وفروجهم ، وهى أمانة عظيمة قد التزمها ، ومؤونة شاقة قد انتصب للوفاء بها (١) ·

ولئن أشاد العامرى بالعلم فى شتى مجالاته ، وأثنى على العلماء فى مختلف تخصصاتهم ، فانه قرن تعلم العلم بتعليمه ، فقال : « قد ظهر أن من الواجب على كل انسان أن يلتزم التعليم لمن هو دونه والتعلم ممن هو فوقه » (٢) · ولو أن المجتمعات الاسلامية استجابت لهذه الدعوة لما كان بينها جاهل واحد ، ولتعذر بقاء الأمية فى الأمة الاسلامية ·

---

(١) الاعلام ، ص ١٢٠ — ١٢١
(٢) الاعلام ، ص ١٠٤

الفصل العاشر

مسكويه

وفلسفة التربية الأخلاقية

حياته وعصره :

هو (١) أبو علي احمد بن محمد مسكويه ، ولد سنة ٣٢٠ تقريبا ، وتوفى سنة ٤٢١ ، أى عاش حوالى مائة سنة ، اتصل بكثير من الشخصيات الكبيرة الحاكمة ، فقد صحب الوزير أبا محمد المهلبى (ت ٠ سنة ٣٥٢) ثم صحب الوزير أبا الفضل ابن العميد (ت ٠ سنة ٣٦٠) الذى كان محبا للعلم والعلماء ، ثم صحب ابنه الوزير ابا الفتح بن العميد ، ثم الملك عضد الدولة البويهى (ت ٠ سنة ٣٧٢) ، ثم اتصل بابنه الملك صمصام الدولة بن عضد الدولة ٠

وكان مسكويه خازنا لكتب (أمين مكتبة) كل من أبى محمد المهلبى وعضد الدولة ، كما اشتغل بالتدريس ، اذ يقول صاحب (٢) منتخب صوان الحكمة : وقد رأيت فى بعض

---

(١) راجع ياقوت : معجم الادباء : ٥/٥ ومابعدها ، الخوانسارى : روضات الجنات : ١ / ٧٠ ، منتخب صوان الحكمة للسجستانى ، مخطوط مصور بدار الكتاب ، رقم ح ٦٦٤٣ لوحة ١٦٤ وما بعدها ، الشهر زورى : نزهة الارواح ، مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة ، رقم ٢٤٠٣٧ ، وكذلك رسالتنا للدكتوراة : متفلسفة بغداد فى القرن الرابع الهجرى ، كلية الآداب جامعة الاسكندرية .

(٢) صوان الحكمة كتاب من تأليف أبى سليمان السجستانى المنطقى (ت ٠ بعد سنة ٣٩١) ، وهو مفقود ، لم يبق منه سوى أجزاء جمعها مؤلف مجهول ، واطلق عليها منتخب صوان الحكمة

الكتب أن أبا على (ابن سينا) دخل على الحكيم أبى على ابن مسكويه صاحب كتاب تجارب الأمم ، وكتاب الشوامل والهوامل ، والتلامذة حوله ، فرمى أبو على جوزة ، وقال : بين مساحة هذه الجوزة بالشعيرات ، فرفع ابن مسكويه أجزاء من (كتاب) الأخلاق ، ورماها الى ابن سينا ، وقال : أما أنت فاصلح أخلاقك أولا حتى استخرج مساحة الجوزة » (١) ·

وتبين لنا هذه الرواية أن ابن سينا كان يتعالى على مسكويه ، فقد كان أولهما شيخ الفلسفة النظرية بغير منازع ، أما الأخير فقد قنع بالاشتغال بتدريس الفلسفة الأخلاقية ، فهو يعد من أهم الباحثين الاسلاميين فيها ، ومن أشهر مصنفاته الأخلاقية كتاب تهذيب الأخلاق الذى كان له تأثير كبير فى توجيه التربية الأخلاقية فى العالم الاسلامى الى عهد قريب ، اذ كان الكتاب المذكور يدرس فى الأزهر حتى أوائل هذا القرن العشرين ·

ولمسكويه كتب أخرى فى الأخلاق ، مثل كتاب السعادة ، وكتاب جاويدان خرد أو الحكمة الخالدة ، فضلا عن مصنفات أخرى فى مختلف فروع المعرفة السائدة فى عصره ، ضاع الكثير منها ، ووصلنا بعضها كالفوز الأصغر ، والهوامل والشوامل (بالاشتراك مع زميله ابى حيان التوحيدى) ، وتجارب الأمم ، وما زالت له بعض الرسائل المخطوطة التى لم تنشر بعد (٢) ·

ويحدثنا المؤرخون الذين عاشوا فى القرن الرابع الهجرى

---

(١) منتخب صوان الحكمة ، لوحة ١٩٠ ، روضات الجنات : ١ / ٧٠ — ٧١
(٢) المخطوطة المصورة بجامعة القاهرة ، رقم ٢٦٠٦٣ تضم عدة رسائل لمسكويه

كأبى الحسن الهلال الصابىء ، فى كتابه تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ، وكمسكويه نفسه فى كتابه تجارب الأمم (جـ ٦) وكذلك أدباء ذلك القرن كأبى حيان التوحيدى فى كتابه الامتاع والمؤانسة ، يحدثنا هؤلاء جميعا وغيرهم عن التدهور الخلقى الذى كان سائدا ، حتى أن مسكويه ضاق بأخلاق عامة الناس فى زمانه ، وأعلن أن أكثرهم قد صار « وبالا عظيما ، وضروا على المحارمات بينهم ، وأظهروا ضروب العصبية ، وأثاروا الفتن ، وأقدم بعضهم على بعض بالقتل واستباحة الأموال ، والهجوم على الحرم والفروج ، وتفاقم الأمر بينهم وبلغ كل المبلغ من الشر ، وعجز السلطان عن اصلاحهم ، واطفاء ما أثاروه من ثائرتهم ، حتى صار ذلك سببا لخراب بغداد » (١) .

من أجل ذلك تصدى مسكويه لمهمة اصلاح الفساد الخلقى الذى عز عليه أن يسود عصره ، واحتلت التربية الأخلاقية (٢) المكانة الأولى عنده فكان أكثر فلاسفة الاسلام عناية بوضع الأسس الفلسفية للتربية الأخلاقية ، التى استهدف بها القائمين بتربية النشء ، وخصص لها كتابه السابق الذكر « تهذيب الأخلاق » ، كما قدم للنشء أنفسهم مجموعة كبيرة من الحكم والوصايا والآداب والنماذج العملية للأخلاق الفاضلة ، وقد خصص لها معظم كتابه جاويدان خرد الذى يذكر فى مطلعه أنه جمع فى هذا الكتاب الحكم والوصايا والآداب « ليرتاض بها الأحداث ، ويتذكر بها العلماء ما تقدم من الحكم والعلوم » (١) ،

---

(١) تجارب الامم : ٦ / ٣٠٥

(٢) يعد هذا الفصل استكمالا لآراء مسكويه التى عرضنا لها فى رسالتنا الدكتوراه

(٣) جاويدان خرد ، ص ٥ ـ ٦

فالكتاب لا ينفع القائمين بالتربية الأخلاقية الا من حيث أنـه تذكرة فحسب للمبادىء الفلسفية التى عرضها فى كتابه تهذيب الأخـلاق ٠

مصادر آرائه فى التربية الأخلاقية :

استطاع مسكويه أن يقدم نسقا أخلاقيا متكاملا ، وان كان قد استقى أفكاره من مصـادر شتى ، جمعهـا بمنهج انتقـائى بارع ،ونستطيع أن نحدد أهم مصادره فيما يلى :

أولا ـ الحكمة الشرقية القديمة :

كان الرجل من أصل فارسى ، وقد تأثر بالأساليب الفارسية فى التربية ، اذ يشير فى الفصل الذى يخصصه لتأديب الأحداث ، فى كتاب التهذيب ، الى ما كان الملوك والرؤسـاء الفـرس ، فى زمانه ، يتبعونه فى تنشئة أولادهم ، اذ كانوا يسندون تربيتهم الى أهل الجفاء وخشـونة العيش ، ومن لا يعـرف التنعـم ولا الترفه ٠ ثم يقول : « وكثير من رؤسائهم فى زماننا هذا ينقلون أولادهم ، عندما ينشأون ، الى بلادهم ليتعدوا بها هذه الأخلاق ، ويبعدوا عن عادات أهل البلدان الرديئة » (٢) ٠

وقد عنى مسكويه عنـاية كبيرة بالحكم والآداب والأمثـال الفارسية القديمة ، ونقل كثيرا منها فى كتابه جاويدان خرد ، وعنوان الكتاب نفسه فارسى ، ويعنى « الحكمة الخالدة » ، وان كان لا يقتصر على الآثار الفارسية وحدها ، بل يتضمن أيضـا

---

(٢) تهذيب الاخلاق ، ص ٦٦

الكثير من حكم التراث الشرقى القديم ، كتراث العرب والهند وغيرهم ٠

ثانيا — الفلسفة اليونانية :

تأثر مسكويه كثيرا بالمذاهب الأخلاقية لدى فلاسفة اليونان القدماء ، ومن أهمهم :

١ — أفلاطون : فقد عرف مسكويه النظرية الأفلاطونية فى الفضائل ، كما وردت فى محاورة الجمهورية (الكتاب الرابع) ، وتأثر بها ، فأعلن فى كتابه تهذيب الأخلاق أن الفضائل أربع :

(١) الحكمة : وهى فضيلة النفس الناطقة ٠

(٢) العفة : وهى فضيلة النفس البهيمية ٠

(٣) الشجاعة : وهى فضيلة النفس الغضبية ٠

(٤) العدالة : وهى فضيلة جامعة تحدث من اجتماع الفضائل الثلاث السابقة (١) ٠

وتحت مقالة يوردها مسكويه فى كتابه جاويدان خرد ، عنوانها « وصية أفلاطون فى تأديب الأحداث » (٢) ، وقد ذكرها ابن النديم والقفطى وابن أبى أصيبعة ، ونشرها الأب شيخو ضمن « مقالات فلسفية قديمة لبعض مشاهير فلاسفة العرب » ،

---

(١) تهذيب الاخلاق ، ص ١٦ — ١٨

(٢) جاويدان حزد ، ص ٢٧٠ — ٢٧٨

وأعلن أن الباحثين فى ريب من أمر هذه المقالة ، فمنهم من ينسبها الى أحد تلامذة أفلاطون أو أحد أتباعه ، ومنهم من ينسبها الى فلوطرخس ، غير أن شيخو يستبعد كلا من هذين الاحتمالين ، ويترك المسألة معلقة (١) أما فالتزر فقد أكد ان هذه الوصية منحولة على افلاطون ، وانها وتيقه فيثاغورية (٢) .

٢ ـ أرسطو : اطلع مسكويه من غير شك على أهم مؤلفات أرسطو الأخلاقية ، اعنى كتاب الأخلاق النيقوماخية ، فقد ذكره صراحة عدة مرات ، ونقل عنه فقرات مطولة ، وتأثر به ، حتى أن بعض الباحثين (٣) ظن أن كل آراء مسكويه الأخلاقية ، انما هى منقولة نقلا كاملا من كتاب الأخلاق النيقوماخية ، وهذه مبالغة غير مقبولة ، حقا تأثر مسكويه بالمعلم الأول ، ولكنه تأثر أيضا الى جانبه بمصادر أخرى ، يونانية وغير يونانية .

٣ ـ الرواقية : عرف مسكويه أهم آراء الرواقيين فى الأخلاق ، وقد ذكرهم صراحة فى كتاب التهذيب (٤) ، وتأثر بتصورهم للحكيم السعيد ذى الصفات المثالية التى يتعذر تحقيقها فى الواقع ، كما تضمن كتابه جاويدان خرد فصلا بعنوان لغز قابس ذى الصبغة الرواقية الواضحة .

٤ ـ جالينوس : تأثر مسكويه كذلك بطبيب الاسكندرية المتفلسف جالينوس ، ونقل عنه فقرات كبيرة ، فى مسائل

---

(١) شيخو : **مقالات فلسفية** قديمة ، ص ٥٠
(٢) **دائرة المعارف الاسلامية** ، مادة أخلاق ، العدد ١٤ ، ص ٤٤٧
(٣) مثل د. **عبد العزيز عزت** فى كتابه : ابن مسكويه ، فلسفته الاخلاقية ومصادرها ، صفحات ١٦٧ ، ٣٦٢ ، ٣٦٨ ، ٣٨٢ وغيرها
(٤) تهذيب **الاخلاق** ، ص ٨٢ وغيرها

أخـلاقية ، مثل معرفة المرء عيوب نفسه ، ونظريته فى اللـذة والألم ، واطلع على كتاب جالينوس فى الأخـلاق ، ذلك الكتـاب الذى ضاع اصله ، وبقيت لنا ترجمة مختصرة منه فى مخطـوط بدار الكتب المصرية (برقم ٢٩٠ أخلاق تيمور) ٠

٥ — بريسون الفيثاغورى المحدث : وهو من أهم المصادر التى اعتمد عليها مسـكويه فى الفصل الـذى كتبه فى « تأديب الأحداث » ، وهو يعترف بذلك صراحة ، فيقول : « نقلت أكثره من كتاب بروسن » (١) ، ويعنى رسالة بريسون الفيثاغـورى المحدث فى تدبير المنزل ، كما أشار الى ذلـك فالتزر (٢) ، وقد نقلها الى العـربية أحد النقلة النصارى المعاصـرين لمسكويه ، وهو عيسى بن زرعة (ت ٠ سنة ٣٩٨) ، وقد حفظت لنا نسخة خطية منها (٣) ، ونشرها الأب لويس شيخو (٤) ٠ وعلى الرغم من اعتراف مسكويه الصريح بأنه نقل أكثر ما ذكره من كتاب بريسون المذكور ، الا أنه لم يكن مجرد ناقل ، اد تثبت المقـارنة بين النص الأصلى ، وبين الفقرات التى ذكرها مسكويه ، أنـه كان يتصرف ، فيضيـف من عنده تارة ، ويبسط مـا ينقله عن الكتاب فى اسلوب ارقى بكثير من اسلوب الترجمة العربية تارة أخـرى (٥) ٠

ثالثا — الشريعة الاسلامية : زعم بعض الباحثين (٦) أن

---

(١) نفس المصدر ، ص ٥٧

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة أخلاق ، العدد ١٤ ، ص ٤٤٧

(٣) ضمنه مجموعة رسائل مخطوطة — دار الكتب برقم ٢٩٠ أخلاق يتمور، ص ٦٢ — ل٩٦

(٤) ضمنه اربع رسائل لقدماء فلاسفة اليونان ولابن العبرى١ص١٣—٣٢

(٥) د٠ عزت : ابن مسكويه ، ص ٤٣٠

(٦) راجع راى د٠ عبد العزيز عزت : ابن مسكويه ، ص ٢٨٣

مسكويه كان يفصل الدين عن الفلسفة فى مجال الأخلاق ، وأنه أقام فلسفته الأخلاقية حسب أصول العقل وحده ، دون التأثر بتعاليم الدين • ولكن الواقع غير ذلك فان نظرة فاحصة فى كتاب تهذيب الأخلاق ، تبين للناظر فيه أن الرجل كان يحاول أن يثبت أن قوانين الأخلاق الفلسفية لا تختلف عن قوانين الأخلاق الدينية ، لا من حيث الموضوع ، ولا من حيث الغاية •

بل ان مسكويه كان يرى أن التربية الأخلاقية الدينية انما هى تمهيد ضرورى ينبغى أن يسبق عملية دراسة المبادىء الفلسفية للأخلاق والتحلى بالفضائل • يقول : « الشريعة هى التى تقوم الأحداث وتعودهم الأفعال المرضية ، وتعد نفوسهم لقبول الحكمة وطلب الفضائل ، والبلوغ الى السعادة الانسية بالفكر الصحيح ، والقياس المستقيم ••• حتى اذا تعودوا ذلك ، واستمروا عليه مدة من الزمن كثيرة ، أمكن فيهم حينئذ أن يعلموا براهين ما أخذوه تقليدا ، أى أن ينبهوا على طرق الفضائل واكتسابها ، والبلوغ الى غاياتها بهذه الصناعة (أى صناعة الأخلاق) التى نحن بصددها » (١) •

اذن تبدأ عملية التربية الأخلاقية بتلقين الطفل القيم الأخلاقية التى تتضمنها الشريعة ، حتى يكتسب الفضائل الخلقية بالتقليد أولا ، أى بالمحاكاة والمتابعة لما يستمع اليه فى دروس الدين من دعوات الى مكارم الأخلاق • أما معرفة أسس الأخلاق ، وفهم أصولها ، فانما يتم ذلك فى مرحلة تالية ، اذ يستلزم قدرا من النضج العقلى ، لا يتوفر للطفل فى مستهل

---

(١) تهذيب الاخلاق ، ص ٣٥ ـ ٣٦

حياته ، وانمـــا ينبغى الانتظـــار حتى يصل الطفـــل الى درجـــة النضوج ، حيث يصير لديه الاستعداد لفهم الأسس العقلية التى يقوم عليها السلوك الأخلاقى .

نشأة الملكة الخلقية :

ان البحث فى نشأة الملكة الخلقية يشغل مكـــانا بارزا فى الدراسات الحديثة التى تتناول علم الأخـــلاق ، بل لقد أصبـــح البحـــث فى هـــذه الملكـــة مقـــدمة ضـــرورية للبحـــث الخلقى الحديث (١) . وقد كـــان لمفكرى الاســـلام - وفى مقدمتهـــم مسكويه - فضل السبق فى الاهتمـــام بالبحث فى نشـــأة الملكـــة الخلقية ، أى نشأة الخلق الذى يعرفه مسكويه بقولـــه « الخلـــق حال للنفس داعية لها الى أفعالها من غير فكر ، ولا روية » (٢) . أى أن الخلق عنده هيئة أو حالة نفسية ثابتة ، وليست مؤقتة ، ولذلك فانه يقرر أن الصفات الخلقية كالجود أو البخل لا نسميها خلقا الا بعد أن تصير هيئة للنفس ، يصدر أبدا عنها فعل واحد بلا رويـــة (٣) ، أى بطريقة تلقائية غير متكلفـــة ، وبصفـــة - مستمرة .

ولكن ما مصـــدر الخلق ؟ لقد عـــالج مسكويه هـــذه المسألة بطريقة منهجية رائعة ، تشبه الطـــريقة التى يسلكها العلمـــاء المحدثون اليوم (٤) ، اذ عرض لوجهات النظر المختلفة ، وتناولها

---

(١) سدجويك : المجمل فى تاريخ علم الاخلاق . ص ٧٦
(٢) تهذيب الاخلاق ، ص ٣١
(٣) الهوامل والشوامل ، ص ١١٩
(٤) راجع د. محمد عبد الله دراز : كلمات فى مبادىء علم الاخلاق ، ص ٣ وما بعدها

بالنقد والتحليل · وقد قسم المذاهب المختلفة الى ثلاثة اتجاهات ، هى :

أولا — اتجاه القائلين بالفطرة وحدها :

يرى أنصار هذا الرأى أن الخلق ثابت ، يولد مع الانسان ، ولا يمكن تبديلـه أو تغييره ، اذ الصفـات الخلقية كالصفـات الجسمية تماما ، لا يمكن تغيرهـا ، وممن ينتمون الى القـول بفطرية الخلـق فى العالم الغـربى الحديث اسبينـوزا وكانط وشبنهور ، وكذلك أصحاب نظريات الغرائز من علماء النفس المحدثين ممن يعتقدون أن الارادة الانسـانية سجينة فى نطاق حديدى من الغرائز والطبائع ·

يرفض مسكويه القـول ان الخلق كله فطـرى أو طبيعى ، بحيث لا يمكن للانسان أن ينتقـل من صفة أخلاقية فطـر عليها الى صفة أخرى مخالفة لها ، لأن هذا المذهب يعنى ابطال قـوة التمييز أو العقل عند الانسان ، اذ يصبح أشبه بالحيوان أسيرا لغرائزه ، كما أن هـذا المذهب يفضى الى القول بعدم جـدوى التربية والتأديب ، والى ترك الأطفـال على ما يتفق أن يكـونوا عليه ، بغير تربية ولا تعليم ، وهذا قول ظاهر الشناعة جدا ·

ويقسـم مسـكويه أصحـاب هـذا الاتجـاه الى طائفتـين متناقضتين ، وان كان يجمعهما القول بفطرية الخلق :

أ — المذاهب التفاؤلية : كالرواقيين الذين ظنوا أن الناس يخلقون أخيارا بالطبع ، ثم بعد ذلك يصيرون أشرارا بمجالسة أهل الشر والميل الى الشهوات الرديئة التى لا تقمع بالتـأديب ·

وينتقد مسكويه هذا الرأى ، فيقول : ان كان كل الناس أخيارا بالطبع ، وأنهم ينتقلون الى الشر بالتعليم ، فيلزم عن ذلك أحد احتمالين : اما أن يكون تعلمهم الشرور من أنفسهم واذن فقد بطل القول بأنهم اخيار بالطبع ، واما أن يكون تعلمهم الشر من غيرهم ، وفى هذه الحالة فان الذين علموهم الشر أشرار بالطبع ، أى ليس كل الناس اخيارا بالطبع ·

ب ـ المذاهب التشاؤمية : كالبوذية وغيرهم ممن ظنوا أن الناس جميعا خلقوا من الطينة السفلى ، وأنهم أشرار بالطبع ، ويصيرون أخيارا بالتأديب والتعليم · ويبطل مسكويه هذا الرأى كما أبطل سابقه ، اذ يتساءل عن كيفية دخول الخير فى النفوس البشرية اذا حكمنا بأنها جميعا شريرة بفطرتها ؟

ثانيا ـ اتجاه القائلين بتأثير البيئة وحدها :

على العكس من الاتجاه الأول يؤكد فريق آخر من المفكرين على أهمية البيئة وحدها فى تكوين الأخلاق ، ويرون أن جميع مظاهر السلوك لدى الانسان مكتسبة وينكرون تماما وجود الدوافع الداخلية الفطرية التى يتفاوت فيها الناس ، ويذهب هذا المذهب فى عصرنا الحالى اغلب علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، وعلماء النفس الاجتماعى ، وأنصار المدرسة السلوكية فى علم النفس التى أسسها العالم الأمريكى واطسن ·

وكان أرسطو من أقدم أنصار هذا الرأى ، فدور الفطرة عنده يقتصر على تزويد الانسان باستعداد أو قوة لقبول الصفات الخلقية ، أما نوع هذه الصفات ـ سواء أكانت فضائل أم رذائل ـ فانها لا ترجع الى الفطرة ، ولكنها وليدة البيئة ،

وترسخ بالعادة • ولقى مذهب أرسطو قبولا تاما عند بعض فلاسفة الاسلام ، وفى مقدمتهم الفارابى وابن سينا •

أما مسكويه فقد عاب على هذا المذهب اغفاله حقيقة التباين الفطرى بين الناس ، كما يظهر فى التنشئة الاجتماعية ، اذ أننا نرى من الأطفال من يقبل التأديب بسهولة ، ويتحلى بالفضائل بسرعة ، بينما يتحرك آخرون الى الفضيلة بابطاء ، وقد ينفر بعضهم من التأديب •

ثالثا ـ اتجاه القائلين بالفطرة والبيئة معا :

يستنكر أصحاب هذا الاتجاه رد الأخلاق برمتها الى مصدر واحد : الفطرة أو الاكتساب ، ويروا أن الاقتصار على أحدهما يتنافى مع الواقع ، فلا بد من الأخذ بالأصلين جميعا ، وهذا هو رأى جمهرة علماء النفس والتربية اليوم ، فانهم لم ينكروا أثر الصفات الخلقية الوراثية ، كما أنهم يؤكدون على أهمية ما يكتسبه الطفل ، وبخاصة فى السنوات الأولى من حياته ، فى رسم الخطوط الأساسية للخلق •

ولقد أشار القرآن الكريم الى ما توصل العلماء اليوم اليه بالمنهج التجريبى ، فقد نبه القرآن الى الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وبين أن الانسان يميل بفطرته الى الخير « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » (التين : ٤) ومن ناحية أخرى جاءت بعض الآيات الكريمة بما يثبت أيضا دور الاكتساب الى جانب الفطرة ، وأن الانسان خلق مزودا باستعداد مزدوج « انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا (الانسان : ٣) « وهديناه

النجدين » (البلد : ١٠) « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » (الشمس : ٨) ٠

وقد رد مسكويه الأخلاق الى كل من الفطرة والاكتساب ، أو الطبع والعادة ، واعلن أن الخلق يتوقف على هذين المصدرين ، واستخلص مذهبه بطريقة علمية تستند الى ملاحظة اختلاف الأطفال — فيما بينهم — فى قبول التأديب والاستجابة للتربية الأخلاقية ، ويشير مسكويه الى أننا نلاحظ فى الأطفال منذ الصغر تفاوتهم فى الصفات الخلقية ، فمنهم من يظهر فيه الحياء ، ومنهم من تظهر فيه القحة ، وكذلك نجد من بينهم الكريم والبخيل ، وقد يتصف أحدهم بالرحمة ، بينما تبدو القسوة فى سلوك آخر ، وهكذا مما يثبت دور الفطرة أو الطبع ٠

ومن ناحية أخرى لا ينبغى أن نغفل أثر البيئة والاكتساب ، فان الطباع المذمومة التى قد يولد بها الانسان ليست لها صفة الجبرية أو الالزام ، بل انها قابلة للتعديل والتحوير ٠ ومن هنا تبرز فى نظر مسكويه أهمية التربية الخلقية للأطفال ، اذ أن الطباع لو اهملت ، ولم ترض بالتأديب والتقويم ، نشأ كل انسان على طباعه ، وبقى عمره كله على الحال التى كان عليها فى طفولته (١) ٠

والتربية الأخلاقية أمر هام وخطير فى نظر مسكوية ، فان الانسان اذا علم مثلا أن الشهوات الرديئة ليست فضائل ، بل هى رذائل تجنبها ، وكره أن يوصف بها ، واذا ظن أنها فضائل

---

(١) تهذيب الاخلاق ، ص ٣١ — ٣٥

لزمها ، وصارت له عادة (١) · بل ان السعـادة عنده لا يرتقى اليها الانسان الا بعد أن يعلم اجزاء الحكمة كلها، ومن ظن من الناس أنه يصل اليها بغير تلك الطريقة ، وعلى غير ذلك المنهج ، فقد ظن باطـلا ، وبعد عن الحق بعدا كثيرا ، وليتذكر فى هذا الموضع الخطأ العظيم الـذى وقع فيه قوم ظنـوا أنهم يدركـون الفضيلة بتعطيل القوة العاملة واهمالها (٢) ·

ولا يعنى هذا أن مسكويه يردد المبدأ السقراطى : الفضيلة علم والرذيلة جهـل ، بل يضيف الى المعـرفة شرطا آخر وهـو الارادة ، اذ ليس فى معرفة الفضائل الكفاية ، بل الكفـاية فى العمل بها ، والعمل يصدر عن الارادة والاختيار (٣) ·

متى تبدأ عملية تأديب الحدث ؟

يعالج مسكويه مسألة تأديب الأحداث أى التربية الأخلاقية للنشء فى أحد فصول كتابه تهـذيب الأخـلاق (٤) ، يستهلـه بتوطئة يبين فيها المراحل الأولى من نمو الطفل ، فيذكر أن أول قوة تظهر فى الانسان هى القـوة التى يشتاق بها الى الغـذاء ، وبهذه القوة الفطـرية يلتمس الطفل اللبن من الثـدى من غير تعليم ، كما تحدث له قوة على التماسه بالصوت الذى يدل به على شعوره باللذة أو الألم · ثم تتزايد فى الطفل قوة الشهوة ، بحيث تتجاوز شهوة الطعام ، فيتشوق الى سائر أنواع الشهوات ·

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٠ — ١١
(٢) نفس المصدر ، ص ٩٣
(٣) نفس المصدر ، ص ١٧٦ الهوامل والشوامل ، ص ٢٥٣
(٤) تهذيب الاخلاق، فصل فى تأديب الاحداث والصبيان خاصة، ص٧٥—٦٧

ويحدث بعد ذلك أن تظهر فى الانسان قوة على التحرك نحو ما يشتهى ، فيستخدم أعضاء بدنه لهذا الغرض ·

كما يحدث له من الحواس قوة على تخيل الأمور التى أدركها بالحس ، وهى القوة الخيالية (أو المخيلة) ·

ثم تظهر فيه قوة الغضب التى يستخدمها فى دفع ما يؤذيه ، ومقاومة ما يمنعه من تحقيق منافعه ، وعندئذ نجد الطفل ينتقم من مؤذياته ، وان لم يستطع التمس معونة والديه مستخدما التصويت والبكاء ·

وبعد ذلك يبدأ الطفل مرحلة التمييز والتعقل ، ولا يصل اليها ضربة واحدة ، وانما يصل اليها شيئا فشيئا ، ويتدرج فى درجات متفاوتة حتى يصل الى كماله فيسمى عاقلا · وعندما يدخل الطفل فى هذه المرحلة تظهر الحاجة الى تأديبه أى تربيته التربية الأخلاقية المناسبة ·

وتبدأ عملية تأديب الحدث على وجه التحديد عندما تظهر عليه قوة الحياء ، ويعنى بها مسكويه الخوف من ظهور شىء قبيح منه · يقول : « ان أول ما ينبغى أن يتفرس فى الصبى ويستدل به على عقله الحياء ، فانه يدل على أنه قد أحس بالقبيح ، ومع احساسه به يحذره ويتجنبه ، ويخاف أن يظهر منه أو فيه » ، فاذا بلغ الصبى هذه المرحلة ولاحظنا فيه الشعور بالحياء ، فهذا دليل على أن نفسه قد صارت مستعدة للتأديب ، صالحة للعناية ، فلا يجب أن تهمل ، ولا تترك ومخالطة الأشرار الذين يفسدونه بالصحبة ·

والصبى فى هذه المرحلة المبكـرة من نشوئه اما أن تكـون نفسه ساذجة لم تنتقش بعد بصورة محددة ، أى لم تتحدد بعـد صفاته الأخلاقية ، واما أن يكون قد فطر على أخلاق معينة كأن تكون أكثـر أفعاله قبيحة ، فيكون كذوبا حسودا نماما ، وقـد سبق القول أن للخلق مصدرين : الطبع والاكتساب ، فوظيفة التربية الأخلاقية اذن اما غرس الفضائل فى نفس الطفـل اذا كانت خلوا من الصفات ، ولم تنتقش بعد ، واما تغيير الأنمـاط السلوكية الرديئة المروثة ، حتى ينتقل الصبى الى أحوال أخرى ٠

وتستمد التـربية الأخـلاقية مضامينها عند مسـكويه من مصـدرين :

أولا ـ الدين ، أو التربية الدينية :

اذ ينبغى أن ينبـه الصبى أبـدا على الفضـائل ولاسـيما ما يحصل له منها بالدين وبلزوم سننه ٠

ثانيا ـ علم تدبير المنزل :

وهو يتفق مع التعاليم الدينية ، أو على الأقـل لا يتعارض معها ، وهذا العلم يدعو الى مراعاة مجموعة من الآداب ، لاتخص طبقة فى المجتمع دون سواها ، بل هى عامة تشمل أطفال الفقراء والأغنيـاء على السواء بغير تفـرقة بينهم ٠ وفيما يلى أهم هـذه الآداب :

(١) آداب المطاعم : ينبغى أن يفهم الحدث أن الأغـذية كلها انما تراد لصحـة الأبدان لا للـذة ، أى أنها تجـرى مجرى الأدوية ليتداوى بها الجوع وما ينشأ عنه من ألم ، ولذلك يجب

أن يعود الحديث على عدم الاسراف فى تناول الطعام ، واحتقار أهل الشره الذين ينالون من الطعام فوق حاجة البدن ٠

هكذا يدعو مسكويه الى الاهتمام بتدريس الأغذية وعلاقتها بصحة الأبدان ، وما فيها من منافع ، وما قد ينجم عن الاسراف فى تناولها من آثار سيئة على البدن ، ونشاط الانسان ، ويبين أن الصبى اذا اسرف فى تناول الغذاء بالنهار كسل ، واحتاج الى النوم ، وتبلد فكره ٠

كما أن ثمة توجيهات يرى مسكويه أن الحدث يجب أن يتعود عليها عندما يتناول طعامه مع الآخرين ، فمن الآداب التى ينبغى أن يراعيها الحدث ألا يبادر الى الطعام ، ولا يديم النظر الى ألوانه ولا يحدق اليه شديدا ، وأن يقتصر على ما يليه ، ولا يسرع فى الأكل ، ولا يعظم اللقمة ، ولا يبتلعها حتى يجيد مضغها ، ولا يلطخ يده ولا ثوبه ، ولا يلحظ من يواكله ، وأن يؤثره بما يليه من طعام ان كان أفضل مما عنده ٠

ويجب أن يعود الصبى عدم الشرب فى خلال طعامه ، وأن يحذر تماما من شرب النبيذ وسائر أصناف الأشربة المسكرة ، فانها تضره فى بدنه ونفسه وتحمله على سرعة الغضب والتهور وسائر الخلال المذمومة ٠

ومن الواضح أن مسكويه يتفق فى أكثر ما ذكره مع وجهة النظر العلمية الحديثة ، الا أن دعوته الى الزهد فى الطعام جعلته يبتعد عما يقرره اليوم علماء التغذية ، حين أعلن أن الطفل يفضل أن يقتصر فى تناول الغذاء على لون واحد ،

لا ألوان كثيرة ، بل انه طالب بأن يأكل الطفل الخبز القفار الذى لا أدم معه فى بعض الأوقات ٠

(٢) تجنب الرفاهية والترف :

يجب أن يتعلم الصبى أيضا آداب الملابس ، فيعرف أن أولى الناس بالملابس الملونة والمنقوشة النساء ، ثم العبيد ، وأن الأحسن بأهل النبل والشرف من اللباس البياض وما أشبه ، فلا يزين بملابس النساء ولا يلبس خاتما الا وقت الحاجة اليه ٠

وينبغى أن يبغض اليه الذهب والفضة ، ويحذر منهما أكثر مما يحذر من السباع والحيات والعقارب ، فان حبهما آفة أكثر من آفات السموم ٠

ويمنع الحدث أيضا من سائر أنواع الترف ، كالنوم فى الفراش الوطىء أو استخدام وسائل تكييف الهواء التى كانت معروفة فى ذلك العصر ، مثل استعمال الخيش للتبريد فى الصيف أو الأوبار والنيران للتدفئة فى الشتاء ، فاذا تجنب مثل هذه الألوان من الترف فان بدنه يصلب ، ويتعود الخشونة ، ومن مظاهر الخشونة ألا يربى شعره ، أو أن يكشف أطرافه فى أثناء المشى ٠

كذلك يتجنب كثرة النوم ، فيمنع من النوم الكثير بالليل ، لكى لا يغلظ ذهنه ، ويميت خاطره ، أما النوم بالنهار فيمنع الحدث نهائيا من أن يتعوده ٠

ولا ينبغى أن يحضر مجالس أهل الشرب لئلا يستمع الى الكلام

القبيح والسخافات التى تجرى فيها ، وعلى العكس من ذلك يجب أن يحضر مجالس أهل الأدب والعلم ٠

(٣) حفظ الأشعار الجيدة :

على الحــدث أن يحفظ محاسن الأخبــار والأشــعار ، حتى يتأكد عنده ــ بروايتهــا وحفظها ــ جميع المفــاهيم الأخــلاقية السامية ، وفى نفس الوقت يحذر الصبى من النظر فى الأشعار السخيفة ، وما فيها من ذكر العشق وأهله ، وما يوهمه أصحابها أنه ضرب من الظــرف ورقة الطبع ، فان ذلك مفسدة شــديدة للأحــداث ٠

(٤) التعود على الفضائل وتجنب الرذائل :

يجب أن يتعود الحدث مكارم الأخلاق كالتواضع لكل أحد ، حتى لو كان الحدث من أصل شريف كأن يكون خاله وزيرا أو عمه سلطــانا ، فلا ينبغى أن يتخــذ من ذلــك وسيلة لتحقيــق مآربه ، فيظلم أقرانه ، أو يستبيح أموال جيرانه ومعارفه ، وعلى الحدث ألا يفتخر على أقرانه بشىء مما يملكه والده ، وأن تكون علاقته حسنة بجميع أقرانه ٠

وللكلام آداب وقواعد ينبغى أن يتعود عليها الحدث ، مثل قلة الكلام ، فلا يتكلم الا جوابا ، واذا حضر من هو أكبر منه ، فعليه أن يشتغل بالاستماع منه ، كما يمنع الحدث من خبــث الكلام ، ولغو القول ، ويعود حسن الكلام ، وظريفه ، وجميــل اللقــاء ، ويقتضى مجلسه مع الآخــرين أن يراعى بعض الآداب فلا يبصق ، ولا يتمخط ، ولا يتثاءب ، ولا يضع رجلا على رجل ٠

كما يعود الحدث ألا يكذب ، وألا يحلف البتة ، لا صادقا ، ولا كاذبا ، اذ لا حاجة بالصبى الى اليمين ·

ويجب أن يمنع الحدث من كل فعل يستره ويخفيه ، فانه ليس يخفى شيئا الا وهو يظن أو يعلم أنه قبيح ·

(٥) احترام الوالدين والمعلمين :

يعود الحدث طاعة والديه ومعلميه ومؤدبيه ، وأن ينظر اليهم بعين الجلالة والتعظيم ، وأن يهابهم ، كما يعود خدمة معلمه ، وكل من كان أكبر منه ، فضلا عن خدمة نفسه ، وأحوج الصبيان الى هذا الأدب أولاد الأغنياء المترفين ، وعلى الحدث ألا يصرخ اذا ضربه المعلم ، ولا يستشفع بأحد ، فان هذا فعل المماليك الضعفاء (١) ·

ويعود مسكويه فى موضع آخر من كتاب التهذيب الى معالجة موضوع « محبة التلميذ الصالح للمعلم الخير » ، مبينا منزلتها العالية ، وذلك لأجل الخير العظيم الذى يشرف عليه ، ويصل اليه ، والذى لا يتحقق الا بعنايته ، ولا يتم الا بمطالعته ، ولأنه والد روحانى ، ورب بشرى ، واحسانه احسان الهى ، ذلك أنه يربيه بالفضيلة التامة ، ويغذيه بالحكمة البالغة ، ولذلك فان محبة التلميذ لمعلميه أشرف وأكرم من محبة الوالدين ، لأصل أن تربية المعلمين هى لنفوسنا ، فيحق أن يحب التلميذ معلم الحكمة محبة خالصة ، بل يجب أن تكون محبته له فى أعلى مراتب المحبة ، وكذلك طاعته له وتمجيده اياه (٢) ·

---

(١) تهذيب الاخلاق ، ص ٥٧ – ٦٧

(٢) نفس المصدر ، ص ١٥٢ – ١٥٣

الثواب والعقاب :

هما وسيلتان لا غنى عنهما فى نظر مسكويه لضمان نجاح العملية التربوية ، فيجب أن يمدح الحدث بكل ما يظهر من خلق جميل ، وفعل حسن ، ويكرم عليه ، وليس الثواب عند مسكويه يقتصر على المدح باللسان فقط ، بل ينصح بتقديم بعض الحوافز المادية لتشجيع الطفل ، كأن يؤذن له فى بعض الأوقات أن يلعب لعبا جميلا ليستريح من تعب التأديب .

أما عقاب الأطفال فينصح مسكويه بعدم المبالغة فيه ، والتدرج فيه ، ويحذر من عاقبة التشهير بعقاب الأطفال ، لما يترتب على ذلك من آثار نفسية وخيمة ، فاذا خالف الصبى فى بعض الأوقات ما تقتضيه الآداب من سلوك ، فالأولى أن لا يوبخ عليه ، ولا يكاشف بأنه أقدم عليه ، بل يتغافل عنه تغافل من لا يخطر بباله أنه قد تجاسر على مثله ، ولا هم به ، ولا سيما اذا ستره الصبى ، واجتهد فى أن يخفى ما فعله عن الناس ، فاذا عاد فليوبخ عليه سرا ، وليعظم عنده ما أتاه ، ويحذر من معاودته ، فانك ان عودته التوبيخ والمكاشفة حملته على الوقاحة ، وعرضته على معاودة ما كان قد استقبحه ، وهان عليه سماع الملامة فى ركوب القبائح (١) .

وفى الوصية المنحولة على أفلاطون فى تأديب الأحداث ، والتى أوردها مسكويه فى كتابه جاويدان خرد ، تحذير من استخدام أساليب التخويف الشديد والارهاب فى تربية

---

(١) تهذيب ، ص ٦٠

الأحداث ، وعدم تقويمهم أو ضـربهم ونحن فى حالـة غضب ، كما لا ينبغى أن نتركهم اهمالا لهم ، وقلة عنـاية بهم ، أى أن نتجنب « التساهل والاهمال » ، « وانما يسوى بين الصنفين » ، أى عدم الميل الى احـدهما وترك الآخـر ، فان أخطأ الحـدث أو زل ، غفرت زلته ، واحتمل دفعتين أو ثلاثة ، فان عاد بعد الثلاثة نحى عن جملـة المتأدبين ، وهجـر لئلا يفسـد سائر من يـروم التأديب (١) .

ويجب أن يكون المعلمون قدوة حسنة ، وان تكون سيرتهم مستقيمة مع تلاميـذهم ، حتى يكونوا لهؤلاء التـلاميذ مـرآة مضيئة (٢) .

وتدعو الوصية الى أن يهتم المعلمون بتكوين قيادات طلابية منظمة وفعالة ، « وأقيموا عليهم منهم رؤساء ألوف ، ورؤسـاء مئين ، ورؤساء خمسين ، ورؤساء عشرة ، وكل واحد منهم يأمر تلاميذه وينهاهم ، ومتى زال رئيس منهم عما تادب به وأدبهم ، ولم يستعمل ما يجب عليه أن يوصيهم به ، فلينح ذلك الرئيس عن مرتبته ، ويقام فيها غيره » (٣) .

الاهتمام بالتربية الرياضية والعسكرية :

على الحدث أيضا أن يقبل على أنواع الريـاضات المختلفة التى يصلب بها البـدن ، وتحفظ الصحـة ، وتنفى الكسـل ، وتبعث النشاط ، كأن يتعود الصبى المشى والحركة والركـوب

---

(١) جاويدان حزر ، ص ٢٧١ — ٢٧٣
(٢) نفس المصدر ، ص ٢٧٠ — ٢٧١
(٣) نفس المصدر ، ص ٢٧٣

والرياضة ، وألا يتعود الأفعال التى تكسبه الكسل ، كأن يرخى بدنه فى حالة المشى ، أو أن يضرب تحت ذقنه يساعده فى أثناء الجلوس ، ولا يعمد رأسه بيديه (١) ، كما ينبغى أن يأخذ الأحداث طرفا من الأسباب التى يحتاج اليها فى تدبير الحروب وترتيب الصفوف ، وتعلم الرمى ، والمصارعة ، والطلب ، والهرب ، وأن يتعود ركوب الخيل ، والعمل بالسلاح (٢)

(١) تهذيب ، ص ٦٥
(٢) جاويدان خرد ، ص ٢٧٧

الفصل الحادى عشر

ابن سينا

التربية والتوجيه التعليمى

حياته :

قلما نجد من بين مفكرى الاسلام من ترك لنا ترجمة ذاتية لحياته ، وكان ابن سينا من أولئك القلة الذين ترجموا لحياتهم ، الا ان ترجمته الذاتية التى نجدها فى مطلع كتابه الشفاء غير كاملة ، فقد عرض ابن سينا فيها لجزء من حياته ، وأتم كتابه تاريخ حياة ابن سينا تلميذه وصديقه أبو عبد الله الجوزجانى • وعن هذه الترجمة أخذ معظم المؤرخين مثل ابن أبى أصيبعة ، والقفطى ، وابن خلكان وغيرهم ، ولعل أطول ترجمة لحياة ابن سينا نجدها فى كتاب تاريخ حكماء الاسلام (١) لظهير الدين البيهقى (المتوفى فى أوائل القرن السادس الهجرى) •

وفيلسوفنا هو أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا ، المعروف بالشيخ الرئيس • لقب بالشيخ لمكانته العلمية ، ولقب بالرئيس لاشتغاله بالسياسة ، وتقلده الوزارة مرتين فى همذان • ويذكر معظم أصحاب التراجم أنه ولد فى سنة ٣٧٠ ،

---

(١) تقع هذه الترجمة فى ٢٠ صفحة . راجع البيهقى : تاريخ حكماء الاسلام ، ص ٥٢ — ٧٢ ، وقد أخذ عن هذه الترجمة الشهر زورى . راجع مخطوطته نزهة الارواح .

أمـا ابن أبى أصيبعة فيذهـب الى أنه ولد فى سـنة ٣٧٥ ٠ أما القرية التى ولد فيهـا فهى خرميتن من ضياع بخـارى (وتقع بخارى الآن فى جمهورية ازبكستان السوفيتية) ٠ وكان آبوه من عمال الأمير نوح بن منصور السامانى ٠

نبت ابن سينا فى بيئة شيعية ، وفى بيت اسماعيلى ، فقـد كان والده اسماعيليا من دعاة الفاطميين ، وكذلك كان أخـوه اسماعيليا أيضا ولكن هل كان ابن سينا نفسه اسماعيليا ؟ لقد اختلفت الأراء حول هذا الموضـوع (١) ، وأميـل الى ترجيـح تشـيعة (٢) ٠

انتقل ابن سينا مع اسرته الى بخارى التى كانت من أهـم المراكز الثقـافية فى عصـره ، حيث تلقى فيهـا أول مـراحل تعليمه ، فأتم حفظ القرآن ، ودرس الكثير من أصـول الأدب ، وعمره حوالى عشر سنين ٠ ثم أخذ الفقه على رجل شيعى يقـال له اسماعيل الزاهد ، وكان أحيانا يطالع رسائل اخوان الصفا — وهم جماعة اسماعيلية سرية — ويتأملها كما كان يفعل أبوه ، ودرس الحساب والهندسة والجبر على يدى بقـال يسمى محمود المساح ٠

---

(١) يقول القفطى : « والغالب أن أبا على لم يدخل فيما دخل فيه أبوه واخوه ، ولم يتمذهب بالمذهب الاسماعيلى » وكذلك يقرر هذا المعنى ابن ابى اصيبعة (عيون : ٢ / ٢) . أما ابن تيمية يؤكد انتماء ابن سينـا الى المذهب الاسماعيلى (الصفدية : ١ / ٣) . راجع أيضا : يحى بن احمد الكاشى : نكت فى أحوال الشيخ الرئيس ط ٠ المعهد العلمى الفرنسى ٠ القاهرة ، ١٩٥٢ ، ص ١٠ ، د. فتح الله خليف : فلاسفة الاسلام ص ٥ ، د. محمد عاطف العراقى الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا ، ص ٣٢

(٢) كما يدل على ذلك بعض ألفاظ وردت فى مصنفاته ، ففى معرض حديثه عن العقائد الدينية يقول انها « متسلمه من الانبياء والاوصياء » راجع رسالته بيان الجوهر النفيس ، ضمن رسائل نشرها الكردى ، سنة ٣٢٨ ، ص ٢٦٢

ثم ورد على بخارى المتفلسف أبو عبد الله الناتلى ، فأنزله والد ابن سينا وآواه واكرمه ، واسند اليه مهمة التدريس لابن سينا ، فدرس عليه المنطق من كتاب ايساغوجى ، والهندسة من كتاب أقليدس ، والفلك من كتاب المجسطى . ولكن ابن سينا لم يكن عظيم التقدير للناتلى ، بل كان كثير النقد له ، وربما كان ذلك لأن ذكاء التلميذ فاق ذكاء المعلم ، حتى أن ابن سينا كان يوضح لأستاذه بعض ما كان خافيا من المشكلات العلمية التى غمضت على الناتلى ، وربما كان ذلك لان ابن سينا دأب على التعالى على علماء عصره ، وكان يطعن فى تصانيفهم ، ويهجن كلامهم (١) ، وقد سبقت الاشارة الى استعلائه على مسكويه .

وبعد أن غادر الناتلى بخارى وتوجه الى خوارزم ، أخذ ابن سينا يشتغل بنفسه فى تحصيل العلوم الطبيعية والالهية ، فتعلم الطب تعليما ذاتيا ، أى بدون معلم ، حتى تفوق فيه ، وذاعت شهرته ، وكان يعالج مرضاه دون أن يتقاضى أجرا .

ولم يبلغ ابن سينا من العلم ما بلغه بفضل ذكائه الخارق ، وقدرته الفائقة على الحفظ فحسب ، بل أيضا بفضل جهوده المتواصلة فى التحصيل فى صباه ، حتى أنه ما نام ليلة واحدة بطولها ، ولا اشتغل فى النهار بشىء سوى المطالعة .

ولكن عائقا ما لبث أن عكر على فيلسوفنا صفاءه ، اذ استعصى عليه فهم كتاب ما بعد الطبيعة لأرسطو ، على الرغم من أعادة قراءته اربعين مرة حتى حفظه ، وكاد يصاب باليأس فى معرفته ، ثم حدث أن أحد الدلالين ألح على ابن سينا من آجل

---

(١) راجع البيهقى : تاريخ حكماء الاسلام ، ص ٤٢ — ٤٥

شراء أحد الكتب ، واذا به كتاب ابى نصر الفارابى « فى أغراض ما بعد الطبيعة » ، ففرح ابن سينا ورجع الى بيته مسرعا لكى يقرأ الكتاب ، فانفتح عليه فى نفس اليوم ما كان مستغلقا من قبل ، فسعد بذلك ، وتصدق على الفقراء شكرا لله تعالى ٠

ثم مرض أمير خراسان نوح بن منصور ، وعجز الأطباء عن شفائه ، فعالجه ابن سينا حتى شفى ، وفى مقابل ذلك اذن الأمير لابن سينا فى دخول مكتبته الضخمة ، ذات الكتب النادرة القيمة ، فاطلع على ما فيها ، وظفر بفوائدها ، وبعد ذلك شبت النار فى المكتبة ، واحترقت الكتب بأسرها فحامت الشبهة حول ابن سينا ، وقال بعض خصمائه : انه احرق تلك الكتب ، ليضيف تلك العلوم والنفائس الى نفسه ، ويقطع أنساب تلك الفوائد عن أربابها ٠

وعندما بلغ ابن سينا ثمان عشرة سنة من عمره ، فرغ من تحصيل جميع العلوم السائدة فى عصره ٠

ولما بلغ من العمر اثنتين وعشرين سنة تقلبت به الحياة ، اذ توفى والده ، واضطربت أمور الدولة السامانية ، فاضطر الى الخروج من بخارى ، والانتقال الى كركانج عاصمة خوارزم ، حيث اكرمه أميرها على بن مأمون الذى كان محبا للعلم والعلماء ، وفى مجلس هذا الأمير التقى ابن سينا بشخصيات علمية كبيرة كأبى الخير بن الخمار ، وابى سهل المسيحى ٠ وعندما احتل السلطان محمود الغزنوى خوارزم ، اضطر ابن سينا الى الفرار ، وكثرت اسفاره ، وأخذ يتنقل من بلاط أمير الى آخر ،

تارة يحظى بمنزلة عالية ، فيستوزره بعض الأمراء ، وتارة يضطهد ويلقى فى السجون ·

وكان فى أواخر حياته ملازما للأمير علاء الدولة ، وفى احدى رحلاته مع الأمير الى همذان ، مرض ابن سينا بالقولنج ، واشتد عليه الألم ، فأخذ يحقن نفسه حتى تقرحت امعاؤه ، وعندما وصل همذان تدهورت صحته ، وأدرك أن شفاءه أمر متعذر ، فأهمل مداواة نفسه ، قائلا : المدبر الذى فى بدنى (أى النفس) قد عجز عن التدبير ، فلا تنفعنى المعالجة · ثم اغتسل ، وتاب الى الله تعالى ، وتصدق بما معه الى الفقراء ، واعتق مماليكه ، واكب على قراءة القرآن ، الى أن توفى فى يوم الجمعة الأولى من شهر رمضان سنة ٤٢٨ ، فى همذان (١) ، ودفن بها ·

وكانت شخصية ابن سينا متعددة الجوانب ، فهو فيلسوف ، وطبيب ، وفقيه ، وأديب ، وشاعر ، وسياسى وصوفى · وكان يجمع بين الدين والدنيا ، ولم يمنعه تدينه من شرب الخمر ، ومخالطة النساء ، والاقبال على الملذات باسراف شديد · ولكنه أجاد فى تنظيم أوقاته بين تصريف أمور الدولة ، والاستمتاع بوسائل اللهو ، وتحصيل العلوم ، وتصنيف الكتب ، والاشتغال بالتدريس ·

فقد كان يجتمع كل ليلة فى داره طلبة العلم ، فيقرأون من كتبه ، وكان التدريس بالليل لعدم فراغه بالنهار ، اذ كان يشتغل فيه بتصريف أمور الدولة · وكان اذا فرغ من التدريس حضر المغنون ليستمع اليهم ، ويتناول الشراب ·

---

(١) أو فى أصفهان فى احدى روايتى خلكان : وفيات الاعيان : ١ / ٤٢٢

وصنف ابن سينا ما يزيد على مائتين وخمسين مصنفا ، منها ما هو ضخم وما هو متوسط أو مختصر · ومن أشهر مؤلفاته كتاب القانون الذى كان مرجعا فى الطب فى أوربا حتى القرن الثامن عشر · وفضلا عما فى الكتاب من معلومات طبية غزيرة ، فقد وضع فيه ابن سينا بعض قوانين المنهج العلمى التجريبى · وأضخم الكتب الفلسفية التى وضعها كتاب الشفاء ، الذى اختصره فى كتاب النجاة ، ولابن سينا بعض الكتب ذات النزعة الصوفية مثل الاشارات والتنبيهات · ويرى بعض الباحثين أن مؤلفات ابن سينا يمكن أن تنقسم الى قسمين : قسم الفه للجمهور ، وقسم يعرض فيه فلسفته الخاصة فأما القسم الأول فيتضمن مذهبه المشهور ، وأما القسم الثانى فيحتوى مذهبه المستور (١) ·

أقسام العلوم العقلية :

وضع ابن سينا رسالة « فى أقسام العلوم العقلية » (٢) ، استهلها بتعريف الحكمة (٣) أو الفلسفة ، باعتبار أنها تتضمن جميع العلوم العقلية ، فقال : « الحكمة صناعة نظرية يستفيد منها الانسان تحصيل ما عليه الوجود كله فى نفسه ، وما عليه الواجب مما ينبغى أن يكسبه فعله ، لتشرف بذلك نفسه ، وتستكمل ، وتصير عالما معقولا مضاهيا للعالم الموجود ، وتستعد

---

(١) راجع د. خليف : فلاسفة الاسلام ، ص ١٣ — ٢٣

(٢) نشرت ضمن تسع رسائل فى الحكمه والطبيبات لابن سينا . القاهرة ، مطبعة هندية ، ١٣٢٦ ،ص ١٠٤ — ١١٨ ، ونشرها أيضا محى الدين صبرى الكردى ضمن مجموعة رسائل بمصر ، سنة ١٣٢٨ ، ص ٢٠٩ — ٢٤٣

(٣) راجع أيضا تعريف الحكمة عند ابن سينا فى رسالته فى الطبيعيات من عيون الحكمة ، ضمن تسع رسائل ، ص ٢ وما بعدها · و

للسعادة القصوى بالآخرة ، وذلك بحسب الطاقة الانسانية » ٠

ويتضمن هذا التعريف شرحا لماهية الفلسفة ، وعرضا لمحتوياتها أو موضوعاتها ، والغاية من تحصيل علومها المختلفة ٠ فيصف ابن سينا الفلسفة بأنها صناعة نظرية ، أى أنها علم يستند الى أساس نظرى ، ويستفيد الانسان من تعلم الفلسفة أمرين :

أولا ــ تحصيل ما عليه الوجود كله ، اى تحصيل العلم بالموجودات ، فيعرف الانسان علل الوجود ومبادئه ٠

ثانيا ــ تحصيل ما يجب على الانسان ان يفعله لكى يكون خيرا فاضلا ٠

واذا استكمل الانسان عن طريق تحصيل هذين الجانبين : الجانب النظرى ، فحصل العلم بالوجود من حيث هو وجود ، والجانب العملى ، فطبق فى حياته العملية الواجبات الأخلاقية ، فستعلو نفسه ، وتستكمل ، ويرتقى الى مرتبة الانسان الكامل ، ويصير عالما صغيرا مماثلا للعالم الكبير ٠ وهكذا عن طريق تحصيل علوم الفلسفة ينال الانسان السعادة فى الحياة الدنيا ، ويستعد فى نفس الوقت للسعادة القصوى التى تنتظره فى الاخرة ٠

وكل ذلك « بحسب الطاقة الانسانية » ، أى أن فى الوجود من الحقائق ما لا تستطيع النفس الانسانية أن تصل اليه ٠

ويتبين لنا من التعريف السابق أن الشيخ الرئيس قد تأثر

بأرسطو فتابعه فى تقسيم الفلسفة الى القسمين الكبيرين الآتيين :

أ — القسم النظرى ، أو الفلسفة النظرية :

وهى المعرفة المتعلقة بالأمور التى لنا أن نعلمها وليس لنا أن نعمل بها ، ولا يتعلق وجودها بارادتنا ، فالغاية من هذا القسم النظرى البحت هو معرفة الحق فقط ، أو « حصول الاعتقاد اليقينى بالموجودات » .

ب — القسم العملى ، أو الفلسفة العملية :

وهى المعرفة المتعلقة بالأمور العملية التى ينبغى أن نعملها ولا نكتفى بمجرد تحصيل المعرفة النظرية ، أى أن المعرفة هنا لا تطلب لذاتها ، وانما لأجل عمل الخير (١) .

وبعد ذلك يقسم ابن سينا كلا من الفلسفة النظرية ، والفلسفة العملية ، من حيث الموضوع ، الى الأقسام الآتية :

أولا — أقسام الفلسفة النظرية :

١ — العلم الطبيعى : ويسميه ابن سينا العلم الأسفل ، لأن هذا العلم يبحث فى أمور لا توجد الا فى مادة جسمانية ، ولا يمكن أن نتصورها بخلاف ذلك ، مثل أجرام الفلك ، والعناصر الأربعة ، وما يتكون منها ، وما يوجد من الأحوال

---

(١) فى اقسام العلوم العقلية ، ط . الكردى ، ص ٢٢٧ — ٢٢٨ ، الطبيعيات من عيون الحكمة ، تسع رسائل ، ص ٢ — ٣

خاصـا بها ، مثل الحركة والسكون والتغير والفسـاد والنشوء وسائر ما يشبهها ٠

وللعلم الطبيعى فروع كثيرة متصلة به ، ولكننا نلاحظ أن هذه الفروع ليست علوما نظرية خالصة بالمعنى الذى حدده ابن سينا من قبل ، أى آن موضوعـاتها آمور لنا ان نعلمهـا دون أن نعمل بها ، وانما لكل فرع من هذه الفروع جانب عملى تطبيقى ٠

مثال ذلك علم الطب فهو أحـد فروع العلم الطبيعى ٠ فهل هو علم نظرى بحت ؟ كلا ، يذهب ابن سـينا الى أن الغرض فيه معرفة مبادىء البـدن الانسانى وأحـواله من الصحة والمـرض واسبابهما ودلائلهما ليدفع المرض ، وتحفظ الصحة ، وهكـذا فان غاية الطب غاية عملية هى دفع المـرض ، وحفظ الصحة ٠ اذن لم يكن شيخ الأطباء ابن سينا موفقا فى الحاق الطب بالعلوم النظرية ، بينما كان آستـاذه الفارابى أكثر توفيقـا منه حين أعلن أن علم الطب ليس جزءا من العلـم الطبيعى ، لأن للعلمين غرضين مختلفين ، فصناعة العلم الطبيعى نظرية بينما صنـاعة الطب فاعلة (١) أى عملية ٠

ومن فروع العلم الطبيعى عند ابن سـينا أيضا علم أحكام النجوم ، وهو فى نظره ، علم تخمينى ، والغرض فيه الاستدلال من أشكال الكواكب على ما يكون من أحوال آدوار العالم والملك والممالك والبلدان والمواليد ٠٠ الخ ٠

---

(٢) الفارابى : رسالة فى أعضاء الانسان — ضمن رسائل نشرها د. بدوى ، بنغازى ، ١٩٧٣ ، ص ٤٣

وكذلك علم الفراسة ، والغرض فيه الاستدلال من الخلق على الأخلاق ·

وعلم الكيميا ، والغرض فيه سلب الجواهر المعدنية خواصها وافادتها خواص غيرها ، وافادة بعضها خواص بعض · أى أن علم الكيميا كان يستهدف تحويل بعض المعادن الخسيسة الى معادن نفيسة كالذهب والفضة (١) ·

٢ ـ العلم الرياضى : ويسميه ابن سينا العلم الأوسط ، لأنه ينظر فى الأمور التى يتعلق وجودها بالمادة والحركة ، أما حدودها فهى غير متعلقة بهما ، مثال ذلك التربيع والتدوير والكرية والمخروطية ، فانك تفهم معنى الكرة من غير أن تحتاج فى تفهمها الى معرفة أنها من خشب ، أو ذهب أو فضة ، وكذلك تفهم العدد دون الحاجة الى معرفة نوع المعدود · ولكن الحقائق الرياضية مع هذا لا توجد الا فى مواد تحملها ، أى أن الذهن هو الذى يقوم بتجريد الماهيات الرياضية من موادها (٢) ·

والعلوم الرياضية عند ابن سينا أربعة : علم العدد (الحساب) ، وعلم الهندسة ، وعلم الهيئة (الفلك) ، وعلم الموسيقى · ولكل علم من هذه العلو مفروع متعددة (٣) ·

٣ ـ العلم الالهى : ويسميه ابن سينا العلم الأعلى ، لأن

---

(١) فى أقسام العلوم العقلية ، طبع الكردى ، ص ٢٢٨ — ٢٢٩ ، ص ٢٣١ — ٢٣٤

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٢٨ — ٢٢٩

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٣٦ — ٢٤٠

موضوعاته أمور لا تفتقر فى وجودها ، ولا فى حدودها ، الى المادة والحركة ، فهذه الأمور مستغنية تماما عن المادة والتغير ، فى ذاتها ، وفى تصورنا لها ، مثال ذلك رب العالمين وملائكته . ويبحث هذا العلم فى اثبات وجود البارى وتوحيده ، واثبات الجواهر الأول الروحانية ، وحقيقة الوحى ، والمعاد ، وغير تلك من الأمور الالهية (١) .

٤ ـ العلم الكلى أو الفلسفة الأولى :

اكتفى ابن سينا فى رسالته « فى أقسام العلوم العقلية » بالتقسيم الثلاثى السابق للفلسفة النظرية ، ولكنه فى بعض مصنفاته الأخرى يضيف قسما رابعا هو العلم الكلى أو الفلسفة الأولى . ففى رسالته « فى الطبيعيات من عيون الحكمة » يصرح بأن الفلسفة الالهية جزء من الفلسفة الأولى (٢) ، وفى « منطق المشرقيين » يتحدث عن العلم الكلى من حيث أنه أعم أقسام الفلسفة ، وموضوع هذا العلم أمور قد تخالط المادة ، وقد لا تخالطها .

أما الأمور التى تخالط المادة ، فهى مثل الأصول أو المبادىء العامة التى يحتاج الطبيعيون والرياضيون الى تعلمها ، وهى لا تبرهن فى علومهم الجزئية ، وانما يبرهن عليها فى العلم الكلى ، أو الفلسفة الأولى .

وأما الأمور المجردة عن المادة ، فهى كالمعانى العقلية :

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ ، ص ٢٣٦ ـ ٢٤٠

(٢) تسع رسائل ، ص ٣

الهوية ، والوحدة والكثرة ، والقوة والفعل ، والعلة والمعلول ٠٠٠ (١) ، فهذه المعانى الكلية لا تتصل بالمادة ، وان اتصلت بها فمن قبيل العرض ،وكذلك لا تخالط التغير ، وان خالطته فبالعرض (٢) ٠

ولست أجد مبررا لهذه التفرقة بين العلم الالهى ، وبين العلم الكلى ، التى أصر عليها ابن سينا فى بعض كتبه ، ولقد سبق أن أثبت الفارابى أن هذين العلمين انما هما علم واحد ، والاصرار على جعلهما علمين خطأ منطقى ٠ يقول الفارابى : « وأما العلم الكلى فهو الذى ينظر فى الشىء العام لجميع الموجودات ، مثل الوجود والوحدة ، وفى أنواعه ولواحقه ٠٠٠ وهو الذى ينبغى أن يسمى باسم الله جل جلاله (أى ينبغى أن يسمى العلم الالهى) ، وينبغى أن يكون العلم الكلى علما واحدا ، فانه لو كانا علمين كليين لكان لكل واحد منهما موضوع خاص ٠ والعلم الذى له موضوع خاص ، وليس يشتمل على موضوع علم آخر هو علم جزئى فكلا العلمين جزئيان ، وهذا خلف ، فاذا العلم الكلى واحد ، فينبغى أن يكون العلم الالهى داخلا فى هذا العلم ، لأن الله مبدأ للموجود المطلق لا لموجود دون موجود ٠٠٠ » (٣) ٠

---

(١) منطق المشرقين ، ص ٧
(٢) فى الطبيعيات من عيون الحكمة ، ص ٣
(٣) **الفارابى : الابانة عن عرض ارسطوطاليس فى كتاب مابعد الطبيعة** — المجموع ، ص ٤١ — ٤٢

ثانيا — أقسام الفلسفة العملية :

تأثر ابن سينا بالتقسيم الأرسطاليسى الثلاثى للفلسفة العملية ، فذهب الى أن الحكمة العملية ثلاثة أقسام : الحكمة الخلقية ، والحكمة المنزلية ، والحكمة المدنية (١) ، ثم يضيف الى هذه الأقسام قسما رابعا هو علم النبى ، أو الناموس .

١ — الأخلاق : غرض هذا العلم أن يعرف الانسان به كيف ينبغى أن تكون أخلاقه وأفعاله ، حتى تكون حياته ، فى الدنيا والآخرة ، سعيدة ، وذلك بأن يتعلم الفضائل ، وكيفية اقتنائها لتزكو النفس ، وكذلك يعرف الرذائل . وكيفية توقيها لتتطهر عنها النفس . ويشير ابن سينا الى أن هذه الموضوعات يشتمل عليها كتاب أرسطو فى الأخلاق (٢) ، يعنى كتاب الأخلاق النيقوماخية ، الا أن المعروف أن أرسطو ، لا فى هذا الكتاب ولا فى غيره ، يتحدث عن سعادة فى الآخرة ، وانما السعادة عند الفيلسوف اليونانى دنيوية تماما .

٢ — تدبير المنزل أو الحكمة المنزلية :

وتستهدف دراسة الأسرة وما بين أفرادها من علاقات مشتركة ، وغاية هذه الدراسة « أن تعلم المشاركة التى ينبغى أن تكون بين أهل منزل واحد ، لتنتظم به المصلحة المنزلية ،

---

(١) يشير اليها وفقا لهذا الترتيب فى رسالته فى أقسام العلوم العقلية، ص ٢٣٠ ، أما فى رسالته فى الطبيعيات من عيون الحكمة فيبدأ بالحكمة المدنية ، ثم المنزلية ، فالخلقية ، ص ٢ — ٣

(٢) فى أقسام العلوم العقلية ، ٢٣٠ ، عيون الحكمة — تسع رسائل ، ص ٢ ، علم الاخلاق — تسع رسائل ، ص ١٥٢

والمشاركة المنزلية تتم بين زوج وزوجة ، ووالد ومولود ، ومالك وعبد » (١) ٠ وأهم مصادر هذا العلم عند ابن سينا هو كتاب بريسون الفيثاغورى المار ذكره (٢) ، أو « كتاب أرونس فى تدبير المنزل » على نحو ما يسميه ابن سينا (٣) ٠

٣ ـ السياسة أو الحكمة المدنية :

وهى علم « يعرف به أصناف السياسات والرئاسات والاجتماعات المدنية الفاضلة والرديئة ، ويعرف وجه استيفاء كل واحد منها ، وعلة زواله ، وجهة انتقاله » (٤) ٠ وغرض هذا العلم معرفة ما يجب أن تكون عليه المشاركة التى تقع بين أشخاص الناس ، فى مدينة واحدة ، ليتعاونوا على مصالح الأبدان ومصالح بقاء نوع الانسان (٥) ٠ وهذا العلم يشمل ما نسميه فى عصرنا علمى السياسة والاجتماع ٠

٤ ـ علم النبى أو الناموس :

اعلن ابن سينا أن أقسام الفلسفة العملية ثلاثة ، وهى الأقسام التى أتينا على ذكرها ، وذلك فى المدخل من الشفاء ، و رسالته « فى عيون الحكمة « ورسالته « فى أقسام العلوم العقلية » ٠ الا أنه فى الرسالة الأخيرة اشار الى الوحى أو الناموس ، فقال : « وهذا الجزء من الحكمة العملية ، يعرف به

---

(١) عيون الحكمة ، ص ٣
(٢) راجع حديثا عن مسكوية ومصادر فلسفته فى الفصل السابق
(٣) فى اقسام العلوم العقلية ، ص ٢٣٠
(٤) بنفس المصدر والصفحة .
(٥) عيون الحكمة ، ص ٢ — ٣

وجود النبوة » (١) • وكانت هذه الاشارة بمثابة توطئة لأن يصرح فيما بعد فى كتابه « منطق المشرقيين » (٢) ، بأن أقسام الفلسفة العملية أربعة ، هى : الأخلاق ، وتدبير المنزل ، والسياسة ،والناموس أو علم النبى (٣) •

مكانة المنطق :

حاول ابن سينا أن يوفق بين الموقف المشائى الذى يجعل من المنطق مجرد آلة أو أداة للفلسفة ، وبين الموقف الرواقى الذى يعتبر المنطق أحد علوم الفلسفة ، وجزءا من أجزائها الأساسية • فجمع ابن سينا بين الرأيين فى كتاب الشفاء ، اذ ذهب الى أن المنطق مقدمة للفلسفة وجزءا منها فى نفس الوقت (٤) • وفى كتاب منطق المشرقيين يتحدث ابن سينا عن « العلم الذى يطلب ليكون آلة » ، ثم يقول « وقد جرت العادة فى هذا الزمان ، وفى هذه البلدان أن يسمى علم المنطق » (٥) • والمراد من المنطق « أن يكون عند الانسان آلة قانونية تعصمه مراعاتها عن أن يضل فى فكره » (٦) • فهذه فائدة صناعة المنطق ،ونسبتها الى الروية كنسبة النحو الى الكلام ، والعروض الى الشعر ، ولئن

---

(١) فى أقسام العلوم العقلية ، ص ٢٣١

(٢) وهو فى الغالب من المصنفات التى وضعها ابن سينا فى اواخر حياته ، جزء من كتاب الحكمة المشرقية المفقود . راجع : مؤلفات ابن سينا للاب قنواتى ، ص ٢٦ — ٢٧ ، د• خليف : فلاسفة الاسلام ، ص ٢١ — ٢٢ ، يتسير شيخ الارض :المدخل الى فلسفة ابن سينا ، ص ١٤٧ ، ص ١٥٦ — ١٥٨

(٣) منطق المشرقيين ، ص ٧ — ٨

(٤) مقدمة منطق الشفاء ، ص ٥

(٥) منطق المشرقيين ، ص ٥

(٦) الاشارات والتنبيهات ، القسم الاول ، ص ١٧٦

كانت الفطرة السليمة تغنى عن تعلم النحو والعـروض ، فان الأمر بخلاف ذلك فيما يختص بالمنطق ، فليس شيء من الفطـر الانسانية بمستغن فى استعمال الروية عن الاعتماد على هـذه الالة ، أى المنطق ، اللهم الا أن يكون انسانا مؤيدا من عند الله تعالى (١) ، فالنبى فى غير حاجة الى تعلم المنطق ، واعتماده على الوحى يعصمه عن الضلال أو الزلل ٠

صلة الفلسفة بالدين :

لم يكن ابن سينا متابعا لأرسطو متابعة تامة ، فقد لاحظنا فى تقسيمه للعلوم أنه أضاف أقساما لم يشر اليها أرسـطو ، وذلك فى اطار محاولته للتوفيق بين الفلسفة والدين ٠

لقد اعلن أن أقسام الفلسفة النظرية أربعة وليست ثـلاثة كما ذهب أرسطو ، اذ فـرق بين العلـم الالهى وبين العلم الكلى أو الفلسفة الأولى ، وان كنا نرى الحاق هذا العلم الكلى بالعلـم الالهى ، وليس ثمت ما يدعو الى هذه التفرقة ٠

كما أضـاف الى أقسام الفلسفـة العملية قسـما رابعا لم يتعرض له أرسطو ، وهو علم النبى الذى يعرف به حاجة نـوع الانسان الى النبوة ، ويبين لنا الفرق بين النبوة الصادقة ومزاعم مدعى النبوة الكاذبة ، وان كنا أيضا لا نقر ابن سينا فى ذلك ، فليست النبوة جزءا من الفلسفة العملية فى رأينا ، بل فى رأى ابن سينا نفسه كما يستفاد من رسالته فى أقسام العلوم العقلية وكتاب النجاة ، اذ يعد النبوة فرع من فروع العلم الالهى (٢) ، وهذا الأخير قسم من الحكمة النظرية ٠

---

(١) النجاة ، ص٥
(٢) فى أقسام العلوم العقلية ، ص ٢٣٨ ، النجاة ، ص ٣٠٣ ومابعدها

والواقع أن أرسطو لم يتعرض لمسألة الصلة بين الفلسفة والدين ، ولكن ابن سينا وسائر فلاسفة الاسلام حاولوا اقامة جسور بينهما ·

أولا — صلة الفلسفة النظرية بالدين :

يقول ابن سينا « ومبادىء هذه الأقسام التى للفلسفة النظرية مستفادة من أرباب الملة الالهية على سبيل التنبيه ، ومنصرف على تحصيلها بالكمال بالقوة العقلية على سبيل الحجة » · (١) هكذا يبين الشيخ ان مبادىء الفلسفة النظرية — وبخاصة الالهيات — لها اصول فى الدين على سبيل التنبيه ، ثم يأتى العقل مستخدما قوة الاحتجاج ، فيفصل ويتصرف ، وينمى ما جاء به الدين · وهذا ما فعله فلاسفة الاسلام على الجملة ، اذ حاولوا فلسفة الدين بتعمق مسائله ·

لقد جاء الشرع — فى نظر ابن سينا — بالمبادىء العامة « أما المقدار الذى يخوض فيه الكلام الشرعى من أمر المبادىء فالدعوة المجملة الى وجود الصانع وصفاته ووحدانيته وحكمته وعدله ، وبراءته عن صفات الملحقين به النقص ، ووجود الملائكة والأخبار عن العلية الالهية بالجليل دون الدقيق ، ووصفها بما يستحسن عند الجمهور ، وتصوير الملائكة فى أحسن صورة يتخيلها الجمهور ، دون المعانى العقلية المحضة ، والسمات الروحانية السجية التى لا يتخطى اليها دون عقول الحكماء ··· » ·

---

(١) عيون الحكمة ، ص ٣

أمـا الفلسفة العملية فمتصلـة بالدين أيضـا كالفلسفة النظرية ، بل « ان الشريعة أفضل قصدها الجزء العملى من أفعال الانسان ، حتى يفعل الخير كل واحد مع نفسه ، ومع شريكه فى نوعه ، وشريكه فى جنسه » (١) . والصلة بين الفلسفة العملية والدين أشبه بالصلة بين الفلسفة النظـرية والدين ، فالـدين يشير الى معان عامة كالخـير والسعادة ويطالب الانسـان باتبـاع الطرق لتحقيقها ، ثم تأتى الفلسفة العملية فتبحث هذه المعانى العامة بحثـا مستفيضا مفصـلا ، ومن ثم فان اسس الفلسفـة العملية بعلومها الثلاثة مستفـادة من الشريعة ، ومستمـدة من النبوة ، ومن هنا تبرز حاجة نوع الانسان فى وجوده ، وبقائه ، ومنقلبه الى الشريعة (٢) .

تربيـة الأطفـال

أهمية الاستقرار العائلى :

أدرك ابن سـينا أن طبيعة العلاقة بين الوالـدين لها تأثير كبير فى تنشئة الأطفـال ، ولفت الأنظار الى أهمية الاستقرار العائلى فى تربية النشء تربية سليمة ، فطالب بثبات الصلة بين الزوجين ، وحـذر من خطورة الطـلاق ، لأنه يؤدى الى تمزيق الأسرة ، أو على حـد قوله « الى تشـتت الشمل الجـامع للأولاد ووالديهم ، والى تجدد احتيـاج كل انسان الى المزاوجـة ، وفى ذلك أنواع من الضرر كثيرة » .

---

(١) رسالة أضحوية فى أمر المعاد ، تحقيق سليمان دنيا ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٤٩ ، ص ٥٧ — ٦٠ .

(٢) فى أقسام العلوم العقلية ، ص ٢٣١ ، منطق الشرقيين ، ص ٧ — ٨

واذا كان للترابط بين الزوجين هذه الأهمية الكبرى ، فكيف يتحقق هذا الترابط ؟ أفلا توجد ثمت ضمانات أو شروط للعلاقة الزوجية المستقرة ؟ يرى الشيخ الرئيس أن من أهم أسباب دوام الصلة بين الزوجين المحبة ، « والمحبة لا تنعقد الا بالألفة ، والألفة لا تحصل الا بالعادة ، والعادة لا تحصل الا بطول المخالطة » (١) . أى أن مرور الزمن يزيد العلاقة الزوجية ترابطا واستقرارا ، ومن ثم فلا ينبغى أن يسارع الزوجان الى طلب الفرقة بينهما ، لما يترتب على ذلك من آثار سيئة على الأولاد .

ويلاحظ ابن سينا أن المرأة بطبيعتها عاطفية ، ومن ثم لا يجب أن يسند اليها أمر الطلاق . يقول : ينبغى أن « لا يكون فى يديها هذه الفرقة ، فانها بالحقيقة واهية العقل ، مبادرة الى طاعة الهوى والغضب » .

ولكن هل معنى هذا اغلاق باب الطلاق تماما لكى يمكن تجنب آثاره الوخيمة على الأطفال ؟ يجيب صاحب الشفاء على ذلك بالنفى ، فيقول : « ويجب أن يكون الى الفرقة سبيل ما ، وأن لا يسد ذلك من كل وجه ، لأن حسم اسباب التوصل الى الفرقة بالكلية ، يقتضى وجوها من الضرر والخلل » .

وللتنافر بين الزوجين اسباب شتى ، فقد يرجع الى التباين بينهما فى بعض الطباع ، بحيث يصبح الاصرار على الجمع بينهما حماقة وسوء تقدير .

---

(١) الهيات الشفاء ص ٤٤٩ ، نقلا عن تيسير شيخ الارض : المدخل الى فلسفة ابن سينا ، ص ٤٩٩

ومن أسباب تعذر استمرار الحياة الزوجية أن من الناس من يمنى بزوج غير كفوء ، ولا حسن المعاشرة ، أو بغيض تعافه الطبيعة ، فيصير ذلك داعيا الى الرغبة فى غيره ، وربما أدى ذلك الى وجوه من الفساد ، وربما كان المتزاوجان لا يتعاونان على النسل ، فاذا بدلا زوجين آخرين تعاونا ، فيجب اذن أن يكون الى المفارقة سبيل ، ولكن يجب أن يكون مشددا فيه ٠

وهكذا يحذر ابن سينا من التسرع فى افتراق الزوجين ، ويطالب بضرورة التفكير الطويل ، ومحاولة ازالة أسباب الفرقة ، حتى ينشأ الاولاد نشأة سليمة ، اذ ان التربية السليمة فى نظره تستلزم مشاركة الوالدين ، كل فيما يخصه ٠ يقول : « ويسن فى الولد أن يتولاه كل واحد من الوالدين بالتربية » ٠

وكما أن للولد حقوقا والديه ، وهى حسن تربيته ، فعليه واجبات حيالهما ٠ يقول : « وكذلك الولد أيضا يسن عليه خدمتهما وطاعتهما واكبارهما واجلالهما ، فهما سبب وجوده ، ومع ذلك فقد احتملا مؤونته التى لا حاجة الى شرحها لظهورها » (١) ٠

مراحل التربية والتعليم :

يبين ابن سينا فى كتاب السياسة أن تربية الطفل تمر بمراحل مختلفة ، تبدأ منذ ولادته ، ويشير الى أهمية التربية المبكرة ، والعناية بالطفل ، ويحدثنا عن حقوق الطفل ،

---

(١) الهيات الشفاء ، ص ٤٤٩ — ٤٥١

« فان من حق الولد على والديه حسن تسميته ، ثم اختيار ظئره ، كي لا تكون حمقاء ، ولا ورهاء ، ولا ذات عاهة ، فان اللبن يعدى كما قيل .

فاذا فطم الصبى عن الرضاع ، بدىء بتأديبه ، ورياضة أخلاقه ، قبل أن تهجم عليه الأخلاق اللئيمة ، وتفاجئه الشيم الذميمة ، فان الصبى تتبادر اليه مساوىء الأخلاق ، وتنثال عليه الضرائب (١) الخبيثة ، فما تمكن منه من ذلك ، غلب عليه ، فلم يستطع له مفارقة ، ولا عنه نزوعا ، فينبغى لغنم الصبى ، أن يجنب مقابح الأخلاق ، وينكب عنه معايب العادات » .

والسبيل الى ذلك فى نظر ابن سينا يكون « بالترهيب والترغيب ، والايناس والايحاش ، وبالاعراض والاقبال ، وبالحمد مرة ، وبالتوبيخ أخرى » . فان لم تكن فى هذه الأساليب الكفاية ، فقد يلجأ الى الضرب فى تأديب الصبى ، اذا دعت الحاجة الى الاستعانة باليد . ولكن ينبغى الحذر الشديد فى استخدام هذه الوسيلة التى يقرها ابن سينا كأحد الوسائل التربوية ، حتى لا تكون النتيجة مخالفة للغاية المنشودة . « وليكن أول الضرب قليلا موجعا ، كما أشار به الحكماء قبل ، بعد الارهاب الشديد ، وبعد اعداد الشفعاء ، فان الضربة الأولى اذا كانت موجعة ساء ظن الصبى بما بعدها واشتد منها خوفه واذا كانت خفيفة غير مؤلمة ، حسن ظنه بالباقى ، فلم يحفل به » .

« فاذا اشتدت مفاصل الصبى ، واستوى لسانه ، وتهيأ

---

(١) المفرد ضريبة أى طبيعة وسجية

للتلقين ، ووعى سمعه » ، أى اذا بلغ سن التعليم ، وجب أن يبدأ مراحل تعليمه المختلفة ، ويمكن أن نميز بين المرحلتين الآتيتين :

أولا — مرحلة التعليم الأساسى :

تبدأ هذه المرحلة مع الخطوات الأولى لرحلة الطفل فى طريق التعلم ، ويشمل البرنامج التقليدى للتعليم ، الذى تلقاه ابن سينا نفسه فى صباه ، مثله فى ذلك كمثل سائر الصبية فى الدولة الاسلامية • ويتضمن هذا البرنامج مجموعتين من العلوم :

(١) علوم الدين : فيأخذ الصبى فى تعلم القرآن ، ويلقن معالم الدين •

(٢) علوم اللغة والأدب : فيتعلم حروف الهجاء ، ورواية الشعر ، على أن يراعى فى ذلك البدء بما هو سهل ميسور ، ثم التدرج الى ما هو أصعب ، فيستهل الصبى دراسته للشعر بالرجز ،ثم القصيدة « فان رواية الرجز أسهل ، وحفظه امكن ، لأن بيوته أقصر ، ووزنه أخف » •

على أن تستهدف دراسة الشعر تربية النشء تربية أخلاقية سامية ، لذلك يراعى فى تعليم الصبى أن « يبدأ من الشعر بما قيل فى فضل الأدب ، ومدح العلم ، وذم الجهل ، وعيب السخف ، وما حث فيه على بر الوالدين ، واصطناع المعروف ، وقرى الضيف ، وغير ذلك من مكارم الأخلاق » •

ومؤدب الصبيان له دور هام فى التربية والتعليم ، ولذلك

يلزم أن تتوفر فيه شروط هامة . يقول ابن سينا : « وينبغى أن يكون مؤدب الصبى عاقلا ، ذا دين ، بصيرا برياضة الأخلاق ، حاذقا بتخريج الصبيان ، وقورا رزينا ، بعيدا من الخفة والسخف ، قليل التبذل والاسترسال بحضرة الصبى ، غير كز (١) ولا جامد ، بل حلوا لبيبا ، ذا مروءة ونظافة ونزاهة ، قد خدم سراة (٢) الناس ، وعرف ما يتباهون به من اخلاق الملوك ، ويتعايرون به من أخلاق السفلة ، وعرف آداب المجالسة ، وآداب المؤاكلة والمحادثة والمعاشرة » .

وتأثير الزملاء أمر بالغ الأهمية فى تربية الطفل تربية اجتماعية سليمة ، فيقول ابن سينا : « وينبغى أن يكون مع الصبى فى مكتبه ، صبية من أولاد الجلة ، حسنة آدابهم ، مرضية عاداتهم ، فان الصبى عن الصبى ألقن ، وهو عنه آخذ ، وبه آنس . وانفراد الصبى الواحد بالمؤدب ، أجلب الأشياء الى ضجرهما (٣) ، فاذا راوح المؤدب بين الصبى والصبى ، كان ذلك انقى للسآمة ، وابقى للنشاط ، وأحرص للصبى على التعلم والتخرج ، فانه يباهى الصبيان مرة ، ويغبطهم مرة ، ويأنف من القصور عن شأوهم مرة . ثم يحادث الصبيان ، والمحادثة تفيد انشراح العقل ، وتحل منعقد الفهم ، لأن كل واحد من أولئك ، انما يتحدث بأعذب ما رأى ، وآعزب ما سمع ، فتكون غرابة الحديث سببا للتعجب منه ، والتعجب منه سببا

---

(١) كز الشىء : يبس وانقبض من البرد . وكز فلان : قل خيره ومساعدته

(٢) أى أفضل الناس

(٣) لعل تجربة انفراد الصبى الواحد بالمؤدب ، وما تجلبه من ضجر ، قد عانى منها ابن سينا شخصيا حينما استضاف والده أبا عبد الله الناتلى المتفلسف فى منزله ، واسند اليه مهمة تعليم ابن سينا .

لحفظه ، وداعيا الى التحدث به ٠ ثم انهم يترافقون ويتعارضون الزيارة ، ويتكارمون ويتعاوضون الحقوق ، وكل ذلك من أسباب المباراة والمباهاة ، والمساجلة والمحاكاة ، وفى ذلك تهذيب لأخلاقهم ، وتحريك لهممهم ، وتمرين لعاداتهم » ٠

ثانيا — مرحلة التخصص العلمي :

يقول ابن سينا : « واذا فرغ الصبى من تعلم القرآن ، وحفظ أصول اللغة » ، أى اذا أتم الطفل مرحلة التعليم الأساسى ، التى أتمها ابن سينا فى حوالى العاشرة من عمره كما عرفنا ، انتقل الصبى الى مرحلة التوجيه « الى ما يراد أن تكون صناعته » ، أى مرحلة اعداده الاعداد المناسب للمجال الذى سيتخصص فيه فيما بعد ، فاذا كانت الصناعة التى سيشتغل بها عندما ينضج هى الكتابة ، استمر فى دراسته لعلوم اللغة ، وتعمق فيها ، وأضاف اليها دراسة الرسائل والخطب ، وعنى بالخط ، ودراسة مناقلات الناس ومحاوراتهم ، وما أشبه ذلك ٠ وان أريد صناعة أخرى وجه الى دراسة ما يناسبها من العلوم ٠

ويتوقف نجاح الطلاب فى دراساتهم التخصصية — فى نظر ابن سينا — على حسن التوجيه الدراسى لهم ، وفقا لميولهم الطبيعية المختلفة ، وقدراتهم العقلية المتفاوتة ، وهذا التوجيه انما هو مهمة رجال التربية ، ومن أجل ذلك كان من الضرورى — على حد قول ابن سينا — « أن يعلم مدبر الصبى أن ليس كل صناعة يرومها الصبى ممكنة له مؤاتية ، لكن ما شاكل طبعه وناسبه ، وأنه لو كانت الآداب والصناعات تجيب وتنقاد بالطلب

والمرام ، دون المشاكلة والملاءمة ، اذن ما كان أحد غفلا من أشرف الآداب وأرفع الصناعات •

ومن الدليل على ما قلنا ، سهولة بعض الأدب على قوم ، وصعوبته على آخرين ، ولذلك نرى واحدا من الناس تؤاتيه البلاغة ، وآخر يؤاتيه النحو ، وآخر يؤاتيه الشعر ، فاذا خرجت عن هذه الطبقة الى طبقة اخرى ، وجدت واحدا يختار علم الحساب ، وآخر يختار علم الهندسة ، وآخر يختار علم الطب ، وهكذا تجد سائر الطبقات ، اذا افتليتها طبقة طبقة ، حتى تدور عليها جميعا » •

ولكن لما يختلف الطلاب فى اختيار العلوم المفضلة عندهم ؟ ولماذا يتفاوتون فيما بينهم فى مدى القدرة على الاستيعاب والفهم والتحصيل ؟ لقد أثبت علماء النفس والتربية المحدثون أن هذا التفاوت بين الطلاب لا يمكن أن يكون راجعا الى مجرد المصادفة أو الاتفاق ، وانما ثمت دوافع نفسية شتى ، وعوامل متعددة ، بعضها وراثى كالذكاء والقدرات المختلفة ، وبعضها مكتسب من البيئة ، وتتضافر هذه العوامل جميعا ، وينجم عنها ما نراه من اختلاف الطلاب فى مدى الاستعداد الدراسى •

لقد أدرك ابن سينا صعوبة تفسير ظاهرة التفاوت فى القدرة على التحصيل الدراسى ، والميل الى بعض العلوم ، والنفور عن بعضها ، وأكد أن وراء هذه الظاهرة دوافع لم يتوصل العلم فى عصره الى الكشف عنها • الا أنه بعد أن اعلن العجز عن تحديد جميع هذه الدوافع أو الأسباب المختلفة ، فقد حاول أن يميط اللثام عن بعضها ، فأدرك بثاقب بصره بعض

ما توصل اليه العلماء من ضرورة توفر شروط معينة للنجـاح الدراسى ، وبدونها تفشل عملية التعلم ، مهما بذل فيها من جهد ومال • بل لقد سبق ابن سـينا علماء النفس والتربية المحدثين فى المطالبة باجـراء « اختبار ذكـاء» للطـلاب ، قبـل توجيههم دراسيا ، ويحذر من خطورة التعويل على مجرد رغبة الطالب أو رغبة والده فى اختيار نوع الدراسة • وانما يدعـو الى ان يتم التوجيه على أساس اجراء اختبـارات دقيقة لقدرات الطـلاب واستعدادهم ،ثم متابعة •

ففى معرض حـديثه عن اختلاف الطـلاب فى العلـوم التى يختـارونها ، والتى تنـاسب قـدراتهم ، يقـول : « ولهـذه الاختيارات ، وهذه المناسبات والشاكلات اسباب غامضة ، وعلل خفية ، تدق عن أفهام البشر ، وتلطف عن القياس والنظـر ، لا يعلمها الا الله جل ذكره •

وربما نافر طباع انسـان جميع الآداب والصنـائع ، فلم يعلق منها بشىء ، ومن الدليل على ذلـك ، أن أناسا من أهـل العقل ، راموا تأديب أولادهم ، واجتهدوا فى ذلك ، وانفقـوا فيه الأموال ، فلم يدركوا من ذلك ما حاولوا •

فلذلك ينبغى لمؤدب الصبى — اذا رام اختيـار الصناعة — أن يزن أولا طبع الصبى ، ويسبـر قريحته ، ويختبـر ذكاءه ، فيختـار له الصناعـات بحسب ذلـك ، فاذا اختـار له احـدى الصناعات ، تعرف قدر ميله اليهـا ، ورغبته فيها ، ونظر هـل جرت منه على عرفان أ م لا ؟ وهل أدواته وآلاته مساعدة له عليها أم خاذلة ؟ ثم يبت العزم ، فان ذلك أحزم فى التدبير ، وأبعد من

أن تذهب أيام الصبى فيما لا يؤاتيه ضياعا » ·

ويرى ابن سينا أن الطالب اذا ما حقق بعض النجـاح فى الدراسة التى تخصص فيها ، وقطع فى طريق تحصيلها شوطـا كافيا ، « فمن التدبير أن يعرض للكسب ، ويحمل على التعيش منها ، فانه يحصل فى ذلك له منفعتان » ، وهما :

١ — اذا ذاق حلاوة الكسب بصناعته ، وعرف غناها ، كان ذلك سببا فى مواصلة التعمق فيها ، وبلوغ أقصاهـا ·

٢ — أنه يعتاد طلب المعيشة ، ويتعلم الاعتماد على النفس ، وهذا أمر هام بالنسبة للأولاد بصفـة عامة ، ولأبناء الأثريـاء بصفة خاصة ، يقول ابن سينا من واقع خبرته الشخصية : « فانا قل ما رأينا من أبناء المياسـير ، من سلم من الركـون الى مـال أبيه » · اذن ينبغى أن يعتاد الصبى شيئا فشيئا الاسـتقلال فى المعيشة ، « فاذا كسب الصبى بصناعته ، فمن التدبير أن يزوج ويفرد رحله » (١) ·

---

(١) ابن سينا : كتاب السياسة ، ص ١٢ — ١٥ ضمن مقالات فلسفية قديمة لبعض مشاهير العرب

الخـاتمة

نلاحظ الآن بعد أن استعرضنا الآراء التربوية لدى بعض مفكرى الاسلام من ذوى الاتجاهات المختلفة ، أنهم - وان كانوا قد استقوا من الشرع أفكارهم - الا أنهم اجتهدوا ، فأخرجوا ثمارا مختلفة ألوانها وطعومها ، وللاجتهاد سبل شتى ، فقد لجأوا الى القياس واستنباط الأحكام حين تعذر وجود نص من الكتاب أو السنة ، كما عول فريق منهم على المصادر الأجنبية ، وانفتحوا على تراث الحضارات القديمة كاليونانية والفارسية والهندية ، واستمدوا منها ما كانوا يحتاجون اليه من أفكار بدت لهم غير متعارضة مع عقيدتهم وقيمهم ، واضافوا الى ذلك كله خبراتهم التربوية واسهاماتهم فى معالجة مشكلات التربية والتعليم فى عصورهم المختلفة .

لقد اجتهد مفكرو الاسلام واسهموا فى حل المشكلات التربوية المعاصرة لهم ، ولكن ليست كل اجتهاداتهم ملزمة لنا ، وانما علينا ان نحذو حذوهم فى الاجتهاد ، فلا شك أن المشكلات التربوية فى عصرنا تختلف عن المشكلات التى واجهتهم .

واذا كان المهتمون بالتعليم يثيرون اليوم قضية تحديث التربية والتعليم ، فان هذا الأمر يتطلب دراسة عميقة لتراثنا التربوى لتحليله ابتغاء معرفة أسسه وقيمه وعناصره ونواحى القوة والضعف فيه ، كما يقتضى أيضا دراسة مماثلة للفلسفات التربوية المعاصرة ، أعنى دراسة تحليلية نقدية لمعرفة ما يلائمنا منها وما لا يلائم .

واذا كان المسئولون يعلنون أن التعليم الآن يمر بأزمة شديدة ، ويشكون من سوء أحوال الجامعات وانحدار مستواها ، فأغلب الظن أن ذلك يرجع الى اجراء عمليات تطوير تعليمى فى المدارس والجامعات على غير ما تقضى به سنن التطور • لقد تعالت أصوات مخلصة تنادى باجراء حركة اصلاح وتجديد ، ولكن الذى حدث عند التطبيق كان أشبه بعملية زراعة عناصر أجنبية فى النظام التعليمى عندنا ،أو حقنه بدماء من غير فصيلته ، فلم يتحقق للتعليم الهدف المنشود وهو انقاذه وعلاجه ، بل سرت فى كيانه فوضى هائلة ، وتعرض للاضطراب والتذبذب •

لقد كان طه حسين يطالب بأن يكون التعليم حقا للجميع كالماء والهواء ، وكان يتوق الى انشاء مدرسة بل جامعة فى كل قرية • ولكن هل تحقق هذا الهدف النبيل بعد انتشار التعليم واتساعه الآن ؟ حقا لقد زاد عدد طلاب المدارس زيادة هائلة ولكن تحققت هذه الزيادة بعد أن استحدث نظام العمل فترتين أو ثلاث فترات فى المدرسة الواحدة ، ولم يعد الطالب يقضى فى المدرسة أكثر من أربع ساعات أو أقل ، كما تحققت هذه الزيادة فى عدد طلاب المدارس بعد أن تحولت الملاعب والحدائق والمكتبات الى فصول دراسية ، فتوقفت الأنشطة الرياضية والثقافية والفنية فى المدارس • أو تحققت الزيادة فى عدد الطلاب بعد أن أصبحت كثافة الفصل أضعاف أضعاف معدل الكثافة السائد من قبل •

حقا لقد انهالت الأعداد الغفيرة على الجامعات ، ولكن صار

الأستاذ يحاضر للآلاف من الطلبة فى مدرج سيء الاضاءة والتهوية ، وفى ظروف يتعذر على الطالب أن يسمع أو يفهم أو يناقش ، أو يحس أنه فى مكان علم مقدس ، أو أن يجد فى مكتبة الكلية المراجع التى يحتاج اليها ، لذلك أصبح من المألوف اكتفاء الطالب الجامعى بالمذكرات أو الاعتماد على الدروس الخصوصية ٠

وقد أدى الاقبال المتزايد على الجامعات الكبرى وازدحامها بالطلاب الى التفكير فى انشاء جامعات جديدة فى الأقاليم ، ومما لا ريب فيه أنها فكرة طيبة ، ولكن ماذا كانت النتيجة عند تطبيق هذه الفكرة ؟ لقد تحمس المسئولون من المحافظين وغيرهم فأنشأوا جامعات اقليمية دون توفير هيئات التدريس اللازمة ، فضلا عن افتقارها الى المعامل والمكتبات ، بل لم يوفر للكثير من الكليات الاقليمية المبانى المناسبة ، فتحولت بعض المدارس الثانوية أو حتى مؤسسات غير تعليمية الى كليات جديدة بقرار من السيد المحافظ ٠

ان القرار مهما كان ثوريا لا يؤدى الى اصلاح شأن التربية والتعليم بل يقتضى هذا الاصلاح دراسة تراثنا التربوى المتراكم عبر القرون ، واماطة اللثام عن مواطن القوة والضعف فيه ، كما يتطلب الانفتاح على التيارات التربوية المختلفة فى عالمنا المعاصر ، بعد غربلتها مما تتضمنه من عناصر غير ملائمة ، ويستلزم أيضا معرفة الظروف السائدة فى المجتمع وادراك المشكلات المختلفة التى تعوق تحقيق الأهداف التربوية والبحث عن طرق علاجها ٠

ولن يتحقق ذلك الا عن طريق المعلم المستنير الذى اطلع على الفلسفات التربوية المختلفة ، ووقف على فلسفة التربية المناسبة لثقافة مجتمعه وعقيدته وقيمه وحاجاته • ولكن للأسف لا تقوم كليات التربية عندنا بهذه المهمة كما ينبغى ، اذ لا تتيح المناهج الحالية لطلاب كليات التـربية التعرف على الأصـول الفلسفية للتربية عند مفكرى الاسلام •

المراجـع

- الآجرى ، أبو بكر محمد : أخلاق العلماء ،تصحيح وتعليق اسماعيل بن محمد الأنصـارى و عبد الله بن عبد اللطيف آل الشـيخ . الرياض ، رئاسـة ادارات البحـوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد ، ١٩٧٨ .

- ابراهيم بن اسماعيل : شرح الرسالة المسماة بتعليم المتعلم طريق التعلـم للـزرنوجى وبهـامشه المتن وهو الرسـالة المذكورة . القاهرة ، دار احياء الكتب العربية — الحلبى ، بدون تاريخ .

- ابراهيم مدكور (دكتور) : فى الفلسفة الاسلامية منهج وتطبيقه ، حـ ١ ، ط ٢ . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٨ .

- ابن أبى أصيبعة : عيون الأنبـاء فى طبقات الأطبـاء . القاهرة ، ١٨٨٢ .

- ابن تيمية : كتاب التوحيد ، ط ٢ ، تحقيـق دكتور محمد السيد الجليند . القاهرة ، مطبعة التقدم ١٩٧٩ .

- ابن الجوزى : لفتة الكبد الى نصيحة الولد ، تحقيق دكتور فؤاد عبد المنعم . الاسكندرية ، مكتبة حميدو ، ١٩٧٩ .

- ابن سـينا : الاشـارات والتنبيهات مع شـرح الطوسى ، تحقيق دكتور سليمان دنيا ، القسم الأول . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٨ .

: كتـاب السيـاسة ، ضمن مقـالات
فلسفية قديمة ، ط ٢ ، نشرها لويس معـروف • بيروت ،
المطبعة الكاثوليكية ، ١٩١١ •

: فى أقسام العلوم العقلية ، نشـرت
ضمن تسع رسائل فى الحكمـة والطبيعيات لابن سـينا •
القاهرة ، مطبعة هندية ، ١٣٢٦ هـ •

وكذلك نشـرت ضمـن رسائل شتى نشرها محى
الدين صبرى الكردى • مصر ١٣٢٨ هـ •

: منطق المشرقيين والقصيدة المزدوجة •
القاهرة ، المكتبة السلفية ، ١٩١٠ •

: النجاة ، ط ٢ • القاهرة ، الكردى ، ١٩٣٨ •

- ابن قيم الجوزية : تحفة المودود بأحكام المولود • القاهرة ، المكتبة القيمة ، ١٩٧٧ •

- أبو الحسن الندوى : نحو التربية الاسلامية الحرة ، ط ٣ ، القاهرة ، المختار الاسلامى ، ١٩٧٦ •

- احمد عزت راجح (دكتور) : أصول علم النفس ، ط ٤ • القاهرة ، مؤسسة المطبوعات الحديثة ، ١٩٦٠ •

- احمد فؤاد الأهوانى (دكتور) : الكندى فيلسوف العرب • القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة ، ١٩٦٤ •

- احمد محمود صبحى (دكتور) : الزيدية · الاسـكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٨٠ ·
- ابن نباته : سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون ، ط ٤ · القاهرة ، مطبعة الموسوعات ، ١٣٢١ هـ ·
- ابن النديم : الفهرست · بـيروت ، دار المعرفة ، بـدون تاريـخ ·
- أديب دمتـرى : فلسفات رجعية فى التـربية والتعليم ، مقالة بمجلة الكاتب ، العدد ٦٤ ، يوليو ١٩٦٦ ، ص ٥٤ ـ ٦٩ ·
- أيكن ، هنرى د · : عصـر الأيدولوجية ، ترجمة دكتـور فؤاد زكـريا ، مراجعـة دكتور عبـد الرحمن بـدوى · القاهرة ، مكتبة الأنجلو ، ١٩٦٣ ·
- برلين ، ايسا : كارل ماركس ، ترجمة عبد الكريم احمد · القاهرة ، دار القلم ، بدون تاريخ ·
- البيهقى ، ظهير الدين : تاريخ حكمـاء الاسلام ، ط ٢ · دمشق ، مطبعة الترقى ، ١٩٤٦ ·
- التوحيدى ، أبو حيان : البصائر والذخائر ، جـ ١ ، تحقيق دكتور ابراهيم الكيلانى · دمشق ، مكتبة أطلس ومطبعة الانشاء ، ١٩٦٤ ·

- تيسير شيخ الأرض : المدخل الى فلسفة ابن سينا • بيروت ، دار الأنوار ، ١٩٦٧ •
- جرونيباوم ، جوستاف : حضارة الاسلام ، ترجمة عبد العزيز جاويد • القاهرة ، مكتبة مصر •
- جرين ، ماجورى : هيدجر ، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد • بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر • بدون تاريخ •
- جعفر آل ياسين (دكتور) : فيلسوفان رائدان ـ الكندى والفارابى • بيروت ، دار الأندلس ، ١٩٨٠ •
- جون ، سومر فيل : المادية الجدلية ، مقال فى كتاب فلسفة القرن العشرين •
- حسن عبد العال : التربية الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى • القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٧٨ •
- الخوانسارى ، محمد باقر الموسوى : روضات الجنات فى أحوال العلماء والسادات ، ط ٢ • طبعة حجر ، ١٩٦٧ •
- دائرة المعارف الاسلامية ، اعداد ابراهيم زكى خورشيد وزميليه • القاهرة ، دار الشعب ، ١٩٦٩ وما بعدها ـ مادة أخلاق ، العدد ١٤ •
- دور كايم ، اميل : التربية الأخلاقية ، ترجمة الدكتور السيد محمد بدوى القاهرة •

● دى بور : تاريخ الفلسفة فى الاسلام ، ترجمة دكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة ، ط ٤ · القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٧ ·

● رسل ، برتراند : تاريخ الفلسفة الغربية ، الكتاب الأول ، ط ٣ ، ترجمة دكتور زكى نجيب محمود · القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٧٨ ،والكتاب الثالث ، ترجمة دكتور محمد فتحى الشنيطى · القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٧ ·

: التربية والنظام الاجتماعى ، ترجمة سمير عبده · بيروت ، دار مكتبة الحياة · بدون تاريخ ·

: فى التربية ، ترجمة سمير عبده · بيروت ، دار مكتبة الحياة · بدون تاريخ ·

: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة ، ترجمة عبد الكريم احمد · القاهرة ، مكتبة الانجلو ، ١٩٦٠ ·

● الزرنوجى ، برهان الاسلام : تعليم المتعلم طريق التعلم · القاهرة ، مكتبة صبيح ، ١٩٥٦ ·

● زكى نجيب محمود (دكتور) : تجديد العقل العربى ، ط ٤ · بيروت ، دار الشروق ، ١٩٧٨ ·

● سارتر ، جان بول : الوجودية مذهب انسانى ، ط ٤ ، ترجمة عبد المنعم الحفنى ، ١٩٧٧ ·

- سيد احمد عثمان (دكتور) : التعلم عند برهان الاسلام الزرنوجى • القاهرة ، مكتبة الأنجلو ، ١٩٧٧ •

- السيوطى ، جلال الدين : صوت المنطق والكلام ، نشرة دكتور على النشار • القاهرة ، الخانجى ، ١٩٤٧ •

- الشهرزورى : نزهة الأرواح ، مخطوط مصور جامعة القاهرة ، رقم ٢٤٠٣٧ •

- الشوكانى ، محمد بن على : أدب الطلب ، تحقيق عبد الله الحبشى • صنعاء ، مركز الدراسات والبحوث اليمنية ، ١٩٧٩ •

  : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، ٢ ج • القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٣٤٨ هـ •

  : قطر الولى على حديث الولى أو ولاية الله والطريق اليها ، تحقيق وتقديم دكتور ابراهيم ابراهيم هلال • القاهرة ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٧٩ •

- العامرى ، أبو الحسن محمد بن يوسف : كتاب الاعلام بمناقب الاسلام ، تحقيق دكتور احمد عبد الحميد غراب • القاهرة ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ •

- عبد الرحمن بدوى (دكتور) : فلسفة الدين والتربية عند كنت • بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٠ •

: مدخل جديد الى الفلسفة · الكويت ، وكالة المطبوعات ، ١٩٧٥ ·

- عبد العزيز عزت (دكتور) : ابن مسكويه ـ فلسفته الأخلاقية ومصادرها · القاهرة ، الحلبى ، ١٩٤٦ ·

- عبد الله ناصح علوان : تربية الأولاد فى الاسلام ، ٢ ج · ط ٣ · بيروت ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨١ ·

- على القاضى : أضواء على التربية فى الاسلام ، القاهره ، دار الأنصار ، ١٩٧٩ ·

- الغزالى ، أبو حامد : أيها الولد المحب ، تحقيق عبد الله احمد أبو زينة ، ط ٣ · بيروت ـ القاهرة ، دار الشروق ، ١٩٨٠ ·

: المنقذ من الضلال ، تقديم دكتور عبد الحليم محمود ، ط ٣ · القاهرة ، مكتبة الانجلو ، ١٩٦٢ ·

- الفارابى ، أبو نصر : الابانة عن غرض أرسطوطاليس فى كتاب ما بعد الطبيعة ·القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٩٠٧ ·

: رسالة فى أعضاء الانسان ، ضمن رسائل نشرها دكتور عبد الرحمن بدوى · بنغازى ، منشورات الجامعة الليبية ، ١٩٧٣ ·

- فتح الله خليف (دكتور) : فلاسفة الاسلام · الاسكندرية ، دار الجامعات المصرية ، ١٩٧٦ ·

- فؤاد زكريا (دكتور) : الجذور الفلسفية للبنائية — حوليات كلية الآداب جامعة الكويت · الحولية الأولى ، ١٩٨٠ ·

- الكندى ، أبو يوسف : الحيلة لدفع الأحزان ، ضمن رسائل نشرها الدكتور عبد الرحمن بدوى · بنغازى ، منشورات الجامعة الليبية ١٩٧٣ ·

: الرسائل الفلسفية ، ج ١ ، تحقيق دكتور محمد عبد الهدى أبو ريدة · القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٥٠ ·

- محمد ثابت الفندى (دكتور) : مع الفيلسوف · بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٠ ·

- محمد حسن أحمد الغمارى (دكتور) : الامام الشوكانى مفسرا · جدة ، دار الشروق ، ١٩٨١ ·

- مسكويه ، أبو على : تجارب الأمم ، ج ٦ ، تحقيق آمدروز · القاهرة ، مطبعة شركة التمدن الصناعية ، ١٩١٥ ·

: تهذيب الأخلاق · القاهرة ، مكتبة صبيح ، ١٩٥٩ ·

: جاويدان خرد ـ الحكمة الخالدة ، تحقيق دكتور عبد الرحمن بدوى . القاهرة ، مكتبة النهضة ، ١٩٥٢ .

- مسكويه والتوحيدى : الهوامل والشوامل ، تحقيق احمد آمين والسيد احمد صقر . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥١ .
- مصطفى عبد الرازق : فيلسوف العرب والمعلم الثانى . القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٩٤٥ .
- محمد عاطف العراقى (دكتور) : مذاهب فلاسفة المشرق ، ط ٤ . القاهرة دار المعارف ، ١٩٧٥ .
- محمد عبد الله دراز : كلمات فى مبادىء علم الأخلاق . القاهرة ، المطبعة العالمية ، ١٩٥٣ .
- محمد على ابو ريان (دكتور) : تاريخ الفكر الفلسفى فى الاسلام . الاسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٠ .

: الفلسفة أصولها ومبادئها . الاسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٧٨ .

- محمد فتحى الشنيطى (دكتور) : المعرفة ، ط ٣ . القاهرة ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٦٢ .
- محمد متولى الشعراوى : منهج التربية فى الاسلام . القاهرة ، دار المسلم ، ١٩٧٦ .

● محمـد الهـادى عفيفى (دكتـور) : الأصـول الفلسفية للتربية · القاهرة ، مكتبة الأنجلو ، ١٩٧٦ ·

● منتخب (١) صوان الحكمة للسجستـانى ، مخطوط مصور بدار الكتب ، رقم ح ٦٦٤٣ ·

● موسى الموسوى (دكتور) : من الكندى الى ابن رشـد ، ط ٣ · بيروت ، منشورات عويدات ، ١٩٨٢ ·

● هادفيلد ، ج· أ · : الطفـولة والمراهقة ، ترجمة احمـد شوكت و عدنان خالد · بغداد ، جامعة الموصـل ، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر ، ١٩٧٦ ·

● ياقوت الرومى : معجم الأدبـاء ، جـ ٥ · القاهـرة ، دار المأمون ·

* El - Ehwany, Ahmed Fouad : Islamic Philosophy. Cairo, Anglo - Egyptain Bookshop, 1957.

* Plato : The Republic, translated into English by J. L. Davies & D. J. Vaughan. London, Macmillan, 1950.

* Zeller, Eduard : Outlines of the History of Greek Philosophy, translated by L. R. Palmer. London, Routledge & Kegan, 1969.

الفهرس

مطبعــة التقــدم
عبد القادر محمد التونى
٢١ ش سيزوستريس ـ الاسكندرية
ت ٨٠٦٠٥٤